منهج

العلّامة المُفسّر الشّيخ

رشيد الخطيب الموصلي

في تفسير القرآن الكريم

□ منهج العلامة المفسر الشيخ رشيد الخطيب الموصلي
في تفسير القرآن الكريم
تأليف : الدكتور خالد محمد حماش
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

منهج

العلّامة المُفسّر الشّيخ

رشيد الخطيب الموصلي

في تفسير القرآن الكريم

تأليف

الدّكتور خالد محمّد حمّاش

اعتنى به

مجد أحمد مكيّ

أروقة

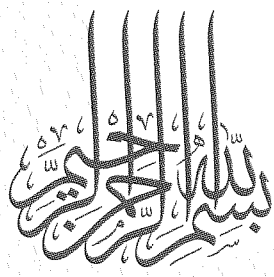
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العراق الـمجاهد الصَّـابر
الذي أَنِـست فيه بعـد وحشـة
وعرفت فيه الوطنَ بعد الغربة
وعوَّضني الله فيـه بأهلي أهـلاً

خالد

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فإنَّ من نعم الباري عزَّ وجلَّ أنْ خصَّ هذه الأمة بتبليغ هذه الرسالة الخاتمة، التي أتمَّت كل الرسالات قبلها، وأنزل القرآن عربياً مبيناً فشرّف وخلّد لغتها... ولما كان هذا القرآن كلام الله المبين وحماه الأمين فقد كنت وما زلت أستظلُّ بظله، وأنهل من نبعه، وأقتبس من أنواره، وأرتشف رشفات من سرِّ إعجازه وروعة بيانه، وكنت أطمح أن أتم دراستي العليا في موضوع قرآني، وبعد التأمل والتفكير، والمشاورة التقت رغبتي هذه رغبة أستاذي الدكتور كاصد ياسر الزيدي في دراسة تفسير لعالم جليل من علماء الموصل المعاصرين، ألا وهو الشيخ رشيد الخطيب، إذ وجدت في هذه الدراسة بُغْيتي في درس القرآن، فضلاً عمَّا فيها من إحياء لذكرى هذا العالم الذي كان له فضل في الحركة العلمية والأدبية والإصلاحية المعاصرة في الموصل، كما أنه يُعدُّ آخر المفسرين المعاصرين في العراق ممن لهم تفسير كبير تام، جمع صفات الحداثة إلى العناية بالتراث.

ولذلك عقدت العزم وتوكَّلت على الله لدراسة تفسيره المسمَّى: «**أولى ما قيل في آيات التنزيل**» وبيان منهجه في رسالتي التي جعلتها في تمهيد وستة فصول.

تناولت في التمهيد حياة الشيخ رشيد، اسمه ونسبه، وولادته ونشأته، وثقافته وشيوخه، وأشهر تلامذته، وعقيدته ومذهبه، ومصنفاته التي أحصيتها باذلاً في ذلك الوسعَ، متابعاً إياها في مظانِّها في الموصل، لدى أقاربه وتلاميذه، وفي المكتبات العامة والخاصة في المدينة، وجلّ كتبه مخطوط، وأنهيت التمهيد بالحديث عن أخلاقه ووفاته.

وتناولت في الفصل الأول (**مصادر تفسيره**)، بيّنت فيه أنه رجع إلى مصادر عدَّة متنوعة منها في التفسير على اختلاف مذاهب مصنفيها وعصورهم، ومنها كتب في معاني القرآن، وكتب في أحكام القرآن، وكتب في الحديث، وكتب في اللغة والنحو والبلاغة، فضلاً عن مصادرَ أخرى متفرقةٍ في أصول الفقه والعقائد والتاريخ والفلسفة.

وجعلت الفصل الثاني (**التفسير النقلي**) ثلاثة مباحث، أولـها: تفسير القرآن بالقرآن، والثاني: تفسير القرآن بالسنة وما يتضمَّنه من آثار في أسباب النزول والناسخ والـمنسوخ، والثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، مع بيان موقفه من الإسرائيليات.

وبنيت الفصل الثالث (**التفسير العقلي**) على ثلاثة مباحث أيضاً، أولها: في مظاهر التفسير العقلي، وثانيها: تأثره بمدرسة محمد عبده، حيث ثبت لديّ أنه أحد أتباع هذه المدرسة، وثالثها: ما تفرّد به أو أغرب من تأويل.

وخصصت الفصل الرابع لموضوع (**القراءات**)، وجعلته على مبحثين: أحدهما: مقدمته في القراءات، وكان تحليلاً لما كتبه الشيخ في مقدمته عن القراءات والأحرف السبعة، والآخر: القراءات وتوجيهها، متناولاً ما أورده الشيخ في تفسيره من قراءات مشهورة وغير مشهورة من الآحاد والشواذ، مع توجيهه لها توجيهاً قائماً على أسس متنوعة: معنوية، ونحوية، وصرفية.

وجعلت الفصل الخامس في (**اللغة والنَّحو والصَّرف**) مفرداً لكلِّ مادة من هذه المواد مبحثاً خاصاً بها.

أما الفصل السادس (**البلاغة**) فقد جعلته في مدخل عن موقف الشيخ من الإعجاز القرآني، وثلاثة مباحث موزعة على علومها الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع.

وقد اعتمدت عدداً كبيراً من المصادر المتنوعة في هذه الدراسة، منها: كتب التفسير للطبريِّ، والزمخشريِّ، والطبرسيِّ، والرَّازيِّ، ومحمد عبده، ورشيد رضا، التي كان لها دور كبير في الكشف عن الوجوه المنقولة والمعقولة التي اعتمدها الشيخ في تفسيره كما كان لهذه التفاسير دور كبير في هدايتي إلى الآراء التي نقلها الشيخ أو ارتآها من تفاسير مفقودة، كتفسير أبي مسلم، والجبائي، والبلخي، والقفال.

وفي موضوع القراءات القرآنيَّة، أفدت من عدد من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع منها، كتاب «السبعة» لابن مجاهد، و«الحُجَّة في القراءات وعللها»، و«المختصر في شواذِّ القرآن» لابن خالويه، و«المحتسَب في القراءات الشواذ» لابن جني، و«النشر» لابن الجزري وكان لكتابَيْ: «نكت الانتصار لنقل القرآن» للباقلاني، و«المرشد الوجيز» لأبي شامة المقدسي دور كبير في توضيح مسألة جمع القرآن والأحرف السبعة والقراءات القرآنية.

واعتمدت في اللغة والنحو والصرف عدداً من المصادر أهمها: «الكتاب» لسيبويه، و«ارتشاف الضَّرَب» لأبي حيان الأندلسي، و«البيان في غريب إعراب القرآن» لابن الأنباري، و«مفردات ألفاظ القرآن» للراغب.

وفي البلاغة أفدتُ من كتابَيْ: «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة» للجرجاني،

و«مفتاح العلوم» للسكاكي، و«الإيضاح» للقزويني، فضلاً عن عدد من كتب المُحْدَثين في عدد من الموضوعات التي سعى فيها البحث.

ولم ألق في بحثي هذا بفضل الله صعوبات تستحقُّ الذِّكر، سوى أن قرب العهد بوفاة الشيخ أملى عليّ أن أحصل على ما يتعلق به من أفواه من تلمذ له، أو أخذ عنه، أو كان من أقاربه، فكان لابد لي أن أسعى من أجل ذلك أسمع منهم وأسائلهم وأقرأ ما عندهم.

كما أنني لم أكن أعلم في البداية أن آثار الشيخ غير المطبوعة موزّعة بين حفيده المهندس أثيل عبد العزيز النُّجيفي، وتلميذه الشيخ إبراهيم النعمة، فعوّلت على ما وجدته عند حفيده، فافتقدت عدداً من المخطوطات التي كان الشيخ قد أشار إليها في أوراقه، وجهدت في البحث عنها، وكدت أفقد الأملَ بالعثور عليها، إلى أن أطلعني الشيخ إبراهيم النعمة على عدد من مصنَّفات الشيخ المخطوطة، التي اختصّه بها في حياته ممّا جعلني أعيد النظر فيما كتبت بناءً على ما استجدّ من آثار ومعلومات.

ولا بد لي أن أتقدَّم بالشكر الجزيل إلى كل مَنْ مدَّ لي يدَ المساعدة، وساهم في هذا العمل المتواضع، وأخصُّ بالذِّكر أستاذي وشيخي الشيخ ذنون البدراني الذي أفسح لي فرصة قراءة قسم من تفسير الشيخ رشيد عليه، ممَّا ذلّل لي الكثيرَ من الصعاب، وأوضح لي الكثيرَ من المسائل، كما أخصُّ بالشُّكر والتقدير الشيخ إبراهيم النعمة الذي فتح لي مكتبته، وغمرني بحسن خلقه، فكان لي خير عون ودليلاً على إتمام هذا البحث، وأتوجَّه بالشُّكر الجزيل للأستاذ أثيل عبد العزيز النُّجيفي المؤتمن على قسم كبير من إرث جده العلمي، الذي أطلعني على ما بحوزته من آثار الشيخ رشيد، فانتفعت به أيّما انتفاع. وأذكر بالثناء والتقدير العاملين في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية على تعاونهم معي وتيسير الأمر لي.

وأتوجّه بالشكر والتقدير إلى رئيس قسم اللغة العربية أستاذي الدكتور عبد الوهاب العدواني الذي لم يألُ جهداً في نصحي وإرشادي ومساعدتي، وإلى أستاذي الدكتور جليل رشيد، الذي شملني بعطفه وإرشاده وجميل أخلاقه[1]، وإلى أستاذي الدكتور طارق عبد عون الجنابي الذي يجد سلوته وبهجته في مساعدة طلابه وإرشادهم.

أما أستاذي الدكتور كاصد ياسر الزَّيديُّ الذي تفضَّل بالإشراف على رسالتي، فإنني أجدني عاجزاً عن التعبير عمَّا يختلج في صدري له من حبّ وتقدير، لما بذله في رعاية هذه الرسالة وتوجيه صاحبها، وقراءتها مراراً، فصلاً فصلاً، وما أظنني قادراً على الوفاء بما له عليّ من يد، فاللهَ أسأل أن يجعل جهده هذا نوراً يسعى بين يديه في الدنيا والآخرة، وأن يجزيَه عنِّي خيرَ الجزاء، وأن يجعل هذا العمل مقبولاً لوجهه الكريم، عسى أن أكون وأستاذي، ومن كان له جهد في هذا البحث قد سددنا به ثغرة، أو أدّينا به أمانة لعالم جليل كريم في هذه المدينة الكريمة.

❊ ❊ ❊

(١) وافته المنية عام ١٩٩٤ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وللأمانة لابد لي أن أذكر أنه زارني في بيتي قبل وفاته بيوم واحد بصحبة أخ ليدله على البيت لأنه لم يكن قد زارني من قبل، وعند مغادرته عانقني بحرارة وطلب مني أن أسامحه فتعجبت أشدَّ العجب من صنيعه وما زال عجبي إلا عندما سمعت بعد عدة أيام أنه توفي في فجر اليوم التالي، وقد فعل هذا مع عدد كبير من إخوانه وزملائه وتلاميذه رحمة الله عليه.

تـمهيد

حياته

١) اسمه ونسبه وأسرته:

هو الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، بن العلامة صالح الخطيب، بن الحاج طه [البزّاز] الطائي الخطيب بن الحاج [صالح بن الحاج][١] محمود بن الحاج مراد الطائي الحرثي نسباً وقبيلةً[٢]. فهو إذن من قبيلة طيِّئ العربية المعروفة. ويقال: إن أحد هؤلاء الأجداد جاء من سوريا[٣].

اكتسبت الأسرة لقب الخطيب من جدِّ الشيخ الحاج طه، الذي كان مشهوراً

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة مني، استفدتُهما ممَّا كتبه الأستاذ قُصَيّ حسين آل فرج، مدير المكتبة المركزية العامة بالموصل في مقالته: «صفحات من حياة الشيخ رشيد أفندي الخطيب»، ص٣٢ ضمن «ندوة الشيخ رشيد أفندي الخطيب ودورُه الإصلاحي في الموصل» (مجد).

(٢) مخطوط للشيخ رشيد يعرف به نفسه، ويعدد مؤلفاته، مؤلف من أربع صفحات وعليه توقيعه ص١، وهو محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي.

(٣) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٦، مطبوعة عام ١٩٧٩، مطبعة الجمهورية، الموصل.

قلت: كان مجيء هذه العائلة الكريمة إلى الموصل بعدَ انتصارِ المواصلة بقيادة الحاج حسين باشا الجليلي في معركتهم سنة ١١٥٦هـ الموافق ١٧٤٣م المسمَّاة: «هجوم وحصار نادر شاه لمدينة الموصل».

بالخطابة والذي «كانت له لهجة خاصة في خطاباته ذات روعة وجلالة وتأثير عميق في النفس وهزة في القلب، تملك المشاعر وتعبث بالأرواح وتستولي على الأفئدة»[١].

وأما نسبته: الموصلي، الذي يحرص على إلحاقها باسمه[٢] في كل كتاباته ومؤلفاته فيبدو اعتزازاً منه ببلده، الذي لقّب به قبله غير واحد من أهل العلم.

وقد أثبت الشيخ رحمه الله اسمه في مؤلفاته وفي ترجمته لنفسه (رشيد الخطيب الموصلي) وهو الذي اخترته، على حين ورد في كتاب «تاريخ علماء الموصل»[٣]: محمد رشيد الخطيب، وفي إجازة العالمية التي نالها الشيخ من شيخه محمد الرضواني: رشيد الدين الخطيب. ويبدو أن تصديره باسم الرسول الأعظم ﷺ وإضافته إلى الدِّين، إنما أريد به التبرك والتفاؤل، كما جرت العادة في بيئاتنا، كقولهم: محمد صالح، ومحمد حسن، ومحمد علي...

ترجم الشيخ رشيد لجدِّه **طه الخطيب**، ولوالده **صالح الخطيب** فذكر عن جدِّه فضلاً عمَّا أوردته عنه آنفاً من براعته في الخطابة: «أنّه كان رجلاً مهيباً وقوراً، وشهماً أَنِفاً وغيوراً، ذا مكانة في قومه»[٤].

ولم يُشِر إلى مكانة هذا الجد العلميَّة، ولا إلى ماهيَّة ونوع الخطب التي كان يؤديها، كما لم أعثر على بيان لها لدى غيره، غير أنها على أية حال نالت ـ على ما يبدو ـ إعجاب

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد ترجم فيه لنفسه، ولشيخه ولأبيه وجده، يقع في ١٠ صفحات، محفوظ عندَ حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي ص٤.

(٢) لقب به نفسه في عنوان تفسيره وبقية مؤلفاته، وكان يحرص عليه كثيراً كما أعلمني بذلك أقاربه، ومنهم: ابن أخيه المحامي سامي الخطيب.

(٣) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار ص٨٣.

(٤) رشيد الخطيب، ترجمة لنفسه ولشيخه وأبيه وجده ص٤.

معاصريه، حتى إنَّ الشيخ عثمان الموصلي كان يقلدها[١]. فإذا حملنا خطبه على العموم ولم نخصصها بالجُمَع وحدها، فيحتمل أنه لم يكن عالماً، ويُقوّي هذا الترجيح أن الشيخ صالح الخطيب والد الشيخ رشيد لم يدرس على والده طه الخطيب على عادة العلماء في كل عصر. وكثير من الخطباء في العصور المتأخرة لم يكونوا علماء. على أنَّ أحمد محمد المختار قد ترجم لطه الخطيب بين علماء الموصل[٢]. وليس فيما أورده ما يدلُّ على عالميَّته، بل إن الشيخ رشيد لم يلقبه بلقب الشيخ ولا العالمية حين ذكره في سلسلة آبائه، بل اكتفى بلقب (الحاج) فضلاً عن عدم تلقيبه بلقب (الأفندي) الذي كان يلقب به علماء تلك الأيام.

أما والد الشيخ رشيد؛ فهو عالمٌ كبير، وقد وصفه حين ترجم له بأنه: «العالم النحرير والعلامة الجليل الشيخ صالح أفندي ابن الحاج طه الخطيب، درس العلوم على أوحد زمانه وفريد أوانه الشيخ عبد الله أفندي العمري[٣] الملقب برئيس العلماء في الموصل الحدباء... وأعطاه الإجازة العالِيَّة، وكان عمره إذ ذاك نيِّفاً وعشرين سنة»[٤].

وكان قد اتخذ لنفسه مدرسة[٥] في داره (الحوش الخارجي) ووضع في جدارها

---

(١) رشيد الخطيب، ترجمة لنفسه ولشيخه وأبيه وجده، ص٤.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (١: ٩٤).

(٣) عالم فاضل من علماء الموصل لقبه السلطان عبد الحميد (باشعالم). «رسالة في مواضيع مهمة»، ص٦٨.

(٤) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب، ص٦٨.

قلت: حصل على الإجازة سنة ١٢٦٧ وهو في العشرين من عمره، وقد أخطأ المختار في كتابه «تاريخ علماء الموصل» (١: ٩١) حيث ذكرَ أنَّ إجازته للشيخ صالح كانت سنة ١٢٧٦هـ (مجد).

(٥) رجح الأستاذ قصي آل فرج مدير المكتبة المركزية العامة بالموصل في مقالته: «صفحات من حياة الشيخ رشيد أفندي الخطيب»، ص ٣٣ أن باني هذه المدرسة التي موقعها في منطقة الحويرة =

لوحة قُبالَةَ الباب من الرخام كتب عليها بيده هذه العبارة بالخط الجليّ: ـ محلٌّ للتدريس وللعلم عُمِّر ـ وهو تاريخ لبنائها، وكان ذلك سنة ألف ومئتين وثمان وتسعين[١]. وقد سكت الشيخ رشيد على الخلل اللغوي في هذه العبارة، ويبدو أنهم كانوا يستجيزون مثل ذلك، حين يقصد بالعبارة التاريخ بالحروف المعروف بـ(حساب الجُمّل) فلو قوّمنا تركيب العبارة لاختلف التاريخ.

وكان الشيخ صالح الخطيب قد اتخذ فيها مكتبة عامرة تحوي أنواعاً من الكتب في شتى العلوم مخطوطة ومطبوعة»[٢].

وقد أجاز عدداً من العلماء منهم: الشيخ محمد الرضواني[٣]، أستاذ الشيخ رشيد.. «ومن الكلام التاريخي للشيخ محمد الرضواني عن صاحب الترجمة قوله لولدَيْه: سعد الدين الخطيب، ورشيد الخطيب، عندما أعطاهما الإجازة العالمية: (هذه بضاعتكما رُدَّت إليكما)، رامزاً إلى مكانة استفادته من هذا الشيخ الجليل»[٤].

= بباب الجديد هو الحاج صالح الأول بن الحاج محمود القادم من سوريا. وقد كتب على بابها: «عُمِّرَ للتدريس والإفاده»، وهي بحساب الجُمَّل: ١١٧٢ (مجد).

(١) المصدر نفسه ص٦٦-٦٧.

قلت: وهذا التاريخ يدلّ على أنَّ الشيخ محمد صالح الخطيب الثاني هو الذي خصَّص إحدى الغرف محلًّا للمدرسةِ ووضع فيها مكتبة عامرة، فيكون الشيخ المذكور هو المؤسس للمكتبة عام ١٢٩٨هـ الموافق عام ١٨٨٠م، أي: بعدَ حصولِه على الإجازة العلميَّة من شيخِه رئيس العلماء عبدِ الله العمريّ الموصليّ سنة ١٢٦٧ (مجد).

(٢) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٧.

(٣) أجاز الشيخُ محمد صالح تلميذَه محمدَ بن عثمان الرضواني عام ١٣٠٥، واختتم موافقتَه بكونِه سلفيَّ المعتقَد كما في نصِّ إجازتِه له. ينظر: «الإمداد» (٧: ١٢٨) للشيخ أكرم عبد الوهاب (مجد).

(٤) مخطوط للشيخ رشيد، تراجم مختلفة ص٦-٧. وينظر: بحث عبد الوهاب الكحلة: رشيد الخطيب مفسِّراً، «مجلة الرسالة الإسلامية» ص٨٨، عدد ١٦٤-١٦٥، ١٩٨٤.

وللشيخ صالح مؤلف في المعاملات الفقهية، جمع فيه كل شاردة مفيدة، على مثال المجلة الشرعيَّة سماه «الكشكول»، وله كتاب آخر سمّاه: «المجموعة» ضمَّ كثيراً من بنات أفكاره في حلِّ الألغاز والمشكلات.

وكانت وفاة الشيخ صالح الخطيب رحمه الله في سنة ١٣٠٦ للهجرة، الموافق لسنة ١٨٨٩ للميلاد[١].

٢) ولادته ونشأته:

في ذلك البيت الذي اتَّخذ الشيخ صالح الخطيب جانباً منه مدرسةً ومناراً للإفادة، وفي ذلك الكنف الصالح والبيئة المزدانة بحبِّ العلم والعلماء، ولد الشيخ رشيد الخطيب ليلة الجمعة آخر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ للهجرة، الموافقة لسنة ١٨٨٦ للميلاد من أبوين صالحين كريمين، فأبوه من قد عرفنا وهو الشيخ صالح، وأمه بنت الشيخ محمد نوري العمري[٢]، التي قال فيها الشيخ عبد الله النوري، بمناسبة زواجها، واصفاً إيّاها بأنها بنت شيخ العصر ومخاطباً زوجها:

أيّها الحَبْر[٣] الذي نالَ العُلا ... إذْ غَدا في العلمِ بين الناسِ ناجحْ

نِعْمَ بِنتاً قد تزوّجْتَ بها ... ما بِها نقصٌ ولا تُرمَى بِفادِحْ

---

(١) ينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٦: ٢٥٣)، (٧: ٢١٥)، (٨: ٤١).
قلت: وُلدَ العالم النحرير محمدُ صالح الخطيب عام ١٢٤٧هـ الموافق ١٨٣٩م، وتوفي عام ١٣٠٦هـ عن ٥٩ عاماً رحمه الله تعالى (مجد).

(٢) العلامة المفسِّر الشيخ محمد نوري القادري الموصلي، الشهير بالنوري (١٢٣٨ - ١٣٠٥) عن ٦٧ عاماً رحمه الله تعالى (مجد).

(٣) في الأصل: (يا أيها)، والصحيح ما أثبت، لأن البيت من الرمل، لا الكامل.

بنتُ شيخ العَصْرِ ذي التّقوى الذي ... فضلُه بين الورى كالشَّمسِ واضحْ
فهَنيئـاً لـك فيهـا ولْـتكُنْ ... أنت يا صالحُ في ذَا العُرسِ رابحْ
قـد دعـوتُ الله ربَّ العـرشِ أنْ ... لمْ تزَلْ في السَّعدِ طولَ العمرِ ناجحْ
وبهـا لـمَّا بَنـى حظُّـكَ قـد ... أرِّخِ: (البَاني بهذا العُرسِ صالِحْ)

وقد تُوفيت هذه المرأة الفاضلة سنة **١٣٥٨** للهجرة، فعزّاه أحد الأشراف ببيت المتنبي[١]:

ولَـو كـانَ النسـاءُ كَمَـنْ فَقَـدْنا ... لَفُضِّـلتِ النسـاءُ عـلى الرِّجـالِ

قال الشيخ: أظنني قلت له:

وهل يُنْبتُ الخطـيُّ إلا وَشـيجَهُ ... وتُغرسُ إلا في منابِتِها النَّخْـلُ[٢]

إذن فقد هيَّأ الله لشيخنا كرم الغرْس وطيب المنْبت، وكانت نشأته صالحة برغم فقده والده ولمّا يتجاوز الثالثةَ من العمر، ولكن الغِراسَ الطيبةَ التي خلَّفها أبوه في الأهل والبلد، كانت خير عوض وبديل له في ولده، ولنستمع إلى الشيخ يحدثنا عن ولادته ودراسته ونشأته، فيقول: «كانت ولادتي سنة **١٣٠٣**هـ، وبعد أن درست القرآن دخلت الكُتَّاب، فتعلَّمتُ الكتابةَ والقراءة، ثم قرأت مبادئ العلوم على بعض علماء الموصل، حتى إذا تذوقت طعم العلم، لازمتُ تدريس الأستاذ الشيخ محمد الرضواني[٣]، الذي يغني اسمُه عن وصفه، ولم أزل أدرس عليه العلوم المقرَّرة في المدارس الأهلية حتى أكملت المنهج المعروف للعالِية، وأخذت منه الإجازة العالمية، وكان ذلك سنة **١٣٢٩**

---

(١) وهو في «شرح ديوانه» للواحدي ص١٩٨. (مجد).
(٢) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٩.
(٣) سنأتي على التعريف به لاحقاً ت١٣٥٧ هجرية.

هجرية، فقد قرأت عليه العلوم العربية؛ النحوَ والصَّرْفَ والبلاغةَ، ثم قرأت عليه المنطق والكلام وأصولَ الفقه والحديث والفرائض»[١].

وكان تاريخ منح الإجازة في عدة مصادر سنة **١٣٣١** للهجرة، حيث جرى احتفال بمناسبة منحه وأخاه سعد الدين[٢] إيّاها، وهو عرف شائع إذ ذاك فيما يبدو، وفيها ألقى عثمان الموصلي[٣] قصيدة ختمها ببيت يؤرخ فيه الحفل سنة **١٣٣١** للهجرة هو:

نُعماكَ يا ذا الفضْلِ نـادَتْ أرِّخُـوا (حُزتَ المُنى بإجازة الأَخَوَينِ)[٤]

والتاريخ الثاني هو الأشهر حتى إنَّ الشيخ رشيد قد أرَّخ تاريخ حصوله على الإجازة في بعض أوراقه به فضلاً عن نصِّ الإجازة الذي بخط شيخه محمد الرضواني، ومن المحتمل أن يكون الشيخ رشيد قد أتمَّ مستلزمات الإجازة في **١٣٢٩** للهجرة، وأخَّر الاحتفال والمنح الرسمي لها مراعاةً لشعور أخيه الأكبر سعد الدين، ولا غَرْوَ، فقد كان في إقبال الشيخ رشيد على العلم واستعداده ما يقرب هذا الاحتمال، وهذا ما

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف به نفسه ص١، محفوظ عند حفيده أثيل.

(٢) عالم فاضل عمل إماماً ومدرساً، توفي سنة ١٣٧٦هجرية، وهو يكبر أخاه الشيخ رشيد بثماني سنوات. ينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٨: ٤٥).

(٣) عالم فاضل وموسيقي بارع، كان وحيد عصره في التجويد (ت١٣٤١هـ). «تاريخ علماء الموصل» (١: ١٨). «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٧: ٣٠٧).

(٤) الشيخ إبراهيم النعمة، مقال عن رشيد الخطيب في مجلة إحياء التراث العربي الإسلامي، العدد ١٦، ص١٦٣. وينظر: عبد الوهاب الكحلة، الشيخ رشيد الخطيب الموصلي... مفسراً، بحث منشور في مجلة الرسالة الإسلامية ص٨٨، العددان ١٦٤ - ١٦٥، السنة السابعة عشرة كانون الأول ـ كانون الثاني ١٩٨٤.

أثبتته الأيام، إذ كان للشيخ رشيد دور أكبر من أخيه الشيخ سعد الدين في هذا المضمار، عليهما رحمة الله ورضوانه.

ومن طريفِ ما حصل في هذا الحفل الذي منح فيه الشيخ محمد الرضواني وَلَدَي شيخه الشيخ صالح الخطيب الإجازة العالمية أنَّ الشيخ عثمان الموصلي افتتح الحفل بتلاوة من القرآن فقرأ من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ...﴾ [الآية: ٨٢]، ووقف عند قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فكبَّر الناس متعجِّبين من روعة الموافقة بين حال هذين الشابين اليتيمين، وقد احتفظ شيخهما بكنز أبيهما من العلم ورعاهما بعد موته وعلّمهما حتى أوصلهما إلى درجة العالمية، وأنّ أباهما كان اسمه صالحاً. وعندما تقدّم الشيخ ليمنحهما الإجازة قال لهما: «بضاعتكما رُدَّت إليكما».

٣) ثقافته وشيوخه وطائفة من تلاميذه:

أ) ثقافته وشيوخه:

كان الشيخ رشيد أثناء دراسته على الشيخ محمد الرضواني يختلف إلى الأستاذ أمجد (بك) العمري، فيدرس عليه شيئاً من مبادئ الحساب والجبر والهندسة والفلك. يقول: «فأخذت ما ينفعني في حياتي العالمية، وما لا بد منه لمثلي ممَّن يحاول التجدُّد والتَّجديد في هذا المسلك»[1].

---

(١) مخطوطة للشيخ رشيد يترجم فيها لنفسه ص١.

قلت: توفي العلامة الشيخ أمجد العمري سنة ١٩٥٣م، وتلقّي الشيخ رشيد عن العمري وعنايته بعلم الفلك منذ مطلع شبابه جعله خبيراً بمواقع النجوم. وقد أصدر سنة ١٩١٥م بمشاركة شقيقه سعد الدين جدولاً دورياً للأوقات الشرعيَّة الخمسة للصلاة في الموصل، واحتوى الجدول على تنبيهات حول كيفية استخدامه، وطريقة استخراج سَمْت القبلة في الموصل. وقد =

وهذا المنهج الدراسي الذي انتهجه الشيخ، يدلُّ على روح تنزع منذ وقت مبكر إلى التجديد، وتتطلع إلى التغيير نحو ما هو أفضل، وعدم الرضا بأساليب ومناهج الدراسة القديمة. ويبدو أن لهذا أثراً بتعلُّقه وافتتانه بالكتابات الجديدة الوافدة من مصر، التي كانت سبَّاقة إلى الاتصال بالحضارة الغربية، بالإفادة منها، ويبدو من كلامه أنه عمد إلى تجديد ثقافته منذ بداية العشرينيات ـ حيث بداية الحكم الوطني ـ بألوان من الثقافة. ولذلك نراه يقول: «وبعد أن تشكَّلت الحكومة العربية العراقية، وردت علينا الكتب المصرية بسائر أنواعها، فاطَّلعتُ على ما لم أكن أعرفه من قبل، ولم يدر بخَلَدي وجودُ مثله من الكتب الجديدة المؤلفة في أنواع العلوم، ومن ضمنها الكتب التجديدية والانتقادية والاجتماعية وكتب الأدب، فهمْتُ بها أشدّ هيام، وأخذت أبحث عن هذه الكتب التي كنت أراها غريبة في بابها، بأساليبها ومواضيعها وفوائدها وترتيبها، إذ لم نكن نعرف مثل ذلك من قبل. وكانت لذّتي بمطالعة الكتب لا يشابهها لذة»[1].

على أنَّ الشيخ كان واعياً في اختيار ما يقرأ، يتخيَّر منه ما يلائم عقيدته وقيمه، ويقول: «فإذا بلغني أن قد أتى كتاب جديد من نوع هذه الكتب، لا ألبث أن أتصفّحه كلَّه حتى آتي على آخره، وأعي ما فيه من الفوائد الجديدة المقتبسة من المدنية الجديدة ـ إن كانت تلائم البيئة والمبدأ والدِّين ـ وقد كثرت لدينا أمثالُ تلك الكتب في هذا العهد، أو من الكتب المحوَّرة عن الكتب القديمة التي أعرفها من قبل، ولكنها قد حُوِّرت إلى صورة تناسب العصر الحاضر والروح الجديدة»[2].

= خُصِّص ريعه إلى جمعية «المدافعة الإسلامية». ينظر: «الشيخ رشيد الخطيب: دراسة في طروحاته الإصلاحية» لذنون الطائي في ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل». (مجد).

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف فيها نفسه ص١.

(٢) المصدر نفسه ص٢.

غير أنه وجد بغيته بين هذه الكتب فيما أنتجته (مدرسة الإصلاح)، إذ التقت تطلعاته أهدافَهم ومراميهم، في الحفاظ على الموروث من علومنا، والإفادة مما أنتجته الحضارة الغربية الحديثة، بوعي لا عشوائية، والتوفيق بين هذا وذاك، فيقول: «وأكثر ما كنت أرغب فيه كتب علماء الإصلاح كالأستاذ جمال الدين الأفغاني على قلّتها، والأستاذ الإمام محمد عبده، وما إلى ذلك من كتب علماء التجديد والإصلاح، حتى استفدت من ذلك علماً نافعاً، وعلواً في المدارك، ونظراً صحيحاً في الملاحظات العلمية والإصلاحية، أياً كانت والحمد لله على ذلك. ومما لا شكَّ فيه أن الانتباه ورقي المدارك إنما يكون بالمطالعات المتواصلة لمثل هذه الكتب القيمة»[١].

ثم يكشف الشيخ رشيد عن مصدر آخر مهم من مصادر ثراء ثقافته وتكوين شخصيِّته العلميَّة، وهو مهنة التدريس فيقول: «ثم إني دخلت سلك التدريس في المدرسة الثانوية، وكنت أُدرِّس فيها الآداب العربية للصف المنتهي، قضيتُ في ذلك نيفاً وعشرين سنة، لم تكن سلوتي إلا رضاء التلاميذ عني ورغبتهم في درسي، لأنهم يستفيدون منه فائدة جلّى لا ينسونها لي بعد إنهائهم دور الدراسة ودخولهم معترك الحياة»[٢].

وبذلك يتبيَّن لنا أن ثقافة الشيخ رشيد ترد من الروافد الآتية:

١ـ بيئته الدينية ودراسته الأولية للقرآن الكريم والقراءة والكتابة في الكتّاب.

٢ـ تلقيه علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، والعلوم الشرعية والعقلية.

وحين نتحدث عن شيوخ الخطيب نجد **الشيخ محمد الرضواني** في مقدمتهم،

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف فيها نفسه ص٢.

(٢) المصدر نفسه ص٢. يشهد على ذلك تلميذه اللواء الركن محمود شيت خطاب (في مقابلة معه في ٢ رمضان ١٤١٢).

ذلك الفذ الذي ما يزال شذى فضله يعبق في جنبات الموصل، وما تزال ذكراه الطيِّبة تتردَّد في آفاقها، والرحمات تتنزَّل من أفواه أهلها.

لقد جمع هذا الرجل بين العلم والتجارة، فعلَّم الناس كيف تخضع الدنيا للآخرة، وكيف تكون السماحة في البيع والشراء، وكان عطوفاً على الفقراء والمعوزين واليتامى. وكم شوهد تحت أستار الخفاء وأجنحة الظلام، يتحرّى البيوتات المعوزة، والأسر المحوجة ويواسي الذين ألـمَّت بهم النوائب[١].

ولد هذا الشيخ الجليل عام ١٢٦٩ للهجرة في مدينة الموصل ودرس العلوم المنقولة والمعقولة على الشيخ صالح الخطيب، وأخذ عنه إجازة العالِميَّة، ومن ثَمّ ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وفي أثناء طريقه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، أخذ إجازاتٍ أخرى في بعض الأدعية والأذكار، وبعد عودته وسَّع مسجد عائلته الرضوانية، واشترى دُوراً ملاصقة لهذا المسـجد، وبنى فيه مدرسة دينية، جعل فيها مكتبة.

ثم انصرف إلى التدريس فيها، فتخرج عليه عدد كبير من علماء الموصل وأفاضلهم كالحاج عبد الله النعمة، وعثمـان الديوه جي، والحاج عبد الله الحسو، وفائق الدبوني، ورشيد علي النعيمي، ورشيد الخطيب، وسعد الدين الخطيب وآخرين غيرهم[٢].

توفي الشيخ محمد الرضواني في ٧/ ٥/ ١٣٥٨ للهجرة الموافق لـ ٦/ ٧/ ١٩٣٨ للميلاد، وكان يوم وفاته عبوساً اهتزَّت له الموصل حزناً وألماً على هذا الرجل الطيب[٣].

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار ص١٤.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» ص١٢ - ١٣، ويراجع المصدر نفسه لمعرفة تلاميذ الشيخ محمد الرضواني. وينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٨: ٤٣).

(٣) المصدر نفسه (١: ١٤).

قلت: ومن أبرزِ شيوخه أيضاً: الشيخ عبد الغفور بن حسن الحبار النعيمي، والد الشيخ عبد الغني المتوفى سنة ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٩م. (مجد).

٣ـ تلقيه شيئاً من مبادئ الحساب والجبر والهندسة والفلك، وقد اطلعت على كراساته التي دوَّن فيها هذه المواد، ثم ألف بعد ذلك في بعضها، إذ سمعت من طلبته أنَّ له رسالةً في الفلك متداولة بينهم. وقد أفادته هذه الدراسة في مسلكه في التجدد والتجديد، كما يقول، ووسَّعت آفاقَ تفكيره ومداركه، وأعانته على استيعاب ما في الكتب الجديدة الآتية من الديار المصرية، من جديد المعرفة، وخاصَّة تلك التي تتَّسم بروح الإصلاح الاجتماعي وهي التي كونت أهم روافد ثقافته.

٤ـ القراءة المتواصلة وحب الاطلاع على كل جديد. ومنشأ ذلك حبُّ العلم والتحصيل الكامن في نفسه، الذي حدا به إلى أن يتفرغ للعلم وينصرف عن الدنيا.

أما نزوعه نحو التجديد في أساليب التعليم فيرجع إلى شعوره بأنَّ تعاليم الإسلام قد بدا عليها شيء من الجمود والتقليد، بسبب الفهم الخاطئ لها، ممَّا جعل المسلمين ينحدرون نحو التخلُّف على حين ترفَّل[١] الكثير من الأمم بالمدنية والرقيّ العلمي والاجتماعي والسياسي.

٥ـ ومن روافد ثقافته: تجارب التدريس، سواء ما تعلق منها بالعلوم الشرعية والعربية لتلاميذه من طلاب العلوم الدينية، أم ما تعلق بالأدب العربي وطلبة الإعدادية فضلاً عن اختياره لوظيفة التفتيش في وزارة (المعارف) سنة ١٣٤٠ للهجرة.

٦ـ ومن روافد ثقافته المهمة: عمله في عضوية المجلس العلمي لدائرة الأوقاف في الموصل. وقد شهد له رئيس هذا المجلس الشيخ يوسف الرمضاني[٢] بالألمعيّة والذكاء والتقدم على بقية الأعضاء في ذلك المجلس.

---

(١) الترفُّل: التسوُّد والترؤّس. «لسان العرب» (رفل). (مجد).

(٢) عالم فاضل وشخصية مرموقة من أسرة الرمضاني المعروفة بالعلم، توفي سنة ١٣٣٤ للهجرة.

ويبدو من كلام بعض معاصـريه أنَّ للشيخ رشيد نظرات اجتهادية في الفقه الإسلامي[١].

ويقول عنه أحمد محمد المختار وذلك قبل وفاته: «كان وما يزال في علوم العربية فارسَ الميدان... وإماماً على المذاهب الأربعة في الفقه... ولكثرة توغُّله وسعة اطِّلاعه في علم الحديث متناً وسنداً وأصولاً لا تمرّ به مسألة من مسائل الدين، على تنوّع أبواب الفقه والعقائد والاجتماع إلا وجد لها دليلاً قائماً من هدي الرسول الكريم»[٢].

وهذا الكلام يُشعِر بأن الشيخ كأنما كان يميل إلى الاجتهاد في مسائل من الشرع، باستنباطها من أدلتها الأصلية.

هذه هي روافد ثقافة الشيخ رشيد: نشأة صالحة، وإقبال على العلم مبكر، وشيوخ مرموقون، وعقلية نيِّرة متـفتِّحة، ومداومة على البحث والتنقيـر في كل ما هو مفيد وجديد.

هذه الميزات، مع قدر كبير من الإخلاص والتحمس، كوَّنت شخصية الشيخ رشيد، الذي خلّد تفسيراً للقرآن المجيد، وعدداً كبيراً من المصنفات في العلوم الشرعية وغيرها.

ب) أشهر تلاميذه:

للشيخ رشيد تلاميذ كثيرون، فقد أمضى عمراً مديداً قارب المائة في تحصيل العلم ونشره، وهو لا يجد سلوته إلا في العلم والتعليم، ونشر العلوم المختلفة بين المسلمين، لأنها ـ كما أدرك ذلك ـ السبيلُ إلى الإيمان الصحيح والحياة الكريمة، وسأكتفي بذكر

---

(١) عن تلميذه ذنون البدراني.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» (١: ٨٥).

أشهر هؤلاء التلاميذ، وخاصة من طالت صحبته وتلمذته له، دون من أخذ منه النزر اليسير.

١ـ **الشيخ إبراهيم النعمة**: ولد بالموصل عام **١٩٤٢**[١] وهو من أسرة (آل النعمة) المعروفة بالعلم والفضل، أخذ عن عدد من العلماء الأفاضل، كالشيخ علي الشمالي الضرير في جامع الخضر وجامع عبدال، ثم درس على الشيخ رشيد الخطيب لمدة خمس سنوات حصل فيها على إجازة العالمية، إذ كان موضعَ إعجاب وتقدير الشيخ رشيد له. كما تلمذ للشيخ بشير الصَّقَّال[٢] المتوفّى سنة **١٩٨٦م**[٣]، فضلاً عن دراسته في المدارس الرسميّة الحكوميّة، حتى أنهى الدراسة الإعدادية في سنة **١٩٦٤م**، ثم دخل في كلية الإمام الأعظم تخرج فيها عام **١٩٧٣**، بعد أربع سنوات[٤] من الدراسة، ثم تصدَّر للتدريس والخطابة في مساجد الموصل.

وله مؤلفات في العقائد والعبادات، وعلوم القرآن، والحديث، والفقه وهي مطبوعة ومتداولة، ومنها ما أعيد طبعه مراراً.

---

(١) الموافق سنة **١٣٦١** للهجرة، وشغل منصب رئيس جمعية الشبّان المسلمين، في الموصل، وإمام وخطيب مسجد الحاج ذياب العراقي في حي التحرير بالموصل، تعرَّض في **٣٠** حزيران **٢٠٠٦م** في مكتبة بالمسجد لعملية اغتيال ونجا منها سالماً. حفظه الله ورعاه (مجد).

(٢) عالم من علماء الموصل المشهورين، أجازه الشيخ عبد الله النعمة، وخطيب ناجح، ومجاهد باللسان، وشاعر مجيد، توفي سنة **١٩٨٦**. (العلامة بشير الصقال، اليقظة الإسلامية، جمعه وقدم له وقام بنشره: إبراهيم النعمة ص٨، ٢٨، مطبعة الزهراء ١٩٨٨).

(٣) وأجازه أيضاً الشيخ محمد إلياس العدواني المولود سنة **١٣٤٠** والمعروف بعلمه وفضله وأدبه وشعره ومؤلفاته. ينظر: «تاريخ علماء الموصل» (١: ٩٠).

(٤) هذه المعلومات أخذت منه مباشرة في لقاء معه يوم الخميس ٨: ذي الحجة: **١٤١١**.

ومِن وفائه لشيخه الخطيب: تحقيقُه رسالة في أصول الفقه، كان الشيخ رشيد قد أعطاه إيَّاها في حياته مع مجموعة من مصنَّفاته المخطوطة. وقد لاقت هذه الرسالة استحساناً كبيراً، وطبعت عدة مرات وخاصة في السعودية[١].

٢ـ **الشيخ ذنون بن يوسف البدراني**: عالمٌ فاضلٌ، ولد سنة **١٣٥٣**هـ في الموصل، قرأ على عدد من العلماء منهم الشيخ علي الشمالي، وبشير الصَّقَّال، ورشيد الخطيب. وقد قرأ على الأخير تفسيره مرتين، فأجازه، وأعطاه إجازة العالِمية.

وكان الشيخ رشيد راضياً عن اتجاهه في التفسير، وقد توقع له النبوغ والتفوق في هذا الميدان[٢]. وكان يلقي دروسه في التفسير والفقه وغيرهما في جامع الخلفاء الراشدين، المعروف بجامع سوق الحنطة، إلى أن توفي رحمه الله حوالي عام **١٩٩٥**[٣].

٣ـ **إسماعيل مصطفى الكتبي**: ولد سنة **١٩٠٢**، كان قد درس الفقه الحنفي وعلوم العربية على الشيخ أحمد الجوادي[٤]، ولم يتمكن من المتابعة لخلاف نشأ بينه وبين تلاميذ الشيخ بسبب اعتناقه لمذهب السلف، فأجّل دراسته إلى أن التقى بالشيخ رشيد الخطيب الذي وجد عنده بُغْيته فدرس عليه تفسيره مرتين، درس عليه علوم البلاغة والمنطق والفقه على المذاهب الأربعة، وأصول الفقه والفرائض وشيئاً من علم

---

(١) ينظر: «فهرس مخطوطات الموصل» (٩: ١٩).

(٢) نقلاً عن الشيخ إبراهيم النعمة.

(٣) توفي عام ١٩٩٨م رحمه الله تعالى. (مجد).

(٤) ولد سنة ١٢٨٣هـ، قرأ على الشيخ صالح طه الخطيب، ومحمد الرضواني، وأجازه والده عبد الوهاب الجوادي سنة ١٣٢٣هـ. حصل على إجازة في القراءات السبع من الشيخ يحيى لؤلؤة، درّس اللغة العربية والدين في الإعدادية ودار المعلمين، كان يتقن الفارسية والتركية، توفي سنة ١٣٧٧هـ.

الفلك، ثم أخذ عنه إجازة العالـمية بتاريخ ٢٨/ صفر/ ١٣٧٧هـ[١]، توفي رحمه الله سنة ١٩٦٦م.

٤ـ **صالح عارف البامرني**[٢]: درس العلوم العربية والشرعية في شمال العراق، وفي بداية الستينيات هاجر مع أسرته إلى الموصل تفادياً لأحداث الشمـال، فالتحق بدروس الشيخ رشيد الخطيب وحصل منه على إجازة العالمية.

كان مولعاً باللغة العربية يحفظ كثيراً من القصائد الرائعة. وكان شديد الحرص على التكلم بالفصحى، حتى إنه ـ مع طول مكثه في الموصل ـ لم يتقن اللهجة الموصليّة، وكان مشهوراً بالدعابة والفكاهة.

عمل إماماً وخطيباً في جامع الملاح[٣]، ثم تقاعد عن وظيفته، وعاش فقيراً عفيفاً ومات ولم يترك لأولاده بيتاً يسكنونه، وكانت وفاته ١٩٨٨[٤].

٥ـ **شمس الدين عبد العزيز سيد حاتم**: ولد سنة ١٩٣١ درس القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والخط وهو ابن خمس سنوات، ونال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٤٤، وأراد الذهاب إلى الأزهر الشريف للتعلُّم على نفقته فلم يوفَّق لذلك، فلجأ إلى علماء بلدته يستقي العلم منهم، فدرس على كثير منهم، ثم استقرَّ به الدرس عند الشيخ رشيد الخطيب.

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» أحمد محمد المختار (٢: ٧٨).

(٢) ولد سنة ١٣٣٢هـ الموافق ١٩١٤م في قرية (بامرني) التابعة لمحافظة دهوك. (مجد).

(٣) الكائن في منطقة الغزلاني بين شارع المعسكر وشارع الطيران.

(٤) استقيت طرفاً من هذه المعلومات من الشيخ ذنون البدراني وطرفاً من معرفتي به خلال السنوات ١٩٨٣-١٩٨٦م، فقد كان يزورني في محل عملي في محلة باب الجديد مكان سكناه.

تولى الإمامة والخطابة في عدَّة مساجد، وله عدد من المؤلفات والكتابات الأدبية[١].

وهو الآن متقاعد عن الوظيفة، ويعمل في تجارة الكتب في شارع النجفي في الموصل، ويشهد لشيخه بعلوِّ الهمَّة والمقام، وبجهوده الطيبة في اقتلاع المفاهيم الخاطئة عند المسلمين، كالتواكل وغيره[٢].

٦ـ **يونس شيت ميرزا**: ولد عام **١٩٣٧**، بدأ دراسته على الشيخ عبد الله الأربلي[٣]، الذي حفظ القرآن على يديه وعلى الشيخ نعمان حسين[٤]، ثم تابع علمه في الأزهر الشريف ودرس على الشيخ رشيد الخطيب بصورة متقطعة، ما مجموعهُ نحو سنتين فأخذ عنه التفسير والبلاغة، وذلك أثناء دراسته في الأزهر، ولم يجزه الشيخ.

تقلب بين عدة مساجد إماماً وخطيباً. وهو الآن في جامع القادسية الذي في حي القادسية في الموصل.

٧ـ **الشيخ ذنون يونس الغزال**: ولد عام **١٩٣٤**، وبعد أن أنهى دراسته في الابتدائية الخزرجية في الموصل التحق بالمدرسة الفيصلية الدينيّة، وبعد أن تخرج فيها عُيِّن إماماً وخطيباً في جامع العرافجة[٥]، ثم انتقل إلى جامع جمشيد[٦]، ثم إلى الجامع الكبير المسمَّى جامع النوري، وكان بعد تخرُّجه من المدرسة الفيصلية يختلف إلى عدد من العلماء،

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (٢: ٦٣).

(٢) في مقابلة معه بتاريخ ٥/ ١/ ١٩٩١م.

(٣) عالم فاضل من علماء الموصل، توفي سنة ١٩٨٧م.

(٤) عالم من علماء الموصل، كان إماماً وخطيباً لجامع (الحبيطي) ومدرساً في مدرسة يحيى باشا، وهو الآن متقاعد، وكان من أوائل الذين درسوا عند الشيخ رشيد الخطيب إلا أنه لم يجزه.

(٥) نسبة إلى عرفج بن هرشمة البارقي الذي فتح الموصل مع ربعي بن عامر رضي الله عنهما.

(٦) نسبة إلى (جمشيد)، وهو أحد ولاة الأتراك في الموصل.

فدرس على الشيخ عثمان الجبوري في جامع مريم خاتون، ثم في مدرسة النبي شيت، وانتقل عام ١٩٦١ إلى الشيخ رشيد ليلازمه بضع سنين، فيدرس عليه العلوم الشرعية والعربية كافة في بيته.

وكان شديد الملازمة له، ثم سافر إلى مصر عام ١٩٦٦ للدراسة في الأزهر ولم ينقطع عن شيخه، إذ كان يلازمه أثناء الإجازات.

وفي عام ١٩٦٨ منحه الإجازة العالِية، كما حصل بعد ذلك على إجازة الليسانس من الأزهر؛ كليةِ أصول الدين، بدرجة جيد جداً. ثم أقعد عن الوظيفة عام ١٩٨٩ بعد خدمة بلغت خمسة وثلاثين عاماً.

وهو الآن إمام وخطيب في جامع ١٧ تموز في الموصل[١]. وكان برغم كف بصره دؤوباً على العلم، وكان الدكتور كاصد الزيدي يشهد له بذلك حين التقاه في مصر سنة ١٩٦٧ أثناء الدراسة العليا.

٤) عقيدته ومذهبه:

يعدُّ الشيخ رشيد الخطيب عَلَماً من أعلام أهل السنة في الموصل خاصَّة والعراق عامَّة، كما كان رحمه الله إماماً من أئمة المذهب الشافعي، إلا أنه لم يكن مع ذلك متعصِّباً في اختياره الفقهي، وإنما كان يصدر عن وعي وسَعَة أفق، فكان حرَّ التفكير واسع المدارك، نزَّاعاً إلى المنبع الصافي؛ القرآن الكريم، والرافد الضافي؛ السنة المطهرة.

ولم يكن ينظر إلى بقية المدارس الإسلامية إلا بميزان الشرع والعقل، فإن وجد رأياً سديداً سارع إلى الأخذ به والإفادة منه. شعاره في ذلك: الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها فهو أحقُّ بها.

---

(١) أخذت هذه المعلومات من الشيخ ذنون يونس الغزال مباشرة في مقابلة أجريتها معه في أيار عام ١٩٩١م.

وكان رحمه الله يذمُّ التقليد والمقلِّدين، ويحثُّ على القراءة والبحث والمناظرة، فقد قرأ في علم العقائد لمعظم المدارس الإسلامية، وأفاد من آرائهم وردَّ على فريق منهم مستخلصاً من ذلك رأياً يطمئن إليه بعد الاستضاءة بالكتاب والسنة.

فهو في موضوع (**الصفات الإلهيَّة**) يستعرض آراء المعتزلة والأشعرية، ثم يقول رأيه بجرأة، معتمداً في ذلك على حقائق المنطق، ودلائل العقل[١]: «كل ما انتهت إليه مدارك أهل الكلام في الصفات وتقرير حقائقها وتكشيف كنهها، لم يكن بشيء أبداً، ولا تطمئن القلوبُ إلى شيء منها، ولا يضمن المرء السلامة إلا بالوقوف عند نصوص كتاب الله العظيم، وسنّة رسوله الكريم، فمحال على العقول أن تعرف كنه صفاته، كما يمتنع عليها أن تعرف حقيقة ذاته، لأن معرفة كنه الصفات موقوفة على معرفة حقيقة الذات، والمتوقف على الممتنع ممتنع، لأن العلم عن المغيَّبات لا يتأتَّى إلا من طريق الاستنباط والمقايسات، ولما كان سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] امتنع عن العقول معرفةُ ذاته وصفاته معرفة كنه وتشخيص، وسهل عليها معرفته سبحانه بآثار مخلوقاته...». وهذا كلام يبلغ الدقة في التقرير، ويتَّسم بالوعي التام، لحقيقة معرفة الباري عزَّ وجلَّ.

وفي موضوع (**خلق الأفعال**) يخرج بنظرة جديدة يذهب إلى ما قالته المعتزلة قديماً من أن الكسب وحرية الاختيار مناط التكليف، ويتجنَّب ما خشي الأشعريةُ والماتريديةُ الوقوعَ فيه، وهو معاكسة الإرادة الإلهية[٢].

---

(١) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص٨.

(٢) الفعل عند الأشعرية: إبداع وإحداث لله وكسب للعبد، والكسب عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة الإنسانية الحادثة والفعل، فالله قد أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد =

فالإنسان خليفة الله في الأرض[١]، مُنح العقلَ والاختيار وهدي بهدايتين: الفطرة والرسالات، فقامت الحجَّة البالغة لله على البشر. وكل ما يفعله البشر إنما يفعلونه بمحض اختيارهم، وعلى ذلك سيحاسبون. وهذا لا يعني أنهم يعاكسون إرادة الله تعالى، أو أن شيئاً يجري في الكون من غير إرادته سبحانه، فهو الذي خلقهم بهذه الطبيعة، وهو الذي شاء لهم ذلك، فكلُّ ما يفعله البشر باختيارهم ضمن إرادته سبحانه طالما هو الذي شاء لهم هذه السنة[٢].

لقد استطاع الشيخ رشيد بحذقه وذكائه، أن يجد لطائفة من الآيات التي يفهم من ظاهرها خلاف ما ذهب إليه تأويلاً مناسباً مفهوماً. ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] يقول: «هذا الإضلال إنما يكون بحسب السنَّة العامة، وليس معناه القسْر والإجبار، أو أن يجعله الله كذلك مختوماً على قلبه. كلا، بل معناه أنه سبحانه لما جعل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته جعله يتأثر بالتربية والتقليد، فنشأته تكون عاملاً فعّالاً في هدايته أو ضلاله.

فإذا نشأ على تربية سيئة ومحيط فاسد كان ضالاً فاسداً، ومن طبيعته إذا نشأ على شيء وانطبع عليه لا يمكن تحويله عنه ولا تجريده إياه، حتى إنه لا يلتفت إلى ما يعارضه من عقيدة وأعمال، إذ لا يرى غير ما هو عليه جديراً بالنظر والاعتبار»[٣].

= وإرادته لا بقدرة العبد وإرادته. د. عرفان عبد الحميد، «دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية» ص٢٧٩.

(١) في إطلاق هذا الوصف على الإنسان نظر كبير. وتنظر رسالة شيخنا العلامة عبد الرحمن الميداني: «لا يصح أن يُقال: الإنسان خليفة عن الله في الأرض». (مجد).

(٢) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص١٨.

(٣) المصدر نفسه ص٢٠.

ثم يتحدث عن نسبة الإضلال إلى الله سبحانه في نصوص الكتاب المبين بقوله: «إن الأحوال الناشئة من السنّة العامة الطبيعية تسند تارة إلى الله سبحانه، وتسند تارة للفاعل المباشر.

فخذ مثلاً البستاني يهمل الشجرة ويعطشها فتيبس، فتقول: أيبس الله الشجرة، وهو إسناد صحيح لأنَّ الله سبحانه قد جعل السنة الكونيَّة أن تَيْبس الشجرة إذا عطشت.

وتقول: إذا أيبس الله الشجرة فلا يقدر أحد على إعادتها.

وتقول: أيبس الله الشجرة بعمل البستاني وإهماله، وكل ذلك صحيح.

فعلى الأول: يأتي مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فقد نسب الضلال للإنسان نفسه.

وعلى الثاني يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فنسب الإضلال إلى الله.

وعلى الثالث يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وعلى الرابع يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وهكذا فكفر الكافر وضلال الضال ليس فيه قسْر للإرادة الربانيَّة.. لأنه ناشئ عن سنة كونيَّة من سنن الله تعالى»[1].

وهذا لا شك محاولة جادَّة من لدن الشيخ للبعد عَن أيِّ تأويل للآي يفضي إلى

---

(١) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص٢١.

الجبر، أو تشمّ منه رائحته. إلا أن ذلك لا يعني أنه خارج عن معتقد أهل السنة، فقد أُثر عنه عبارة كان يرددها دائماً وهي: «الحمد لله الذي خلقنا مسلمين، ومن أهل السنة والجماعة»[١].

كما أنَّ في رسالته المخطوطة «فرائد القلائد»[٢]، عنون في الفهرس لأحد فصولها: «أهل السنة والجماعة والعقيدة الحقَّة». فهو إذن يرى معتقد أهل السنة والجماعة من غير أن ينال من عقائد غيرهم من المسلمين، أو ينتقص منهم، بل كان حريصاً دائماً على الإفادة من المعتزلة[٣]، خاصّة للوصول إلى ما يريح عقله وضميره. ومعلوم أنّ المعتزلة ـ برغم خصومة كثير من القدامى لهم ـ كانوا من حُماة الإسلام، ومن المدافعين عن فكره، ولهم جهود طيبة في تفسير كتابه وانبثاق وتطور كثير من علومه، كعلم التفسير والكلام والبلاغة...

وأما عن انتمائه الفقهي فهو مع كونه شافعياً، كان عَلَماً بالمذاهب الأربعة، مُجازاً بالمذهب الشافعي والحنفي، فكان بعيداً عن التعصُّب حريصاً على الإفادة من جميع المذاهب.

وبفضل هذه النظرة السمحة والعقلية الواسعة النيِّرة، التفّ حوله أنصار (السلفية) ـ كما يسمون أنفسهم ـ أمثال تلميذه إسماعيل مصطفى الكتبي، وأنصار المذهبية أو (أتباع المذهب الواحد) أيضاً[٤].

---

(١) نقلاً عن أحد تلامذته ذنون البدراني.

(٢) سيأتي التعريف بها ضمن مؤلفاته.

(٣) ينظر: الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، بقلم: إبراهيم النعمة، مقال منشور في مجلة إحياء التراث الإسلامي ص١٦٥، العدد ١٦، السنة الرابعة، أيار ١٩٨٤.

(٤) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (١: ٨٥).

ومع ذلك، فهو لم يُصرِّح بتأييده لأنصار اللامذهبيَّة أو (السلفية) كما لم يزعم لنفسه بلوغ درجة الاجتهاد فيأخذ من أي مذهب شاء. بل وَرَد عنه تمسكه بعدد من المسائل الفقهية على المذهب الشافعي، برغم ميله إلى صحَّة الحنفية فيها، ومنها على سبيل المثل: التزامه برأي الشافعي في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] مع قناعته بأحقيَّة رأي الحنفي فيها[١]! وقد يكون هذا منه احتياطاً وورعاً.

وقد أخبرني أحد تلاميذه[٢] أنه كان متساهلاً في الأخذ من المذاهب، وهذا ما كان عليه الإمام محمد عبده، وما عليه الآن تلميذه الشيخ ذنون البدراني..

٥) آثاره:

ترك الشيخ رشيد عدداً من المؤلفات المتنوَّعة المادة والموضوع في التفسير والحديث واللغة والأدب والفقه والكلام، وفي هذا دلالة واضحة على ثقافته الواسعة، كانت الزادَ اللازم الذي مكّنه من العمل على تفسير القرآن.

ومعظم هذه المؤلفات ما يزال مخطوطاً، كان الشيخ قد كتبه بخط يده، حفظ القسم الأكبر منه عند حفيده الأستاذ أثيل عبد العزيز النُّجيفي[٣]، وحفظ ما تبقى من هذه المؤلفات لدى تلميذه إبراهيم النعمة.

---

(١) رأي الحنفية أن الآية كناية عن الجماع، على حين يرى الشافعي أنها مقصودة بعينها، وبذلك فلمس الزوجة والأجنبيات ناقض للوضوء عنده.

(٢) وهو الشيخ ذنون البدراني، تلميذه.

(٣) من مواليد عام ١٩٥٨م، حصل على بكالوريوس الهندسة عام ١٩٧٩م، يشرف الآن على مزرعة لتربية الخيول، كانت له تلمذة متواضعة على جدِّه الشيخ وخاصّة في سنواته الأخيرة؛ إذ أقام في بيته، وقد ترك الشيخ في عهدته معظم مخطوطاته.

وقد عثرت بين هذه المخطوطات على أربع صفحات بخط الشيخ رشيد يعرّف فيها بنفسه ويثبت فهرساً بأسماء مؤلفاته يعود تاريخها إلى ١/ ١/ ١٩٤١، ولم أكتف بهذا الفهرس في معرفة مؤلفاته، بل أحصيت كتبه المخطوطة مع التأكد من وجودها والتعرف عليها، وذلك لأن تاريخ الفهرس الذي تركه الشيخ ـ كما بينت ـ قديم، وفي هذه السنين الطويلة يقوى احتمال زيادة هذه الكتب أو نقصانها، تبيّن لي وجود هذه الكتب كاملة مع زيادة عدد آخر لم يرد في ثبت مؤلفاته.

وسأحصي هذه الكتب موزّعة حسب موادّها، ومرتبة في كل مادة حسب حروف الهجاء، مشيراً بإيجاز إلى موضوعاتها وعدد صفحاتها ومكان طبعها وسنته إن كانت مطبوعة، ومكان حفظها بِرَمْزَيْ (أثيل) أو (إبراهيم) إن كانت مخطوطة.

(أ) في التفسير:

١ـ **تفسير القرآن الكريم المسمَّى «أولى ما قيل في آيات التنزيل»**[١].

وهو أهم وأوسع مؤلفاته، ومحطُّ فخره واعتزازه، وموطن عنايته، قرأه عليه غيرُ واحد من تلامذته مرَّة أو مرتين، وكان قد كتبه أوّلاً غير متواصل الآيات، ثم كتبه متواصلاً كاملاً، ثم راجعه للمرة الرابعة معتنياً في تنقيحه وتهذيبه، وأدخل عليه كثيراً من الإصلاح. ثم شرع به للمرة الخامسة في ٢٩/ أيار/ ١٩٤٤م، وأكمله في ٢١/ آذار/ ١٩٤٦م، وعلى هذه النسخة المُعوَّل[٢]. وقد تم طبعها سنة ١٩٧١م في مطبعة جامعة الموصل.

---

(١) يوحي هذا العنوان إلى أن ما جاء به الشيخ من تفسير هو «أولى ما قيل» (وهذا لا يسلَّم لا للشيخ ولا لغيره، وما أظنُّ الشيخ أراد ذلك وإنما هو الاجتهاد وحسب.

(٢) «مقدمة التفسير» لرشيد الخطيب ص٨.

والتفسير في تسعة أجزاء، ومقدمة سابغة فريدة طبعت مستقلَّة، تكلم فيها على خصائص القرآن وأساليبه وتراكيبه، كما أوضح فيها كثيراً من المسائل المهمة في كتاب الله، زيادةً عما في هذه المقدمة من شرح وافٍ لمنهجه في تفسيره، وقد اعتمد عليها حين شرع بتفسير الآي، فكان يحيل عليها عند تفسيره لكثير من الآيات مكتفياً بتلك الإحالات.

تبلغ صفحات التفسير مع المقدِّمة (٢٤٣٣) صفحة من القطع المتوسط[١]، ولم يكن الشيخ راضياً عن تلك الطبعة تمام الرضا، برغم حرصه على خروجها للناس بأفضل صورة، إذ قعد به المرض والشيخوخة عن متابعتها بنفسه ممَّا عرَّضها لأخطاء مطبعية وفنية كثيرة، وهذا ما حمل الشيخ على وضع شروط أوصى بالأخذ بها عند الطبع الثاني للتفسير، وخاصَّة تنقيته من تلك الأغلاط المطبعية، ومراعاة مستلزمات الإخراج الجيد[٢].

٢ـ **تفسير آيات من سورة الإسراء والأنفال**: طبق منهج التربية يقع في (٢٢) صفحة من القطع المتوسط وهو مخطوط، (أثيل).

٣ـ **تفسير سورة الحجرات**: يقع في (١٩) صفحة من القطع المتوسط مطبوع سنة **١٣٥٩هـ**[٣].

---

(١) حسب الطبعة السابقة، وقد زادت على ذلك بكثير في طبعتنا الجديدة المنقحة؛ لإلحاقي إضافات المؤلف، وتعليقاتي واستدراكاتي، وإضافة نصوص الآيات المفسَّرة من المصحف الشريف، وتوزيعها في كلِّ سورة، ثم تنسيق الكتاب وترتيبه، وإضافة الفهارس المتنوعة مع هذه الدراسة. (مجد).

(٢) وثيقة أرفقها الشيخ بنسخة من تفسيره مصحَّحة ومعلق عليها، وهي محفوظة لدى حفيده تنتظر الطباعة، كتبت هذه الوثيقة بتاريخ ٢/ ٤/ ١٩٧٦م.

(٣) الموافق سنة **١٩٣٩م**، وسمَّاه: «المدارك الدقيقة في محتويات سورة الحجرات»، وقال في مقدمته: =

٤ـ **تفسير جزء من سورة البقرة**: يقع في (٤٠) صفحة متوسطة مخطوط (إبراهيم).

٥ـ **تفسير سورة الحجرات والإسراء والصف والأنفال والأحزاب**: يقع في (٣٨) صفحة صغيرة، وهو مخطوط (إبراهيم).

٦ـ **تفسير سورة لقمان**: كراسة تقع في (٢٩) صفحة من القطع المتوسط اختارها من تفسيره، في ٢/ ٢/ ١٩٤٠، وقد أطنب في تفسيرها على غير عادته[١]، وهي مخطوطة، (أثيل). وعند (إبراهيم) أيضاً مخطوط تفسير سورة لقمان يقع في (٢١) صفحة صغيرة.

٧ـ **مبسط لعدد من السور**: مخطوط من (٥١) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٨ـ **مختارات من تعليقات على بعض الآيات**: يقع في (٢٥٠) صفحة صغيرة، (إبراهيم)، وهي زبدةُ ما استجاده فكره من التعليقات[٢]. وهو من الأعمال الأولى لتفسيره، فيما يبدو.

٩ـ **مختصر التفسير**: كتبه قبل كتابة تفسيره، ويقع في (١٠٠٠) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل).

(ب) في الحديث:

١ـ **مختارات الصحاح**: وهي نخبة من الأحاديث المختارة من الكتب الستة موزعة على الأبواب الفقهية، ويقع في جزأين، الأوَّل في (٢٠٧) صفحات، والثاني في (٣٠٦)

= «وقد ضمنت تفسيري هذا كثيراً من آرائي الخاصَّة في جملة غير قليلة منه، وختمت أكثرها بقولي: والله أعلم». ينظر: مقالة: «قراءة في المدارك الدقيقة في محتويات سورة الحجرات» للدكتورأحمد قتيبة يونس ضمن ندوة «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي» في الموصل ص ١٧-١٩. (مجد).

(١) «مقدمة المخطوطة» ص١.

(٢) مقدمة الكتاب.

صفحات، من الحجم المتوسِّط. وقد أتبعه بفهارس في (٢٦) صفحة. ولا يكاد أحدٌ يطلب باباً من أبواب الفقه والمعاملات والأخلاق إلا وجد طلبته فيه من الأحاديث. وهو مخطوط، (أثيل).

٢ـ **المنتخب من الأحاديث النبوية**: وهو مخطوط في (١٠٨) صفحات من القطع المتوسط، (أثيل).

(ج) في العقائد والكلام:

١ـ **إثبات الوحي بطريق العقل وعلوم العصر**: وهو مقتطفٌ من كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن» لـمحمد عبد العظيم، مخطوط من (٦) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٢ـ **بحث في التصوُّف**: مخطوط من (١٨) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٣ـ **بحث في الممكن والموجود**: مخطوط من (٧) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٤ـ **رسالة في آداب البحث والمناظرة**: مخطوط في (٧) صفحات صغيرة، (أثيل).

٥ـ **رسالة فرائد القلائد**: ألمح فيها الشيخ «إلى نبذ من آراء الفلاسفة والمتكلِّمين والصوفية، وبعض الفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والخوارج والمرجئة وأهل السُّنَّة، وعن ملاءمة[1] الدين الإسلامي للفطرة الإنسانية والقواعد الاجتماعية، وإفضائه إلى السعادة والكمال في الدارين، بما فيه من عقائد عالية وأنظمةٍ سامية تؤدِّي إلى كمال الأخلاق»[2]. كتبها سنة ١٣٧٠هـ وهي مخطوطة في (٦٨) صفحة متوسطة، (أثيل).

٦ـ **رسالة في علم العقائد**: ذكر فيها نبذاً من الآراء، وممَّا رآه بنفسه ليقف المطالع

---

(١) في الأصل: ملايمة بالياء.

(٢) «مقدمة رسالة فرائد القلائد» لرشيد الخطيب.

على موضوع هذا العلم بصورة إجماليَّة، ويطلع على الرأيين في عدد من تلك المسائل، طبعت سنة ١٩٦٥ في مطبعة الجمهورية، وعدد صفحاتها (٥٨) متوسط.

٧ـ **رسالة في علم الكلام**: مخطوطة في (٧) صفحات صغيرة سنة ١٩٧٤، (إبراهيم).

٨ـ **غاية ما يرام في علم الكلام**: مخطوط من (٢٣) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٩ـ **مقال بين الحقِّ والصِّدق لمنكر بعض ما في القرآن والتكلم على بعض الأنبياء**: وسبب كتابة هذا المقال نقاش دار بين الشيخ ورجل متشكك ضمَّهما مجلس عام. يقع المقال في (٩) صفحات صغيرة وهو مخطوط، (أثيل).

١٠ـ **نظرية ابن سينا في الخلق، ومواضيعُ مختلفة**: مخطوط في (٢٧) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

١١ـ **نقض لفلسفة الخيام**: مخطوط من (٥) صفحات، (إبراهيم).

(د) في الفقه وأصوله:

١ـ **أرباب الحديث وأرباب الرأي في التشريع الإسلامي**: مخطوط من (١٦) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٢ـ **تعليق على كتاب أحكام الوقوف لعلي حيدر أفندي**: مع رسائل تتعلق بنفس الموضوع، مخطوط يقع في (٦٩) صفحة صغيرة. يتحدَّث عن الأوقاف وأحكامها وأنظمتها وسُبُل إصلاحها، (إبراهيم).

٣ـ **تعليقات على رسالة الشافعي**: وهي تعليق على (الرسالة) المشهورة للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ). وهي مخطوطة في نحو عشر صفحات من القطع المتوسط، (أثيل).

٤ـ **رسالة في أصول الفقه**: طبعت بتحقيق إبراهيم النعمة سنة ١٩٨٠، في مطابع الجمهورية، وتقع مع مقدمة المحقق في (٦١) صفحة من القطع المتوسط.

٥ـ **رسالة في الخراج**: وهي مخطوط في (٢٤) صفحة متوسطة الحجم، (أثيل).

٦ـ **مختصر في علم الفرائض**: مخطوط في (٣٨) صفحة صغيرة كتبه سنة ١٩٤٧، (إبراهيم).

٧ـ **المفيد في أصول الفقه**: مخطوط في (٣) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٨ ـ **متعة الكلام لـمن قصد البيتَ الحرام**: مخطوط في (٣٥) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٩ـ **مقالات حول الزَّكاة والنِّكاح والطَّلاق والعدَّة والمحرمات من النساء**: مخطوط يقع في (٢٤) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

(هـ) في اللغة:

١ـ **رسالة في معاني الحروف وقيام بعضها مقام بعض في الاستعمال**: مع بعض مختزلات من أهمِّ مباحث النحو، كتبها سنة ١٩٢٥ وتقع في (٧٦) صفحة صغيرة وما تزال مخطوطة، (أثيل).

٢ـ **ما لا يستغني عنه التلميذ والكاتب والأديب من ألفاظ اللغة وخصائص التراكيب**: وهو مستقى من كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي المتوفى (سنة ٤٢٩هـ)، يقع في (٣) صفحة صغيرة. وهو مخطوط، (أثيل).

٣ـ **مختصر الوسيط**: يقول عنه الشيخ رشيد: «سميته بهذا الاسم وأضفتُ إليه بعضاً من غير الوسيط؛ تكميلاً للفائدة»، وهو كتاب يتحدَّث عن نشأة اللغة بعامَّة، والعربية بخاصَّة من حيث أطوارها إذ قسمها على خمسة أطوار: جاهلية وإسلامية

وعبَّاسية وعصور انحدار[١] وعصور النهضة. ثم يفصِّل خصائص اللغة في كل مرحلة من هذه المراحل. ويقع في (١١٤) صفحة متوسطة وهو مخطوط، (أثيل).

(و) في البلاغة:

١ـ **بحث في البلاغة، الاستعارة:** مخطوط من (٢٢) صفحة صغيرة، (أثيل).

٢ـ **حُسن الصنيع في البديع:** مخطوط في (٨٥) صفحة من القطع المتوسط، (أثيل).

٣ـ **مختصر البلاغة:** ويقع في (١٢٧) صفحة من القطع الصغير وهو مخطوط، (أثيل).

٤ـ **المنتقى في البلاغة:** وهو مخطوط في (٨٦) صفحة متوسطة الحجم، (أثيل).

(ز) في الأدب: وتضمُّ منتخباتٍ وتاريخاً وتراجم.

١ـ **أبسط الترتيب في تراجم الأدباء:** ويقع في (٥٢٣) صفحة من القطع الصغير وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٢ـ **أسمى المطالب فيما يرومه الطالب:** وهو في تاريخ آداب اللُّغة العربية، كتبه سنة (١٩٤٤) ويقع في (٤٢٨) صفحة متوسطة، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٣ـ **أسنى الأَرَب في تاريخ الأدب:** وهو خلاصة سائر مؤلفات الشيخ[٢] في الأدب يقع في (٢٥٨) صفحة من القطع المتوسط، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٤ـ **أوضح المناهج في تاريخ الأدب لسائر عصور العرب:** مخطوط (٦٤٦) صفحة صغيرة، (أثيل).

---

(١) هذه تسمية متروكة الآن كتسمية (المظلمة) وقد اختيرت (المتأخرة) من نظرة زمنية لا فنية.

(٢) مقدمة كتاب «أسنى الأرب».

٥ـ **بحوث ترجمة لشعراء بني أمية وبني العباس وعلماء وشعراء الدولة العثمانية:** يقع في (١٥٠) صفحة صغيرة وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٦ـ **بنات الأفكار الحسان ولقائط الجُمان:** وصفهُ الشيخ رشيد[١] بقوله: «يجد المطالع فيه ما لطف من أقوال الرجال، وما لذَّ وطاب من أذواقهم وأفهامهم وعقولهم، وما تناولوه من بعيد المنال، وهو نحو (٢٥٠) صفحة من القطع الصغير ومخطوط، (أثيل).

٧ـ **تذكرة الأدباء:** مخطوط في (٢٣٥) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٨ـ **حقيبة الأديب:** مخطوط في (٤٢٣) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٩ـ **الخرائد الحسان في متنزهات البيان:** وهي نبذ شعرية اقتطفها أثناء مطالعاته، تقع في (١٦١) صفحة من القطع الصغير، وهي مخطوطة، (أثيل).

١٠ـ **رسالة في العروض:** مخطوطة في (١٣) صفحة من القطع الصغير، (أثيل). وله رسالة أخرى في العروض تقع في (٤٠) صفحة صغيرة، وهي مخطوطة، (إبراهيم).

١١ـ **الشذرات:** وهي رسالة صغيرة في تراجم مختصرة لبعض الأدباء والشعراء مع شيء من أشعارهم، انتخب فيها الشيخ ما راق له منها أثناء مطالعاتِه وتدريساتِه[٢] ويقع في (٦١) صفحة من القطع الصغير، وهي مخطوطة، (أثيل).

١٢ـ **شرح قصيدة بانت سعاد:** وهي مخطوطة في (٤٠) صفحة، (إبراهيم).

١٣ـ **عمدة الأريب ومرجع الأديب:** وهو في الأدب وتاريخه، يقع في (٤٦٤) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

---

(١) مقدمة الكتاب.

(٢) مقدمة الكتاب.

١٤ـ **عون الأديب فيما يحتاجه من مختلف الأبحاث والتراكيب**: وهو كتاب يقع في (٥٧٤) صفحة من القطع الصغير، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

١٥ـ **الفرائد في بعض المقطوعات**: مخطوط في (١٨٣) صفحة صغيرة، (أثيل).

١٦ـ **اللطائف المشرقة في القطع الشيِّقة**: وهو في (١١٦) صفحة من القطع المتوسط، شرح فيه القطع الشعرية المقرَّرَ تدريسُها في المدارس الثانوية لسنة ١٩٤٠، وألحق بها تراجم لشعراء هذه القطع، وهو مخطوط، (أثيل).

١٧ـ **مجموعة بحوث عن عدد من الأدباء والشعراء والحكماء؛ تاريخهم آدابهم نبذٍ عن حياتهم**: ويقع في نحو (٣٠٠) صفحة وهو مخطوط، (أثيل).

١٨ـ **مجموعة الخطب المنبريَّة**: تحتوي على الخطب النبويَّة، وبعض خطب الصحابة، وأحاديث أخلاقية دينية للخطيب، مخطوط في نحو (٤٠) صفحة، (أثيل).

١٩ـ **مجموعة من الشِّعر وصور من النَّثْر وفرائد النَّظْم**: مخطوط في نحو (٨٠) صفحة متوسطة، (أثيل).

٢٠ـ **مُعِين التلميذ في فهم الأدب على المنهج الحديث**: مخطوط في (٣٦٢) صفحة صغيرة، (أثيل).

٢١ـ **منتخبات فرائد النثر وفرائد النظم**: ويسمَّى أيضاً: (الدُّرُّ النضيد للطالب المستفيد)، تقع في (١٢٠) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل).

٢٢ـ **منتخبات الخطيب لما يستحسنه كلُّ أديب**: وهو كتاب ضخم يقع في (٨١٣) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

٢٣ـ **المنتخب من آثار أبي بكر وعمر وخالد**: تقع في (٥١) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل). وبنفس العنوان في (٣٠) صفحة صغيرة عند (إبراهيم).

(ح) في التربية والتعليم:

١ـ **أسئلة الامتحانات للأئمة والخطباء**: ويقع في (١٠٩) صفحات من القطع الصغير، مطبوع في مطبعة الجمهورية بالموصل سنة ١٩٦٨.

٢ـ **أسئلة وأجوبتها**: في علوم العقائد والبلاغةِ والزَّكاة والنِّكاح والصَّلاة وأصولِ الفقه والعبادات والتصوُّف والتجويد والنفقة والبيان والنحو وعلمِ الكلام والمعاني والمنطق والصرف، وبحث في موضوع زلة القارئ في الصلاة، وهو مخطوط يقع في (١٢٠) صفحة صغيرة، (إبراهيم). وربما كان مسودة للكتاب المطبوع الذي سبقه.

٣ـ **إرشادات هامة للمعلِّم والتلميذ وما يجب أن تكون العلاقة بينهما**: يقع في نحو (٢٠) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

(ط) في القصص والأخبار والمواعظ:

١ـ **بحث في علماء القرن الثاني الهجري**: مخطوط في (٦) صفحات، (إبراهيم).

٢ـ **رسالة في دروس الأخلاق والسِّيرة وقصص الأنبياء**: مخطوط يقع في (١٢٠) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٣ـ **صيدي من صيد الخاطر في المواعظ**: مقتطف من كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزيِّ مخطوط في (١٨) صفحة، (إبراهيم).

٤ـ **لمحة من الحوادث الطبيعيَّة لمدَّةٍ تزيد عن (٧٠٠) سنة ونبذ من غرائب الأحوال الاجتماعية**: وهي مأخوذة من تاريخ ابن الأثير. مخطوط يقع في (١١٤) صفحة من القطع الصغير، (إبراهيم).

٥ـ **نُبَذٌ لحوادث وقصص تاريخيَّة إسلاميَّة**: مخطوط في (٧٠) صفحة صغيرة، (أثيل).

(ي) متفرقات:

١ـ **تعليق على كتاب (الرسول) لبودلي**: يردُّ فيه عليه مطاعنَه وغمزاتِه، يقع هذا المؤلف في (٢٩) صفحة صغيرة، كتبه عام ١٩٤٧، وهو مخطوط، (إبراهيم).

٢ـ **مبادئ علم الهيئة**: وهو مختصر من كتاب «علم أصول الهيئة»[١] لفان ديك في (٧٢) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٣ـ **مجموعة من المقالات والمقتطفات والتعليقات في مختلف المواضيع والعلوم**: تزيد على (٤٠٠) صفحة مخطوطة، (إبراهيم).

هذه آثار الشيخ التي عَثَرت عليها محفوظةً لدى حفيده الأستاذ أثيل وتلميذِه الشيخ إبراهيم النعمة، وهي لا شكَّ تعبِّر بجلاءٍ عن فضله وعلمه ودأبه الجادِّ على التصنيف، إنْ كتباً وإنْ رسائل في موضوعات وموادٍ شتَّى، مما يشهد بتنوع ثقافته وطول باعه في العِلم والأدب[٢].

---

(١) علم الهيئة هو علم الفلك.

(٢) قلت: لم يتحدَّث الأخ الكريم د.خالد عن كتابه: «**رسالة في مواضيع مهمة**» مع رجوعه إليه في دراسته وذِكْره له ضمن مراجعه. وقد تكلَّم الشيخ رشيد في هذه الرسالة عن الروح والعقل، والتداوي والرقى، والتحفُّظ والحمية والوقاية، والدعاء، ووحدة التشريع الإلهي، وعن ترجمة القرآن، وأعلن في الرسالة عن تفسيره، وكلامه عن آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ونبذة عن نَسَبِه وسيرةِ أبيه رحمهما الله. وينظر مقالة: «قراءة لـ(رسالة في مواضيع مهمة) لرشيد الخطيب» للدكتور علي أحمد العبيدي، ص٢٠-٢٢، ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل». (مجد).

(هـ) خلقه ووفاته:

أمضى الشيخ رشيد حياةً حافلة بالعلم والتعليم والتأليف، وكان يتمتَّع بأخلاق سامية تليق بعلمه ونسبه وفضله، فلم يُؤْثر عنه إلا ما هو طيب حسن، فقد أنفق دنياه في سبيل دينه، وعاش مجاهداً الجهلَ والبدعَ والتقاليد المخالفة للدِّين.

وقد جعل من بيته مدرسة لتدريس العلم، لا يردّ أحداً يطلبه، فكان ينهض كل يوم مبكراً لصلاة الفجر ثم يبدأ بالتدريس حتى صلاة الظهر[١]، وبقي هذا دأبه ـ وهو دأب العلمـاء القدامى ـ حتى بلغ من الكبر عتيّـاً، فأقعدته الشيخوخة والمرض عن مواصلة التدريس، فانتقل إلى بيت إحدى بناته الأربع[٢]، إذ لم يبق له من أولاده إلا هنّ، أما أولاده الآخرون من الذكور والإناث فقد توفوا جميعاً وهم صغار.

أمضى الشيخ في بيت ابنـته عدّة سنوات، لم ينقطع خلالها عن القراءة والمطالعة والدرس والتمحيص فكان في ذلك له سلوة، وراحة.

وكان حريصاً كلّ الحرص على أن يبقى له عقله نيِّراً واعياً إلى آخر لحظة من عمره، وله في ذلك رأي وهو: «أن من تعهَّد عقلَه بالقراءة والدرس والمراجعة لم يفقده، ولم يلحقه الخرف الذي يلحق كثيراً من المعمَّرين»[٣].

وعندما فقد القدرة على الكلام في آخر أيامه في الدنيا، كان يشير إلى رأسه لمن حوله مؤكداً أنه يعي ويفهم كلَّ ما يدور حوله، وكأنه رحمه الله لا يعبأ بكل ما أصابه ما دام عقله الذي يعتز به والذي صال به وجال في ساحات العلوم والآداب سليماً معافى.

---

(١) هذا ما ذكره لي تلميذاه الفاضلان: إبراهيم النعمة، وذنون البدراني.

(٢) وهي أم محمد النُّجيفي وزوجة عبد العزيز النُّجيفي رحمها الله تعالى.

(٣) قول الشيخ رشيد عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥] ويكون هذا في بعض الهرمين (٥: ٢١٠).

ثم انتقل إلى جوار ربِّه مطمئناً، مالئاً سجلَّ عمر طويل قارب المائة بالدرس والبحث والتنقير للإفادة والتعليم وذلك في عصر يوم ١٩/ ١١/ ١٩٧٩[١].

وخسرت الموصل بفقده عالمها الجليل، وإن كان تلامذته ملء العين، كما خسره العراق والعالم الإسلامي، وما أمسَّ حاجتَنَا إلى أمثاله من العلماء العاملين المخلصين فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

---

(١) الموافق يوم الاثنين ٢٩ من ذي الحجة ١٣٩٩هـ، إلا أنَّ الأستاذ قصيّ آل فرج نقل في مقالتِه: «صفحات من حياة رشيد أفندي الخطيب» ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل» ص٤٠: «أنَّ الأستاذ المعلم عبد الله السيد عمر خطاب، وهو صاحب أكبر خزانة شخصية بالموصل، كتبَ على آخر ما ألَّفه رشيد الخطيب ما نصُّه: «توفي المؤلف رحمه الله صباح الخميس ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٩م، وكبَّرت الجوامع لوفاتِه في اليوم الأول، وفي خطبةِ الجمعة اليوم الثاني أشادت به، واليوم الثالث السبت ٢٢/ ١٢/ ١٩٧٩م بدأتُ بقراءة هذا الكتاب للمغفور له. والفرق كما هو واضح بين التاريخَين لأكثر من شهرين». قلت: الفرق بينهما شهرٌ ويومٌ واحد.

وقال الأستاذ المهندس عبد الرزاق الحمداني في مقالته: «العلامة رشيد الخطيب الموصلي .. ومضات ولقطات» المطبوع ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل» ص ٤٨: «في ربيع ١٩٧٣ شعر أنَّ قدراته لم تَعُدْ تُساعدُه في متابعة تعليم طلابه والقيام بواجباته بصورة طبيعيَّة، فانتقلَ إلى بيت د. عصام الخطيب، وأقام معهم عدة أشهر برعاية ابنتِه الدكتورة مُدركة لحين سفرِهم لخارج العراق، لينتقل بعدها لدار السيد عبد العزيز النُّجيفي، ولترعاه ابنته وأولادها، وهناك انفتحت أساريره، وطابت نفسه؛ بسبب الجوِّ العائلي والعلاقات الاجتماعيَّة التي تعوَّد عليها في بيته وخلال مشوار حياته، وبقي مُعزَّزاً مُكرَّماً لينتقل إلى رحمة الله تعالى شهر كانون الثاني سنة ١٩٧٩م» وهذا يؤيِّد ما نقله الأستاذ قصي آل فرج ويوافق بالتاريخ الهجري يوم الخميس ٣٠ محرم ١٤٠٠ هـ وهو الصواب والموافق لما ذكره الأخ الشيخ أكرم عبد الوهاب الموصلي في كتابه: «الإمداد شرح منظومة الإسناد» (٨: ١٣). (مجد).

الفصل الأول
مصادر تفسيره والكتب التي أشار إليها

مدخل

قبل الشروع ببيان مصادر الشيخ رشيد في تفسيره أود أن أبيِّن المعالم التي اهتديت إليها بعد قراءة التفسير، وإطالة التأمُّل فيه، والعودة إلى التفاسير التي ورد ذكرها فيه، فقد تبيَّـن لي أن الشيخ لم يأل جهداً في الإفـادة من كل ما وصلت إليه يده من مصادر ومراجع متنوِّعة في المادة والموضوع، مما يرفد تفسيره للآي ويلقي عليها ضوءاً، بما في ذلك المصادر التي امتازت بالحداثة.

وهذا المنهج ليس بجديد في التفسير، إذ كان قدامى المفسِّرين عامة، وأصحاب الرأي خاصة، يعتمدون على مصادر متنوعة قد لا تبدو ذات مسـاس مباشر بمعاني القرآن، ولكنها في الحق تخدمه، كعلم الكلام، والفلسفة، والتاريخ، وعلم الطبيعة، على نحو ما نرى في تفسيـر الطوسي (ت٤٦٠هـ)، والزمخشـري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (٦٠٦هـ)، وغيرهم.

ومصادر الشيخ رشيد كثيرة، وهي على كثرتها ينتظمها عِقْدان، عِقد ضمَّ عدداً (محدوداً) من المصادر كان عليه جل الاعتماد، وهذا يتعلق بأشهر كتب التفسير، كتفسير الطبري، والزمخشري، والطبرسي، والرازي، والمنار، وهذا الضرب من المصادر الأساسية أفاد منه الشيخ في انتقاء أظهر وأقرب وجوه التأويل التي عبَّر عنها بكلمة (أولى)، كما هي في عنوان التفسير، إذ كانت تمثل زبدة الوجوه التي قيلت في الآي، كما تُمثّل ألمع عصور التفسير ومفسريه.

وقد أفاد منهم كذلك بنقل أقوال كثير من المفسِّرين واللغويين ممَّن ضاعت مؤلفاتُهم أو وجدت.

وأما العِقْد الثاني فضمَّ ما تبقّى من المصادر التي اعتمدها الشيخ في تفسيره، وهي مصادر متنوعة، وكان الاعتماد عليها أقلَّ من الأولى لا يتجاوز بضع مرات في عدد منها.

ولما كانت مصادر الشيخ تشتمل على ألوان، ككتب التفسير، وكتب معاني القرآن، وكتب الدراسات القرآنية الأخرى، وكتب الحديث فقد آثرت أن أعرض المصادر حسب مادتها مبتدئاً بكتب التفسير، إذ هي المادة الأساس التي اعتمد عليها.

(١) كتب التفسير

لم يقتصر الشيخ رشيد على تفاسير أهل السنة وحدها، بل اعتمد على تفاسير مدارس إسلامية أخرى كتفسير الزمخشري وتفسير الطبرسي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على موضوعيته، وسَعَة أفقه وبُعده عن التعصب المقيت الذي ابتُليتْ به هذه الأمة في بعض عصورها، من عدد من أبنائها. كما أنه لم يقتصر على القديم وحده، بل ضم إليه من الحديث ما انتهت إليه النظرة الحديثة.

١ـ تفسير الطبري:

مؤلف هذا التفسير الكبير المسمى «جامع البيان عن تأويل القرآن» أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ[١].

نال هذا التفسير شهرة وثناءً عظيمين، فكان وما زال المرجع الأساس لكل

---

(١) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٨: ٤٠). و«طبقات المفسرين» للداودي (٢: ١١٤).

مفسر، وإليه يعود الفضل في نقل وحفظ كثير من المأثور من التفسير، الذي يمثل أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وأهل البيت في تفسير القرآن، فضلاً عن عنايته بالقراءات واللغة والنحو والعقل مع نقد لهذه المواد في عدة مواضع[١].

وقد أفاد الشيخ رشيد من الطبري كثيراً من التفسير المأثور. ويقوم منهجه في الإفادة منه على الإيجاز الشديد، إذ يعزو الأقوال إلى عدد من المفسرين الذي روى عنهم الطبري بأسانيده، من الصحابة كابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، أو التابعين كمجاهد والحسن والضحاك والسدي، والكلبي، وسعيد بن جبير، وغيرهم... وقلَّما يصرح باسم الطبري فيما ينقله عنه من أقوال المفسرين قبله، وإنما كان يورد الرواية فحسب، إلا إذا كان القول رأياً للطبري مأثوراً عن غيره برواية كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، إذ قال: «قال ابن جرير: إن الأمر بالذِّكر هنا موجَّه إلى مستمع القرآن، أُمر بأن يتدبَّر في نفسه ما سمع»[٢].

أو يكون ذلك القول اختيارَه من بين عدَّة أقوال، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] إذ قال: «واختلفوا فيهما ... وقيل: المراد مكانان مقدَّسان، قتادة، وابن زيد، ومحمد بن كعب، والضحاك وغيرهم، واختاره الطبري»[٣].

---

(١) ينظر: الزيدي: الطبري المفسر الناقد، بحث ألقي في ندوة الإمام الطبري في القاهرة، تموز ١٩٨٩.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١٧). وهو في «جامع البيان» (١٣: ٣٥٥)، دار المعارف، تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٨٥). وهو في «جامع البيان» (٣٠: ١٥٤)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ٨، أعيد طبعه ١٩٧٢م.

والذي اختاره الطبري هو: التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يُعصر منه الزيت. (مجد).

على أن الغالب عليه عزو أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم إلى أصحابها مباشرة من دون ذكر الطبري كما أسلفت آنفاً، وآية ذلك أنه أورد روايات كثيرة لابن عباس[١] أوردها الطبري بأسانيده.

ومن ذلك ما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] فقد قال: «قال ابن عباس: هو وادٍ باليمن بين عمان وبين مهرة»[٢].

كما أورَدَ روايات لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه[٣]، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] إذ روى عنه وعن ابن عباس فقال: «وعن علي وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك»[٤].

كما أورد روايات لعبد الله بن مسعود[٥]، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فقد قال: «ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه كذلك النسَّابون ـ يعني الذين يسردون نسب الأقوام إلى نوح وآدم ـ لأن تقادم العهد طمس معالم هذا النسب المديد»[٦].

وقد يبهم المروي عنه من السلف، فلا يصرِّح باسمه وخاصة إذا كثروا، بل

---

(١) ينظر: «أولى ما قيل» (٢: ٤٧)، (٢: ٥٩٠)، (٣: ٢٣٣)، (٤: ٤٥٠)، (٥: ٨٨)، (٦: ٢١٣)، (٨: ١٩٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٥١). وهو في «جامع البيان» (٢٦: ١٥) (دار المعرفة).

(٣) ينظر: «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٦). وهو في «جامع البيان» (١٢: ٧٧) (دار المعرفة).

(٥) ينظر: «أولى ما قيل» (٥: ٢٥)، (٥: ٣١٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩١). وهو في «جامع البيان» (١٢: ١٢٥) (دار المعرفة).

يكتفي بالقول: «روي عن جماعة من الصحابة» مثلاً كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] إذ قال: «وقال غيرهم: المراد انشقاقه في الدنيا معجزة لرسول الله ﷺ، وهو من علامات اقتراب الساعة، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بانشقاق القمر فانشقَّ القمر نصفين»[١].

وحين ننتقل إلى التابعين، وهم تلامذة الصحابة والآخذون عنهم نجد تابعياً كبيراً كمجاهد[٢] (ت١٠٤هـ) يحظى بعناية الطبري عناية كبيرة، فتمتد تلك العناية إلى الشيخ رشيد لينقل عنه طرفاً مما روي عنه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] إذ يبيّن أنه: «روي عن مجاهد أنهم قالوا: لقد أجهدنا الله حتى جعل يده في نحره»[٣].

ونلحظ روايات عن عكرمة[٤] (ت١٠٤هـ) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ...﴾ [الفيل: ٣] إذ قال: «قال عكرمة: وهو أول جدري يظهر في بلاد العرب»[٥]. ونقل روايات عن الشعبي (ت١٠٣هـ) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢١٠). وفي «جامع البيان» (٢٧: ٥٠) (دار المعرفة).

(٢) تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، روى له البخاري ومسلم، اشتهر بالتفسير العقلي، روى عن عائشة رضي الله عنها «طبقات المفسرين» (٢: ٣٠٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٣). وهو في «جامع البيان» (١٠: ٤٥٠) (دار المعارف). وينظر: «أولى ما قيل» (٦: ٢٨٣)، (٢: ٤٧)، (٣: ٣٤٠)، (٤: ٤٤١).

(٤) مولى ابن عباس روى عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنهم، ثقة عالم بالتفسير. «التفسير والمفسرون» (١: ١١١-١١٢).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٥٩). وهو في «الجامع» (٣٠: ١٩٣) (دار المعرفة). وينظر: «أولى ما قيل» (٢: ٤٧)، (٧: ٢٦٣).

﴿كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] فقد بيَّن أنه: «خرج الشعبي يوماً في جنازة رجل فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء»[١].

كما نقل روايات عن سعيد بن جبير[٢] (ت٩٥هـ) وأبي العالية[٣] (ت٩٠هـ)، ومقاتل ابن سليمان[٤] (ت١٥٠هـ) وغيرهم من أوائل المفسِّرين.

وأما منهجه في النقل من تفسير الطبري فقد يكون بالمعنى وهو الأكثر، إذ يورد معنى التفسير ثم يعزوه إلى من قال به من الصحابة والتابعين كما في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] إذ قال: «وقيل: بل إن الكلام على الإرشاد والمراد من البنات: نساء قومه لأن النبي في قومه كالوالد، أي كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذُّكْران، فهو الموافق للفطرة والمؤدي للغاية التي خلقن لها، وهي بقاء النسل بخلاف فعلكم»، ثم قال: «وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم»[٥].

والذي في الطبري قوله: عن ابن جريج... هؤلاء يا قوم بناتي يعني نساء أمته فانكحوهنّ فهنّ أطهرُ لكم.

وعن قتادة قال: «أمرهم لوط بتزوُّج النساء، وقال: هُنَّ أطهر لكم».

وعن مجاهد قال: لم يكنّ بناته ولكن كنّ من أمَّته فكلُّ نبي أبو أمته.

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٠١). وهو في «جامع البيان» (٢٩: ١٤٥) (دار المعرفة)، وهو في تفسير القرطبي (١٩: ١٦١).

(٢) ينظر: «أولى ما قيل» (٤: ٤٤١)، (٤: ٤٤٩)، (٥: ٢١٥).

(٣) ينظر: «أولى ما قيل» (٥: ٢٧٥).

(٤) ينظر: «أولى ما قيل» (٨: ٣٤١)، (٥: ٢٧٥)، (٥: ١٨٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٤٤١).

وعن مجاهد: أمرهم أن يتـزوجوا النساء وأراد أن يقي أضيافه ببناته»[١].

من ذلك يتبيَّن أنَّ الشيخ رشيد نقل المعنى بشيء من الإيجاز، ثم عزاه إلى القائلين به من التابعين ومثل هذا كثير في تفسيره[٢].

وقد نراه ينقل النص بتغيير طفيف وذلك بحذف الأسانيد واستبعاد المكرر، أو الرواية التي لا تتناسب مع غيرها.

فـفي وقوفـه عند قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] نراه يقول: «قال ابن عباس: هو وادٍ في اليمن بين عُمـان ومهرة. وقال ابن إسحاق: هي رمال بين عمـان وحضرموت. وقال قتادة: هي رمال مشرفة على البحر بالشِّحْر من اليمن»[٣].

والذي جاء في الطبري[٤]: «حدثني محمد بن سعد حدثنا... عن ابن عباس... قال: الأحقاف جبل الشام. وقال آخرون: بل هي واد بين عمان ومهرة. حدثني محمد بن سعيد... عن ابن عباس... قال: الأحقاف الذي أنذر هود قومه وادٍ بين عمان ومهرة. وحدثنا ابن حميد... عن ابن إسحاق قال: كانت منازل عاد وجماعته حيث بعث الله إليهم هوداً، الأحقاف: الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت. وحدثنا بشار عن مجاهد، قال: الأحقاف: الأرض. حدثنا سعيد عن قتادة... ذكر لنا أن عاداً حيٌّ باليمن أهلُ رملٍ مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر».

---

(١) «جامع البيان» (١٥: ٤١٣-٤١٤) (دار المعارف بمصر).

(٢) يُنظر على سبيل المثال: «أولى ما قيل» (٦: ٢٨٣)، (٥: ٨٨)، (٤: ٣٤٨)، (٥: ٣٤٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٥١).

(٤) «جامع البيان» (٢٦: ١٥-١٦) (دار المعرفة).

فأهمل الشيخ رواية عن ابن عباس تبيّن أن الأحقاف جبل بالشام مع رواية أخرى تجعلها بين عمان ومهرة، وهذه قريبة من الأخريات، على حين شذّت الأولى وشَرَدت شروداً بعيداً، ممَّا جعله يهملها البتة. وهذا موقف متبصِّر من الشيخ في قبول الروايات. كما أنه طرح رواية عن مجاهد قال فيها: إن الأحقاف: الأرض، وما عدا ذلك كان التغيير طفيفاً، كما في النقل عن قتادة، إذ التركيب مختلف والمؤدَّى واحد.

وقد يكون النقل بتغيير طفيف على نحو ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، إذ قال: «...وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: هذا وعيدٌ من الله لعباده وليس بالله شغل. ولكنه معروف من كلام العرب، يقال: لأتفرغنّ لك، وما به شغل»[١]. والنصُّ عند الطبري[٢]: «.. عن ابن عباس قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيدٌ من الله للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ».

وقد ينقل بالنص من دون تغيير، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣] إذ يقول: «قال ابن عباس: ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية»[٣]. ومثلها تماماً ما جاء لدى الطبري.

وقد أفاد الشيخ رشيد من تفسير الطبري في أسباب النزول ففي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] يقول: «قال

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٤٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٧: ١٧٩) (دار المعرفة).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٣). وهو في جامع البيان» (٦: ١٩٣) (دار المعرفة)، (١٠: ٤٤٩) (دار المعارف بمصر).

قتادة وغيره: بينما كان رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين، قالوا فيما بينهم: أيرجو هذا أن يُفتح له قصورُ الشام وحصونُها؟ هيهات هيهات. وقال بعضهم لبعض: أيحسبون قتالَ بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنّا بكم غداة تُقادون في الحبال. فأطلَع الله نبيَّه على ذلك، فقال ﷺ: احبسوا هؤلاء الرَّكْب، فأتاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا؟ قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾[1] فنقل الرواية هنا باللفظ من تفسير الطبري[2].

كما أفاد من روايات الطبري في تفسير طائفة من الألفاظ الغريبة في القرآن كلفظة: ﴿الْهِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] إذ قال: «قال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة: هي الإبل التي أصابها الهيام وهو شدَّة العطش فلا تزال تشرب حتى تموت»[3].

والذي قاله الطبري: «عن ابن عباس: (شرب الهيم)، يقول: شرب العطاش... وعن عكرمة: شرب الإبل المراض تمصُّ الماء مصّاً فلا تروى، وعنه أيضاً: الإبل يأخذها العطاش فلا تزال تشرب حتى تهلك... وعن قتادة: الهيم: داء بالإبل لا تروى معه»[4]. ويلحظ هنا أن الشيخ رشيد أوجز الرواية بإيراد فحواها المشترك دون التفصيل الذي فيها.

وقد ينقل دلالة اللفظ الغريب من تفسير الطبري من غير أن يشير إليه كما في تفسير (المهل) في قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] إذ قال: «أي الحديد

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٠٥).

(٢) «جامع البيان» (١٠: ١١٩) (دار المعرفة)، (١٤: ٣٣٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٢٦٣).

(٤) «جامع البيان» (٢٣: ١٣٦).

أو مطلق المعدن المذاب، أو عكر الزيت»[١]. وهو عين ما جاء لدى الطبري[٢] منسوباً إلى ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

ومثله ما جاء في تفسير لفظة (أزكى) من قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] إذ قال: «أيّ أهل المدينة أحلُّ طعاماً؛ إذ كان فيهم المجوس»[٣].

٢ـ معالم التنزيل للبغوي:

مؤلفه الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بابن الفرّاء، والبغوي نسبة إلى بغ وبغشور، وهي بلدة في خراسان، توفي سنة ٥١٦هـ[٤]. ويقول عنه السيوطي[٥] (ت٩١١هـ): «كان إماماً في التفسير» ويعدّ تفسيره من التفاسير المتوسطة التي تعنى بالأثر، لأن التفاسير التي سبقته كالطبري (ت٣١٠هـ)، والسمرقندي (ت٣٧٥هـ)، والثعلبي (ت٤٢٧هـ) من التفاسير المطوَّلة[٦].

نقل الشيخ رشيد من تفسير البغوي في بضعة مواضع ما يتعلق بأسباب النزول كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [الأنفال: ٤٧] فقد قال: «قال البغوي: نزلت هذه الآية في المشركين حيث أقبلوا إلى بدر، ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله ﷺ: اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيلائها

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥).

(٢) «جامع البيان» (١٥: ١٥٨) (دار المعرفة).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٧). وهو الذي عند الطبري (١٥: ١٤٨) (دار المعرفة).

(٤) «البغوي ومنهجه في التفسير» لعفاف عبد الغفور حميد ص٢٦. و«طبقات المفسرين» للسيوطي ص١٢-١٣.

(٥) «طبقات المفسرين» ص١٢. وينظر: «البغوي ومنهجه في التفسير» ص١٤٤.

(٦) «البغوي ومنهجه في التفسير» ص١٦٨.

وفخرها تُحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»[١]. والنقل باللفظ من البغوي[٢].

كما أفاد منه في وجوه التفسير ما يتعلَّق برفع لبس قد يقع القارئ فيه إذا أخذ بظاهر الآية، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إذ يقول: «قال البغوي: إنَّ طلب بني إسرائيل هذا لم يكن عن شكٍّ منهم بوحدانيته تعالى، وإنما كان غرضهم إلهاً يعظمونه ويتقرَّبون بتعظيمه إلى الله تعالى، وظنُّوا أن ذلك لا يضر بالديانة، فقال لهم موسى: إنكم قوم تجهلون ما يجب من انفراد الرَّبِّ تعالى بالعبادة من غير واسطة»[٣].

وعند الرجوع إلى نصِّ البغوي تبيَّن أن هناك تغايراً طفيفاً بينهما في اللفظ، على أن البغويَّ يقوم بعرض التفسير في مواضع بأسلوب المواشجة بين كلامه وبين النص القرآني لتوضيح المعنى وهو أسلوب معروف لدى كثير من المفسرين وخاصة المتأخرين منهم، كما في تفسير هذه الآية التي مرت؛ إذ يقول: «وكان لشدة جهلهم، قال موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمةَ الله، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ﴾ مهلكٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتتبير: الإهلاك ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحلٌّ وزائل ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ﴾ يعني موسى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾ أي: أبغي لكم»[٤].

وهذا يلحظ أيضاً في منهج الشيخ رشيد، ولعلَّه أفاد ذلك منه، إذ يلتقيان في الحرص على الإيجاز.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٣٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٠).

(٤) «معالم التنزيل» (٢: ٢٣٠).

٣ـ الكشاف عن حقائق التأويل:

مؤلف هذا التفسير: جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، المتوفى سنة (٥٣٨هـ) وهو إمام في التفسير والنحو واللغة والأدب، وله تصانيف كثيرة متنوعة المادة، ومن أجَلِّها تفسيره الذي يُعدُّ من خيرة التفاسير القرآنية[١]. والكشاف بغضِّ النَّظر على ما فيه من اعتزال، تفسير متميِّز عن غيره بكثير من الصفات وخاصَّةً بيان وجوه الإعجاز القرآني[٢]. لذلك أفاد منه غير واحد من قدامى المفسرين، بمن فيهم أهل السنة كالرازي (ت٦٠٦هـ)، والنسفي (ت٧٠١هـ)، وابن حيان (ت٧٥٤هـ)، كما أفاد منه من الإمامية الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، فجمع بينه وبين تفسيره: «مجمع البيان» وسمَّاه: «جوامع الجامع»، وهو مطبوع في إيران طبعة حجرية.

ولما كان الشيخ كثير المَيْل إلى الجانب العقلي من التفسير فقد لقي في تفسير الكشاف ما ينقع غلته، ويحقق وجهته، فنقل منه كثيراً من وجوه التأويل، إما باللفظ كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠] إذ نقل قول الزمخشري: «معنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾: لا يزال هدمه سببَ شكٍّ ونفاق زائد على شكّهم ونفاقهم لا يزول وسْمُه عن قلوبهم، ولا يضمحلُّ أثره، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قِطعاً، وتفرَّق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه، وأما مادامت سالمة فالريبة باقية متمكنة فيها»[٣]. وهو نصّ كلام الزمخشري[٤]،

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢: ٥٠٩-٥١٣)، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى ١٩٤٨م. «طبقات المفسرين» للداودي (٢: ٣١٤-٣١٦).

(٢) «التفسير والمفسرون» للذهبي (١: ٤٣٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٤) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

ماعدا (فيها) الأخيرة إذ تقدمت لفظة (متمكنة)، وهي في نصّ الزمخشري متأخرة.

وقد ينقل عنه بالمعنى، وبإيجاز، على نحو ما وَرَد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، إذ قال: «فالآيةُ ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السّوء وارتكاب المنكر، وسكتت عن حكم الفرقة التي لم تنه عن المنكر، بل أنكرت على الواعظين. فقيل: إنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر، بل أنكرت على الذين نهوا. وقيل بل نجتْ لأنها كانت يائسةً من فائدة النهي، جازمةً بأن القوم قد استحقُّوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم الوعظ. وقد رجّح الزمخشري هذا الرأي، ورُوي أيضاً عن ابن عباس وتلميذه عكرمة»[١].

وعند الرجوع إلى «الكشاف»[٢] تبيَّن أنه يعرض المسألة على طريقته في (الفنقلة)[٣] بإلقاء سؤال، والإجابة عنه مع التفصيل، وبنفس المعنى.

وأفاد الشيخ من الزمخشري من غير أن يشير إليه مراراً، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فقد فسَّرها بوجه مغاير للمشهور بأن عَدَّ حَمْل الأمانة على معنى الخيانة، فيكون معنى الآية أن السموات والأرض أبين أن يخنّ الأمانة. وكانت تأديتهنّ حسب طبيعتهنّ على أكمل وجه. أما الإنسان فقد ضيَّعها كلَّها أو بعضَها[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤٩٠).

(٢) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

(٣) يعني: قوله: «فإن قلتَ... قلتُ...».

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢-٩٣).

وما ذهب إليه هنا الشيخ كان الوجه الأول الذي أورده الزمخشري بقوله: «إن هذه الأجرام العظام كالسموات والأرض والجبال، قد انقادت لأمر الله عزَّ وجلَّ انقياد مثلها ـ وهو ما يتأتّى من الجمادات ـ فأطاعت له الطاعة التي تصحُّ منها وتليق بها.. كما قال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه... والمراد بالأمانة: الطاعة، وعرضها على الجمادات وإشفاقها: مجاز. وأما حَمْل الأمانة فمن قولك: فلان حمل الأمانة ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤدّيها إلى صاحبها...» [١].

ومن أساليبه في النقل من «الكشاف» تصريحه باسم مصنِّفه كقوله: «ذكر الزمخشري» [٢] أو التكنية عنه بقوله: «قال صاحب الكشاف» [٣]، أو إضمار اسمه الصريح والاكتفاء باسم تفسيره لشهرته بقوله: «قال في الكشاف» [٤].

ولما كان الزمخشري نحوياً [٥] كما أشرت سالفاً، فقد أفاد الشيخ رشيد من مادة التفسير النحوية فيه كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٣] إذ قال: «قال في «الكشاف»: ويجوز أن يكون الضمير في ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ للرسول أي: آساكم في الاغتمام» [٦]. وذلك بعد أن بيَّن الشيخ أنَّ الضمير يعود على الله عزَّ وجل [٧].

---

(١) «الكشاف» (٣: ٥٦٣-٥٦٤).

(٢) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٦٧٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٠).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٠٠).

(٥) ينظر: «الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري» لفاضل السامرائي، بغداد ١٩٧١.

(٦) «الكشاف» (١: ٤٢٧).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٥٥٩). وفي «الكشاف» (١: ٤٢٧).

ولما كان الزمخشري بلاغياً كبيراً وتفسيرُه مشهور بالكشف عن الوجوه البلاغيَّة المعجزة[١]، فقد أخذ منه في البلاغة.

ومن ذلك ما نقله عنه في تفسير سورة الفاتحة إذ يقول: «كما ذكر الزمخشريُّ في سورة الفاتحة حيث قال ما ملخَّصه: إنَّ العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيقي عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الدالِّ على اختصاصه بالحمد وأنه حقيقٌ به، وجد العبدُ من نفسه محركاً للإقبال عليه، وإذا انتقل إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الدالِّ على أنه مالك للعالمين المدبِّر لهم، قويَ ذلك المحرِّك...»[٢]. وهو معنى كلام الزمخشري[٣].

٤ـ مجمع البيان لعلوم القرآن:

مؤلف هذا التفسير أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، المفسِّر الفقيه المحدِّث الإمامي، المتوفى سنة (٥٤٨هـ)، كان يروي عن جماعة منهم الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن الطُّوسي المتوفى سنة (٤٦٠هـ)، وله تصانيف منها: تفسيره المطوَّل هذا الذي سمّاه «مجمع البيان»، و«الوسيط في التفسير»، و«جوامع الجامع» الذي جمع فيه بين «مجمع البيان» و«الكشاف»، و«الوجيز» و«إعلام الورى بأعلام الهدى»، و«تاج المواليد والآداب الدينيَّة»، وله تصانيف أخرى في الفقه والكلام، ويعدّ من مجتهدي علماء الإماميَّة[٤].

---

(١) ينظر: «منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه» للدكتور مصطفى صاوي الحويني. وينظر: الزمخشري البليغ للدكتور مصطفى ناصف، رسالة دكتوراه سنة ١٩٥٤، محفوظة بجامعة القاهرة، نقلاً عن الدكتور كاصد الزيدي.

(٢) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٦٧٤).

(٣) «الكشاف» (١: ١٤).

(٤) «مجمع البيان» (١: ٧-١٥)، مقدمة بقلم محمد الأمين. «التفسير والمفسرون» (٢: ٩٩-١٠٠).

أقام المؤلِّف مباحثه على سبعة موضوعات، افتتح كلًّا منها بآية أو أكثر من القرآن الكريم مع بيان رقمها، ثم ثنّى بالمواضيع ببحثها عنواناً عنواناً: القراءة، فالحجَّة، فاللغة، فالنزول، فالإعراب، فالمعنى. غير أنَّ ذلك لم يطّرد لديه في التفسير كلِّه وربما كان ذلك اختصاراً. وهو في هذا آخذ بمنهج ابن جعفر محمد بن الحسن الطوسي؛ إذ كان هذا المفسِّر أولَ من عمد إلى هذا المنهج[١].

والحق أن تفسير الطبرسي.. غزيرُ المادة، لذا أفاد منه الشيخ رشيد كثيراً. وقد نقل منه نصوصاً عن تفاسير قديمة لكبار المعتزلة كأبي علي الجبائي (ت٣٠٣هـ) صاحب التفسير الكبير المفقود، ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، إذ يقول: «قال الجبائي: إنما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره ولم يعلم ما أمر به من جعل الصاع في رحالهم»[٢]، وهو عين ما جاء في مجمع البيان[٣]. وهناك عدة نصوص[٤] للجبائي استقاها من تفسير الطبرسي. كما نقل عن مفسر معتزلي كبير آخر هو أبو القاسم البلخي (ت٣١٩هـ)، الذي أورد عنه مادة في التأويل، ومن ذلك أنَّ المفسرين قد أرجعوا الضمير (به) في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧] إلى القرآن الكريم. إلا أن البلخي والقفَّال (ت٣٦٥هـ) اللَّذَين نقل الشيخ رأيهما باختصار أرجعا الضميرَ إلى عمل الإنسان المحاسَب يوم القيامة[٥]. (أي علينا بحكم الوعد أن

---

(١) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي، المقدمة.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٢٦).

(٣) «مجمع البيان» للطبرسي (١٣: ٩٥). وينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٩: ٦٩- ٧٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٦)، (٥: ١٨٣)، (٦: ٣٤٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٦٨)، وينظر: (٧: ٢١٠).

نحصي عملك ونجمعه عليه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فتتبع قراءته عليك فعلاً فعلاً ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وإثباته إن زعمت أنك لم تفعله كلَّه أو بعضَه، هذا ملخص ما قاله القفال والبلخي[١]. وهذا الرأي بعيد فقد روى البخاريُّ والترمذيُّ[٢] في سبب نزول هذه الآية أنها كانت خطاباً للرسول ﷺ.

وممَّا نقله من «مجمع البيان» أقوال أبي مسلم محمد بن بحر المتوفى سنة (٣٢٢هـ) صاحب التفسير المفقود أيضاً المسمى «جامع التأويل لمحكم التنزيل»[٣] على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] إذ قال: «قال أبو مسلم: بل إن يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنما عنى به: إنكم سرقتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في الجُبِّ، فيكون من باب الإبهام والتعريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب»[٤]. وهذا التأويل شبه حرفي من تفسير الطبرسي[٥].

وتفسير قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ذكر أنَّ الجبائي وأبا مسلم قالا: «أي: مرجوم مرمي بالشهب»[٦].

---

(١) «مجمع البيان» (٢٩: ١٢٧).

(٢) «التاج الجامع للأصول» (٤: ٢٧٧-٢٧٨)، «صحيح البخاري» (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و«سنن الترمذي» (٣٣٢٩)، ورواه مسلم (٤٤٨). (مجد).

(٣) ابن النديم: الفهرست ص٥١، طبعة دار الحرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٢٦)، والحديث رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، قال مخرجه: صحيح موقوفاً.

(٥) «مجمع البيان» (١٣: ٩٥)، والحديث رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، قال مخرجه: صحيح وقوفاً.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢١). وفي «مجمع البيان» (١٤: ٩).

كما أخذ من الطبرسي نقولات عن الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ)، وأبي جعفر ابن بابويه القمي (ت٣٨٥هـ) العالِمين الإمامَيْن الكبيرَين، كالذي أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] إذ قال: «وقد جاء في «مجمع البيان»: قيل لأبي جعفر: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد أنبياء. ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكَّروا ما صنعوا، وقال المرتضى: لم يقم لنا حجَّة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوا كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة، إذ ليس في ظاهر الكتاب أن جميع إخوة يوسف فعلوا هذا»[١]. والنقل لكلام المرتضى من «مجمع البيان» كان باللفظ لولا ما حذف في آخر الكلام بعد إخوة يوسف «وسائر الأسباط»[٢].

ونقل من «مجمع البيان» أقوالاً لأبي إسحاق الزجَّاج (ت٣١١هـ) اللغوي النحوي كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، إذ قال: «قال في «مجمع البيان»: قال الزجَّاج: والمعنى أنَّ يوماً عند ربك وألفَ سنة واحدٌ في قدرته تعالى، فلا فرق بين وقوع ما تستعجلون به من العذاب وبين تأخُّره في القدرة، إلا أنه سبحانه تفضَّل بالإمهال إذ لا يفوته شيء»[٣]. والنقل فيه باللفظ[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٨١).

(٢) «مجمع البيان» (١٣: ١٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤١).

(٤) «مجمع البيان» (١٧: ١١٧).

كما نقل من «مجمع البيان» عن ابن جنّي من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] إذ قال: «قال ابن جنّي: والمعنى لا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا ما أمركم به الله ورسوله»(١). والكلام منقول من «مجمع البيان» باللفظ(٢).

ونقل من «مجمع البيان» من أسباب النزول كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]، إذ بيَّن أنَّ صاحب «مجمع البيان» قال: «إنها نزلت في وفد ثقيف قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاثاً، أن لا ننحني أو نحبي ـ يعنون بعض أفعال الصلاة ـ ولا نكسر أصناماً بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة. فقال رسول الله ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود. فأما كسر الأصنام بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاعة للَّات فإنِّي غير ممتِّعكم بها. فقام رسول الله ﷺ وتوضأ دفعاً لغضبه، فقال عمر بن الخطاب: ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ، إنه لا يدعُ الأصنام في أرض العرب. فما زالوا به حتى أنزل الله الآيات»(٣)، وعند الرجوع إلى «مجمع البيان» تبيَّن أن اللفظ واحد إلا عبارة «أن لا ننحني أو نحبي»، فقد جاءت في «مجمع البيان»(٤): «أن لا ننحني بفنون الصلاة».

ويبدو أن الشيخ اعتمد روايةً أخرى مأثورةً كان يحفظها، فضلاً عن أنه لم يعزُ هذه الرواية إلى راويها الأوَّل مكتفياً بإيرادها عن «مجمع البيان» على حين عزاها الطبرسيُّ إلى ابن عباس رضي الله عنه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١١٠).

(٢) «مجمع البيان» (٢٦: ٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٦٣)، ورواه بنحوه أحمد في «مسنده» (١٧٩١٣).

(٤) (١٥: ٨٠).

ونقل الشيخ رشيد عن الطبرسي أقوالاً في معاني الآي كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] إذ يقول: «قال في «مجمع البيان»: أي فإذا أوذي بسبب دين الله رجع عن الدِّين مخافةَ عذاب الناس»[١].

وقد أفاد الشيخ في مواضع من نقولات «مجمع البيان» في نحو القرآن عن بعض النحاة القدامى من غير أن يشير إليه.

فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، إذ قال: «فيجوز أن تكون اللام للأمر والكلام على التهديد، أو لام كي، والكلام لزيادة التشنيع والتوبيخ»[٢]. وهذا ما جاء في «مجمع البيان» معزواً لأبي علي ـ أي: الفارسيِّ المتوفى سنة (٣٧٧هـ) لأن الأمر يتعلَّق بالقراءات ـ[٣] «إن جعلت اللام للأمر فمعناه التهديد، أي ليجحدوا أَنْعُمَ الله في إنجائه إيَّاهم وليتمتّعوا بباقي عمرهم فسوف يعلمون عاقبةَ كفرهم، وإنْ جعلتها لام كي فالمعنى أنهم مشركون ليكفروا. وقد مرَّ معناه»[٤].

٥ـ مفاتيح الغيب:

مؤلفه أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الرازي الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري، المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٥٢٤). «مجمع البيان» (٢: ٣٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥٠).

(٣) ولأبي علي الفارسي كتاب في القراءات اسمه: «الحجَّة في علل القراءات السبعة».

(٤) «مجمع البيان» (٥٢٠: ٣٨١).

كان من مشاهير أهل العلم في عصره، متبحِّراً في العلوم العقلية والشرعية، وكان أصولياً كبيراً ومن كبار الشافعية، وله مشاركة طيبة في علوم العربية يتجلَّى ذلك في كتبه: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، و«شرح نهج البلاغة»، و«المحرر في دقائق النحو» وغيرها. وكان فوق ذلك مُبرِّزاً في الطِّبِّ والفلسفة والحكمة وعلم الكلام[1].

ويعدّ تفسيره الكبير «مفاتيح الغيب» نسيج وحده في المنهج، إذ جمع فيه بين العقل والنقل، فضلاً عن العلوم الطبيعية كالفلك والنبات وغيرهما. اعتمد الشيخ في تفسيره على «تفسير الرازي» اعتماداً كبيراً، وكان في هذا الصنيع موافقاً لعمل الشيخ محمد عبده، إذ كان هذا التفسير من مصادره المهمة.

أفاد الشيخ رشيد من «تفسير الرازي» فائدتين أساسيتين:

إحداهما: طائفة من تأويلات الرازيِّ التي عُرف بها وتفرَّد في كثير منها، كتفسير قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] إذ قال: «وقال الرازيُّ: إذا تصاعدت الأبخرةُ من البحار، فإن كان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحلُّ وينقلب هواءً، فإن لم يكن في الهواء مثل تلك الحرارة، فإن بلغت تلك الأبخرةُ المتصاعدةُ إلى الطبقة الباردة من الهواء، فإمَّا أن يكون البرد قويّاً أو لا، فإن لم يكن قوياً، تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد، واجتمع وتقاطر مطراً، وإن كان البرد قويّاً فلا يخلو إما أن يصل البردُ إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حباتاً كباراً، أو بعد صيرورتها كذلك. فإن كان على الوجه الأول نزل ثلجاً، وإن كان

---

(١) ينظر: ظلال يحيى إبراهيم: «الرازي النَّحوي» ص١٩-٢٢، رسالة ماجستير ١٩٨٦، مخطوطة. وينظر: ماهر مهدي هلال: الرازي بلاغياً، الدار الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٧. وينظر: محسن عبد الحميد: الرازي مفسِّراً.

على الوجه الثاني نزل بَـرَداً»[١]. وهذا الذي نقله استقاه باللفظ من الرَّازي[٢].

ونقل عنه طرفاً من أجوبته عمَّـا أشكل من المسائل كمـا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] إذ بيّن أنَّ الرازي قال: «فإن قيل: كم من مضطر يدعو فلا يُجاب له؟ قلنا: جاء في الأصول أن المفرد المعرَّف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوتُه في بعض أفراد الماهية، وأيضاً فإن الله تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال»[٣]. ونصُّ الرازي[٤]: «فإن قيل: قد عمَّ الـمضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ...﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب.

(جوابه) قد بيّنا في أصول الفقه أنَّ المفرد المعرَّف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهيَّة فقط والحكم المثبت للماهيَّة تكفي صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضاً فإنَّ الله وعد الاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال...».

والثانية: أنه نقل أقوالاً وتأويلاتٍ لمشاهير المفسِّرين القدامى، كالقفَّال محمدِ بن إسماعيل الشاشي[٥] (ت٣٦٥هـ)، وأبي مسلم[٦] (ت٣٢٢هـ) فممّا نقله عن الرازي

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٠).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٢٠٨-٢٠٩).

(٥) إمام في التفسير والأصول وله مصنفات جليلة منها «شرح الرسالة» وعنه انتشر الفقه الشافعي في ما وراء النهر، وكان مائلاً إلى الاعتزال ثم رجع إلى مذهب الأشعري. «طبقات الشافعية» (٣: ٢٠٠-٢٠١).

(٦) محمد بن بحر الأصفهاني، كان كاتباً مترسلاً جدِلاً، ومفسراً معتزلياً. «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٨: ٣٥).

من أقوال القفّال ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧]، إذ قال: «وقال القفّال ما ملخَّصه: إنَّ معنى الآية: إنَّ القول بالبعث سحر مبين، أي: خديعة ظاهرة البطلان وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا لينقادوا لكم، وليدخلوا تحت طاعتكم»[١].
وهذا الكلام قريب في لفظه مما ورد في «مفاتيح الغيب»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] ينقل الشيخ رأي القفّال فيها من الرازي[٣] بقوله: «ومن القائلين بشمول الزينة لمحاسن الوجه ـ القفّال، فقال في معنى الآية: إلا ما تظهر المرأة في العادة الجارية، وهو الوجه والكفّان فأُمِرنَ بستر ما لا تؤدي الضرورة إلى كشفه»[٤].

ونقل عن أبي مسلم نقولاً كثيرة منها، قوله في تفسير الآية: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، إذ قال: «وخالفهم أبو مسلم ـ أي المفسِّرين ـ فقال: ليس في الكلام ما يدلُّ على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يقصد به الامتثال، لاسيما إذا أريد به زيادة البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يُصنع الحبر؟ فتقول: خذا كذا وكذا يكن حبراً، تريد هذه كيفيته، ولا تعني تكليفه صنع الحبر فعلاً... والكلام ههنا مثل لإحياء الموتى وعَوْد الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة ودون اختلاف. ومعناه خذ أربعة من الطير فضمَّها إليك وآنِسْها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك؛ فإنَّ الطيور من أشدِّ الحيوانات استعداداً لذلك.. ثم اجعل كلَّ جزء منها على جبل، ثم

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٤).
(٢) «تفسير الرازي» (١٧: ١٨٨).
(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٢٠٥).
(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٤).

ادعها فإنَّها تسرع إليك عارفة أماكنها، لا يمنعها تفرُّق أمكنتها وبُعدُها من ذلك، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين فيكونوا أحياء، كما كان شأنه في بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] من الرازي بتصرف»[١].

وهذا الكلام استقاه الشيخ من «تفسير الرازي»، وكان النقل بتصرُّف كما أشار إذ توسَّع في توضيح فكرة أبي مسلم.

ونقل عنه في (النظم) عدداً من لفتاته الرائعة، منها ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] فقد بيَّن أن أبا مسلم قال: «ذكر في هذه الآية الأولى السموات والأرض؛ إذ لا مكان سواهما، وذكر في هذه الآية الليلَ والنهارَ؛ إذ لا زمان سواهما، والزمان والمكان هما: ظرفا المحدثات. فأخبر سبحانه أنه مالك للزمان والزمانيَّات، والمكان والمكانيَّات، ولا يخفى عليه شيء من أمرهما»[٢].

وقد استحسن الرازي هذا القولَ وعدّه «من أحسن ما قيل في نظم هذه الآية»[٣].

كما أفاد الشيخ من الرازي نقولاً عن أبي بكر بن الأنباري (ت٣٢٨هـ) والزجّاج (ت٣١١هـ)، والمبرّد (ت٢٨٥هـ).

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] يقول: «قال ابن الأنباري: أن ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء أي بأمر الله»[٤]. وهو عين ما ذكره الرازي[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٩٣). وهو في «مفاتيح الغيب» (٧: ٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٢).

(٣) «مفاتيح الغيب» (١٢: ١٣٨).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٧).

(٥) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١٧).

وفي قوله تعالى: ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٢] ينقل رأيَ الواحديِّ والزجّاج، فيقول: «قال الواحديُّ: الدَّخَل: الغِشُّ والخيانة، وقال الزجّاج: كلُّ ما دخله عيب قيل: هو مدخول وفيه دخل»[١]. وهو ما ورد في «تفسير الرازي»[٢]. وما رجح لدينا أن رأي الزجاج أخذه من الرازي برغم ورود كلام الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه»[٣] إذ إنّ رأي الواحدي والزجاج جاءا في الرازي متتابعين أيضاً.

٦ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

مؤلف هذا التفسير قاضي القضاة عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي كان إماماً في الفقه والتفسير وغيرهما، توفي سنة ٦٩١ للهجرة، وله عدّة مصنفات أهمها «المنهاج» و«شرحه» في أصول الفقه، و«الطوالع في أصول الدين». وتفسيره هذا «أنوار التنزيل» موجز استقاه من «الكشاف»، ولكنه ترك ما فيه من اعتزال وأضاف إليه أقوالاً واستنباطاتٍ أخرى[٤].

أفاد الشيخ رشيد من «تفسير البيضاوي» في عدّة مواضع، منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]، إذ قال: «وقال البيضاوي، لعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم بأن يفشلوا في ذلك لا في أمر دينهم»[٥] وهو كلام البيضاوي بلفظه، لولا إبدال الشيخ عبارة بعبارة لزيادة التوضيح فنصّ

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٩٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٠: ٨٧).

(٣) (٣: ٢١٧).

(٤) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٩٧). «طبقات الداودي» (١: ١٠٢-١٠٣). «شذرات الذهب» لعبد الحي بن العماد الحنبلي (٥: ٣٩٢)، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ١٦).

البيضاوي هو: «ولعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم».

ونقل عن البيضاوي في موضع آخر باللفظ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] إذ قال: «قال البيضاوي: وقيل المراد بالنفث في العقد: إبطال عزائم الرجال بالحيل، استعارة من تليين العقد بنفث الريق عليها ليسهل حلها»[١].

ونقل منه حديثاً شريفاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] مبيناً أن حاكيه هو البيضاوي، وهو: «روي عن ابن مسعود: أنَّ أرواحَهم في أجواف طير سُود، تُعرض على النار بكرةً وعشياً إلى يوم القيامة»[٢].

٧ـ تفسير القرآن العظيم:

مصنفه الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقيُّ الفقيه الشافعي[٣].

قال الداودي[٤]: كان قدوةَ العلماء وعمدة أهل المعاني للألفاظ، وُلِيَ مشيخة أمّ الصَّالح بعد موت الذهبي، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد موت السبكي مدة يسيرة، توفي سنة ٧٧٤هـ[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٣). وانظر: البيضاوي ص٨١٥.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠). وانظر: البيضاوي ص٦٢٤.

(٣) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٤٢).

(٤) «طبقات المفسرين» (١: ١١٠-١١٢).

(٥) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٤٤).

نقل الشيخ رشيد[١] مادة من هذا التفسير مراراً على نحو ما أورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥] فقد قال: «قال ابن كثير: أجابه سبحانه إلى ما سأل لما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقِّبَ لحكمه»[٢]. والنقل هنا باللفظ.

كما نقل عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ...﴾ [الإسراء: ٦٥] بقوله: «قال ابن كثير: إن هذا الخطاب للتكوين، فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان»[٣].

وعند الرجوع إلى موضع تفسير هذه الآية، لم يتبيَّن وجود هذا الكلام فيه[٤]،

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤١٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣: ١٥٠)، دار الأندلس للطباعة والنشر، طبعة أولى ١٩٦٦، بيروت، أشرف على طبعها وتحقيقها لجنة من العلماء، سبعة مجلدات.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٦).

(٤) كلام الحافظ ابن كثير أورده في تفسير هذه الآية من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ...﴾، ولفظُه فيه: «ومعناه: تَسَلَّطْ عليهم بكلِّ ما تقدر عليه. وهذا أمر قدريٌّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أي: تُزعجُهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقُهم إليها سَوقاً». انتهى.

وما نقله الأخ الكريم الدكتور خالد بعدَ ذلك من تفسيرِ سورةِ الأعراف قريبٌ منه أيضاً.

وقول الشيخ غفر الله له: «فهو عبارة عن بيان الواقع في صفةِ طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان» يَنسبه لابن كثير، مُصاغٌ بعبارة الشيخ حسب فهمِه لِما قرَّرَه ابنُ كثير، وبدهيٌّ ألا يجد الأخ الكريم العبارة كما أوردها عند ابن كثير، لأن ابنَ كثير أبعد ما يكون عن هذا التوجيه للنص، وهو مَنْ هو التزاماً بالنص، ودلالتِه الصارخة، ولا أرى مِن صلة، بين ما جاء في عبارة الشيخ المنسوبة لابن كثير، ولوى عنقها إليه، وما أتى على لسانِ ابن كثير في تفسيره. وينظر مقدمتي =

ولكن هناك ما قد يشبهه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] إذ فيه: «يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَدَري كوني ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبَّر فيها»(١). ومن البيِّن أن الشيخ يريد أن يؤيد رأيه في مسألة الحوار الذي دار بين الله عزَّ وجلَّ والشيطان على أنه تمثيلٌ لا حقيقة بنقول من مفسِّرٍ شديدِ التمسُّك بالأثر، ولا أدري إن كان كلام ابن كثير يفهم منه ما أراده الشيخ(٢).

٨ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:

مؤلفه برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي المتوفَّى سنة ٨٨٥هـ، وهذا التفسير كثير العناية بتناسب الآيات والسور في القرآن، يقول صاحبه: «هذا كتاب

= للكتاب وما أوردتُه من كلام شيخنا عبد الكريم تتان في التعقيب على المؤلف رحمه الله تعالى. (مجد).

(١) «تفسير ابن كثير» (٣: ١٥٠).

(٢) ليس مراد ابن كثير ما استشهد به الخطيب الموصلي من جعل الحوار تمثيلاً، ولكن ابن كثير يريد أن يبيِّن أن هذا الأمر ليس المقصود منه الامتثال، وأنَّ امتثاله ليس بطاعة، وإنما المقصود منه التخلية بين إبليس وبين ما يريد من إغواء بني آدم، وعدم منعه من ذلك، فعبَّر ابن كثير عن هذا المعنى بالأمر القدري أو الكوني، أي: يقول الله تعالى لإبليس: أنت تريد ذلك فلك أن تفعله من غير أن أحولَ بينك وبينه، وهذا المعنى لا يقتضي أن يكون الحوار تمثيلاً.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فإنّه أمرُ تهديد، ولا يعني هذا أن الله تعالى لم يُخاطبنا بهذا اللفظ، بل الخطاب صادر، لكن المقصود منه التهديد، لا الطلب.

وليكن ما في آية الإسراء كذلك، الخطاب والحوار من الله تعالى لإبليس حاصل فعلاً، وليس تمثيلاً فحسب، ولكن المقصود منه التقدير والتكوين، لا الطلب. والله تعالى أعلم. (مجد).

عجاب، رفيع الجناب في فنٍّ ما رأيت من سبقني إليه، ولا عوّل ثاقب فكره عليه، أذكر فيه إن شاء الله مناسبات ترتيب السور والآيات[١].

وقد ذكر السيوطي[٢] هذا التفسير بقوله: «أفرده بالتأليف.. ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سمّاه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»[٣].

وهو من التفاسير التي أفاد منها الشيخ رشيد في موضوع المناسبة بين الآيات آخذاً بالمعنى، وقد أشار إلى ذلك في عدة أماكن منها تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]، فقد قال: «قال البقاعي: ولمّا كان المالُ عديلَ الروح، ونهى عن إتلافه بالباطل، أردفه بالنهي عن إتلاف النفس، ولكون أكثر إتلافهم لها بسبب الأموال. فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾»[٤]. والذي وَرَدَ لدى البقاعي: «ولـمّا كان المالُ عديلَ الروح، ونهى عن إتلافه بالباطل، نهى عن إتلاف النفس لكون أكثر إتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال وما كان بسببها وتسبيبها على أنَّ من أُكِل مالُه ثارت نفسُه فأدَّى ذلك إلى الفتن التي ربَّما كان آخِرَها القتلُ، وكان النهي عن ذلك أنسبَ شيء لما بُنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾»[٥]. فيلحظ أن

---

(١) «نظم الدرر» للبقاعي (١: ٢)، طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٦٩م.

(٢) «الإتقان» (٢: ١٣٨).

(٣) وكان عدد ممَّن تقدَّمه من المفسرين يعنى بهذا اللون من علم القرآن إلا أنه لم يفرد له كتاباً خاصاً به، وهذا جليّ في تفسير «التبيان» للطوسي، و«مجمع البيان» للطبرسي، و«مفاتيح الغيب» للرازي.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨).

(٥) «نظم الدرر» (٥: ٢٥٩).

الشيخ أورد كلام البقاعي مع تغيير طفيف في أوله، ثم عدل بعد ذلك إلى التعبير عنه بأسلوبه.

٩ـ تفسير الجلالين:

ومصنّفاه الجلالان: المحلّي والسيوطي. فالأول: جلال الدين المحلِّي المتوفى سنة (٨٦٤هـ) شيخ السيوطي، وكان قد بدأ التفسير من سورة الكهف إلى آخر القرآن، وفسّر الفاتحة بعد ذلك، ثم جاء بعده تلميذُه جلالُ الدين السيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ)، وفسر من أول البقرة حتى نهاية سورة الإسراء[١].

نقل الشيخ رشيد من هذا التفسير عدّة أقوال، ويلحظ أنه ينقل أقوال الجلالين عادة من تفسير «المنار»، إذ من المعلوم أنَّ صاحب «المنار» كان ينقل أقوال أستاذه الشيخ محمد عبده في التفسير، وكان الشيخ يتكئ على «تفسير الجلالين» في دروسه التفسيرية في الأزهر، وكثيراً ما كان الشيخ محمد عبده يعلق ويعقب على أقوال الجلالين بالرد أو التضعيف ونحوهما[٢]، فمن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] إذ يقول: «وقال المفسر الجلال: الرأفة شدّة الرحمة، وقدَّم الأبلغ للفاصلة، وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشدَّ الإنكار، وينكر مثله في كل موضع»[٣]. والنقل هنا باللفظ[٤].

---

(١) «منهج الجلالين في تفسير القرآن» للدكتور كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد الخامس، حزيران ١٩٧٤ ص١٢٥-١٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠١).

(٤) «الجلالين» (١: ٢١)، مطابع دار الكتاب العربي، بمصر، محمد حلمي المنياوي.

ونقل منه في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] إذ يقول: «قال المفسِّر الجلال: إنه كان ينتظره لأن الكعبة قبلةُ أبيه إبراهيم، والتوجُّه إليها أدعى لإيمان العرب»[١].

١٠ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:

مصنفه محمد بن محمد بن مصطفى بن عماد العمادي المشهور بأبي السعود[٢]، انتهت إليه رياسة التدريس والفتيا[٣]، له تصانيف كثيرة في التفسير والفقه والقضاء والأدب، ولد عام ٨٩٨هـ[٤]، وتوفي سنة ٩٨٢هـ[٥].

نقل الشيخ من تفسير أبي السعود نقولاً كثيرة منها ما كان باللفظ، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] إذ يقول: «قال أبو السعود: وفيه تنبيهٌ لطيف على أن حقَّهم أن لا ينفكوا عنه ﷺ ويناصبوا معه معارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد معه»[٦]. وهذا عين ما جاء في تفسير أبي السعود[٧].

ومن النقولات ما كانت بالمعنى، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠٣).

(٢) «أبو السعود ومنهجه في التفسير» لعبد الستار فاضل النعيمي ص١٧-١٩، رسالة ماجستير في كلية الشريعة في بغداد ١٩٨٨.

(٣) المصدر نفسه ص٥٠.

(٤) المصدر نفسه ص١٧.

(٥) المصدر نفسه ص٣٥.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٨).

(٧) «إرشاد العقل السليم»، طبعة محمد صبيح وأولاده، مصر (٣: ٩).

﴿ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، إذ يقول: «قال أبو السعود: وفي هذا التعليل إيماء إلى أن إسراءه ﷺ إنما هو لإراءته الآيات»[١].

وعند العودة إلى تفسير أبي السعود نراه يقول: «﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية للإسراء ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابُه في برهة من الليل مسيرةَ شهر»[٢]. فمن الواضح أن العبارة مختلفة والمؤدّى واحد.

ومن الملاحظ أنَّ معظم ما أخذه من تفسير أبي السعود كان في اللفتات البلاغية القرآنية الرائعة التي استقى معظمها أبو السعود أصلاً من الزمخشري[٣].

ومن هذه اللفتات ما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] إذ يقول: «قال أبو السعود: وإيثار اسم الإشارة في قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي سبب هذا القضاء، والضمير لا يؤديه. أي دابر هؤلاء المجرمين»[٤]، والنقل هنا بتغيير طفيف[٥].

كما نقل عنه رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] وفيه تحليلٌ دقيق يتَّسم بالروعة والجودة[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥١٨).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٣: ٢٠٤).

(٣) صرح أبو السعود في مقدمته أن هدفه في تفسيره الجمعُ بين الكشاف والبيضاوي ص١-٣. وتنظر: رسالة عبد الستار النعيمي للماجستير: «أبو السعود ومنهجه في التفسير».

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٩).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٣: ١٥٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢٨٩). و«تفسير أبي السعود» (٣: ٦٣).

وقد ينقل عن أبي السعود من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]. فقد قال: «إذ لا يقدر أحد على ما يقدر عليه، وهذا الاستفهام من باب التَّرقية إلى معارج اليقين، وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للكفار بدليل قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»[١].

والذي لدى أبي السعود: «ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في الإسلام، أو ثابتون عليه. وهذا من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين، ويجوز أن يكون الخطاب في الكل للمشركين من جهة الرسول ﷺ داخلاً تحت الأمر بالتحدي»[٢].

والتشابه في العبارات والفحوى يدلُّ على أن هذا من ذاك برغم ما فيه من تغيير.

وقد يختار وجهاً من وجهين يوردهما أبو السعود على نحو ما نجد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: ٥] إذ يذكر أن المراد: «أي: يأوون إلى فراشهم»[٣] والذي ورد في تفسير أبي السعود: «أي يتغطون بها للاستخفاء على ما نقل ابن شدَّاد، أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بها»[٤].

١١ـ تفسير جزء عم:

مؤلفه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريَّة المولود سنة ١٨٤٩م،

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٨).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤: ١٩٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٠).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٤: ١٨٥).

كان عَلَماً بارزاً من أعلام الإصلاح والتجديد، شارك في ثورة عرابي، ونفي من مصر، ثم عاد وتولى الإفتاء، وتوفي عام ١٩٠٥[١].

وكان الشيخ الخطيب قد اعتمد على هذا التفسير اعتماداً كبيراً أفصح عنه في مقدمة تفسير سورة النبأ فقال: «ولما كان هدفي في هذا التفسير تتبّع أولى ما قيل في آيات التنزيل، وكان الأستاذ الإمام قد فسَّر جزءَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، عوَّلت عليه في تفسير هذا الجزء، فجاء مختصراً منه بتصرف، وأضفت كثيراً من فهمي وآرائي»[٢].

نقل الشيخ رشيد من هذا التفسير بتغيير طفيف كما في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]، فقد قال الشيخ رشيد: «قال الأستاذ الإمام: كان غير المؤمنين يسأل بعضُهم بعضاً عن رسالة النبي ويسألون غيرهم من أهل الكتاب: هل هو رسول حقاً؟ أم ما هذا الخبر الذي جاء به من أنّه مرسل من قبل الله، يدعو إلى توحيده، وإلى الاعتقاد باليوم الآخر، وهو يوم القيامة»[٣].

ومثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [عم: ٤٠] إذ يقول: «قال الأستاذ الإمام: إنما قربه لأنهم يجدون منه عقب موتهم؛ فإن الروح متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها، ولا تزال في ألم منه حتى تلاقيه»[٤].

وأما ما نقله بالمعنى فهو الأكثر، فإنَّ معظم ما أورده من تفسير مأخوذ من تفسير

---

(١) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ص١٩.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٠٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ١٠٩)، ووازن بـ«تفسير جزء عم» ص٣.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ١١٨)، ووازن بـ«تفسير جزء عم» ص٨، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، الطبعة الثالثة ١٣٤١هـ.

جزء عم مع إضافات من عنده كما ذكر. ومن تفاسير أخرى، كـ«أنوار التنزيل» للبيضاوي، و«مجمع البيان» للطبرسي، وأما ما أخذه من غير إشارة فهو كثير، ولولا ما نبه عليه ابتداء قبل شروعه في التفسير لكان مأخذاً عليه، ولم يكن منهجه ثابتاً في ذلك. فمرَّة يأخذ منه باللفظ وأخرى بالمعنى وحين لا يعزوه إليه، لا يعلم القارئ لتفسيره هل الكلام له أم لغيره.

ومن الأمثلة على ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦]، إذ يقول: «والماعون: كلُّ ما يستعان به. أي: يمنعون الناس معونتهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سدِّ حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فخاصّة المصدقين بالدِّين هي العدل والمرحمة، وبذل المعروف للناس، وخاصّة المكذّبين به هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلَّة الاهتمام بمن تلذعهم آلامُ الحاجة، وحب الأَثَرة بالمال، والتعزّز بالقوة، ومنع المعروف عمَّن يستحقه من الناس[١]. فقسم من هذا قريب من كلام الأستاذ الإمام[٢].

وممَّا يلاحظ أيضاً نقله المادة التي نقلها الأستاذ الإمام من التفاسير، من غير أن يشير إلى أنه نقلها عنه، فيبدو كأنه استقاها من مصادرها الأصلية كما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فقد ذكر أن ابن عباس قال: «هو الخير الذي أعطاه الله إيّاه، وقال أبو بشر: قلت لسعيد: إن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه»[٣]، وهذا الكلام بلفظِ ما

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٣٧٤).

(٢) تفسير جزء عم ص١٦٥-١٦٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٧٩).

أورده الأستاذ الإمام[١] بقوليه متتابعين، مما يؤكد ما ذهبت إليه آنفاً، وعلى أية حال فإن ما قدم الشيخ من أن تفسيره لهذا الجزء كان تلخيصاً لتفسير الإمام محمد عبده كان كثير الصدق مع ما وجدته عند الموازنة.

١٢ـ المصحف المفسر:

مؤلفه العالم المصري المجدِّد محمد فريد وجدي، وتفسيره من التفاسير الموجزة لإيراد المعنى الإجمالي، فهو أشبه ما يكون بتفسير معاني المفردات الغريبة، وقد نسب الشيخ رشيد لهذا المفسر قولاً نقله منه بمعناه مع الحفاظ على طائفة من ألفاظه وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فقال: «قال فريد وجدي: إنَّ مبغضَكَ هو الذي يقول عنك: بُتر محمد بموت أولاده، هو نفسه الأبتر الذي لا عقب له من عمل صالح ولا ذِكْر جميل، إذ سيهلك ويتلاشى ولا يبقى له أثر يذكر به»[٢]، والنص في تفسير محمد فريد: «وإنما يقول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك، يقال: شنأه يشنأ شنئاً أي: أبغض ﴿الْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقب له إذ لا يبقى له أثر من نسل أو حسن ذِكر، والمقطوع الذَنَب»[٣].

١٣ـ تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار:

مؤلفه الشيخ رشيد رضا تلميذ محمد عبده، ابتدأ تفسيره بأول القرآن وانتهى عند الآية (١٠١) من سورة يوسف؛ إذ عاجلته المنية قبل أن يتمّ تفسير القرآن كلِّه، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً، وينتهي المجلد الثاني عشر منه عند الآية (٥٣) من سورة يوسف.

---

(١) تفسير جزء عم ص١٦٦.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٣٨١).

(٣) «المصحف المفسر» ص٨٤٣، مطابع الشعب.

وفي هذا التفسير تَتَجلَّى روح الشيخ محمد عبده مُؤثرةً في تلميذه النابه، فروحُهما واحدة، وهدفهما ومنهجهما وأفكارهما واحدة كذلك[١].

وكان رشيد رضا قد حثّ أستاذه على أن يفسِّر القرآن، وبعد لَأْيٍ[٢] اقتنع بأن يلقي دروساً في التفسير بالجامع الأزهر، ثم على طلابه ومريديه، وكان الشيخ رشيد رضا أحرصَ الناس على تلقّي هذه الدروس ثم نشرها في مجلة المنار بعد مراجعتها مع الأستاذ، ثم جعلها تفسيراً بعد ذلك. لذا يعدّ الوارث والناقل لعلم محمد عبده، وليس غريباً أن يقول عنه الأستاذ محمد عبده: «صاحب «المنار» ترجمان أفكاري» وأنه «متَّحد معه في العقيدة والفكر والخلق والعمل»[٣].

ولئن قرَّت عين الإمام بتلميذه رشيد رضا في حياته، فأحْرِ بها أن تسعد روحه بعد مماته كذلك برشيد آخر، أحبَّ الشيخ وأخلص له وإن لم يره، وجعله أستاذه ومرجعه، ومناره بعد أن أدهشه ما كان يراه له من التعليقات العلية والتحريرات الجليلة.

يقول الشيخ رشيد الخطيب: «ولما كان صاحب «المنار» حافظاً لآراء أستاذه في تفسيره وتابعاً لآثاره في تحريره اعتمدت عليه في تأليف تفسيري»[٤].

ولذلك كثرت نقول الشيخ رشيد من تفسير «المنار»، فقد نقل عنه أقوال محمد عبده بعبارة «قال الأستاذ الإمام»[٥]، فإن كان مختصراً قال: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام»[٦].

---

(١) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧٧).

(٢) اللَّأْي: اللُّبْث والإبطاء. «لسان العرب» (لأي). (مجد).

(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧١-٥٧٢).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٦٦).

(٦) «أولى ما قيل» (٢: ١٢٦).

وقد يقول: «ذهب الأستاذ الإمام إلى أن..»[١] و«قد حقّق الأستاذ الإمام أن الآية..»[٢]. كما نقل أقوال صاحب «المنار» نفسه فضلاً عمَّا أفاده من نقولات «المنار» نفسه عن غيره كما في حديثه عن الملائكة؛ إذ نقل عن صاحب «المنار» قوله: «يشعر كلُّ من فكَّر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهمّ بأمر... قال الإمام الغزالي[٣]: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يُسمَّى مَلَكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمَّى شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمَّى توفيقاً، والهفو الذي يتهيأ لقبول الشر يسمَّى: إغواء وخذلاناً، فإنَّ المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة. انتهى باختصار»[٤].

وقد أشار صاحب «المنار» إلى أنَّ كلام الغزالي السالف نقل من كتاب «الإحياء»، شرح عجائب القلب[٥].

وواضح أنّ هذا كلام يحمل نزعة صوفية تفسر الألفاظ بمدلولات خاصة، ومعلوم أن الغزالي آل به المآل إلى التصوف. وقد أراد الشيخ محمد عبده أن يجد في كلام هذا الإمام مسوغاً لتأويلاته في موضوع الملائكة والشياطين.

وقد ينقل الشيخ رشيد الخطيب ما نقله «المنار» من غير إشارة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فقد قال: «قال الإمام أبو المنصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ) في تفسيره: نعتقد أن الجنة هذه بستان من البساتين أو غيضة من الغياض

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٦١).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣: ٢٣)، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق درويشيّة.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٧٥).

(٥) تفسير «المنار» (١: ٢٦٨).

كان آدم وزوجه منعَّمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها. وقد قال بذلك أبو حنيفة وغيره»[١].

وأكثر نقولاته من «المنار» وردت بالمعنى لأن صاحب «المنار» يطيل في الشرح والتفريع والرد على المخالفين غالباً، وهذا خلاف ما ألزم به الشيخ نفسه من الإيجاز. ولذا لجأ إلى النقل بالمعنى. والنص السابق الذي ذكرته يدل على ذلك، وقد نجد نصوصاً منقولة باللفظ كما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، فقد بيَّن أنه «قال في «المنار» ما محرَّره: وللجمل والآيات المعترضة في القرآن فوائد وحكم يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها: تنبيه الأذهان، وتجديد النشاط والتشويق إلى سماع بقية القصة بقطعها والانتقال إلى موضوع آخر، ثم العود إلى إتمامه..»[٢].

وقد ينقل النص فيسقط منه ما يُستغنىٰ عنه في أداء المعنى طلباً للإيجاز، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣]، إذ قال: «الاغتسال عبارة عن إفاضة الماء على اليدين... أن يتحرّى الإنسان في صلاته النظافة»[٣]، فقد نقل الكلام باللفظ ولكنه حذف بعد الحديث «إنما الماء من الماء»[٤] عبارة: «وقد جعل هذا من اعترض على حكمة التشريع، وقال: لو كان الدين موافقاً للعقل لما أوجب في الجنابة إلا غسل الأعضاء التناسلية»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٧٨)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٠)، ووازن بـ«المنار» (١٢: ٧١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٦٣).

(٤) رواه مسلم (٣٤٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) «تفسير المنار» (٥: ١١٨).

وقد تنوّعت مادة نقولاته من تفسير المنار، فنقل آراء مصنفه في المسائل الفقهية كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤][(١)]، وتوجيهاته النَّحوية[(٢)]، كما نقل فيه كثيراً من آراء الشيخ محمد عبده العقيدية والفكرية، كموقفه من علم الغيب[(٣)]، والشفاعة[(٤)]، والسحر[(٥)]، والملائكة[(٦)]، والمشيئة الإلهية والسنن الكونية[(٧)]، والنسخ[(٨)]، والمعجزات[(٩)]. وكلها فيها من حرية الرأي والتجديد في الفكر ما فيها، على ما هو معلوم من الشيخ محمد عبده، وسيتبيَّن مزيد من الشواهد والأفكار عند الكلام على أثر مدرسة محمد عبده في تفسير الخطيب.

أما موقفه مما نقله من «المنار» برغم وجود عدد من القضايا التي خرج فيها صاحب «المنار» وأستاذه عن رأي الجمهور وعرّضه لنقد كثير، فالحق أنَّ الشيخ رشيد كان في أغلب الأحيان مؤيداً ومستحسناً ومتابعاً لما ذهب إليه الشيخ، وقد يصرِّح بذلك كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، إذ يقول بعد عرض رأي الإمام: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام، وهذه هي الطريقة المثلى في الإيمان بالغيب من غير قياس لعالمه عن عالم الشهادة. وقد جاء عن ابن عباس

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦١)، ووازن بـ«المنار» (٢: ١٥٦).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٥٨)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤١٦).
(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٣٣).
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤٥١).
(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٤)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤٠٠).
(٦) «أولى ما قيل» (٢: ٦١)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٥١).
(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦)، ووازن بـ«المنار» (٨: ٤).
(٨) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦)، ووازن بـ«المنار» (٢: ١٣٦).
(٩) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٣)، ووازن بـ«المنار» (٢: ٤٧٠).

ما معناه: أن كلَّ ما جاء عن الآخرة ممَّا في الدنيا ليس بينها مشابهة إلا بالاسم»[١]. وقد لا يعلق على مقولات صاحب «المنار»، ويفهم من السرد أنه على هذا الرأي.

وقد وضع رأيه إزاء رأي صاحب «المنار» بدون ترجيح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، إذ قال: «أي: إلا أن يكونوا على السنة الكونية التي شاءها الله، في إمكان إيمان من أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهي أن يبقى منه بقية من نور البصيرة والتفكير الصحيح وإلا فلا. هذا ما أراه، والله أعلم».

وفي «المنار»: «والقرآن يعقِّب باستثناء المشيئة على كل مُؤبَّد، لا لإفادة نقض التأبيد، بل لإفادة أن ذلك المقرر والمؤبد بني على النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة العامة، ولو شاء غيرها لفعل».

فالمعنى: إلا أن يشاء الله غير تلك النواميس في تكوين الأخلاق والميول البشرية..»[٢].

وقبل الانتقال من هذا الموضع لابدّ من الإشارة إلى أنَّ الشيخ قد أكثر في نقولاته من «المنار» كثرة مفرطة في رأيي، وكان غير «المنار» أولى بالنقل منه، وخاصّة فيما تغني عنه التفاسير القديمة المعتمدة من المادة اللغوية.

فمثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧] يذكر أنه «قال في «المنار»: الغلو: الإفراط وتجاوز الحد في الأمر»، فلو رجع في هذا إلى كتب معاني القرآن أو غريب القرآن لأغنته عن هذا المصدر المتأخر.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٣٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦) ووازن بـ«المنار» (٨: ٤). وينظر «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٦-٢٦٧).

وأما النقل بلا إشارة فبرغم كثرة الإحالات إلى «المنار» لا نعدم عدداً من الأماكن التي أفاد فيها الشيخ رشيد من «المنار» من غير إشارة، هذا فضلاً عما نشعر به من تأثُّرٍ واضح بأفكار وطريقة تفسير «المنار»، إذ تَسْري في تفسير الشيخ رشيد من بدايته إلى منتهاه. ومن تلك الأماكن ما أورده عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

إذ تدلّ الموازنة بين كلام الخطيب وكلام الشيخ رشيد على تشابه في المعنى، بل تطابق أحياناً في العبارات. ويتضح هذا في ربط الشيخ رشيد هذه الآية بما بعدها إذ يقول: «وبعد أن ذكرهم بتلك الآية الكونية وما اتّصل بها من الهداية لهم ذكّرهم بما كان من التولّي عن الطاعة، والإعراض عن القبول، وامتنّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عمّا يستحقونه من المؤاخَذة، والعقوبة فقال: ...»[(١)].

والنصُّ مطابقٌ باللفظ لما جاء في «المنار»، ولم يشر الشيخ إلى نقله[(٢)] منه ولعلَّ هذا سهو منه.

١٤ـ تفسير في ظلال القرآن:

مؤلفه سيد قطب، وهو ناقد مصري وأديب مشهور تخرج في كلية دار العلوم مجازاً باللغة العربية وآدابها، وشارك في المعارك الأدبية منحازاً إلى العقاد، ثم التزم الأدب القرآني واستقلَّ عن العقاد ونحا منحىً خاصاً في كتاباته، أظهر فيها الكثير من الالتزام والإبداع، حتى قضى شهيداً عام ١٩٦٦م، له مصنّفات كثيرة في الدراسات النقدية والقرآنية[(٣)].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٠).

(٢) «المنار» (١: ٣٤٢).

(٣) «مع سيد قطب في فكره السياسي والديني» للدكتور مهدي فضل الله ص٤٥-٥٣، رسالة دكتوراه في جامعة السوربون، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م.

وقد نحا في تفسيره منحى أدبياً اجتماعياً أظهر فيه إعجاز القرآن وروعته بأسلوب أدبي باهر، وقد لقي هذا التفسير رواجاً طيباً.

أفاد الشيخ رشيد من تفسير «في ظلال القرآن» من غير أن يشير إليه، فقد اطّلع عليه قبل أن يطبع تفسيره، ومن الأمثلة على إفادته منه ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، إذ قال: «فصوَّرتْ وأوضحتِ الآيـةُ نوحاً الوالدَ الملهوف يبعث النداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجةُ القوية العاتية تـحسم الموقف في لحظة سـريعة خاطفة تـجعله من المغرقين»[١].

والكلام في تفسير «في ظلال القرآن» مبسوط على الوجه الآتي: «وفي هذه اللحظة الرهيبة يبصر نوح، فإذا أحد أبنائه في معْزِلٍ عنهم، وليس معهم فتستيقظ في كيانه الأبوةُ الملهوفة ويروح يهتف بالولد الشارد ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾... وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفاسنا ـ ونحن نتابع هذا السياق ـ والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ ونوح الوالدُ الملهوفُ يبعث النداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كلُّ شيء وكأن لم يكن دعاء ولا جواب»[٢].

ونستطيع أن نلمح تشابهاً في الأفكار بين التفسيرين مع شيء من التشابه في الألفاظ، ومرجع ذلك في ظنّي إلى تأثرهما بمحمد عبده وإن كان لكلٍّ منهما طريقته ومنهجه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤: ٥٤٩)، الطبعة السابعة ١٩٧١.

(٢) كتب معاني القرآن

١ـ معاني القرآن للأخفش:

مؤلفه سعيد بن مسعدة المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط المتوفى سنة (٢١٠هـ)، ويُعدُّ كتابه «معاني القرآن» من الكتب الأصيلة في موضوعه، وهي التي يطلق عليها في الاصطلاح (كتب المعاني). كـ«مجاز القرآن» لأبي عبيدة، و«معاني القرآن» للكسائي، و«معاني القرآن» للفرّاء. ويعدّ كتاب الأخفش أسبق من كتابَيْ الكسائي والفرّاء، بل إن الفرّاء أفاد منه[١].

نقل الشيخ رشيد من معاني الأخفش عدّة نقول نقلاً غير مباشر، وإنما نقله من تفسير «مجمع البيان» للطبرسي، وطريقته في النقل التصرُّف في النصّ لتوضيح الفكرة بأسلوبه وتعبيره، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] قال: «قال الأخفش: اللام متعلقة بقوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: فعلنا بأصحاب الفيل ذلك لتألف قريش رحلتها، ويؤيد هذا أنَّ السورتين في مصحف أُبَي سورة واحدة بلا فصل»[٢].

وعند الرجوع إلى «معاني القرآن» للأخفش تبين أن النصَّ مختلف في اللفظ، إلا أن ما قاله الشيخ هو معنى كلام الأخفش الذي يقول: «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، أي فعل ذلك لإيلاف قريش لتألف. ثم أبدل فقال: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ لأنها

---

(١) «معاني القرآن» للأخفش الدكتور عبد الأمير الورد، ط١٩٨٥، مقدمة المحقق. وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» للدكتور كاصد الزيدي ص٧٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٣٦٥).

من أَلَفَ. وقال بعضهم: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ جعلها من آلفوا»[١]. والراجح أنَّ الشيخ أخذ نسبة النص للأخفش من «مجمع البيان»، وذلك لأنَّ ما وَرَدَ فيه يكاد يطابقه الذي لدى الشيخ لفظاً، وهو «قال أبو الحسن الأخفش: اللام في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي: فعلنا ذلك بهم لتأتلف قريش رحلتها»[٢]. ويؤكد ذلك أنَّ «معاني القرآن» لم يكن قد طُبع قبل ظهور تفسير الشيخ كاملاً فلم يكن في متناوله. كما أنَّ حصوله على مخطوطة التفسير ليس بالأمر الهيّن.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ [المجادلة: ٣] يعرض الشيخ عدَّة أقوال في تفسير الآية ومن بينها رأي الأخفش فيقول: «وقال الأخفش: في الكلام تقديم وتأخير، تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ثم يعودون إلى نسائهم»[٣]. وقد جاء في معاني الأخفش «... المعنى فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا، فمن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً ثم يعودون لما قالوا»[٤]. وقد رجعت أيضاً إلى «مجمع البيان» فوجدته ينقل رأي الأخفش بما يقارب نصّ الشيخ رشيد، وهو: «وقال الأخفش: تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم، أي: فعليهم تحرير رقبة لما نطقوا به من ذكر التحريم، والتقديم والتأخير كثير في التنزيل»[٥].

ومِمَّا نقله عن الأخفش: أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾

---

(١) الأخفش: «معاني القرآن» (٢: ٧٤٣).

(٢) «مجمع البيان» (٣٠: ٢٤٢-٢٤٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣٢٠).

(٤) «معاني القرآن» (٢: ٧٠٥-٧٠٦).

(٥) «مجمع البيان» (٢٨: ٧).

[القيامة: ١٤] إذ يقول: «قال الأخفش: هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]»[١]. ولم أجد هذا النص في كتاب «معاني القرآن» للأخفش ووجدته في «مجمع البيان»[٢]. وهذا يؤكد أن الشيخ لم يرجع إلى كتاب «معاني القرآن» للأخفش، وإنما أخذ نقوله عن هذا الكتاب من «مجمع البيان» للطبرسي.

٢ـ معاني القرآن للفراء:

مؤلفه أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة (٢٠٧هـ)[٣]، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، وكان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، وكان ديِّناً ورعاً[٤].

وكتابه «معاني القرآن» من خيرة كتب المعاني أملاه على تلامذته فحفظ بعضهم روايته. وكان ثعلب شديد الإعجاب به[٥]. والكتاب مطبوع متداول.

نقل الشيخ رشيد من معاني الفراء عدداً من النصوص التي تتعلق باللغة، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] إذ قال: «أي: أراضٍ وجبال سوداء مُحَرَّشة، تُتَّخذ منها أحجار الطواحين القديمة. قال الفرّاء: يقال: أسود غرابيب أو أسود حالك»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٦٧).

(٢) «مجمع البيان» (٢٩: ١٢٥).

(٣) «مراتب النحويين لأبي الطيب » ص١٤١. ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٧١.

(٤) «طبقات الداودي» (٢: ٣٦٦).

(٥) «طبقات النحويين واللغويين» ص١٣٢. وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٧١.

(٦) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩)، ووازن بالفراء: «معاني القرآن» (٢: ٣٦٩)، عالم الكتب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] إذ قال: «قال الفرّاء: هي في الأصل بمعنى لا بدَّ ولا محالة، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم، وصارت بمعنى حقاً»(١). وهذا الكلام منقول من الفراء بإيجاز، فنصُّ الفرّاء هو: «﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾، كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بدَّ أنك قائم ولا محالة أنك ذاهب فجرت على ذلك، وكثر استعمالهم إيّاها حتى صارت بمنزلة: حقاً، ألا ترى أنّ العرب تقول: (لا جرم لآتينك، لا جرم قد أحسنت) وكذلك فسَّرها المفسِّرون بمعنى الحق، وأصلها من جَرَمْتَ، أي: كسبت الذنب»(٢).

وقد يورد اسم الفراء في اختيار وجه من وجوه التفسير مع عدد من المفسرين على عادته كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١] يقول: «وفي هذا التعبير تصوير لزيادة شدَّة ذلك العذاب، والمعنى كما نقل ابن مسعود ومقاتل ومجاهد واختاره الفرَّاء والزجَّاج: ارتقب يا محمد يوم شدّة ومجاعة يأتي عليهم، لأن العرب تسمِّي الشرَّ الغالب دخاناً، ونسبه إلى السماء لأنه أتى من قِلَّة المطر»(٣).

وعند الفراء: «كان النبي دعا عليهم: اللهمَّ اشدد وطأتك على مضر، اللهمَّ سنين كسني يوسف، فأصابهم جوع حتى أكلوا العظام والميتة، فكانوا يرون فيما بينهم وبين السماء دخاناً»(٤).

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤).

(٢) «معاني القرآن» (٢: ٨)، عالم الكتب، بيروت، طبعة ١٩٨٠.

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٠).

(٤) «معاني القرآن» (٣: ٣٩).

وقد ينقل عن الفراء من غير أن ينسب إليه قوله: فقد قال في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] «قال الزجَّاج: هو النهار، وقال غيره: هو بقية ضوء الشمس، والحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء»[١]. والقول بالحمرة هو قول الفراء: «والشفق: الحمرة التي في المغرب من الشمس، وسمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد الحمرة»[٢].

٣ـ معاني القرآن للزجاج:

مؤلفه أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل المتوفّى سنة (٣١١هـ)، أخذ علمه عن المبرد، وكان حسن الاعتقاد[٣]، وكتابه هذا يعدّ من خيرة ما كتب في معاني القرآن، نقله تلميذاه ابن الدينوري، وأبو علي الفارسي[٤].

نقل الشيخ رشيد للزجاج نقولاً كثيرة، ولكن يبدو أن معظمها قد استقاه من التفاسير، وخاصة تفسير الطبرسي والرازي اللذين يكثران من إيراد أقوال الزجاج، والذي رجّح لدي هذا القول: هو أن كتاب «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، طبع الجزء الأول والثاني منه في منتصف السبعينيات في القاهرة، على حين طبعت الأجزاء الثلاثة الأخيرة عام ١٩٨٨. وإذا علمنا أن تفسير الشيخ قد طبع بين عامي ١٩٧٢-١٩٧٤ صار يقيناً أن ما ذهبت إليه هو المؤكد، فضلاً عما وجدته من تطابق أو تقارب بين نصوص الشيخ والنصوص التي في هذين التفسيرين، وهناك بعض نقول لم أجدها في «مجمع

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٨٤).

(٢) «معاني القرآن» (٣: ٢٥١).

(٣) «طبقات الداودي» (١: ٧-٨).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، المقدمة بقلم محققه: د. عبد الجليل شلبي، ط١٩٨٨.

البيان» أو «مفاتيح الغيب» أو «الكشاف» ووجدتها في «معاني القرآن» فقد يكون عاد فيها إلى تفسير آخر لم أهتد إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] إذ يقول: «قال الزجَّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما تؤدِّيان إلى الجنَّة»[١].

ومطابق هذا النص ماخلا (إيتاء) فقد جاء (إتيان) في «معاني القرآن وإعرابه»[٢].

ومما جاء في «مجمع البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] إذ يقول: «وقال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة»[٣]. وقد جاء هذا في «مجمع البيان»[٤] مطابقاً باللفظ. وجاء قبله بنفس الموضوع قوله لابن الأعرابي: «لم أسمع سلسبيلاً إلا في القرآن». وهذا ما جاء عند الشيخ رشيد أيضاً مما يؤكد إفادته من «مجمع البيان»، في نقل مادة «معاني القرآن» للزجَّاج، وممَّا جاء عند الرازي تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٢][٥].

(٣) كتب أحكام القرآن

وهي الكتب التي تعني ببيان الأحكام الشرعية التي دلَّت عليها الآيات القرآنية. وقد عني بها غير واحد من علماء الأمة كالجصاص والآمدي وابن العربي، ومن الإمامية: المقداد السيوري المعروف بالقطب الراوندي. وقد نقل الشيخ من كتب أحكام القرآن بغض النظر عن مذاهب مصنفيها ومنها:

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٤٨١).

(٢) (٤: ١٣٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٨٥).

(٤) الطبرسي (٢٩: ١٥٠).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٤٩٣)، ووازن بـ«مفاتيح الغيب» (٢٠: ١٠٨).

١ـ أحكام القرآن للجصاص:

وهو أقدم كتب أحكام القرآن المشهورة، مؤلفه أبو بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي المتوفى سنة (٣٧٠هـ). كان إمام الحنفية في عصره، وله تصانيف منها «أدب القضاء»[١].

نقل الشيخ عنه أقوالاً للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة (١٥٠هـ)، من غير أن يشير إليه، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠] فقد قال: «قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام، واحتجَّ بأن مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه، وقال: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وبأن عثمان وعلياً لم يعطيا أحداً من هذا النوع»[٢]. والكلام منقول بالمعنى من «أحكام القرآن» للجصّاص فإنَّ ما جاء فيه هو: «.. فقال أصحابنا: إنما كانوا في عهد رسول الله ﷺ في أول الإسلام في حالة قلَّة عدد المسلمين وكثرة عددهم، وقد أعزَّ الله الإسلام وأهلَه واستغنى بهم عن تألُّف الكفار، فإن احتاجوا إلى ذلك فإنما لتركهم الجهاد...، وأورد قصةً جرت في عهد أبي بكر مفادها معارضة عمر إعطاء الأقرع بن حابس...»[٣]. وهو ما أشار إليه الشيخ، فأغلبُ الظنِّ أنه مأخوذ منه.

٢ـ أحكام القرآن لابن العربي:

مصنفه محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي

---

(١) «طبقات الداودي» (١: ٥٥). «أحكام القرآن» للجصاص، مقدمة الناشر، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧هـ.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١٠١).

(٣) «أحكام القرآن» (٣: ١٥٢-١٥٣).

الحافظ المولود سنة ٤٦٨هـ، كان أبوه أبو محمد من فقهاء إشبيلية ورؤسائها، رحل مع أبيه إلى الشرق ولقي فيها أكابر العلماء ومنهم أبو حامد الغزالي، ثم رجع إلى إشبيلية بعلم غزير، وله تصانيف كثيرة منها «المسالك في شرح موطأ مالك» و«القواصم والعواصم» و«أنوار الفجر في تفسير القرآن»، توفي في سنة ٥٤٣هـ[١].

نقل الشيخ عنه ذاكراً اسمه واسم كتابه بقوله: «قال أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن»: قال علماؤنا: هذه الآية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] من ثلاث كلمات تضمَّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيها حسنة إلا وعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها..»[٢].

وهذا ما ورد في «أحكام القرآن»: المسألة العاشرة...»[٣]. والعبارتان متطابقتان لفظاً.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يلقبه الشيخ بلقب القاضي فيقول: «قال القاضي أبو بكر بن العربي: إن العرب تجري في مثل هذا على إفراد العم والخال وجمع العمّة والخالة»[٤].

وما جاء في «أحكام القرآن» هو[٥]: «قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾، فذكره مفرداً. وقال: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ فذكرهنّ جميعاً. وكذلك قال: ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ﴾ فرداً، ﴿وَبَنَاتِ

(١) «طبقات الداودي» (٢: ١٦٢-١٦٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١٣).

(٣) (٢: ٨١٥)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٩٥٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٧٧).

(٥) أبو بكر بن العربي (٣: ١٥٤٤-١٥٤٥).

خَـٰلَتِكَ ﴾ جمعاً. والحكمة في ذلك: أنَّ العمَّ والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك في العمّة والخالة. وهذا عرفٌ لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال».

٣ـ الجامع لأحكام القرآن:

مؤلفه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، كان من عباد الله الصَّالحين وتفسيره من خيرة التفاسير، أسقط منه القصصَ والتواريخَ وأثبت عوضاً عنها أحكامَ القرآن، وله تصانيف مفيدة، توفي سنة (٦٧١هـ)[١]. أشار الشيخ إلى القرطبي في «تفسيره»، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] فقال: «قال القرطبي: إنَّ هذا تـمثيل لشدَّة الكرب، وإلا فلا عِشارَ ولا تعطيل، فهو كناية عن أنَّ هَوْل هذه الحوادث تَصْرِفُ من يحضرها عن أكرم الأشياء عليه لو كان..»[٢]. والكلام منقول بالمعنى فإنَّ عبارة القرطبي[٣] هي: «لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَراءُ، ولكن أراد به المثل، إنَّ هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطَّلها واشتغل بنفسه».

(٤) مصادر الحديث النبوي:

اعتمد الشيخ رشيد في تفسيره عدداً كبيراً من الأحاديث النبويَّة، استقاها من مصادر عديدة، من مصادر الحديث النبوي، كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، ومسند أحمد، ومن كتب التفسير كالطبري وغيره، وكانت غايته من إيراد الحديث إما

---

(١) «طبقات الداودي» (٢: ٦٥-٦٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٤٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ١٤٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

زيادة التفسير والتوضيح للاستدلال على وجه من وجوه التفسير وهو الأكثر، وإما التفسير المباشر للآيات، وهذا قليل.

وقد يورد الحديث بالمعنى، أو يورده بالنصّ، وقد ينسبه إلى مصدره وقد لا ينسبه، وهو في كلِّ الأحوال لا يذكر السند، بل يكتفي بتسمية الراوي الأول، وهذا هو الذي انتهجه المفسِّرون المعاصرون، وأكثر القدامى. وأهم كتب الحديث التي اعتمد عليها هي:

١ـ صحيح البخاري:

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، روى عن أحمد بن حنبل وغيره، وروى عنه مسلم والترمذي والنسائي وخَلْقٌ سواهم، وروي عن البخاري أنه قال: أخرجت الكتاب ـ يعني الصحيح ـ من زهاء ستمئة ألف حديث، له كتب كثيرة وله «التفسير الكبير»[١].

أورد الشيخ أحاديث كثيرة نسبها إلى صحيح البخاري. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿... وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] يقول: «ويؤيد ما ذكرت من إطلاق يأجوج ومأجوج على الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يومئذ ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وقد جاء فيه أن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار، فقالوا يا رسول الله وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإنَّ منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً...»[٢]، وهذا جزء من حديث رواه البخاري[٣].

---

(١) «طبقات الداودي» (٢: ١٠٠-١٠٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨). عن أبي سعيد الخدري.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤] يورد حديثاً من دون أن ينسبه إلى مصدر معين فيقول: «وقد جاء عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: إذا أرسلت كلابك المعلَّمةِ، وذكرت اسم الله فكُلْ ممَّا أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»(١).

والشيخ هنا يفسر الآية بالحديث مباشرة، وهي من آيات الأحكام التي لا يتوسع بها عادة. وقد روي هذا الحديث في معظم كتب الحديث، وجاء في صحيح البخاري بلفظه(٢).

ومن الأحاديث التي تتكرَّر في تفسيره في موضوع معجزة القرآن قول الرسول ﷺ: «وما من الأنبياء إلا وقد أعطيَ ما مثله آمن عليه البشر»(٣). وهو جزء من حديث مروي عند البخاري(٤).

٢ـ صحيح مسلم:

مصنِّفه الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المولود سنة (٢٠٦هـ)، والمتوفى سنة (٢٦١هـ) وهو ثاني كتابين يُعدّانِ أصح الكتب المصنَّفة في الحديث، الذي يقول فيه مسلم: «صنَّفتُ هذا المسند الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة»(٥).

نقل الشيخ من صحيح مسلم عدداً من الأحاديث من غير أن ينسبها إليه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ١٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٧٦) عن عدي بن حاتم.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٦٦).

(٤) في «صحيحه» (٧٢٧٤) عن أبي هريرة.

(٥) انظر: «صيانة صحيح مسلم» لابن الصلاح ص٦٧.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

«روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[١]. أورد هذا الحديث مباشرة بعد الآية لما فيه من توضيح لها؛ إذ السنة مبيِّنة وشارحة للكتاب. والحديث منقول من صحيح مسلم باللفظ[٢].

ومن الأحاديث التي يكثر دورانها في تفسيره حديث عَجْب الذنب، الذي يرويه بالمعنى، إذ يجتزئ هذا المعنى من حديث طويل ليبيّن ويوضح طريقة البحث، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧] يقول: «ذلك فتدركون قدرتنا على إعادة الموتى لأنَّ الفعلَيْن متشابهان، فقد جاء في الحديث ما معناه أن الله سبحانه يرسل يوم القيامة ما يشبه المطر فينبت به عَجْبُ الذَّنَب كما تنبت الحبة من حميل السيل[٣]. وعَجْب الذنب: جزء دقيق لا يدرك في مؤخَّر صلب الإنسان، لا يفنى أبداً وهو نواة الحياة، والله أعلم»[٤].

وجاء عند مسلم وغيره في هذا المعنى عدَّة أحاديث مختلفة اللفظ متشابهة المعنى[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٥٥) عن أبي هريرة.

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٩٥٥) عن أبي هريرة.

وقد يروي من الأحاديث ما يؤيِّد به رأيه في مسألة كمسألة رؤية الرسول ﷺ لربِّه في الدنيا، إذ يروي حديث مسروق عن عائشة[١]. ويعلّق على الحديث هكذا روى عنها، وربما روت ذلك عن رسول الله ﷺ ولكنَّها أوقفته عليها[٢].

٣ـ سنن الترمذي:

للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المولود سنة (٢٠٩هـ) والمتوفى سنة (٢٧٩هـ)[٣]، أورد الشيخ عدداً من الأحاديث منها ما اختصّ بها (الترمذي)[٤] كحديث عدي بن حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقد وفد عدي على النبي ﷺ ليُعلِنَ إسلامَه، وكان نصرانياً، فسمعه يتلو هذه الآية، فقال: «يا رسول الله لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله، ويحلّون ما حرَّم الله فيتبعونهم فتلك عبادتهم»[٥]. فهذا جزء من حديث جاء عند الترمذي[٦]، وهو مشهور عند المفسِّرين خاصة.

ويؤيِّد الشيخ ما جاء في «تفسيره» لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، من تأدية فعل المعاصي وطول معاقرتها إلى الختم والغفلة، بحديث عن رسول الله ﷺ يقول: «وقد جاء عن رسول الله ﷺ في تصوير هذا المعنى ما معناه: إنَّ

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ١٩٣).

(٣) سنن الترمذي، المقدمة، نشرة دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

(٤) سنن الترمذي (٣٠٩٥) طبعة دار إحياء التراث بيروت، تحقيق أحمد شاكر وآخرون. منصور علي ناصف: «التاج الجامع للأصول» (٤: ١٣١) تفسير.

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٨١).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٣-٢٧٤).

العبد كلَّما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتةٌ سوداء حتى يسود قلبه»[١]. والحديث رواه الترمذي[٢]. وهو مشهور يتداوله المصنفون في التفسير وفي الوعظ والإرشاد وأحوال القلوب.

٤ـ سنن أبي داود:

مصنفه الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن إسحاق الأزدي السجستاني المتوفى (٢٢٥هـ).

ومما أورده الشيخ رشيد من الأحاديث التي رواها أبو داود حديث الصدقة، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] فبعد عدة نقول، يقول: «ولقد قال ﷺ: (خير الصدقة ما أبقت غنى)[٣]. وعنه ﷺ: (طوبى لمن أنفق الفضل من ماله)..»[٤].

والحديث الأول جاء في سنن أبي داود[٥]، وهو بعض من حديث طويل مفاده أنَّ رجلاً جاء الرسول ﷺ ببيضة من ذهب، هي كل ما يملك فردَّها الرسول ﷺ وقال له: «خير الصدقة ما أبقت غنى»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٩).

(٢) في «سننه» (٣٣٣٤) بنحوه عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٣١٩).

(٥) (١٦٧٣) عن جابر بن عبد الله، ورواه البخاري (١٤٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (١٠٣٤) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه. بلفظ: «خير الصدقة عن ظهر غنى».

(٦) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥ـ سنن النسائي:

لمصنفه أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ). استقى الشيخ منه عدداً من الأحاديث من غير إشارة، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤] فقد ذكر أنه «روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله إليه»[١].

وشبيه هذا الحديث جاء في سنن النسائي[٢] والبخاري[٣] ومسلم[٤].

أما لفظه تماماً فلم أعثر عليه، وقد يكون الشيخ اعتمد فيه على حفظه فتغير في اللفظ قليلاً، وعلى أية حال فإنَّ اللفظ لا يخرج عن الألفاظ الواردة في الروايات المتعددة في الكتب الثلاثة، إذا رُدَّ بعضُها إلى بعض.

٦ـ مسند الإمام أحمد (ت٢٤١هـ):

نسب الشيخ رشيد بعض ما أخذ من الأحاديث إلى مسند أحمد بقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]: «روى أحمد وغيره عن مطرف أنه قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ضيَّعتم الخليفة حتى قُتِل ـ يعني عثمان رضي الله عنه ـ ثم جئتم تطلبون دمه؟ فقال: كنا نقرأ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً ...﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا»[٥]. وعند الرجوع إلى مسند

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٩).

(٢) في «سننه» (١٣٦٧) عن أبي هريرة.

(٣) في «صحيحه» (٨٧٦) عن أبي هريرة.

(٤) في «صحيحه» (٨٥٥) عن أبي هريرة.

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٢١).

أحمد تبيَّن أن الحديث بلفظه[١].

وأشار إشارة عابرة إلى حديث رجم ماعز والغامديَّة في إثباته لرجم المحصن، وذلك عند تفسيره لآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ [النور: ٢][٢]، وحديث رجم ماعز رواه الخمسة[٣] ومن بينهم أحمد بن حنبل[٤].

(٥) كتب النحو واللغة

١ـ الكتاب:

مؤلفه: أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه المتوفى سنة (١٨٠هـ).

نقل عنه الشيخ آراء لسيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ)، كالذي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٣-٤] فقال: «قال الخليل وسيبويه: اللام من قوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ﴾ أي: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم ببركة رحلة الشتاء والصيف آمنين مطمئنين»[٥].

---

(١) مسند أحمد (١٤١٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٧٠)، ومسلم (١٦٩٤)، وأبو داود (٤٤٣٠)، والترمذي (١٤٢٦)، والنسائي (١٩٥٦) عن جابر بن عبد الله.

(٤) مسند أحمد (١٤٤٦٢).

والذي أراه أنّه اعتمدَ في تخريجه للأحاديث بالواسطةِ عن طريق كُتُبِ التفسيرِ المتقدمة، ولم يَعُدْ إلى تلك الأصول مباشرة. (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٦٦).

وعند الرجوع إلى «الكتاب» تبيَّن النص الآتي: «قال سيبويه: وسألت الخليل عن قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ [الأنبياء: ٩٢] فقال: إنَّما هو على حذف (اللام)، كأنه قال: ولأنَّ هذه أمتكم أمة واحدة... وقال: ونظيرها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ لأنه إنما هو لذلك ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾. فإن حذفت اللام من (إن) فهو نصبٌ، كما أنك لو حذفت اللام من ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ كان نصباً»[١].

وأغلب الظن أن الشيخ نقل قول الخليل وسيبويه هذا، من «مجمع البيان»، فقد أورد الطبرسي ما يشبه عبارة الشيخ بقوله أيضاً: «قال الخليل وسيبويه»[٢]. ويؤيِّد ذلك نقله رأي الأخفش في المسألة في المكان نفسه، وقول الأخفش أيضاً من نقولات الطبرسي، وقد أشرت إليه في موضعه.

كما نقل قولاً آخر للخليل بن أحمد بقوله في وقوفه عند الآية: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] «وقال الخليل: أي قاطعةٌ لأنها أهلكتهم»[٣]. وهي أيضاً من «مجمع البيان»[٤] ولم أعثر عليها في الكتاب.

٢ـ مفردات ألفاظ القرآن:

لمؤلفه الحسين بن محمد بن علي بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني المتوفى نحو سنة (٤٠٢هـ)[٥]. وهو أحد أئمة علم القرآن، وكتابه «المفردات»: جامع لما ورد

(١) «الكتاب» (٣: ١٢٦-١٢٧).

(٢) «مجمع البيان» (٣٠: ٢٤٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٧٩).

(٤) «مجمع البيان» (٢٩: ٤٠).

(٥) «منهج الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن» لرافع عبد الله مالو ص١-١١. وقد حقق تاريخ وفاته ورجح هذا التاريخ بدلائل مقنعة.

في القرآن الكريم من ألفاظ تحتاج إلى تفسير وبيان. وقد رتبه بحسب حروف الهجاء، ويعد من المراجع الهامة التي لا يستغني عنها المشتغلون بالدراسات القرآنية[١].

أفاد الشيخ رشيد من هذا التفسير في معاني المفردات القرآنية، فأشار إليه بعبارة: «قال الراغب». ومنهجه في ذلك: عدم الإكثار في النقل عنه، وعدم التوسع فيه؛ إذ كان يقتصر على ما يفي بغرضه لتوضيح دلالة المفردة، ويدع التفصيلات اللغويّة التي قد لا يهتم بها إلا المختصون؛ ولذلك قلَّما نجد له نقلاً كاملاً لما ورد في معنى مفردة ما. وغالباً ما يحذف من كلام الراغب مختاراً منه ما تمس حاجته إليه، وهو أمر معهود لدى كلِّ من يقتبس أو يستشهد، ويمكن أن نبين ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] إذ يقول: «قال الراغب: التَّحريضُ على الشيء: بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه»[٢]. والذي في المفردات: «الحَرْضُ ما لا يُعْتَدُّ به ولا خير فيه، ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك: حَرِضَ...»[٣]. ويسترسل بعد ذلك في التفصيل اللغوي.

وصنيع الشيخ في مثل هذا لا مندوحة عنه، لأن الراغب يتناول المفردة بالطريقة المعجمية وبمختلف استعمالاتها، أما الشيخ فيفسِّر المفردة ضمن موقعها في الآية، فضلاً عمَّا يجتنبه من الخوض في التفصيلات اللغوية التي تطيل التفسير، وقد تُلْحِق الملل بالقارئ.

---

(١) مقدمة محقق كتاب «المفردات»، «طبقات المفسرين» للداودي (٢: ٣٢٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٨).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» ص١١٣-١١٤، مادة (حرض)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

على أنه قد يتوسَّع في النقل قليلاً لعضد وجه بلاغي يراه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] إذ يقول: «هذا الوصف للمبالغة في المعنى أي: ظلاً وارفاً، وأراد به عيشاً رغيداً فعبَّر عنه بأخصِّ صفاته، قال الراغب: الظلُّ أعمَّ من الفيء، يقال: ظل الليل، ويقال لكل موضع لم تصله الشمس: ظلّ، ولا يقال: فيء إلا لما زال عنه الشمس»[١].

فمن الملاحظ أنَّ ما نقله، لا يبدو كأنه من قبيل تفسير مفردة غريبة تحتاج إلى بيان، ولكن لإظهار سرّ اختيار هذه اللفظة في هذا الموقع. وهو ما عُني به الراغب.

وقد يفيد من الراغب من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] إذ يقول: «وعُدِّيَ بإلى لِتَضَمُّنِه معنى الإفْضاء»[٢] وهو مطابق لعبارة الراغب في «المفردات»[٣].

(٦) كتب البلاغة والنقد:

١ـ العمدة، **لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة (٢٥٦هـ)**[٤].

وكتابه هذا «جمع أحسن ما قاله كلُّ واحد ممَّن صنَّف في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه..»[٥]. أفاد الشيخ من هذا الكتاب في موضوع التكرار وقد أشار إليه في قوله: «وقد عقد ابن رشيق القيرواني في العمدة باباً للتكرار في أشعار العرب لأغراض

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٧٦) ووازن بـ«المفردات» ص٣١٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٣).

(٣) ص١٩٩.

(٤) «العمدة» ص١، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١.

(٥) المصدر نفسه ص٤.

منوَّعة، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير»[١]. وهذا وارد في كتاب «العمدة» إذ جاء فيه «باب التكرار متى يحسن ومتى يقبح»[٢]، وممَّا جاء في هذا الباب قوله: «ومن المعجز من هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦] كلما عدَّد منَّة أو ذكّرَ بنعمة كرَّر هذا...»[٣].

٢ـ دلائل الإعجاز:

مؤلفه: الإمام عبد القاهر الجرجاني البلاغي النَّحوي المشهور الذي من مصنفاته: «المغني في شرح الإيضاح»، و«المقتصد في شرح الإيضاح»، و«دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة».. توفي سنة (٤٧١هـ)[٤]. وكتابه «دلائل الإعجاز» من أهمِّ وآصل كتب البلاغة والإعجاز.

وقد أفاد منه الشيخ رشيد، فاستقى منه ما وَرَد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] إذ قال: «وقد جاء في «دلائل الإعجاز»: إنَّ بعض المفسرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، فأفسدوا المعنى وأبطلوا الغرض ولم يوفَّقوا لما هو المقصود وما به المراد»[٥]. والكلام منقول بلفظه من «دلائل الإعجاز»[٦]. كما نسب إليه قولاً آخر هو: «متى توفَّرت العناية بالاسم يؤتى بالظاهر فيه موضع المضمر، لأن الكناية لا تبلغ مبلغ التصريح،

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٤).

(٢) «العمدة» (٢: ٧٣-٨٠).

(٣) المصدر نفسه (٢: ٧٥).

(٤) «طبقات الداودي» (١: ٣٣٠-٣٣١).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٤).

(٦) للجرجاني ص٢٣٦.

كما جاء في «دلائل الإعجاز»[١]. ولم أعثر على هذا الكلام في «دلائل الإعجاز» أو «أسرار البلاغة»، بل كان الجرجاني يؤكِّد في أكثر من موضع أن الكناية أبلغ من التصريح[٢].

٣ـ مفتاح العلوم:

مؤلفه السكَّاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد أبي يعقوب من أهل خوارزم، كان عالماً في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلِّماً وفقيهاً، ولد سنة (٥٥٤هـ)، توفي سنة (٦٢٦هـ)[٣].

نقل الشيخ من السكَّاكي قوله: «قال السكَّاكي: إنَّ إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه»[٤]. وهذا القول ورد في «مفتاح العلوم» بلفظ مقارب جداً، هو: «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدْرَك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تُدْرَك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذَّوق ليس إلا.

وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين[٥]. نعم للبلاغة وجوه ملتئمة ربما تيسَّرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا»[٦].

كما يلحظ استفادة الشيخ من كتاب «مفتاح العلوم» في مباحثه البلاغية من غير

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٨٩).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٥٢، ٢٣٦، ٣٤٣.

(٣) «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٢: ٥٩). وينظر: مقدمة محقق «مفتاح العلوم» أكرم عثمان يوسف، الطبعة الأولى ١٩٨١، مطبعة دار الرسالة ص١٦-٢٢.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٣).

(٥) يعني المعاني والبيان.

(٦) «مفتاح العلوم» ص٦٥٣.

إشارة إليه في مواضع، ومن ذلك قوله: إن إظهار لفظ الجلالة، فيما حقه الإضمار لتربية المهابة في النفس[١].

٤ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز:

مؤلفه عـزُّ الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمي الشافعي، الملقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام، مَهَر في العربية، ودرّس وأفتى، وبلغ رتبة الاجتهاد، له مصنفات كثيرة منها: «تفسير القرآن»، و«مختصر مسلم»، توفي سنة (٦٦٠هـ)[٢].

نقل الشيخ رشيد عنه في موضوع التكرار بقوله: «وقال شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام في كـتابه «الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز»، وهو في مجازات القرآن: «وأما قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦] فيجوز أن تكون مكرَّرة على جميع أنعمه في هذا الكون، لا خاصَّة بمـا قبلها، بل لا تعلق لها به في بعض الفقرات، وتجوز أن يراد بالأولى ما تقدّمها من النِّعم، وبالتالية ما تقدم على الأولى والثانية، والرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة وهكذا إلى آخر السورة»[٣]. وهذا النص منقول باللفظ من كتاب «الإشارة»[٤].

كما أفاد منه في نقله عدداً من أنواع المجازات القرآنية وأبرزها (مجاز التضمين)[٥] الذي نال عناية الشيخ في تفسيره وعدَّه من وجوه البلاغة، متابعاً بذلك الشيخ العزَّ بن عبد السلام.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٤، ٥: ٣٣٥)، ووازن بـ«مفتاح العلوم» ص٣٩٤.

(٢) الداودي «طبقات المفسرين» (١: ٣٠٨-٣١٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٢٥٠).

(٤) «الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز» ص٢١٧-٢١٨، دار الطباعة، القاهرة ١٣١٢هـ.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٥)، ووازن بـ«الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز» ص٥٥-٥٦.

(٧) كتب منوعة في الدراسات القرآنية:

١ـ الإتقان في علوم القرآن:

لجلال الدين السيوطي ٩١١هـ. نقل منه الشيخ عدة نقول منها في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ...﴾ [البقرة: ٢٢٦] إذ يقول: «قال السيوطي في «الإتقان» ما ملخصه..»[١]. كما نقل نفس الموضوع في مقدمته تحت عنوان «نموذج من بلاغة القرآن» مبيناً أن السيوطي منتحلٌ من كلام ابن أبي الإصبع المصري في بديع القرآن[٢].

٢ـ مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن:

لـمحمد فريد وجدي، أفاد من هذه المقدمة عدداً من المباحث أو ما يسمِّيها بالمقدمات في مقدمة تفسيره، إذ نقل عنه نقلاً شبه حرفي الفصول الآتية: «الوجود في القرآن»[٣]، و«الإنسان في نظر القرآن»[٤]، و«الدنيا في نظر القرآن»[٥]، و«العبادات في نظر القرآن»[٦]، و«الجهاد في نظر القرآن»[٧]، و«الحكومة في نظر القرآن»[٨]،

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٦٨)، ووازن بـ«الإتقان» (٢: ١٢٣-١٢٤)، الطبعة الأولى، البابي الحلبي، مصر.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٥٧)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٠.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧٥٩)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٥٩.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٧٦٤)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٢.

(٦) «أولى ما قيل» (١: ٧٦٧)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٧.

(٧) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٠)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٦.

(٨) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٢)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٦.

و«المعجزات»[١]، و«الولاية والكرامة»[٢]، و«الشفاعة والتوسل»[٣].

٣ـ التصوير الفني في القرآن:

وكما أفاد الشيخ من تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب من غير أن يشير إليه، أفاد كذلك من كتابه المشهور «التصوير الفني في القرآن»، وهو كتاب ظهر عام ١٩٤٥، ويتميز بالجدَّة والابتكار، إذ أفاد من الدراسات الغربية في الصورة الفنية، وطبَّق ذلك على القرآن وأبرز جانب التصوير في القرآن بمعزل عن مباحث البلاغة المعهودة، بل كانت المصطلحات المسرحيَّة هي المفضَّلة لديه في وصف صور القرآن: من مشهد وستار ورقعة وأضواء وحركة وإيقاع. ويمكن أن يلمح تـأثر الشيخ بهذا الكتاب في قوله: «فالتمثيل والتصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسوسة أو المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبيَّة والطبائع البشريَّة، كما في قصة آدم وإبليس..»[٤].

وكرَّر نفس العبارة في مكان آخر بقوله: «ومن أساليب القرآن المنطق الوجداني المؤدِّي إلى الإقناع والشعور بالواقع بصورة الملموس، دون المنطق الذهنيِّ المرتبك العسير.. ولذلك كان أغلبَ أداة التعبير في أساليب القرآن التمثيلُ والتصويرُ، حيث يعبر بالصورة المحسوسة المتخيَّـلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبية والسنن الكونية والطبائع البشرية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٤)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٩

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٦)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٧٢.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٨)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٧٤.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وهو الأسد، فعبر بهذه الصورة المحسوسة عن المعنى الذهني وهو نفرتهم الشديدة من الدعوة إلى الحق والإيمان»[١].

ويقول سيد قطب[٢]: «التصوير الفني هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن فهو يعبِّر بالصورة المحسوسة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسيَّة عن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشريَّة، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة والحركة والتجدد...».

ولا بد أن نبيِّن أمراً، وهو أن الشيخ قد جعل قصَّة آدم وما جرى فيها من حوار بين الله عزَّ وجلَّ والملائكة، وبين الله تعالى وإبليس من هذا القبيل، وهذا الأمر لم يقصده سيد ولم يقُل به[٣]، وإنما عنىٰ الشقَّ الثاني من التمثيل كالذي مثل له الشيخ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

(٨) مصادر أخرى متفرقة:

١ـ الرسالة:

للشافعي محمد بن إدريس المتوفَّى سنة (٢٠٤هـ) وهو إمام في العلوم الدينية والعربية ورسالته هذه في أصول الفقه وتعدّ أقدم مصنف من نوعه. نقل عنه الشيخ رشيد مؤيِّداً دعواته إلى تعلم العربية لكلِّ مسلم بقوله: «وجاء في رسالة الشافعي صحيفة (٤٨) رقم (١٦٧) ما محصله: أنَّ تعلُّم العربية واجب على كل مسلم كبقية

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٥) ووازن بـ«التصوير الفني في القرآن» ص٣٤، دار المعارف، ط٩، ١٩٨٠.

(٢) «التصوير الفني في القرآن» ص٣٤.

(٣) في «ظلال القرآن» (١: ٥٩)، حيث أكَّد على ذلك بوضوح وجلاء.

الواجبات»[١]. وهذه هي المرة الوحيدة التي يشير فيها الشيخ إلى رقم الصفحة ورقم المسألة في مصدر من المصادر، وقد نقل منه بالمعنى إذ أن نصَّ الشافعي مختلف اللفظ[٢].

٢ـ اختلاف الحديث، للشافعي:

نقل منه قولاً لغوياً بقوله: «قال الشافعي في كتاب «اختلاف الحديث» في باب لحوم الضحايا: القانع: السائل، والمعتر: الزائر والمار بلا قوت»[٣].

٣ـ الفصل في الملل والنحل:

للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري المتوفى سنة (٤٥٦هـ) الفقيه العالم، والمفكر الإسلامي الكبير.

نقل الشيخ منه عدَّة نقول؛ منها قوله في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، فقال: «ولقد جاء في أوائل الجزء الرابع من «الملل والنحل» لابن حزم عند الكلام في يوسف عليه السلام أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ ...﴾ أنه همّ بضربها والإيقاع بها، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] ولكنه امتنع من ذلك لبرهان أراه الله إياه، فرأى أن الفرار أجدى من ضربها والفتك بها»[٤].

وعند الرجوع إلى كتاب ابن حزم وجدته يذكر وجهين في تفسير الآية، أولهما:

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٧).

(٢) الشافعي: «الرسالة» ص٤٨.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٤)، ووازن بكتاب «اختلاف الحديث» ص٢٤٦، وهو في هامش الجزء السابع من كتاب الأم للشافعي، طبعة أولى ١٣٢٥هـ، مطبعة بولاق، مصر.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٣).

١٢٠ ـــــــ

تلخيص من فصلين في الكتاب، الأول: بعنوان: (القضاء على المملكتين)[١]، والثاني بعنوان: (العبرانيون في المنفى ونجاتهم)[٢].

(٩) النقل عن المستشرقين والفلاسفة وعلماء النفس:

ولحداثة تفسير الشيخ رشيد وحبِّه التجديد ولعقليته المَرِنة، نقل عن المستشرقين، فلم يَرَ في ذلك بأساً مادام يعي ما ينقل ويميّز النافع من الضار، من ذلك قوله عند تفسير الآية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]: «وقد شهد بذلك الأجانب أيضاً... قال أحد المستشرقين أرمينوس فامباري: كان الإسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم، شورى وديمقراطية، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل..»[٣].

وقد أورد آراء كثيرة عن الفلاسفة وعلماء الطبيعة والمُحْدَثين لتأييد أقواله، كقول أرسطوطاليس: «إذا نازعتك نفسك إلى الشهوات واللذات فاعلم أنها نزعت بك إلى شرِّ منزلة»[٤].

وقول نيوتن: «إنَّ الناس مع كل ما بلغوه من المعرفة... ليسوا إلا أولاداً صغاراً يلتقطون الأصداف التي يقذف بها بحر الحقائق»[٥].

كما نقل عن علماء النفس من غير أن يسمِّيهم بقوله: «يقول علماء النفس»[٦].

---

(١) «تاريخ العصور القديمة» ص١٦١، المطبعة الأمريكانية في بيروت ١٩٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص١٦٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٤١٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٨٤). ومثلها عن أفلاطون (٥: ١٨٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٢١).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣١٥).

وقد يُبهم من ينقل عنهم من القدامى والـمعاصرين، فيقول مثلاً: «قال بعض أهل العصر»[١]، أو «قال بعض المفسِّرين العصريين»[٢]، أو «منهم من فسَّر»[٣].

وقد يوغل في الإبهام فيكتفي بعبارة «قيل...»[٤]، و«قال الجمهور»[٥].

* * *

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٧).
(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢١).
(٣) «أولى ما قيل» (٢: ١٢٥).
(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٨٣).
(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٩٥).

الفصل الثاني
التفسير النقلي

عُنيَ الشيخ رشيد بالتفسير النقلي شأنه شأن أيِّ مفسِّر للقرآن الكريم، غير أنَّ عنايته به لم تكن بقدر عنايته بالتفسير العقلي والتأويل، وهذا يرجع إلى اعتماده على العقل كثيراً، وتأثره بمدرسة الشيخ محمد عبده.

المبحث الأول
تفسير القرآن بالقرآن

يعدُّ تفسير القرآن بالقرآن أهمّ الطرق[١] والأساليب التي يعمد إليها المفسِّر لبيان معاني الآي لأنَّ القرآن وحدةٌ متكاملةٌ يُتمُّ بعضه بعضاً، ويَشهدُ بعضُه لبعض، وقد فسر النبي ﷺ آياً من القرآن بالقرآن وأشار إلى أهميته ابن تيمية المتوفى (٧٢٨هـ) وعدَّه: من أصح طرق التفسير، فما أُجمل في مكان فُسِّر في آخر، وما اختصر في مكان بُسط في آخر[٢].

وقد أفرد الشيخ عبد الكريم الخطيب تفسيراً وَفْقَ هذا المنهج من التفسير[٣].

وقد عُني الشيخ رشيد بهذا النوع من التفسير، وأول ما يؤكد ذلك أنه نظر إلى القرآن الكريم نظرة تكامليَّة عامَّة وفسَّره على هذا الأساس، ومقدمة تفسيره محاولة

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢: ١٧٥).

(٢) «مقدمة في أصول التفسير» ص٩٣. وينظر: «تفسير القرآن بالقرآن: نشأته وتطوره حتى عصر الجلالين» لكاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ١٢، ص٣٧٦.

(٣) ينظر: «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» لعبد المجيد المحتسب ص٧١-٩٩.
قلت: وللباحث يحيى محمد دخل الله دراسة علمية عن هذا الكتاب عنوانها: «منهج التفسير القرآني للقرآن» لصاحبه عبد الكريم الخطيب، ولشيخنا العلامة الدكتور فضل حسن عباس نقد لهذا التفسير وما فيه من دَخَل، وهو من أبعد التفاسير عن المأثور، إذ اعتمد ـ كما ذكر ـ عقله الحر، فأتى بالغرائب. (مجد).

جادة منه لبيان أسس وخصائص عامَّة للقرآن الكريم، استنتجها من خلال تفسير الآي والموازنة بينها بردِّ بعضها إلى بعض، فقد بيَّن أن القصص القرآني أُجمل في مكان اكتفاءً بما فُصِّل في مكان آخر، وذلك تمشياً مع مقتضيات الأحوال والأغراض في ذلك السياق[١].

والسياق في القرآن قرينة مهمَّة عند الشيخ في فهم المعنى وفي استنباط الأحكام، وهذا ما جعله يربط بعض الآيات ببعض، ويتحرَّى المعنى في ضوء السياق، فيفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] أنَّ الخراب ليس هدم حجارتها فحسب، بل تعطيلها عن عبادة الله الحقَّة، وذلك بقرينة ما قبلها من الآيات التي تتحدَّث عن اليهود والنصارى، وهم الحريصون على بناء البِيَع والكنائس[٢].

ويردُّ على الذين يقتطعون الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] من سياقها ليفسِّروها على هواهم، ويترخَّصون بها الفدية بَدَل الصوم مطلقاً، مؤكِّداً أنَّ هذا المعنى لا تتحمَّله[٣] الآية ولا السياق... إذ ليس من المنطق أن يحتِّم القضاء على المريض الذي رخص له بالفطر مع عذره، ثم يرخص بالفدية وحدها للصحيح القدير»[٤]. فالسياق وسيلة مهمَّة لدى الشيخ في تفسير الآيات وبيان المراد منها.

وفسَّر كثيراً من الآيات بما يُناظرها في المعنى والفحوى، ففي قوله تعالى:

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٥)، (٥: ٣٦٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٦٦). وينظر: صبحي الصالح: «مباحث في علوم القرآن» ص١٣٩-١٤٠.

(٣) كذا في الأصل، وأغلب الظن أنه (تحتمله).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٢).

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] يقول والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١][(١)].

وهذا يُرجِّح وجهاً من وجوه التفسير بآية قرآنيَّة تكون قرينة على أرجحيته، وإن لم تقع في السياق، بل في موضع آخر من القرآن على نحو ما بيَّنه في قوله تعالى: في سورة الأعراف [١٣٧] ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ إذ احتمل للتدمير معنيين: أحدهما: التدمير الحقيقي، والآخر: الإجلاء، ورجَّح الثاني منهما مستدلاً بقوله تعالى في سورة الشعراء [٥٧] ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[(٢)].

وفصّل بالقرآن ما أُجمل في بعض المواطن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] إذ قال: «وقد فسّرت العهدين سورة المائدة [١٢] ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾»[(٣)]. أو بعبارة أخرى: أنَّ العهد الأول: استجابتهم لله عزَّ وجلَّ بالتعبُّد له، والثاني: غفرانُ سيِّئاتهم، فهما عهدان متقابلان في النصّ الأول وكذلك في النصَّين الآخرين الذين رآهما مُفَسِّرين لذلك النص.

وحمل المجمل في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] على المبيَّن في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][(٤)]. أي إنَّ الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربِّه بعد الخطيئة إنَّما هي هذه العبارة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥٢)، وينظر: (٣: ١٨٥)، (٣: ٣٩٤)، (٤: ٢٠)، (٥: ٢٤)، (٦: ١٩٤)، (٦: ٢٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١١).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٨٤)، وينظر: (٧: ٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٨٩).

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الاستعانة بآيات من القرآن لتأييد فكرة وتوضيح رأي أراده الشيخ كالذي بَيَّنَه في تأويل الآية المتشابهة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إذ قال: «إنَّ هذه الجملة لا ينظر فيها إلى معناها الإفرادي... ولكن ينظر إلى فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه على هذه الموجودات...، والمعاني التركيبيَّة التي لا تراعي فيها المعاني الإفراديَّة موجودة في اللغة وفي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]»[(١)].

وقد يستدلُّ بآياتٍ قرآنيَّةٍ على وجهٍ نَحْوي ذهب إليه ورآه كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، إذ قال: «وكذلك (أو) الترديّة مستعارة من حال المخاطَبين، على نهج القرآن في كلِّ ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]»[(٢)]. وفي قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، يقول: «وكلمة (لا) مزيدة للمبالغة في نفي متعلق العلم الآتي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]»[(٣)].

ومن تفسيره القرآن بالقرآن: جمعه بين ما يتوهَّم أنه مختلف اختلاف تناقض، من الآيات كتلك التي وردت في خلق آدم عليه السلام، فقد وَرَدَ بعضها أنه خلق من تراب، وفي موضع: من حمأٍ مسنون، وفي ثالث: من طين لازب، وَوَرد في رابع: من

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١١٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

صلصال. وهذا لا تضادَّ أو تناقض بينه البتة، إذ إنَّ هذه أحوال مختلفة درج عليها آدم في تطورات خلقته، فعبَّر القرآن في كلِّ موضع بما يناسبه من تلك الأطوار حسب مقتضيات البلاغة ومناسبات الأحوال[١].

ومن ذلك: الجمع بين ما يوهم التعارض من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، إذ بيَّن أنَّ التساؤل في الآية الأولى بمعنى تساؤل التناصر والتناجد، كما هي عادتهم في الدنيا... والتساؤل في الثانية للاستفسار والاستعلام الملفوف بالندم والتوبيخ، فاتَّفق التساؤل في الجنس واختلف في النوع على منهج القرآن في مثله[٢].

وعبارة (نهج القرآن في مثله) تدلُّ على أنه يَـرُدُّ آيَ القرآن بعضها إلى بعض في نظرةٍ شاملة، عند تأمُّله في المعنى وطلبه التفسير.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: رد الآيات المتشابهات إلى المحكمات وسَيَرِدُ الحديث عنه في التفسير العقلي إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٧)، وينظر: (٤: ٤٢٦).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٨). ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٠٩.

المبحث الثاني
تفسير القرآن بالسّنة النبويَّة

السنَّة النبويَّة هي المصدر الثاني في تفسير القرآن الكريم، وفي الشريعة كذلك، والمسلمون مجمعون على أنَّ أعرف الناس بكتاب الله هو رسولُ الله ﷺ، ولكنهم مختلفون في مقدار الآيات التي فسَّرها؟

فمن العلماء من ذهب إلى أن الرسول ﷺ بيَّن لأصحابه كلَّ معاني القرآن، كابن تيمية[١]. ويعضد هذا الرأي كلام للإمام علي رضي الله عنه في «نهج البلاغة» يقول فيه متحدِّثاً عن الرسول ﷺ: «فقبضه إليه كريماً ﷺ وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم: كتاب ربكم فيكم مُبيِّناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله...»[٢].

وذهب كثيرون إلى أنه ﷺ لم يفسِّر إلا عدداً قليلاً من الآيات ومنهم السيوطي[٣].

وقد وقف الشيخ رشيد في تفسيره مع الفريق الثاني؛ إذ استدلَّ بأدلَّتهم، ومنها: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها التي تقول فيه: «لم يكن النبي ﷺ يفسِّر شيئاً من

---

(١) مقدمة في «أصول التفسير» ص٤٥-٤٦. وينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٤٩).

(٢) «نهج البلاغة» للشريف الرضي، شرح: محمد عبده (١: ٢٥-٢٦). وينظر: «التفسير في نهج البلاغة» لكاصد الزيدي، مجلة رسالة الإسلام لكلية أصول الدين ببغداد، العدد ٣، ٤، لسنة ١٩٧١م، ص٣٢-٣٣.

(٣) «الإتقان» (٢: ٢٢٨).

القرآن إلا آيات تُعد، علمهنَّ إيَّاه جبريل» فعلَّق الشيخ رشيد على الحديث بقوله: «وما ذلك إلا لإطلاق العقول وإفساح المجال في فهم ما يتضمَّنه هذا القرآن العظيم»[١].
كما استدلَّ على ذلك بتعدُّد آراء الصحابة في تفسير كثير من الآيات.

أفردت معظم كتب الحديث باباً خاصاً في التفسير جمعت فيه ما ورد عن الرسول ﷺ في تفسير القرآن كما ضمَّت كتب التفسير بعامَّة طائفة من الأحاديث لبيان معاني الآي، وقد فسَّر الشيخ رشيد عدداً من الآيات بهذه الأحاديث النبويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] إذ أورد الحديث الدالَّ على ذلك وهو أن عروة سأل خالته عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: «يا ابنَ أختي: هذه اليتيمة تكون شريكةً في ماله فلا ينكحها غيره، كراهيةَ أن يشركه أحدٌ في ماله فنُهوا عن ذلك»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]، أورد الحديث الذي يقول: «إنه جبل من النار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً»[٣].

وقد يفسِّر الآية بحديث بناءً على اختياره لمعناه، ثم يذكر رأياً يذهب إلى معنى آخر، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿...وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، إذ أورَدَ الحديث الصحيح المروي عن الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه[٤] الدالَّ على أنها صلاة العصر، فقال: «وللعلمـاء في الصلاة الوسطى أقوال أصحُّها أنها صلاة العصر لحديث علي:

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢).
(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١١). وينظر: «التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ» لمنصور علي ناصف (٤: ٩١)، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٥م.
(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٥١)، وينظر: (٢: ٢٤٨)، (٤: ١٨٦)، (٦: ٣٣٠)، (٦: ٣٧٨).
(٤) صحيح مسلم (٦٢٧).

(شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر)». ثم قال: «وقال الأستاذ الإمام: يتبادر إلى فهمي أنَّ المراد بالصلاة الوسطى: الصلاة الفُضْلى وهي التي يحضر فيها القلب»[١].

وكثيراً ما يُورد التفسير بالسنّة بالمعنى من غير أن يشير إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فقد جاء في الأثر أن الرسول ﷺ فسرها بسواد الليل وبياض النهار في ردِّه على سؤال عَدِيّ[٢] وفسَّر الشيخ الخيط بتبيُّن الفجر، وبيَّن سرَّ هذا التعبير بقوله: «والتعبير بالخيط على وجوب التدقيق في طلوع الفجر الصادق»[٣].

ومثله ما قاله في تفسير الآية: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] إذ سمَّى الطائفتين بقوله: «هما بنو سلمة وبنو حارث من الأنصار»[٤]. وقد وَرَد ذلك في حديث صحيح رواه الشيخان[٥].

ومثله ما وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] إذ فسَّر الظلم بمعنى الشِّرك، ولم يورد الحديث المشهور في تفسيرها[٦]. والحديث رواه الترمذي والشيخان[٧].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٤٥).

قلت: وهو ما رجَّحه العلامة محمد أبو زهرة في «تفسيره» المطبوع باسم «زهرة التفاسير»، وفي «الفتاوى» له أيضاً. بجمعي وترتيبي وتحقيقي. (مجد).

(٢) والحديث رواه البخاري (١٩١٦) ومسلم (١٠٩٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٣٣).

(٥) رواه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥) عن جابر بن عبد الله.

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٣٣٣).

(٧) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد يأخذ بعموم اللفظ في التفسير، مع وجود حديث عن الرسول ﷺ يخصِّص المعنى، وهذا في الواقع لا يتنافى مع ما ورد في السنَّة إذ يكون المعنى المروي أحد مصاديق المعنى وفرداً من أفراده.

فـفي قـوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يذكر أن ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: «وهم الذين خرجوا عن الحقّ بعد علمهم به، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: وهم الذي لم يعرفوا الحق ولم يطلبوه»[١]. والذي جاء في الحديث هو أن «اليهود: المغضوب عليهم، والنصارى: ضلال»[٢]، وهذا الذي ذهب إليه سبقه إليه بعض كبار المفسِّرين في أخذهم بعموم اللفظ، لأنه أشمل وأكثر فائدة، بحيث ينطبق مفهومها على كلِّ من له صفتهم.

ويقف عند قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يبيِّن زَيْغَ اليهود عمَّا أُمروا به في ﴿قُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، وهو أنهم «دخلوا يزحفون على أستاههم فَبَدَّلوا: وقالوا «حطَّة حبة في شعرة»[٣]. فلم يُشِر الشيخ إلى الحديث، وإنما أورد قولاً آخر قريباً من فحواه، بقوله: «فخالف الذين عصوا، وغيَّروا ما أُمروا به، فقالوا غير ذلك، واختلف في ذلك الغير فقيل: إنهم قالوا بالسريانية: هاطا سماقانا، ومعناه: حنطة حمراء»[٤]. وهو ما أشار إليه الزمخشري[٥] إلا

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٦).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، والترمذي (٢٩٥٦) وجاءت في «مجمع البيان»: حية في شعيرة (٢: ١١٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٠٢)، وينظر: (٦: ١٨٢)، ومثله في تفسير سورة البروج حيث لم يذكر حديث الغلام والساحر وهو برواية مسلم.

(٥) «الكشاف» (١: ١٤٣).

أنه جعله من النبطية لا السريانية فإنهم قالوا: حطاً سماقانا، أي: حنطة حمراء. وعلى أيِّ حال فإن المعنى الذي فسَّر به الشيخ الآية لا يبعد عما تضمَّنه الحديث.

وقد يفسِّر الآية بغير المعنى الذي جاء في الحديث إذا أحسَّ بضعفه وعدم مطابقته للعقل، على نحو ما فسر به قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]: «بأنَّ الله حرَّم عليهم بعض الطيِّبات في التوراة عقوبةً لهم» على ظلمهم، واستدلَّ بآية أخرى وهي: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] فقال: «فالمراد بإسرائيل: شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم لا يعقوب نفسه، ومعنى تحريم الشعب ذلك على نفسه أنه ارتكب واجترح السيِّئات التي كانت سبب التحريم»[(١)]. على حين جاء في الحديث أنَّ إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ـ (اشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها، ولذلك حرَّمها)[(٢)].

ونرى أحياناً أن تأويلاته العقليَّة في عدد من الآيات لا تتناسب مع ظاهر الأحاديث الصحيحة التي رُوِيَت مفسَّرةً لها، على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فقد قال: «أي: أنهم لا يُؤْذن لهم فيعتذرون، أو أنَّهم حينئذ لا يتكلَّمون لما يصيبهم من الدهشة والاستسلام والاعتراف بالضلال، واستحقاق هذا العذاب»[(٣)].

وهذا الفهم ضَرْبٌ من التأويل ينأى عن ظاهر لفظ الآية، الذي يؤكِّده ما جاء في الحديث المروي في صحيح مسلم: «أنَّ العبد يوم القيامة يطلب شاهداً من نفسه

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥١٢).

(٢) رواه الترمذي: سنن الترمذي (٣١١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وينظر: «التاج» (٤: ٨١-٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٣).

فيختم الله على فيه وتنطق أعضاؤه...»[١]. وكذا في تفسير آية الميثاق في عالم الذر[٢].

وقد أفاد الشيخ رشيد من الأحاديث النبويَّة في توضيح وتفصيل ما أُجمل من الألفاظ القرآنية، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، فقد أورد رأي أبي مسلم، ثم رأيَ الجمهور وأيَّد هذه الأقوال بحديث عن النبي ﷺ وهو: «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبريل: إني أحببتُ فلاناً فأحبَّه، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحب فلاناً فأحبُّوه فيحبُّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»[٣]. فهذا من تفسير المُجْمَل وهو (الود)، فبيَّن أنه ودُّ أهل السماء بعد ودِّ الله سبحانه، ثم ودُّ أهل الأرض بعدهما.

ومثله ما بيَّنه في معنى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] إذ أورد الحديثَ المرويَّ عن الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط في رحمته أحد»[٤]. ولهذا نظائر في تفسير الشيخ[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٩٣-٤٩٨). وتُنظَر حاشيتي المطوَّلة عند تفسير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٩٥)، والحديث متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٣). والحديث متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦)، (٦: ٣٨٨)، (٧: ١٩٠)، (٧: ١٩٢)، (٨: ١٩٦).

وقد يفيد من الأحاديث في تعضيد رأيٍ رآه في تفسير عدد من الآيات، كما في (يأجوج ومأجوج) إذْ أورد حديث البخاري، الذي فيه «إنَّ منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً»(١)، وكما في حديث «عَجْب الذنب» الذي كرَّره كثيراً في حديثه عن البعث والنشور وكيفيته(٢).

وكما أفاد من أقوال الرسول ﷺ في تفسير الآي، أفاد من أفعاله: وهي التي يطلق عليها في اصطلاح المحدثين اسم (السنن)(٣)على نحو ما نجد في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النور: ٢]. إذ بيَّن أنَّ أكثر أهل العلم يَرَوْنَ الرجم وارداً في السنَّة بعدَّة أدلة لَمْنْ هو مُحصَن من الرجال والنساء، واستدلَّ بفعل الرسول ﷺ في رَجْم ماعز الأسلمي والمرأة الغامديَّة وهما محصنان(٤)، وبما حكم به ﷺ على اليهودي واليهودية(٥)، اللذين زنيا وهما محصنان، وبفعل علي حين رجم المرأة المحصنة قائلاً: رجمتها بسنة رسول الله ﷺ(٦). والسنة هنا أفادت حكماً زائداً على ما جاء في القرآن(٧).

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦). والحديث رواه البخاري (٣٣٤٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٠). والحديث متفق عليه رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذا الاصطلاح غير صحيح؛ لأنَّ السنن تجمع أقوال الرسول ﷺ مع أفعاله وأوصافه، بل الأقوال فيها أكثر من الأفعال. (مجد).

(٤) رواه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٣٦٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠١).

(٧) ينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٥٥).

ومن بيان مجمل القرآن بالسنة: تفسير آيات العبادات المُجْملة في القرآن، كالحج والصلاة، فقد أورد منهما الحديثين الشريفين: «خذوا عني مناسككم»، و«صلوا كما رأيتموني أصلي»[١]، مبيِّناً بذلك أن ما أُجمل من القرآن قامت السنة بتبيينه وتفصيله[٢].

وممَّا يجدر ذكره هنا أنه لم يورد شيئاً من الأحاديث الدالَّة على فضائل السور، وهي أحاديث يندر فيها الصحيح والحسن[٣]، وفيها ما هو موضوع[٤].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٩٩). والحديث الأول رواه مسلم (١٢٩٧) بلفظ «لتأخذوا مناسككم» عن جابر رضي الله عنه، والحديث الثاني رواه البخاري (٦٠٠٨) عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) «التفسير والمفسرون» (١: ٥٧).

(٣) ينظر: «الصحيح والحسن من أحاديث فضائل السور» لعبد الستار النعيمي ص٢١. (مخطوط).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١: ٥٦).

أسباب النزول

وقف الشيخ من الروايات الواردة في أسباب النزول موقفاً حذراً، مؤكِّداً في غير موضع القاعدة الأصوليَّة: (إنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ولذلك لم يتوسَّع في ذكر سبب نزول الآي، واقتصر على القليل المفيد في توضيح المعنى وإلقاء ضوء على النصِّ، وكانت عبارته في نقل سبب النزول تشعر بمحدوديته عنده، كالذي أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، إذ قال بعد توضيح المعنى:

«وقد جاءت هذه الحلقة من الإرشاد في سلسلة ما سبقها من حلقات الإرشاد في النهي عن الرجم بالغيب ومنتظمة في سلكها، ولو كان سبب النزول ـ كما قيل ـ أن النبي ﷺ سأله مشركو مكة بإيعاز من أهل الكتاب عن أمر أصحاب الكهف وعن أمر ذي القرنين، وعن أمر الروح، فوعدهم أن يجيبهم غداً، فأبطأ الوحي بضعة عشر يوماً حتى ضاق بذلك؛ لأن المعتبر في فهم القرآن المعاني وتسلسلها لا في أسباب النزول على الصحيح، لأنها لا تخصِّص العام، ولا تقطع السياق، ولكنَّها سببٌ لنزول الحكم لا غير في آيات الأحكام»[1].

غير أن تحديده إيَّاها ببيان نزول الحكم في آيات الأحكام لا يُسلم له، فإنَّ في أسباب النـزول ما يعوَّل عليه في غير ذلك أيضاً، ومن تصفَّح كتب التفسيـر وكتب

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٠).

أسباب النزول، ككتاب الواحدي والسيوطي، يرى كثيراً منها يتعلَّق بأحداثٍ أشملَ من مُجَرَّد الأحكام، فقد تكون من الأخلاق العامَّة، أو المتعلقة بالمسلمين، أو المنافقين والكفار، أو المتعلقة بالقَصَص القرآني.

كما أنَّ فهم المعاني قد لا يكتمل إلا بأسباب النزول، أو يزيل إشكالاً كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ففي الصحيح عن مروان بن الحكم أنه بعث لابن عباس رضي الله عنهما يسأله: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتيَ، وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل معذَّباً، لنعذبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا الآية التي سبقتها مباشرة في السياق مفسِّرة لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] إلى قوله ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ...﴾، قال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، وخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه[١].

وماذا يفعل عموم اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] فإنا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أنَّ المصلِّي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الإجماع. فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنّها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته، وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجّهت به، فعلم أن هذا هو المراد[٢].

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١: ٢٧)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط أولى، ١٩٥٧. وقد أورد الشيخ هذه الرواية في تفسيره (٢: ١٠٤).

(٢) المصدر نفسه (١: ٢٩).

فالقاعدة الأصوليَّة التي أكّدَها الشيخ ليست مُطَّردة في أسباب النزول، وإن كان أغلب القرآن عليها.

على أنَّ الشيخ ـ مع ذلك ـ لم يبخس أسباب النزول قيمتها من الدلالة على المعنى وتوضيحه، بل أورد روايات منها ما كان له دور في فهم النصِّ وإلقاء ضوء على معناه، كسبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ...﴾ [المجادلة: ١] وهو أنَّ خولة بنت ثعلبة ظاهَرَ عنها زوجها أوس بن الصامت، ثم ندم فقال لها: ما أظنُّكِ إلا حرمتِ عليَّ، فشقَّ عليها ذلك واستفتت رسول الله ﷺ، فقال: حَرُمتِ عليه.. فظلت تراجعه حتى نزلت الآيات[١].

وحين فسَّر الآية الكريمة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٧٣] بيّن سبب نزولها فقال: «روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله، فصاروا زَمْنىٰ، فجعل لهم من أموال المسلمين حقاً... وعلى ضوء هذه الآيات ثاب المسلمون في العصور الأولى للإنفاق على طلاب علوم الدِّين والقرآن أثناء النهضة العلميَّة»[٢].

ثم أكَّد القاعدة الأصوليَّة في أسباب النزول وهي: «أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وأكثر ما ذكر من المنقول في أسباب النزول مستقىً من صحيح الأخبار، كما في سبب نزول سورة الحجرات[٣]. وكذلك الأمثلة التي مرَّت.

على أنه فسَّر كثيراً من الآيات، ولم يذكر سبب نزولها مع أن لها أسباباً مرويَّة. كما

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٧). والحديث رواه أبو داود (٢٢١٤) عن خويلة بنت ثعلبة.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠٩)، وينظر: (٢: ٢٩٢)، (٤: ١١٤)، (٥: ٥٠٠)، (٦: ٩)، (٦: ١٥٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٠٧). وينظر: «التاج» (٤: ٢٣٩).

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، فإنها نزلت في ثعلبة[١] بن حاطب ولم يشر الشيخ إليها[٢]. ولعلَّه اسْتَضْعف روايتها فقد ضعَّفها القرطبي بقوله: «وثعلبة رجلٌ بدريٌّ أنصاريّ، وممَّن شهد الله له ورسوله بالإيمان، حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعلَّ قول من قال في ثعلبة: إنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح. وقال الضحَّاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين..»[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦][٤]. لم يبيِّن فيه سبب نزوله، مع أنَّ له سبباً ذكرته المصادر[٥].

وقد يترك سبب النزول وهو صحيح الرواية، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ...﴾ [النساء: ٩٥][٦] إذ وَرَدَ في صحيح البخاري والترمذي أنها في ابن أم مكتوم عندما قال للرسول: يا رسول الله لو استطعت أن أجاهد لجاهدت وكان أعمى[٧].

ولعلَّ هذا من باب الإيجاز عنده، ولأنَّ خصوص السبب ـ كما تقدم ـ لا يمنع من عموم اللفظ وشموله لكل من يصدق عليه.

---

(١) «أسباب النزول» ص١٨٩-١٩١.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١١٣). وقد أحسن الشيخ في ذلك، لأن القصة باطلة سنداً ومتناً. (مجد).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨: ١٣٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ١١٥).

(٥) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٩١-٢٩٢. «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٦: ٢٠٥).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ١١٢).

(٧) رواه البخاري (٢٨٣٢) والترمذي (٣٠٣٣) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الناسخ والمنسوخ:

تحدث الشيخ رشيد في مقدمته عن الناسخ والمنسوخ فميّز نوعين من النسخ: الأول: نسخ الشرائع، وبيَّن أن لا خلاف فيه بين المسلمين، والآخر: النسخ في القرآن، وذكر أنَّ فيه خلافاً، فقد أنكره بعض العلماء ومنهم أبو مسلم، وأيَّده الجمهور بشرط تعذر الجمع بين الآيتين وعلم تاريخها، وأن لا تكون من آيات العقائد والفضائل[١].

ويبدو الشيخ مُتحرِّزاً في موضوع النَّسخ في القرآن، فقد أيَّد محمد عبده في نفي نسخ بعض الآيات، برغم ذهاب الجمهور إلى نسخها، ففي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] يقول: «لقد حقق الأستاذُ الإمام أنَّ الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تناقضها، بل تؤيِّدها بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾» كما أشار إلى أنَّ أسلوب الآية ينافي النسخ بقوله: «فإن الله سبحانه إذا شَرَع للناس حكماً، وعلم أنه مؤقَّت لا يُؤكِّده ويوثقه ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨١]، ثم يبيِّن الشيخ تأييده لرأي محمد عبده بقوله: «فالأستاذ الإمام مصيب بقوله»[٢].

وقد ذهب جماعة من علماء السلف إلى أن الآية محكمة ومنهم الحسن البصري وطاووس والعلاء بن زيد ومسلم بن يسار[٣]. كما تابع محمد عبده في نفس النسخ في

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٨-٧٤٩-٧٥١-٧٥٢). وينظر: «المنار» (٢: ١٣١-١٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦).

(٣) «الناسخ والمنسوخ» لأبي القاسم هبة الله ابن سلامة أبي النصر ص٥٥، حاشية أسباب النزول للواحدي.

الآية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] إذ قَصَد بالسيطرة هنا القلب ليس إلا[١]، وإن كانت هذه الآية لا يقول بنسخها إلا المولعون بالنسخ كما يسمِّيهم محمد عبده.

ونجد الشيخ في «تفسيره»، إما أن ينفي النسخ صراحةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤][٢]. أو يفسرها تفسيراً يفهم منه إحكامها من غير أن يشير إلى ما قيل في نسخها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤][٣] ومثل هذا كثير[٤].

وقد يعرض رأيَ من قال بإحكام الآية، ثم رأي من قال بنسخها، ولكن بصيغة التضعيف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] إذ عرض رأيَ أبي مسلم الذي يعد ﴿ٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: الأزواج، وإنما أسند العقد إلى الأَيمان لأنَّ المتعارف عليه في العقد أن يكون مصافحة باليدين فكلُّ واحد من الزوجين يصير له حقّ الإرث بالعقد. ثم يقول: «وقيل: المراد بالذين عقدت أيمانكم، مولى الموالاة الذي نسخ حكمه بآية الأرحام، وكان يرث السُّدس من مال حليفه»[٥].

ويبدو أنَّ الشيخ يميل إلى نفي النسخ في القرآن، وإن لم يُصرِّح بذلك، ويؤيِّد ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] على أنَّ النسخ

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٢)، وينظر: (٣: ٢٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٢٧). وينظر: «الناسخ والمنسوخ» ص٩٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥١٨)، (٤: ٩٢)، (٤: ١١٩)، (٤: ٥٣٢).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٥١).

نسخ الشرائع السابقة، وإنزال شرائع جديدة تناسب رُقِيَّ النوع الإنساني في ضوء تفسير أبي مسلم[١]. وقد ذُكر أنه كان يُصرِّح بذلك في مجالسه العامة ودروسه في التفسير[٢].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٥٨). ولكن ما ذهب إليه في تفسير الآية لا يفيد معنى النسخ الذي ذهب إليه العلماء، وينظر ما علقته على تفسيره لهذه الآية. (مجد).

(٢) نقلاً عن الأستاذ عبد الوهاب الكحلة.

المبحث الثالث

تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

نقل الشيخ رشيد في تفسيره كثيراً من أقوال الصحابة، وفي مقدِّمتهم: حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[١]، كما نقل عن صحابة آخرين كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢]، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣]، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما[٤]، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[٥]، وأبي بكر رضي الله عنه[٦].

ونقل عن عدد كبير من التابعين، من الذين اشتهروا بالتفسير مثل: مجاهد بن جبر[٧] (ت١٠٤هـ)، وسعيد بن المسيب (ت٩٥هـ)[٨]، وعكرمة (ت١٠٤هـ)[٩]،

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٦)، (٣: ٣٩٠)، (٦: ١٥٤)، (٢: ٥٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠)، (٤: ٣٩١)، (٣: ٣١٣)، (٤: ٣٩١).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠١)، (٦: ٢٤٢)، (٨: ٣٤٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٨)، (٥: ٨٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٥)، (٧: ٣١٧)، (٨: ٣٨).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ١٢٠).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٩١)، (٣: ٣٢٤)، (٤: ١٢٨).

(٨) «أولى ما قيل» (٢: ٣٤٥)، (٥: ٣٤٤).

(٩) «أولى ما قيل» (١: ٦٩)، (٤: ١٢٨)، (٨: ٣٧).

وعطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ)[١]، وأبي العالية (ت٩٠هـ)[٢]، ومحمد بن كعب القرظي (ت١١٨هـ)[٣]، ومسروق بن الأجدع (ت٦٣هـ)[٤]، والحسن البصري (ت١١٠هـ)[٥]، وقتادة (ت١١٧هـ)[٦]، والضحاك بن مزاحم (ت١٠٥هـ)[٧]، والسُّدي (ت١٢٧هـ)[٨]، وعامر الشَّعبي (ت١٠٩هـ)، والكلبي (ت١٤٦هـ)[٩]، ومقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)[١٠]، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ)، كما روى عن أهل البيت وفي مقدِّمتِهم الإمام علي وجعفر الصادق (ت١٤٨هـ)[١١].

وربما أبهم اسم الصحابي ولم يصرِّح به، وخاصَّةً إذا كان الخبر مروياً عن أكثر من واحد، إذ نراه يقول مثلاً: روي عن جماعة من الصحابة[١٢].

وكانت طريقته في نقل أقوال الصحابة والتابعين هي عزو القول إلى واحد أو أكثر منهم مع طرح سند الرواية، أو ذكر أقوالهم من غير إشارة إليهم، وهذا في تفسيره

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٤)، (٦: ٢٨٣)، (٨: ٤٣).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٨٣).
(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣٦٧)، (٨: ٢٨٥).
(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥١٨).
(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٩١)، (٣: ١٢٧)، (٥: ٨٩).
(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٨٩)، (٦: ٧٤)، (٧: ١٥).
(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩٤)، (٥: ٢٧٥)، (٦: ١٧٦).
(٨) «أولى ما قيل» (٢: ١٥٨)، (٣: ٢٩)، (٥: ٢٠١).
(٩) «أولى ما قيل» (٧: ٤٠٩).
(١٠) «أولى ما قيل» (٢: ٥٦٨)، (٥: ١٨٤)، (٧: ١١).
(١١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٨٦)، (٤: ٤٢٩)، (٥: ٢١٥).
(١٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢١٠).

كثير، ومنه ما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] إذ قال: «أي: أهل المدينة أحلُّ طعاماً ـ إذ كان بينهم المجوس ـ فليلتمس طعاماً زكياً»[١].

وهذا القول نسبه الطبري إلى سعيد بن جبير[٢]، ونسبه الرازي إلى ابن عباس[٣]. وجائز أن تكون الرواية قد وردت عن كليهما.

ومن الملاحظ أن الشيخ كان يختار من أقوال الصحابة والتابعين ما يتناسب مع الوجوه التي يراها والتأويلات التي يذهب إليها، وقد يعرض أكثر من رأيٍ للموازنة.

والصحابة لدى الشيخ، وخاصَّة من اشتهر منهم بالتفسير، أوْلى الناس بالأخذ عنهم لصحبتهم، وصفاء فهمهم ولغتهم، يدلُّ على ذلك كثرة نقله عنهم وخاصَّة ابن عباس الذي يعدُّ أبا التفسير لكثرة ما روي عنه، إلا أنَّ ما قالوه لم يكن كل ما يقال في تفسير الآي وفهم القرآن فإنْ كان الله تعالى قد فتح عليهم مغاليق كثير من أسرار قرآنه، فإنَّ أسرارَه لا تنتهي، ولربما جاء بعدهم من تفتح له أشياء جديدة[٤]، وهذا ما حدث فعلاً، إذ كان لكثير ممَّن جاء بعدهم من المفسرين كالطبري والطوسي والزمخشري والطبرسي والرازي والبيضاوي والقرطبي لفتات طيبة في تفسير الآي. ولذلك نراه يكثر من النقل عن جمع كبير من المفسِّرين الذين جاؤوا بعد عصر الصحابة من العصور كافة.

فمن الواضح أنَّ الشيخ يقف إلى جانب القائلين بأن تفسير الصحابة من قبيل

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٧)، وينظر: (٣: ٤٨٢)، (٥: ٢٦)، (٧: ٤٢)، (٧: ٤٣).

(٢) «جامع البيان» (١٥: ١٤٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢١: ١٠٣).

(٤) يفهم هذا من مقدمته للتفسير، ومما نقله من رأي للصحابة والغزالي. تنظر «المقدمة» (١: ٤٩٢).

الموقوف[١]، فهو رأي له وليس قولاً لرسول الله ﷺ ولهذا فهو عرضة للخطأ. وهو منهج قدامى المفسِّرين كالطبري وغيره فقد كان يختار من أقوال الصحابة والتابعين ما يراه الأولى ويترك ما لا يراه كذلك في كثير من الأحيان، بعد موازنة قائمة على أسس علمية، لموافقته لكلام العرب، ولظاهر القرآن، وقوة الرواية والإجماع، وما إلى ذلك من أسس اعتمدها[٢].

وربما عضد قول الصحابي في التفسير وقوَّاه بما أُثر عن رسول الله ﷺ، فابن عباس رضي الله عنهما يفسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] بقوله أي: وحّدوني واعبدوني أُثبكم، فعلَّق عليه الشيخ رشيد بقوله: «ويُؤْنس لهذا المعنى قول الرسول ﷺ: الدعاء هو العبادة»[٣].

وقد يجمع بين حديث مرفوع إلى الرسول ﷺ وحديث مرويّ عن صحابيّ، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] إذ يفسِّره بحديث صحيح رواه البخاري ومسلم وهو عن عبد الله بن عمر من أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكُم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مَقْعَدُك حين يبعثك الله يوم القيامة»، ثم أتبعه بقول لابن مسعود رضي الله عنهما يقول فيه: «إن أرواحَهم في أجواف طيرٍ سُود تُعرَض على النار بُكرةً وعشياً إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١: ٣). و«التفسير والمفسرون» (١: ٩٥-٩٦). والقصبي محمود زلط: «القرطبي ومنهجه في التفسير» ص٢.

(٢) ينظر: بحث أستاذنا الزيدي: «الطبري المفسر الناقد»، مع موازنة بمفسرين معاصرين له ص٣ وما بعدها.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٧-٣٣٨). وينظر تخريجه هناك. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠).

ويبدو أنَّ الشيخ يعدُّ قول هذا الصحابي في حكم المرفوع وخاصَّة أنه مما لا يقال فيه بالرأي، وخاصَّة حين يجد له ما يعضده، ولا يجده مجرد رأي رآه صاحبه.

ويحاول الشيخ رشيد التوفيقَ بين أقوال الصحابة، والثوابت القرآنيَّة التي دلَّ عليها صريح النصِّ القرآني. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

يقول: «هذا رأيُ بعض المفسِّرين أنَّ الخطاب عام، والورود بمعنى الدخول، وهو قول ابن عباس وجابر».

ويُعلِّق على ذلك بقوله: «أقول: وذلك لأنَّ الله يقول في حكمه الأساسي العام: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ...﴾ [الأنعام: ١٣٢] فمَن الذي لا يعمل مثقال ذرّة شراً؟ ولكن هذا الورود تتفاوت درجاتُه بتفاوت مقدار عمل ذلك الشرِّ الذي تتكيَّف به الروح كيفيَّة سيئة، وبنسبة تلك الكيفية قوةً ضعفاً. والله أعلم.

وبعبارةٍ أخرى أن للجنّة مستوى خاصاً من الكمال، من فقده لم يكن لها أهلاً، فمن بقي في نفسه أثارة من شرٍّ وأدركه الموتُ قبل أن يتطهَّر منه، انتظرته جهنم لتكمل له ما نقصه وتعوِّض ما فاته، وتزيل عنه ما تدرّن به من أوضار...»[1].

وإجلالاً من الشيخ لأقوال الصحابة لم يجعل لمقولاته العقلية السيادة عليهم على الرغم من اعتداده بها، بل كان له محاولات للتوفيق بين ما يروي وما يرى.

ففي قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول: «وعن علي وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك». ثم يقول: «وقد

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٨٨).

يعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوة الخفيَّة الصالحة النافعة، فيجوز أن يراد هنا القوى الطبيعيَّة في الإنسان التي تُوَلِّد المناعة في الجسم وتحفظه من الأمراض، ويكون معنى التعقيب الملازمة»[١].

من الواضح أنه يستمدُّ في تأويل الملائكة على هذا النحو من الشيخ محمد عبده ومدرسته، إذ كان لهم مثل هذه التأويلات[٢].

وكثيراً ما يعرض آراء الصحابة والتابعين من غير ترجيح، إذا وجد أنَّ كلَّ قول منها مقبول له وجه في التعبير وأساليب الكلام. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] إذ قال: «قال الحسن: أي فليسلِّم بعضكم على بعض، فيكون من باب إجراء الوحدة بالجنس مَجْرى الوحدة بالشخص، كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وقال جابر وقتادة والزهري والضحَّاك، معناه: فسلِّموا على عيالكم...»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٦).

قلت: ذكرتُ الردَّ على هذه الدعوى فيما أوردتُه في المقدمة ممَّا كتبَه شيخُنا عبد الكريم تتان، كما ردَدْتُ على هذه المقولة الباطلة في تعليقي على تفسيره هذه الآية (١١) من سورة الرعد. فلتُنظَر هناك. (مجد).

(٢) وقد ردَدْتُ على هذا التأويل الباطل في أكثر من موضع في التفسير، ونبَّهتُ على خطئه فيما ذهب إليه. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٤٧).

الإسرائيليَّات

مصطلح لِمَا دخل من معارف اليهود والنصارى الدينيَّـة في تفسير القرآن عن طريق من أسلم منهم، وذلك لاشتمال (العهد القديم) و(العهد الجديد) على كثير ممَّـا اشتمل عليه القرآن من الموضوعات، وبخاصَّة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وإن كان كثير مما فيه قد تحرَّف في كتب العهدين[١].

وسُمِّيت هذه المرويَّات (الإسرائيليَّات) مع وجود النَّصرانيَّات فيها تغليباً للأولى على الثانية لكثرتها وقلَّة الثانية.

ولما كان من طبيعة القصص القرآني الإجمال وعدم التفصيل في الأحداث وذكر الجزئيَّات، بل الاقتصار على مواطن العبرة، على حين حوت كتب العهد القديم خاصة تفصيلاً لكثير من جزئيات هذا القصص، فانتقل كثير منها بتفصيلاته إلى المسلمين منذ عهد مبكّر، فقد كان الصحابة الكرام أول مَنْ سلك هذه السبيل، ولكن من غير تَمَادٍ، ومن غير أن يحكموا عليه بصدق أو كذب، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[٢]، ومن غير أن يسألوهم عن الأمور العقيديَّة أو عمَّا لا طائل وراءه.

ثم توسَّع التابعون في هذا الأمر وكَثُرت الروايات الإسرائيليَّة، وذلك لكثرة من

---

(١) ينظر: «الطبيعة في القرآن» لكاصد الزيدي ص١١٢-١١٣.

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وَلتَوْق نفوس القوم إلى سماع التفاصيل التي وردت مجملة في القرآن.

ومن المفسرين الذين أكثروا من إيراد الإسرائيليات: مقاتل (ت١٥٠هـ)، ثم تلا هؤلاء من عَظُم شغفه بالإسرائيليَّات وأفرط في إيرادها حتى صارت عبئاً على التفسير بما حوته من خرافات وتُرَّهات، وقد ضمَّ تفسير الطبري (ت ٣١٠هـ)، والخازن (ت٧٢٥هـ)، والثعلبي (ت٤٢٧هـ) طرفاً منها، وخاصَّة ما يتعلَّق بأمور الخليقة وأحوال الطبيعة، والمبهمات[١] من الألفاظ.

والإسرائيليات ثلاثة أقسام: قسم عُلمت صحَّته بما رُويَ عن رسول الله ﷺ، وقسم: عُلِم كذبه بمناقضته شرعَنا أو العقل، وقسم: مسكوت عنه لا نكذِّبه ولا نصدِّقه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه[٢].

وَقَفَ الشيخ رشيد من الإسرائيليَّات موقفاً واعياً مُشكِّكاً فيها، منبِّهاً على مخاطرها وخاصَّة ما يمسُّ عصمة الأنبياء منها، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢٢] نراه يقول: «وقد رويت ههنا من الإسرائيليات روايات لا تليق بشأن الأنبياء، منها: أن داود عليه السلام، أرسل أوريا إلى الحرب بغية أن يُقتل ليأخذ زوجته، فقال علي رضي الله عنه: (من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة)[٣].

---

(١) يراد بالمبهمات: أسماء الأشخاص والأشياء التي وردت في القرآن مبهمة دون تبيين، ومنه قربان ابْنَي آدم، وبعض بقرة بني إسرائيل، ينظر: «منهج الجلالين في التفسير» لكاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد الخامس ١٩٧٤، ص١٤٤.

(٢) ينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ١٦٥-١٨١). و«مقدمة في أصول التفسير» ص٩٧-١٠٠.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٤٢).

وهذا الخبر أورده النسفي (ت٧٠١هـ) في تفسيره، تمامه: (وهو حد الفرية على الأنبياء)[١]. كما أورده الطوسي (ت٤٦٠هـ) بلفظ آخر هو (لا أُوتى برجل يقول: إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدَّين: أحدهما: حد القذف، والآخر: لأجل النبوة)[٢].

ويبيِّن لنا الشيخ رشيد مصدر كثير من الإسرائيليَّات، كيف تسلَّلت إلى التفاسير القرآنية، ممَّا جعل الناس يغترُّون بها، وذلك من خلال تفسيره قصة آدم وإبليس، إذ يقول: «وما ورد من هذه القصَّة من التفسير المأثور فكثير منه مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد، وكان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره تلك الإسرائيليات، فيغترُّ به بعض الناس ظانين أنه لا بدَّ له من أصل مرفوع إلى النبي ﷺ لأنَّ مثله لا يُعرف بالرأي»[٣].

وهذا تحليلٌ دقيقٌ وسليمٌ للإسرائيليّات وكيفيَّة تسلُّلها إلى التفسير، وإن لم يكن ذلك دائماً عن سوء نية، فهذه بضاعتهم، وهذا مبلغُ عِلْمِهم، وكانوا يُسألون فيجيبون بما عرفوه من روايات، وفيما يروىٰ عن كعب شيء من هذا القبيل فقد ذكر «أن الشمس تَغرُب في ماءٍ وطين»، وقال: «كذلك نجده في التوراة» فتناقله مفسِّرون في تفسير قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] حتى إنَّ الزمخشري[٤] صَدَّق هذا الكلام فنقله دون اعتراض فجاء البيضاوي[٥] بعده

---

(١) «تفسير النسفي» (٤: ٣٧-٣٨)، عيسى البابي الحلبي.

(٢) «البيان في تفسير القرآن» (٨: ٥٥٤-٥٥٥). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٣٤.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤١٧).

(٤) «الكشاف» (٢: ٧٤٥).

(٥) «البيضاوي» (٣: ١٥١)، طبعة مصطفى محمد.

ليلتفت إلى ما في هذا التعبير من مسحة أدبيَّة تبتعد عن ذلك التفسير الساذج الذي لم يلحظ مجازية التعبير، فقال: «ولعلَّه بلغ ساحل البحر فرآها ـ يعني الشمس ـ كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال: وجدها تغرب، ولم يقل كانت تغرب»[١].

ومع هذا التَّحرُّز الذي أبداه الشيخ رشيد من الإسرائيليات، نراه أحياناً ـ كغيره من المفسرين ـ يورد شيئاً منها أو ما يشابهها، ممَّا لا ضرر فيه يبدو، في تفسير قصص الأنبياء، وخاصَّة ما يتعلَّق بمبهم من المُبْهمات القرآنيَّة، كالرجل الذي نصح قومه باتِّباع المرسلين وتصديقهم، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، فقد قال: «ويقال لهذا الرجل مؤمن يس... وقد جاء هذا الرجل حبيب النجار بدافع الفطرة السليمة إلى هؤلاء المعارضين المتوعدين»[٢]، ثم في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥] على لسان هذا الرجل الناصح، يقول: «ولكن قومه أنكروا عليه ذلك وَوَطِئوه بأقدامهم حتى مات رُوي ذلك عن ابن مسعود»[٣].

والحق أنَّ الشيخ لم يتوسَّع في هذه الروايات المتعلِّقة في القصص القرآنيَّة فلم يُحدِّد المدينة، ولا عدد المرسلين، ولا من أرسلهم، ولم يفصِّل في صفات مؤمن (يس) كما فعلت الروايات برغم نسبتها إلى ابن عباس ومجاهد ومقاتل ووهب وكعب[٤]، بل اكتفى ـ كما هو واضح ـ ببيان اسمه، وذكر شيء يسير مما أصابه.

---

(١) «الطبيعة في القرآن» لكاصد الزيدي ص٥٠٨-٥١٠.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٩).

(٤) «جامع البيان» (٢٢: ١٥٥، ١٥٦، ١٦١).

وقد أثارت هذه القصة جدلاً طويلاً لدى ابن كثير في صحَّتها أو غير صحتها[١]. وعلَّق القاسميُّ في «تفسيره» على هذا الجدل مبيناً أن المنهج الأمثل الابتعاد عن مَشْرب القصَّاص والمؤرِّخين وأنه: «ما من حاجة إلى تسمية تلك المُبْهمات، لأنَّ المقصد الاعتبار والذِّكرى»[٢].

وهذا في منهج غير واحد من المفسِّرين المعاصرين كسيد قطب في «تفسيره»[٣]، وهو ما التـزمه أيضاً أستـاذنا الدكتور كاصد الزيدي في كـتاب «الطبيعة في القرآن الكريم»[٤].

وهذا الموقف في عدم التكلُّف في تبيين المبهمات نبَّه عليه قديماً الطبري[٥] عند تفسيره الآية الكريمة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣].

وربمـا اعتمد الشيخ رشيد على ما ورد في (كتب العهد القديم) أو (كتب العهد الجديد) من أخبار ليوثق روايةً في تفسير مبهم قرآني كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، إذ قال: «واتَّفقت الرواة على أنَّ هذين الرجلين من صالحي بني إسرائيل هما يوشع بن نون، وكالب بن يفتة، وفاقاً لرواية التوراة عند أهل الكتاب»[٦].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥: ٦١٠، ٦١١).

(٢) «محاسن التأويل» (١٤: ٤٩٩٥-٤٩٩٩).

(٣) «ظلال القرآن» (٢٣: ١٤)، ط السابقة.

(٤) ص٣٥٨-٣٦٢.

(٥) «جامع البيان» (٢: ٢٣١)، دار المعارف.

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٠٠).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ينقل عن فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ما جاء في الأناجيل من بشارة بمحمد ﷺ[١].

على أنَّ الشيخ حين يعمد في مواضع إلى استبعاد الإسرائيليَّات قد يلجأ إلى إيجاد البديل المنطقي المناسب لها، فيبذل جهداً إضافياً في تأويل الآيات التي مسَّ تفسيرَها شيءٌ من تلك الإسرائيليات.

ففي قصة هاروت وماروت يعتمد قصَّة تاريخية، وهي أن الملكين رجلان ماكران، أرسلهما ملك بابل لتخريب ملك سليمان، فلبسا المسوح وتظاهرا بالزهد، حتى التبس أمرهما على الناس، وحسبوهما مَلَكَين أو كالمَلَكَين، فكانا يُعلِّمان الناس السحر، ويهدِّدان كل من يعلمانه بالفتنة ـ أي القتل ـ إنْ هو خَرَجَ عليهما، ويرى الشيخ أنَّ القرآن سمَّاهما (ملكين) بناءً على ما ساد عند الناس في أمرهما، ويبيِّن أن هذا يسمى مجاز الوصف[٢].

وهذه المحاولة برغم انسجامها مع العقل، ومع ما يجري حقيقة في سياسات الدول وأخلاق الناس، وبرغم ما فيها من نأي عن الإسرائيليات وما تحوي من خرافات ونَيْل من عصمة الملائكة فإنها أيضاً تبقى محفوفة بالمخاطر، إذ لا يمكننا الاطمئنان إلى صحَّة الرواية التاريخية التي اعتمدها. كما أنها استوجبت تأويلات في النصِّ القرآني، لا تخْلو من تكلُّف، ولكن يبقى لها فضل المحاولة الجادة الهادفة إلى الوصول إلى حقيقة ترضي النفس وتقنع العقل. وإن كان الاستغناء بالواضح وترك السعي وراء المتشابه أو المبهمات أسلم[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٨٢).

(٣) «في ظلال القرآن» (١: ١٣٠). وينظر ما علقته على ما ذهب إليه المؤلف ـ غفر الله له ـ وأغرب =

وكانت القراءة غير المشهورة ـ بكسر اللام[١] ـ بدلاً من فتحها في المشهورة، مخرجاً آخر ـ في ما يبدو ـ من مَسِّ عصمة الملائكة بما لا يليق بها في فكر المسلمين إذ يكون الرجلان على هذه القراءة (مَلِكَيْن) من البشر كانا في بابل اتَّخذا السحر وسيلة للتخريب والإيذاء.

❊ ❊ ❊

= فيه، وينظر أيضاً كتاب: «قصة هاروت وماروت في ميزان المعقول والمنقول» للأخ الدكتور الشيخ عيادة الكبيسي. (مجد).

(١) وهي قراءة الحسن البصري وابن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن البزي. ينظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني (١: ١٠٠).

الفصل الثالث
التفسير العقلي

مدخل

بدأت مظاهر التفسير بالرأي في وقت مبكر من تاريخ التفسير برغم كل ما أورده مانعو التفسير بالرأي من أدلَّة المنع[١]، إذ رجحت في النهاية أدلة المجيزين المستدلة بمثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وبمثل دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «اللهم فقِّهه في الدين وعلّمه التأويل»[٢]، وبواقع الصحابة الذين توصّلوا إلى فهم كثير من الآيات بعقولهم واجتهادهم[٣].

وليس ثَمَّ خلاف حقيقي بين الطرفين، إنما حمل منع المانعين على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلَّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعاً فلا حرج عليه[٤]. ولذلك يقول الغزالي (ت٥٠٥هـ): «إن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتّسعاً بالغاً، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه»[٥].

وبناء على ما سبق كان للمفسرين اتجاهان: الأول: عوّلوا فيه على المنقول والمأثور

---

(١) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية (١٠٣-١٠٦)، تحقيق: محمود محمد نصار، دار الجيل للطباعة، مصر. وينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٢٥٦-٢٥٧).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٢٣٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما. (مجد).

(٣) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٦٢-٢٦٣).

(٤) «مقدمة في أصول التفسير» (١٠٦-١٠٧).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٣: ١٣٦). و«التفسير والمفسرون» (١: ٢٦٣).

تعويلاً كبيراً وإن لم يخل من التفسير بالرأي، والثاني: أكثروا فيه من التفسير بالرأي مع ما أوردوه من التفسير بالمأثور. إلا أن النوع الثاني من التفسير بدأ يخضع بمرور الأيام للتوجهات الفكرية والجدلية الحادثة في المجتمعات الإسلامية، بحكم الحضارة والاختلاط، والنقل من الأمم الأخرى، بل انبرى بعض أصحاب المذاهب والعقائد إلى تأويل الآيات القرآنية بما يناسب مذهبه وعقيدته. وكان من أبرز هذه الاتجاهات صنيع المعتزلة الذين أَوْلَوا العقلَ أهمية كبيرة، وأوّلُوا كثيراً من الآيات تأويلاً عقلياً.

ولقد انتقل هذا المنهج إلى تفاسير غير المعتزلة من الشيعة وأهل السنّة، إما بحكم التأثر، وإما بحكم الرد عليهم وتفنيد آرائهم بالمنهج نفسه كما فعل أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)[١] وفخر الدين الرازي، مع الفرق بينهما في التعامل مع المأثور.

ولقد اتجه الشيخ رشيد في «تفسيره» اتجاهاً عقلياً واضحاً مع عنايته بالمأثور، تابع فيه إلى حدّ واضح مدرسة محمد عبده، وإن كان المنهج العقلي ـ كما أسلفت ـ قديماً فضلاً عن خصوصيات انفرد بها في هذا المنهج. وليس غريباً أن يلتقي أحياناً في منهجه هذا مع آراء المعتزلة كما حصل لمحمد عبده من قبل[٢]، إذ لا شكَّ أن للمعتزلة كثيراً من الجوانب المضيئة في فهم الكتاب المجيد، إلا أنَّ هذا المنهج بحاجة إلى التأمّل فيه قبل قبول كل ما وَرَدَ فيه؛ فكثيراً ما تبتعد فيه الأقوال عن جادة الصواب.

ولعل خير ما يذكر في هذا المجال قول الشيخ محمد أبي زهرة[٣] معقباً على آراء المعتزلة ومواقفهم: إن هؤلاء يعدون فلاسفة الإسلام، لأنهم درسوا العقائد الإسلامية

---

(١) علي بن إسماعيل، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، كان معتزلياً ثم تحول إلى السنة ونصرهم على المعتزلة، ويعد مؤسس مذهب الأشاعرة. «الأعلام» (٥: ٦٩).

(٢) «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» لعبد المجيد المحتسب ص١٤٢.

(٣) «المذاهب الإسلامية» ص٢٦٤، المطبعة النموذجية بمصر.

دراسة عقلية مقيِّدين أنفسهم بالحقائق الإسلامية، وأنهم قاموا بحق الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد كيد الزنادقة، وأما ما شذّ من آرائهم وأقوالهم، فإن ذلك يحدث كثيراً ممن يطلق لعقله العنان ولو في ظل النصوص.

ويبدو أن المنهج الأمثل في الرد على الزنادقة والمتشككين هو اعتماد المنهج العقلي القائم على التعليل والحجج والبراهين العقلية لا النصوص الدينيّة، وذلك واضح لعدم إيمانهم بهذه النصوص، وهذا هو سبب التوجه العقلي لدى المعتزلة، وهو عينه سبب النزعة العقلية لدى محمد عبده ومدرسته، ولدى الشيخ رشيد الخطيب الذي يعدُّ من المدرسة نفسِها كما سنرى ذلك فيما بعد.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

مظاهر التفسير العقلي لدى الشيخ رشيد الخطيب

نستطيع أن نتبين ملامح التفسير العقلي لدى الشيخ رشيد بالآتي:

١ـ تسويغ التفسير العقلي في ضوء قِلَّة المأثور عن النبي ﷺ في التفسير:

فهذا يفسح المجال في أن يعنى بالمنهج العقلي، وقد أوضح ذلك في مقدمة تفسيره التي بيّن فيها منهجه ورأيه في التفسير، فقد نقل حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ الرسول ﷺ «لم يكن يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد، علَّمه إيّاهن جبريل»[١] ثم علَّق عليه بقوله: «وما ذلك إلا لإطلاق العقول وإفساح المجال في فهم ما يتضمَّنه هذا القرآن العظيم»[٢].

كما بيَّن أن القرآن يزداد فهمه والعلم به، كلَّما ازدادت العلوم كمالاً والأفكارُ عُلوّاً وجلاءً[٣]، وإن في القرآن معاني لا يظهر تأويلها إلا بعد عصر التنزيل. واستدلَّ على ذلك بقول لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقول لأبي حامد الغزالي، كما استدل بتعدّد آراء الصحابة في التفسير[٤].

---

(١) تقدم تخريجه (١: ٤٩٢).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١-٤٩٢).

فهذا ما في المقدمة من الدلالة على مَيْله إلى التفسير العقلي، وأن لا حرج على المفسِّر إذا أدلى بدلوه بين دلاء المفسرين. فقد يُجري الله على لسانه وقلمه مكنونات جديدة من أسرار القرآن، كما أفاض الله ـ في رأي الشيخ رشيد ـ على الشيخ محمد عبده من هذه المكنونات[١].

ولكي يؤكد صحَّة طريقته هذه يقول: «ثبت في الأصول أنه يجوز للعالم أن يفسِّر القرآن ويفهم منه ما لم يكن مروياً عن أحد بشرط أن لا يخرج بذلك عن مدلول اللغة في مفرداتها وأساليبها مراعياً عرف التخاطب فيها»[٢]. وبالفعل سار الشيخ رشيد على هذا النهج في تفسيره يختار من أقوال التابعين أقربَها إلى العقل ويدلي برأيه بين الآراء.

٢ـ **ميله الواضح في اختيار مصادر تفسيره إلى أصحاب الرأي** والمنهج العقلي من المفسرين، وخاصَّة المعتزلة من القدامى، ومدرسة محمد عبده من المُحْدَثين. وقد تقدَّم في الفصل الأول ما فيه إيضاح هذا الموضوع.

ويتفرَّع عن هذا الأصل نوع التأويلات التي اختارها من مصادره التي سمَّاها (أولى ما قيل)[٣] إذ إن أولى ما قيل لديه في مواضع كثيرة الأقوال العقلية ولو خالفت الجمهور كتفسير الإحياء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٦٠] ناقلاً فيه رأي أبي مسلم الأصبهاني[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢-٤٩٣).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

(٣) وردت عبارة «أولى ما قيل» بكثرة عند أبي جعفر النحاس في كتابه «إعراب القرآن» (٢٠: ٦٦٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧١-٧٢). وينظر ردي عليه في تفسير سورة البقرة (مجد).

وكتفسير حَمْل الأمانة بخيانتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢][١].

ومثله ما ورد في موقفه من قصة الغرانيق[٢]، وقوله في يأجوج ومأجوج[٣] وسيرد بيان ذلك في كلام قادم.

٣ـ **عرض آراء عقليَّة في تفسيره سواءً كانت له أم لغيره**، إلى جانب التفسير المأثور، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]، إذ عَرَض الحديث الصحيح الوارد فيها ثم عرض آراء أخرى[٤].

وربما ترك التفسير بالمأثور دون الإشارة إليه، وفسَّر بالرأي كما في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧][٥]، وقد مرَّ ذلك في الفصل السابق.

٤ـ **تأويل الآيات المتشابهة بردِّها إلى الآيات المحكمات**، وهذا الموضوع كان الشغل الشاغل للشيخ رشيد، فقد صبَّ فيها فهْمَه، وبذل فيها جهْدَه، وظهر فيها منهجُه العقلي في أوضح صوره، فقد استنبط من القرآن قواعد وسنناً ثابتة تعضدها عدة آيات وتؤكدها. ثم انبرى يؤول ما استطاع كل آية يُوحي ظاهرها بخلاف ذلك مستعيناً باللغة وأساليبها وأفانينها المتعددة، وهذه القواعد هي:

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢-٩٣). وينظر اختياري في تفسير هذه الآية في تفسير سورة الأحزاب. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٧). وينظر ردي عليه في تفسير سورة الكهف. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٨). وينظر ردي عليه في تفسير سورة النمل. (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ١٦).

القاعدة الأولى: (الهدى والضلال) يؤكد الشيخ حريَّة الإنسان واختياره، وأن الله تعالى قد هداه بهدايتين: هداية العقل، وهداية الرسل، وجعله مختاراً، يختار طريق الصلاح، أو طريق الضلال في هذه الدنيا، وجعل هذا الاختيار مناط التكليف، ومناط الحساب، وأن الآياتِ الدالَّةَ على ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وأنَّ الله لا يريد لعباده إلا الإيمان، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]: «وهذا الكلام يدلُّ بوضوح على أنه سبحانه أراد الإيمان للكافرين مع علمه أنهم لا يؤمنون، ولا معارضة في ذلك؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف في مواهبها كيف يشاء، وقد ألهمه بطبيعة فجوره وتقواه، وجعل تزكية نفسه وتدسيتها باختياره ومَـجْراه، فليس عمله في الكفر والشر قسراً لإرادة الله، بل موافقة لما أراد له من مطلق الاختيار. وبذلك يجري عليه الثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وإرادة الله تعالى نوعان: تكوينيّة، وطلبيّة من الإنسان المختار في تصرُّفاته فالأولى: لا يتخلَّف المراد بها أبداً، والثانية: مجرد تكليف، يثيب من أطاعها، ويعاقب من عصاها». ثم ينهي كلامه بعبارة: «والله أعلم»[1] محترزاً بذلك من الجزم في الرأي.

وعندما يلقاه من الآيات ما يوحي ظاهرها بخلاف ذلك، يؤولها تأويلاً عقلياً، كما فعل كثير من أهل القبلة من قبل من المعتزلة والأصوليين من الإماميَّة، ومتكلِّمي الماتريدية والأشاعرة وأهل الحديث من أهل السنّة والإماميّة وكثير من أهل السنة لصرفها عن ظاهرها، كالذي نراه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٧٠) حاشية، وفي (٦: ٣٤٥) و«رسالة في العقائد» ١٨-١٩.

هَادٍ﴾[١] [غافر: ٣٣]، إذ يقول: «فليس معنى الإضلال: أنَّ الله سبحانه وتعالى يخصُّه به قَصْداً، أو يخلقه عليه خلقاً كاملاً، وإنما المراد ضلال العبد بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه، كما يقال: أعماه الله، وإنَّ العمى ينشأ بمعاكسة الأسباب والأنظمة الصحية التي جعلها الله حفظاً للعين والبصر... فإنَّ كلَّ ما حدث للإنسان يصح أن ينسب إليه لأنه السبب المباشر، وإلى الله لأنه الخالق للسنن المؤدية إليها.. فإنَّ إبراز ناحية لا يعني انعدام أخرى.. فنسبة الضلال إلى الله تعالى كنسبة (الإمساك) إليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]»[٢].

وهو كلام ظاهر الدِّقة والإصابة للحقِّ[٣]. وعلى هذا المنوال يجري الشيخ في تأويل مثل هذه الآيات ليعيدها إلى القاعدة الأساس.

---

(١) الراجح أن معناها: ومن يحكم الله له بالضلال نتيجة اختياره الحر، فما من حاكم ينسبه إلى الهداية. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٤٧-٥٤٩-٥٦٨-٥٦٩)، وينظر: (٢: ٢٨-٢٩)، (٣: ٢١٦)، (٣: ٣٦٥)، (٤: ٥٤٥)، (٦: ٤٣٦)، و«رسالة في مواضيع مهمة» ص١٠-١٢، و«رسالة في العقائد» ص١٩-٢١.

(٣) لا يلزم في إسناد الفعل إلى ما يسند إليه أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمنه الفعل أو موصوفاً به، ويقع كثير من المفسرين بأغاليط بسبب عدم ملاحظة العلاقات الإسنادية المختلفة.

كما ينسب إلى المسند إليه ما تضمَّنه الفعل إلى فاعله، أو من قام به كقولك: برّأته إذا نسبته إلى البراءة وحكمت أنه بريء، وكذلك: صوَّبته وخطَّأته. ومن الإسناد القرآني في صدد هذه العلاقة الكثير من الآيات كما في الآية (٤٩) و(٨٨) من سورة النساء، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم، التي لا يفهم من إسنادها إلى الله سبحانه أنه هو المجبر. وتنظر هذه القاعدة المهمة في كتاب «قواعد التدبر الأمثل» للميداني، القاعدة (٣٧) ص٦٦٥-٦٨١. (مجد).

ولا يعجزه أن يجد مخرجاً في تأويل حديث يعارض ظاهرُه هذه القاعدة وهو قول الرسول ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة إلا أن يتغمَّده الله بفضله»[١]. إذ يقول: «هذا محمول على أنَّ عمل الإنسان ـ مهما كان عظيماً ـ لا يقابل الجزاء العظيم والنعيم المقيم لولا رحمة الله وفضله، وإنما مثله مثل من يعمل عملاً يستحق ديناراً فيعطى مئة ألف دينار فضلاً وكرماً، والظاهر أنه ﷺ قال ذلك للمتنطعين الذين عزموا أن يواصلوا الصيام والقيام»[٢].

القاعدة الثانية: أن الإنسان والجان والملائكة وُهبوا العقل، أما ما عداهم من المخلوقات من جمادات وحيوانات فليسوا بعقلاء، فكل ما جاء في القرآن يوحي ظاهرُه بتعقُّل هذه المخلوقات يؤوله الشيخ بما يتناسب والقاعدة العقلية، فيلجأ إلى المجاز والتمثيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] إذ يقول: «وقد قالوا ليس هناك أمرٌ بالقول على الحقيقة. ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام تمثيل لسهولة ذلك عليه...»[٣].

وتسبيح هذه المخلوقات وسجودها يُراد به أيضاً انقيادها بقدرة الله وإرادته، ففي قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، يقول: «وتحقيق ذلك: أن مؤمني العقلاء وبعض الإنس والجنّ يسبِّحون الله قولاً وفعلاً واعتقاداً، وسائر الحيوان والنبات والجماد وكفار الإنس والجن، تسبيحها ما أودع الله في خلقها من حكمة وإبداع وإتقان وانقياد طبيعي. وهذا هو معنى التسبيح لا معنى سواه»[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦٤-٣٦٥). وقد ردَدت على كلامه عن هذه الآية وأمثالها في مقدِّمة التفسير. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٢٨٣). وقد ردَدت على قاعدته هذه وبيَّنتُ جنوحَه فيها عن الصواب. (مجد).

وعلى هذا فسر ﴿يَحْمِلْنَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ...﴾ [الأحزاب: ٧٤]، بمعنى يَخُنَّها، فكانت السموات والأرض بذلك قد قامتا بالأمانة، وهي هذا النظام الذي أُنشئتا عليه[١]. فهذا تأويل عقليٌّ واضح، وهو عين ما ذهب إليه الفيلسوف الكندي[٢]، وكثير من المتكلمين، وقريبٌ منه ما ذكره الطوسي[٣] والزمخشري[٤].

والقاعدة الثالثة: (إن الله منـزَّه عن التشبيه): فهذه قاعدة أساس في العقائد الإسلامية المتعلقة بالألوهية وكل ما يدل ظاهره في القرآن على خلاف ذلك، فلابد من تأويله، فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] «كناية عن منتهى السخاء، مأخوذ من حال المخاطبين»[٥].

وهو سبحانه منزَّه كذلك عن النقائص، فكلُّ ما جاء من عبارات الكيد والمكر المنسوبة له تعالى في التنـزيل، إنما هي مشاكلة بلاغية يراد بها إبطال مكرهم[٦]. وقد يكون ذلك بأسلوب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢، ٩٣).

قلت: ينظرُ جواب شيخِنا عبد الكريم تتان على اختيار المؤلف لمعنى حمل الأمانة بالخيانة في مقدمة التفسير، وينظر أيضاً: ما علَّقتُه على كلامه في معنى حمل الأمانة في تفسير سورة الأحزاب. (مجد).

(٢) رسالة أحمد بن المعتصم في الإبانة عن سجود الحرم الأقصى وطاعته لله عزَّ وجلَّ ص٢٤٥-٢٤٦. نقلاً عن «الاتجاهات الفكرية في التفسير»، د. الشحات السيد زغلول، ط٢، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧، الإسكندرية.

(٣) «التبيان» (٧: ٥١٨).

(٤) «الكشاف» (٢: ٦٦٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٤)، وينظر: (٥: ٣٧٩)، (٦: ٣٥٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥).

إذ هي عنده «تمثيل مأخوذٌ من حال المُخَاطَبين، واستعارة الوصف الذي يسند لله سبحانه من حال المخاطبين، هي من أساليب القرآن ومجازاته»[١].

وسؤال الملائكة لله عزَّ وجلَّ عند إخبارهم بخلق خليفة في الأرض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ...﴾ [البقرة: ٣٠] قد يبدو فيه اعتراض على الله، وذلك مُحَال عليه سبحانه، فهذا لدى الشيخ «تـمثيلٌ وحكايةٌ لما دار في خَلَد الملائكة من محاولة معرفة الحكمة من طبع جِبلّة آدم على حرية الإرادة، والاختيار المطلق في تصرفاته»[٢]، وهذا لا شكَّ تمادٍ في إطلاق الخيال للعقل، إذ ظاهر النص يُشعِر بحدوث هذا الحوار وليس مجرَّد شيء دار في خلد الملائكة.

وأكثر منه في إطلاق العنان لخيال العقل ما أورده في مخاطبة إبليس إذ قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهذا لدى الشيخ أيضاً تمثيل، فبعد أن نقل قول ابن كثير «إنَّ هذا الخطاب للتكوين»، رأى أنه: «يريد أنه تمثيلٌ وإيذان بأن استعداد الشرِّ محيط بالإنسان من كل نواحيه، وهو قرينٌ لاستعداد الخير فيه». ثم علَّق على هذا الكلام في الحاشية بتلخيص كلام الجرجاني في «دلائل الإعجاز» من «أن بعض المفسِّرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، فأفسدوا المعنى، وأبطلوا الغرض، ولم يوفقوا لما هو المقصود وما به المراد»[٣]، بل يمتد التمثيل عنده ليشمل العالم الأخروي، إذ يرى أن «كل ما جاء

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٥٦).

قلت: تقدَّم الردّ على هذا الادعاء في تعليقاتي على «المقدمة»، وفي مواضع من التفسير. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٥٨) وقد سبقت الإشارة إلى مواضع نقله عن ابن كثير و«دلائل الإعجاز» في فصل المصادر.

في الأحاديث عن العالم الأخروي جاء بطريقة التمثيل، لأنَّ التصريح لا يفي بذلك، ويمتنع عن الذِّهن إدراك الحقيقة، إذ لا مجانسة بينه وبين العالم الدنيوي. كما قال ابن عباس رضي الله عنه لا يشبه ما في الآخرة ما في الدنيا إلا بالاسم»[١].

القاعدة الرابعة: (إنَّ الأنبياء معصومون من الخطأ): فكل ما جاء من آيات، قد يوحي ظاهرُها بغير ذلك أو فسِّرت على ذلك بناءً على روايات ضعيفة، وَجَب تأويلها لتنسجمَ مع الأصل، وهو: عصمتهم. ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ...﴾ [الحج: ٥٢]، فهو يذكر أنه كلَّما هيأ النبي في نفسه خطَّة لنشر الدعوة راجياً أن تنجح، وَسْوَس الشيطان للمعارضين ألواناً من الخُطط لإحباط تلك الخطة، فينسخ الله ويبطل كَيْد الشيطان، وتسير الدعوة في طريقها حتى تتكلَّل بالنجاح[٢]. وهذا تأويل فيه ما فيه من النزوع العقلي، إذ المشهور خلافُه وتأويل الشيخ قريب من أحد التأويلات التي عرضها محمد عبده في حديثه عن قصة الغرانيق وتفنيد ما قيل فيها من أباطيل[٣].

ومثل ذلك موقفه من زعم سحر الرسولﷺ فقد أنكر أن يكونﷺ قد سُحر أو أنَّ هذا السحر قد أثَّر على عقله[٤]. وذلك لمصادمة هذا الاعتقاد بعصمته التي دلَّ عليها التنزيل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ويقف من كل آية في ظاهرها إنذار للرسولﷺ أو (وعيد) إنْ هو ترك ما يُوحَى

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «مجلة المنار»، المجلد الثالث، السنة الرابعة. وينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ص٢٦٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٤-٤١٧). وينظر ما علَّقتُه في تفسير سورة الفلق (مجد).

إليه أو مال إلى الكفَّار أو اتَّبع أهواءهم، ليؤولها بما يدفعُ ما يوحي به ظاهرها ويبيّن المقصود منها، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٣] يقول: «فليس هذا على حقيقته، إذ يستحيل أن يصدر الترك منه ﷺ ولكنه من الأساليب الفرضيَّة المسوقة لشدَّة البيان، فهو نوع من أساليب القرآن، والغرض منه: الحمل على التشجيع والثبات بصورة شديدة من الكلام»[١]، وهذا منه في غاية الصواب لفهم النص في ضوء حقائق النبوة وأوَّلُها العصمة. ولا يخفى ما في هذه التأويلات من جهد عقلي، دأب عليه الشيخ حرصاً منه على تنزيه الأنبياء وتأكيد عصمتهم.

٥ـ **ومن مظاهر منهجه العقلي: موقفه من المعجزات**، فإذا لم تكن الآية قطعيَّة الدلالة على المعجزة، وأمكن صرفُها إلى السنن الطبيعية، كان الأخير أولى عند الشيخ.

وتفسيره زاخر بالأمثلة على ذلك، منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، إذ بيَّن أن ذلك: «إما بطريق خارق للعادة أو بإلهام لاكتشاف طريقة سهلة للعمل السريع المتقن في مصنوعاتها. وعين القطر التي أسالها الله لسليمان ـ: يشير إلى أنَّ المفسرين قالوا: بأنها معجزة ـ. ثم بيَّن أنه «لا مانع من إرادة التجوُّز بهذا التعبير مبالغة في تسهيله»[٢].

ولا يلزم في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦] أن إنبات الشجرة كان بعد أن نُبذ بالعراء، بل يسوغ ـ حسب خصائص اللغة وعُرف

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٩١).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٠٦)، وينظر: مثيلاتها في (٢: ١١٠)، (٣: ٢٠٣)، (٣: ٢٨٧)، (٥: ١٣٣)، (٥: ١٨٥). قلت: تنظر ردودي عليه في تلك المواطن. (مجد).

التخاطب ـ أن تكون الشجرة نابتة من قبل، فألقاه الحوت عندها فمدَّت عليه فروعها في مدّة وجيزة وظلَّلته، لأن بعض الأشجار من غير ذوات الساق تفرع بسرعة[١].

والتِّيه في بني إسرائيل إنما كان بسبب خوفهم من المصريين والكنعانيين[٢]، لا كما يُفسِّره الجمهور[٣] بأنهم «يسيرون على غير هدى». وهو أمر معقول فإنَّ ضعف إيمانهم سبَّب لهم الوهن والجبن الذي يمنعهم من الجهاد المطلوب لدخول البلد الذي أمروا بدخوله.

وانطلاقاً من نظرة جامحة عمّا عليه ظواهر الآي وصحيح الآثار، انطلق الشيخ ينفي الشفاعة، ويؤول ما يدلُّ من ظاهر الآي عليها على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] إذ قال: «في الآية وما قبلها من الموعظة وما يهدم صروح الأماني من جهلاء المسلمين الذي يعتمدون على الشفاعة والقرابين»[٤].

وكذا الحال في فهمه لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ١٠٩] إذ اختار في إعرابها ـ في تكلّف واضح ـ الوجه الثاني الذي عَرَضه

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢١٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٠١).

(٣) ينظر مثلاً: «القرطبي» (٦: ٨٥). و«بحر العلوم» (٣: ٦٠) لليث السمرقندي.

قلت: هو أبو الليث السمرقندي لا الليث، واسمه علي بن يحيى السمرقندي ثم القرماني، علاء الدين، مفسِّر من علماء الحنفية، نزل بلارندة من بلاد قرمان، وتتلمذ لعلاء الدين البخاري، اشتغلَ في بلادِه بالعلم الشريف، وبلَغَ من العلوم مرتبةَ الفضل، ثم سلكَ مَسلَكَ التصوف، وكان متوطنًا بالمدينة المنورة، توفي في حدود سنة ٨٦٠هـ. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ١٣٢).

الزمخشري[١] وهو أنَّ لفظ (من) منصوب على المفعوليَّة، عائد للمشفوع له فيكون المعنى: لا ينجو إلا من أذن له الرحمن بالانصراف عن موقف الحساب. فيكون الكلام رداً على القائلين بالشفاعة المعتمدين عليها، فالإنسان الصالح هو شفيع نفسه عند خالقه، ووجه التعليل عنده في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] أي: «أنَّ الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوال المشفوع ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك مُطَّلع على كلِّ شيء، فلم يبق من الشفاعة على القول بها إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالى والتوسُّل إليه أن يعفو ويصفح[٢]، ولا يقبل ذلك ويأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم»[٣].

وهذا كما تقدم آنفاً على خلاف ظاهر الآي، وخلاف الآثار الدالة على الشفاعة، مع أنَّ العقل لا يمنع حصول الشفاعة، وإن كان الإنسان يحاسب على عمله.

ومن منهجه العقلي: تلك المحاكمات العقلية الدقيقة التي يستشرفها نتيجة الاحتمال أو الاستنباط المؤدِّي إلى إدراك الحقائق، وتفسير الأحداث والظواهر على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى على لسان سَحَرة فرعون بعد إيمانهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] إذ قال: «ولا ينبئ هذا الكلام بأن إيمانهم كان نتيجة مجلس واحد، إثر حادثة المغالبة وتفوُّق موسى، بل يحتمل أنهم اجتمعوا بعدها بموسى مراراً وتلقوا كثيراً من الوحي والتعاليم حتى استقرَّ إيمانهم على هذه الصفة الثابتة، وذلك على نهج القرآن في إجمال البيان»[٤]. وهو ما لا دليل عليه، كما لا مانع منه في العقل إذ

---

(١) «الكشاف» (٣: ٨٩).

(٢) ردَدت على هذا الاتجاه في تفسيره للشفاعة في تعليقي على مقدمة المؤلف (٥: ١٣٥). (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٣٦)، وينظر: (٢: ٣٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ١٢٠).

كثيراً ما يؤمن الإنسان فجأة حين تلوح له دلائل الإيمان وبراهينه، كما كان من إيمان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع سورة طه في القصة المعروفة.

ويصف لنا أنواع الجدل في القرآن، كالترقي في الحجاج، عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤] إذ يقول: «ثم بكَّتهم عدّة تبكيتات يقلّب فيها وجوه التَّسخيف والتَّجهيل، ينتقل فيها من واحد إلى آخر أشدّ تشنيعاً وتوضيحاً في البطلان، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ ثم ترقّى متهكماً فقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾»[١].

ويقول في موضع آخر: «وجعل الكلام على طريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الجدل التي ينهجها القرآن لينحصر السبب في نفاقهم ومرض قلوبهم فيسجل به عليهم فقال: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾... ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ ... ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

٦ـ التفسير العلمي:

ومن مظاهر المنهج العقلي لدى الشيخ رشيد: عنايته بالتفسير العلمي. وسبب دخول التفسير العلمي في القرآن: الإشارات العلمية التي وردت في معرض الاستدلال على الخالق وصفاته، ونِعَمِه وحقائق اليوم الآخر ونحوها ممَّا عُني به القرآن في الفكر والعقيدة.

ويبدو أن مظاهره بدأت قبل عصر الجُبّائي الذي أنكر كرويَّة الأرض، ثم جاء الطوسي ليثبتها[٢] ثم توسع التفسير العلمي في عصر الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي نصره في كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، وجاء الرازي ليفسح له مجالاً رحباً في

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١٨٣).

(٢) «التبيان» (١: ١٠٢-١٠٣). وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» ص٢٢٨.

تفسيره الكبير. وقد أفاد الشيخ رشيد في نقولاته من لفتات الرازي العلمية[١] وعني البيضاوي والسيوطي[٢] والزركشي[٣] بعد ذلك بهذا اللون من التفسير.

وفي العصر الحديث زاد الاعتناء به على نحو ما نرى في تفسير طنطاوي جوهري الذي بالغ فيه كثيراً فملأه بقضايا العلم الحديث، وفي عدد كبير من الكتب التي أظهرت الإشارات العلمية في القرآن ومطابقة حقائق من العلم الحديث لها.

وقف الشيخ رشيد من التفسير العلمي موقفاً معتدلاً مُتَّزناً شبيهاً بموقف محمد عبده، ومع عنايته به يذكر في مقدمته بعد حديثه عن هذا اللون من التفسير: «إن القرآن لم ينزل كتاباً علمياً لتقرير نظريات علمية، وحقائق فلكيّـة، ووقائع تاريخية، وإنما هو كتاب هداية وتقرير دين، وإذا اقتضى الاستدلال على وجود الله أن يلفت العقول إلى آيات كونية ونواميس طبيعية ذكر منها، وأشار إلى ما يقوم برهاناً على وجوده..»[٤].

أخذ التفسير العلمي لدى الشيخ عدة مظاهر:

أولها: الاستفادة من الحقائق العلميَّة في كشف مدلول الآيات القرآنيَّة، والتدليل على عَظَمة الخالق وبديع صنعه سبحانه على نحو ما نجده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، إذ نقل كلاماً وأرقاماً عن العلمـاء في أسـرار الكون،

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٥). وينظر: «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١١).

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» (٢: ١٦٢).

(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٤٧٥-٤٧٨). وينظر: «تطور تفسير القرآن» لمحسن عبد الحميد ص٢٢٥.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧٠٥).

وبديع صُنعه وضخامته، ودقة نظامه، واتساق نواميسه[١]، ثم قال: «وقد قال العلماء إنَّ لله كتابين: كتاباً مخلوقاً، وهو الكون، وكتاباً منزلاً وهو القرآن»[٢].

وأفاد من هذه الحقائق العلمية في توضيح آيات كانت ملتبسة على الأولين كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] إذ عرض أقوال القدامى في العمد. وبيَّن أن منهم من قال: إنها غير مرئية، ومنهم من قال: إنها بغير عمد وأنتم ترونها، ثم ذكر أن: المراد من العمد غير المرئية: الجاذبية العامة التي بها تتماسك النجوم في هذا الفضاء[٣].

ثانيها: تبيين الحكمة من طائفة من أوامر القرآن ونواهيه بالمكتشفات العلمية ومنها الطب الحديث، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] إذ قال «أما تحريم الميتة والدم فلاحتوائهما على الجراثيم المُتلِفَة لصحّة الإنسان، وأما لحم الخنزير فقد ذكر في تقرير للمعهد الطبي في الولايات المتحدة، أنه في تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكنيلا بين (٥) و(٣٥) في المئة.. كما أنّ أعْراضَها تظهر على ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتّى.. ويحتمل أن بضعة آلاف من الوفيات سببها هذه الدودة. فما أعظم حكمة الإسلام»[٤].

ثالثها: تفسير آية قرآنيَّة بحقيقة علمية ثابتة ثبوت القانون، يجد فيها الشيخ دليلاً من دلائل الإعجاز، وأن هذا القرآن منزَّل من الله العليم. كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢٨-٢٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٣٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٤٨)، (٦: ١٠). وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» ص٢٢٧.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ١٧٨).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذ يقول بعد أن يفسر الآية: «وفي ذلك دلالة على نظرية ضغط الهواء وإيذان بأنَّ طبقاته تقلُّ كثافتها كلَّما بعدت عن الأرض، فيجد المرتفع حراجة في صدره إذا وصل إلى الطبقات العليا، لقلَّة مادة الأوكسجين. وهذا من جملة الأدلَّة الكثيرة الدالَّة على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين»[١].

إلا أن الشيخ ربما أوقع نفسه في مشكل بهذا التفسير الذي نزع إليه، وإن كان قد أحسن في معظمه. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، يقول: «فهما لا يختلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، ولكن يطفو العَذْب على المالح وكلاهما ماء. يقال: مَزَج الشيء بالشيء إذا خلط به. ومثله مَرَدَ الشيء بالماء فجعل في المالح مواد لم تكن في العذب، لذلك كان الماءان لا يمتزجان إذا جمعا، بل يطفو العذب عل المالح لخفّة أجزائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ بيانٌ لما في كلٍّ من الماءين من مواد متغايرة، بحيث لا يختلطان إذا جمعا وذلك دليل على حكمته ومنته تعالى»[٢].

فمِن الغريب حقاً أن يتبنَّى الشيخ هذا القول، وكان يكفيه أن يجرب ذلك بنفسه ليثبت خطأ ما ذهب إليه، ثم إنَّ اللغة لا تساعد على ذلك فمعنى (مَرَج) على قول الفراء: أرسلهما ثم يلتقيان[٣]. وعلى قول الزجّاج: خلط[٤]. وعلى قول ابن الأعرابي: أجراهما[٥]. فإن اعتمدنا أجراهما أو أرسلهما كان المعنى أنَّ الله أرسل الأنهار والبحار

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٣٦٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٦).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣: ١١٥). (مجد).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ١٠٠). (مجد).

(٥) «اللسان» م (مرج).

وجعل بينهما برزخاً أي حاجزاً، وهو ارتفاع الأنهار عن البحار، ولو كان العكس لطغى البحر على الأنهار فأفسدها وفسدت معه الحياة[١].

وقد اكتشفت في السنوات الأخيرة ظاهرتان: الأولى: عدم اختلاط البحر الأحمر بمياه المحيط الهندي برغم اتّصالهما إذ وجد العلماء أن كلاً منهما يحتفظ بتركيبه الكيمياوي[٢]. والثانية: اكتشفها البحَّار الفرنسي المعاصر المشهور (جاك ايف كوستو) الذي لاحظ أن الكائنات الحيَّة التي تعيش في البحر المتوسط تختلف في دقائق تركيبها عن شبيهاتها التي تعيش في المحيط الأطلسي المجاور له، ولـمَّا تحرَّى الحقيقة اكتشف وجود تيار مائي يفصل بين البحرين يمنع اختلاطهما. وانتهى به الأمر إلى وضع فرضية علمية مفادها أن مياه البحار والمحيطات ذوات التراكيب المختلفة لا تختلط أبداً، وذلك بفعل حاجز مائي يمنع امتزاجهما. وكان هذا الاكتشاف سببَ إسلامه عندما اطلع على الآية القرآنية[٣] التي يشهد ظاهرها تماماً لهذه الظاهرة العلمية الفريدة[٤]، ومن غير أن نؤول (البحرين) بالبحر والنهر على التغليب، فهما بحران حقيقة، وإن كان قدامى المفسرين ذهبوا إلى التغليب، على أساس أنهما البحر والنهر[٥].

ورابع مظاهر التفسير العلمي عند الشيخ رشيد: تفسيره الأحداث الغيبية المستقبلية كالبعث والنشور بالظواهر أو القوانين العلمية، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦: ١٧٤)، و«الجواهر في تفسير القرآن» لطنطاوي جوهري (١٢: ١٠٦)، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ.

(٢) «مجلة الفيصل» ص٤٠، مقابلة مع الدكتور عزت نصر، العدد ١٥٤، ١٩٨٩.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].

(٤) «روائع وطرائف» لإبراهيم النعمة (٣: ١٠)، مطبعة الخلود ١٩٩٠.

(٥) «الكشاف» (٤: ٤٤٧).

﴿ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] إذ قال: «وانشقاق السماء مثل انفطارها.. وهو فسادُ تركيبها واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه وتبديله بغيره، ويكون ذلك نتيجة لاضمحلاله بتقادم عهده ـ والله أعلم»[١]. فمثل هذا الكلام من قبيل الافتراضات التي لا سَنَد لها من علم قاطع، والأوْلى: أخذُ الآية على ظاهرها من دون تكلُّف كيفيّة حدوث ذلك، بل نَكِلُه إلى الله الذي لا يُعجزه شيء، فليس عصياً على الله سبحانه أن يُنهيَ هذا الكون يوم القيامة من غير أن يتقادم.

على أنَّ الشيخ له مع ذلك مواقف متَّزنة في التفسير العلمي يُرجِّح فيها التفسير العرفي على التفسير العلمي، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، نراه يذهب إلى أن المراد: «أولم يرَ أهل مكة وغيرهم من المعارضين أنا نفتح لمحمد ما حولها من القرى واحدة بعد أخرى فتتَّسع رقعته وتضيق رقعتهم.. ثم يذكر أن العلماء يقولون: أنَّ تكرُّر الليل والنهار يتولّد من دوران الأرض على نفسها أحقاباً لا تحصى، أنقصَ وزنها بما يتطاير منها في الفضاء طوال هذه الأزمان المديدة». ثم يقول «إلا أنَّ القرآن ينهج في المعاني منهج عرف التخاطب لا منهج المعاني العلميَّة، فما ذكرناه من المعنى العرفي هو المقصود في الآية»[٢].

ومع اعتداد الشيخ بالعقل وحُجيَّته وقدرته على إدراك الحقائق، إلا أنه مع ذلك لا يسترسل في اعتماده عليه إلى ما لا نهاية، بل هو يُصرِّح بمحدوديَّة العقل، فكثيرٌ من الظواهر الغيبيَّة برغم حرصه على تفسير كثير منها تفسيراً عقلياً ـ كالوحي وأمثاله ـ يقف العقل في رأيه عاجزاً عن إدراكها ومعرفة حقيقتها، وهو يقيس ذلك على قضايا

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٧٨-١٧٩). قلت: يُنظر ردّي عليه في تفسير هذه الآية من سورة الانشقاق. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧٩).

نحياها ونؤمن بها ونثق بها كلَّ الثقة، ومع ذلك لا ندرك حقيقة شأنها كعملية التذكر والإدراك، إذ لا أحد يعرف كيف تتم مع أنها عملية وعلمية ولا يمكن إنكارها البتة[١].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٦٨).

المبحث الثاني
تأثره بمدرسة محمد عبده

حَظيت أفكار محمد عبده في التفسير بكثير من الدراسات والبحوث، إذ أحدثت هذه الأفكار ـ بما قدمته من وجهات نظر جديدة ـ منعطفاً في تاريخ التفسير. ولقد تدارس علماء من العالم الإسلامي هذه الأفكار، بل ساهموا في تطويرها بقدر ما يملكون، ومن هؤلاء: رشيد رضا الذي جلّى هذه الأفكار في تفسيره «المنار»، وعبد القادر المغربي في «تفسير جزء تبارك» على طريقة الشيخ محمد عبده، وكلاهما من طرابلس الشام، وكذلك الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» الذي تلتقي كثيرٌ من أفكاره أفكار محمد عبده. ومثلهم مصطفى المُراغي صاحب «تفسير المراغي»، ومحمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة، ومحمد عبد الله درّاز، ومحمد البهي، ومحمد محمد المدني، وعائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، وسيد قطب، وهم جميعاً من مصر. ومن غير مصر محمد الطاهر بن عاشور أحد علماء تونس في تفسيره «التحرير والتنوير»، وعبد الحميد ابن باديس، ومالك بن نبي، وهما من الجزائر، وأبو الأعلى المودودي من باكستان[1].

---

(١) ينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفور عبد الرحيم ص٣٢٣-٤٠٩، «التفسير والمفسرون» للذهبي (٢: ٥٥٢-٦٠٨)، «تطور تفسير القرآن» للدكتور محسن عبد الحميد ص٢٢٣، وما بعدها. «مناهج المفسرين» للدكتور منيع عبد الحليم محمود ص٣٠٥-٣٤٧.

وكوَّنت هذه الأفكار مدرسة في التفسير، انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي، وتأثر بأفكارها معظمُ المفسرين الذين عاصروها أو تَـلَوها، ولم تسلم هذه المدرسة من الانتـقادات التي تكون شديدة أحياناً، من لدن عدد من العلمـاء والباحثيـن، مثل مصطفى صبري صاحب كتاب «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين». ود. عبد الحميد المحتسب في كتابه: «اتجاهات التفسير في العصر الراهن»[١].

وسبب ذلك: ما أحدثته من تغيير غير قليل في كثير من المفهومات السائدة قبلها، واعتمادها الكبير على العقل، ودعوتها للإفادة من المدنية الحديثة التي انبثقت في الغرب. وهذا ما كان يخيف كثيرين خشية التأثر بالجوانب السلبيَّة من تلك المدنيَّة التي قد تؤدِّي إلى الفساد والانحلال في القيم والسلوك.

عكف كثير من الباحثين على دراسة منهج هذه المدرسة وملامحها، منهم: رشيد رضا عندما تحدث في مقدمة «المنار» عن منهج الشيخ محمد عبده في تفسيره، وكذلك المستشرق الألماني كولد تسهير الذي يسمِّي مدرسة محمد عبده (المدرسة الإصلاحية)[٢]، والدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» وقد سمـاها (المدرسة الأدبية الاجتمـاعية)[٣]، والدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث»، والدكتور عبد الله محمود شحاته برسالته للماجستير عن منهج الأستاذ الإمام نوقشت في كليـة دار العلوم ١٩٦٠م[٤]، والدكتور عبد الغفار عبد الرحيم في كـتابه «الإمام

---

(١) وكتاب: «منهج المدرسة العقلية في تفسير القرآن» لفهد الرومي. (مجد).

(٢) في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي».

(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٤٩).

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار ص١٨٥.

محمد عبده ومنهجه في التفسير»، والدكتور عبد المجيد المحتسب[١]، والدكتور محسن عبد الحميد في كتابه «تطور تفسير القرآن، قراءة جديدة»[٢].

وقد فات هؤلاء الباحثين ومنهم المتأخِّرون، أنَّ عالماً في الموصل جَعَل من أفكار الشيخ محمد عبده قدوةً له وأسوةً في طريق الدعوة والإصلاح والتفسير. ولولا إشارة الأستاذ عبد الوهاب الكحلة في بحثه المنشور في مجلة «الرسالة الإسلامية»، وقبله مقال الشيخ إبراهيم النعمة في مجلة (إحياء التراث العربي الإسلامي)، لبقي الأمر طيّ الكتمان، مع أنَّ نسبة الشيخ رشيد إلى مدرسة محمد عبده لا تحتاج إلى كبير عناء، فقد أشار في مقدمته إلى شدّة إعجابه بآراء هذه المدرسة ممَّا جعله يبني تفسيره عليها[٣]. وخاصَّة في الأجزاء الاثني عشر الأولى من القرآن الكريم التي فسَّرها صاحب «المنار»، والتي ضمَّت جلَّ أفكار الشيخ محمد عبده، فضْلاً عن تفسير (جزء عمّ) الذي جَلّى منهجه أيضاً. بيد أنَّ هذه الإشارة ـ برغم أهميتها ـ ليست هي الدليل الوحيد على تأثر الخطيب بمحمد عبده، بل إن ذلك منثور في تفسيره في مواضع كثيرةً.

فلا بدَّ من التدليل على مواطن التأثير والالتقاء، ولا بد من عرض أهم الخصائص التي اتَّسم بها منهج مدرسة محمد عبده مع أوجه شَبَهِ منهجِ الشيخ رشيد بها. وهذه الخصائص هي:

١ـ **بيان سنن الله في الخلق**: ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقِّي الأمم وقوتها

---

(١) في كتابه «اتجاهات التفسير في العصر الراهن»، دار النهضة ١٩٨٠، وسمى مدرسة محمد عبده (المدرسة الطارئة التوفيقية)، ص٧٢.

(٢) ويسمي المدرسة: مدرسة (أفغاني عبده رشيد) ص٢٢٠.

(٣) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٤٩٢-٤٩٤).

وضعفها[١] أو علم أحوال البشر وطبائعه والسنن الإلهية فيه[٢] التي عُنيت بها مدرسة الشيخ محمد عبده عناية فائقة. وقد حظيت هذه السنن في تفسير الشيخ رشيد الخطيب باهتمام كبير أيضاً، مرَّ في المبحث السابق جانب منها، ومنها أيضاً **سنة الكسب في الدنيا**، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]: «الذي يسعى لها سعيها حسب سنن الله الطبيعية، وهذا الشرط يفهم من مقابلة فيما يأتي على سنن القرآن في الاحتباك، إذ جَرَت إرادة الله سبحانه ومشيئته بأن تكون النتيجة بنسبة السعي ودرجة الإتقان، فهو ينال بمقدار ذلك»[٣].

ثم يقول: «وتحرير الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلى الأرض، وركّب فيه من المواهب والقوى ما يسيطر به على قوى الطبيعة واستثمارها، ويهتدي به إلى الكمالات الروحانيَّة واستحصالها، وهداه بعقله وحده إلى الأولى، وبه وبالوحي إلى الثانية، فهو إن طلب الدين والدنيا معاً حصلهما، وإن لم يرد إلا الدنيا وحدها، بلغ مناه منها، إن اتبع السنن الكونية فيها، وسار بمقتضاها وموجباتها..»[٤].

وقمة العدل الإلهي في إعطاء الفرصة للإنسان في هذه الدنيا مهما كان اعتقاده، تمثله هذه الآية: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] وهذه السنَّة تجري على الأمم بمجموعها كما تسري على الأفراد[٥].

ومن سنن الله الاجتماعية: أنَّ المترفين والمنتفعين هم البادئون في الفساد، وأن

---

(١) «تطور تفسير القرآن» ص٢١٢.

(٢) «المنار» (١: ٢٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٩)، وينظر: (٣: ٤٥)، (٣: ٣٦٥)، (٣: ٣٧٢)، (٣: ٣٨٨)، (٨: ٨٩).

الترف مفسدة للأمم، وهذا ما ينتهي إليه من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا...﴾ [الإسراء: ١٦] مستشهداً بأقوال علماء الاجتماع. وهذا الربط بين القرآن والنظريات الاجتماعية منه لدى الشيخ محمد عبده كثير، وهو الذي عناه المستشرق كولد تسهير بقوله: «إن محمد عبده يشرح نظريات اجتماعية كنظريتي: (تنازع البقاء) و(الانتخاب الطبيعي)[١] في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وكذلك نظرية (بقاء الأصلح) في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][٢].

ومن سنن الاجتماع: أن الأمة إذا تركت الجهاد خوفاً، ماتت بتفرُّقها وسيطرة الأعداء عليها. ولا يمكنها أن تحيا إلا بتماسكها ودعوتها للجهاد، فهذا ما فسر به متابعاً رأي الإمام محمد عبده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣][٣].

٢ـ **الوحدة العضوية بين الآي**: وهي من الملامح الأسلوبيَّة في نظم القرآن التي عُنيت بها مدرسة محمد عبده، وقد ذهب إلى هذا الرأي غير واحد من الباحثين أمثال عبد الله محمود شحاته[٤]، وعبد الغفار عبد الرحيم[٥]. وتعدُّ الوحدة الموضوعيَّة، أو التناسب بين الآي من الموضوعات القديمة الجديدة، فكان القدامى يسمُّونه: (علم

---

(١) «مذاهب التفسير الإسلامي» ص٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه ص٣٨٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٣-٣٥٥). ووازن بـ«المنار» (٢: ٤٧١).

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص١٨٦.

(٥) المصدر نفسه ص٢٠٣.

١٨٨ ـــــــ

جديدة، إذ نظر إلى السورة الواحدة على أنها وحدة مؤتلفة تترابط أجزاؤها وتتماسك معانيها في سياق واحد لتكون ذات موضوع واحد لا تنافر بينه[١].

ولقد سار الشيخ رشيد الخطيب على نفس النهج، وكان شديد الحرص على تبيين **وجوه المناسبات بين الآيات**، وقد نبَّه على ذلك في مقدمة تفسيره قائلاً: «وإني قد التزمت فيه ما لم يلتزمه غيري من المفسِّرين، وهو بيان وجوه المناسبات بين جميع الآيات بقدر الإمكان، وذلك من جملة المهم في هذا التفسير»[٢].

وقال عن نظم القرآن وتماسك عباراته: «فهو متتابع تتابع الدر النظيم في العقد الفخيم»، ثم بيَّن وجوه هذا التماسك والتناسب في هذا النظم المعجز المبين: «والخلاصة: أن القرآن الكريم محكم الاتصال والترابط، متين النسيج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، ويقوم بين جمله وآيه تناسب بارع وارتباط رصينٌ وائتلاف بديع، وترتيب آياته وسوره توقيفي على وفق ما في اللوح المحفوظ ـ والله أعلم ـ لم ينقص منه حرف واحد.. وكل آية إما مكملة لما قبلها أو مستقلة متتابعة معها»[٣].

ولا يمكن القول: إن الشيخ رشيد متأثر بالشيخ محمد عبده وحده في هذا الموضوع، فلاشك أن الشيخ باطلاعه على التراث القرآني القديم، قد أفاد منه في هذا المضمار[٤]، إلا أن تأثره بالشيخ محمد عبده له وضوحه، وذلك لعنايته الفائقة بمنهجه من ناحية، وسلوكه مسلكه في مقدار اعتبار أسباب النزول، فقد كان متحفظاً فيها.

---

(١) «المنار» (١: ٢٨٩). وينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٠٤.

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٧).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٥).

(٤) وقد نقل في المقدمة (١: ٥٠٤) قول الرازي: «إن من آتاه الله قريحة قوية ونصيباً وافياً من العلوم الإسلامية عرف أن لا ترتيب ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن».

وكان الشيخ محمد عبده قد حمل على رواة أسباب النـزول، إذ رآهم «يمزّقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهيّ، ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بما يفككون الآيات ويَفْصُلون بعضها عن بعض، وربما يفصلون بين الجمل الموثقة والآية الواحدة، فيجعلون لكلِّ جملة سبباً مستقلاً، كما يجعلون لكلِّ آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً»[١]. وهو المنهج الذي ارتأته أيضاً عائشة عبد الرحمن في تفسيرها البياني للقرآن الكريم، مع أنَّ زوجها وأستاذها أمين الخولي كان أكثر عناية بأسباب النزول منها، كما يتجلَّى ذلك في حديثه عن هذه الأسباب في بيانه منهجه في التفسير[٢].

ومن الأمثلة على الربط بين الآيات عند الشيخ رشيد قوله بعد آية الحجاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ...﴾ [الأحزاب: ٥٩]: «ولما كان من جملة أعمال المنافقين المؤذية للرسول والمؤمنين إيذاء نساء المؤمنين بالنظرات والتَّقَوّلات، وكذلك بالمشاغبات في قضية زينب، أردفَ الكلام عن الحجاب العام والحكم السابق فيمن يؤذي الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات بهذا التهديد العام، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ باختلاق الأكاذيب والتقوّلات ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ... ثم سلاّه عن أعمالهم هذه بأن مشاغبات المعارضين للهداة والأنبياء سُنَّة من سنن الاجتماع في طباع البشر المفسودة وكذلك الأمر بمقاومتهم... ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، ولمَّا ذكر حالتهم في الدنيا بيّن حالتهم في الآخرة، وابتدأها بتحقيق القيامة التي ينكرونها ثم ذكر ما يكون لهم فيها بعدها من الشقاء: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ

---

(١) «المنار» (٢: ١١).

(٢) ينظر: «مناهج في التفسير» ص٣٠٦-٣٠٨، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١.

عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ [الأحزاب: ٦٣][١]. فعلى هذا النهج سار الشيخ رشيد في «تفسيره» في التفاته إلى تناسب الآيات وتناسقها وانتظامها في سياق واحد، والأمثلة على ذلك كثيرة[٢].

وقد تبدو آيات منقطعة عن السياق، فيلحظ التلاؤم فيها، ولا يعدم لها التأويل الذي يُظْهر قوَّة اتصالها بذلك السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فقد جاء بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١١-١٢] فربما يتوهَّم متوهم أن لا علاقة بين هاتين الآيتين، ولكن الشيخ يلحظ العكس فلا يفوته الالتئام ويقول: «وعدّى الدعاء بالباء لأنه من قولهم، ودعا به: إذا استحضره، أو لتضمُّنه معنى الاستعجال، فألمح سبحانه إلى أن أعماله كلَّها بتقديمها وتأخيرها مبنيةٌ على سنن لا تتبدل، وحِكَم لا تُدرك، ومثَّل لذلك بما بين الليل والنهار من مفارقات اقتضتها حكم، بعضها ظاهرة وبعضها خفية». ثم ذكر شيئاً من ظاهر هذه الحكمة في الليل والنهار وهي: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢][٣].

وهناك نوع آخر من الارتباط وهو **الوحدة الموضوعية القائمة في كل سورة، إذ** تشكِّل كل سورة في القرآن وحدة موضوعية، فأشار الشيخ أحياناً إلى هذا النوع إشارة سريعة بمقدمة للسورة كان يلخّص فيها موضوعها وما تتحدث عنه. ومن ذلك قوله في سورة الزمر: «وموضوعها: إخلاص التوحيد، والعبادة لله تعالى والتعلق به رأساً بدون واسطة، والنهي عن اتخاذ الوسائط للتقرب بهم إلى الله والدعاء منهم، كالأولياء ونحوهم، وإبطال أن يكون له ولد، لأن الولد يجانس والده، وإن كل ما في السموات

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٨٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٤)، (٥: ٥٠٢)، (٥: ٨٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٣)، وينظر: (٣: ١٨٦)، (٣: ٢٠١)، (٤: ١٤١)، (٤: ٣٥٠).

والأرض إلا مخلوق لله تعالى وآتي الرحمن عبداً، وليست هذه صفة الولد وخصائصه كما هو معروف»[١].

وممّن أجادوا في هذا النوع: سيد قطب، فقد وضع لكلِّ سورة مقدمة، وضَّح فيها: موضوعها، وأهدافها، والخطوط الرئيسة فيها، بحيث يسهل بعد ذلك ربط أجزائها ومعرفة المناسبات بين آياتها[٢].

وهناك نوع ثالث عُني به الشيخ وهو **التناسب بين السور**، ولم يكن هذا النوع كثيراً، إذ حاول فيه عدة محاولات، ومن ذلك محاولته الربط بين سورتي الانشراح والضحى، إذ بيّن في سورة الانشراح أن «الغرض منها تتميم ما قبلها، فيما اشتملت عليه من بيان عنايته به ورعايته له في سائر أحواله وتقلباته»[٣].

ومن ذلك الربط بين سورتي (الحج) و(المؤمنون)، إذ قال: «لـمّا ذكر في سورة (الحج) الإذن بالقتال، افتتح هذه السورة (المؤمنون) بالشروط التي يتوقَّف عليها نصرُهم وفلاحُهم، وقد اقتضى هذا ذكر بعض الرسل السابقين الذين نصرهم على أعدائهم ونالوا النجاح والفلاح»[٤].

ومن ذلك أيضاً إشارته إلى العلاقة بين سورة (الفيل) و(إيلاف قريش) في تعليقه الجار والمجرور (لإيلاف) بـ(جعلهم كعصف مأكول)[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢٦٥)، وينظر: (٦: ٩٧).

(٢) تنظر: مقدمة سورة الأنفال على سبيل المثال وإن كان الأمر مطَّرداً في كل السور..

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٧٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٥٥).

٣ـ التوجه العقلي في التفسير:

اختلفت تسميات هذا الملمح لدى الباحثين ولكن المؤدَّى على أيَّة حال واحد. وأُولى مظاهره لدى الشيخ محمد عبده: اعتماده على رأيه وعدم الوقوف عند أقوال المفسرين، إذ أخذ برأي القائلين بجواز التفسير بالرأي، بل عدَّ التأويل هو التفسير بعينه لا تباين بينهما في الدلالة معتمداً على عبارة الطبري في «تفسيره»، وحديث ابن عباس في دعاء النبي ﷺ له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[١]. وهو يعد الوقف في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] وعلى لفظ الجلالة لازماً، وأنَّ الراسخين في العلم هم الذين يفرِّقون بين ما يمكنهم فهمه وتأويله وبين ما لا مجال لهم فيه من الغيبيَّات فيسلِّمون، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[٢]. وهو موقفٌ سليمٌ جمع فيه بين القولين المعروفين، وكان الشيخ محمد عبده ـ فيما يُروى عنه ـ لا يراجع التفاسير القديمة في دروسه للتفسير لئلا يتأثَّر فهمه بها، وإنما كان ينظر بها لمعرفة وجهٍ غريب في الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة[٣]. وكان المعروف عنه في ذلك أنه يتكئ في تلك الدروس على تفسير الجلالين[٤].

أما الشيخ رشيد الخطيب فإنَّ ما جاء في المبحث السابق يثبت منهجه العقلي وتأثره بمنهج الشيخ محمد عبده مع احتفاظه بشيء من الخصوصيَّة في الفهم القرآني فهو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ يقف أيضاً موقفاً وسطاً بين من يقول: إنَّ الراسخين

---

(١) «المنار» (٣: ١٧٦-١٧٧). والحديث سلف تخريجه قريباً ص١٦١.

(٢) المصدر نفسه (٣: ١٦٣-١٦٧).

(٣) المصدر نفسه (١: ١٥).

(٤) ينظر: «منهج الجلالين في تفسير القرآن» لكاصد الزيدي ص١٢٥-١٢٧.

في العلم يعلمون المتشابه وبين من لا يقول بذلك، ولكنه يصوغ ذلك ويعبِّر عنه بطريقة أخرى إذ يقول: «إنهم يعلمون علماً إجمالياً.. وهم الذين يدركون أنَّ تلك المدلولات بعيدةُ المنال لا تفي بتوضيحها لغةُ الإنسان، فإذا عبَّر عنها القرآن بعُلوِّ بيانه واختيار كلماته، وبلاغة سبكه اشتبه الأمر على غير الراسخ، واستغلّه المُغْرض، وأدركه أولو الألباب إدراكاً إجمالياً». وينهي كلامه هذا المبني على اجتهاد واضح بعبارة: «والله أعلم»[١]، احتياطاً منه في أن يكون هذا الفهم غير سديد تماماً، وهذا من الورع الذي يُحمد له.

وكما قيَّد الشيخ محمد عبده الشفاعة بناءً على نظرة عقلية، وعدّ ما جاء في إثباتها من المتشابهات، إما أن نسلِّم به على مذهب السلف، وإما أن نؤوِّله على مذهب الخلف، على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى[٢]، فإن الشيخ رشيد لم ينقل عنه تشدّداً في أمرها[٣] فهو بعد مناقشتها وتحليلها على طريقة الشيخ محمد عبده نراه يقول: «فلم يبق على القول بها إلا الدعاء من الله سبحانه، والتوسل إليه أن يعفو ويصفح، ولا يقبل ذلك ولا يأذن بالشفاعة، إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولم»[٤].

وبمثل موقفه من الشفاعة كان موقفه من التقليد[٥]، إذ كان يُزْري بالمستمسكين به، وذلك يتجلّى في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿...قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، إذ قال منددّاً بهم:

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٤٦).

(٢) «المنار» (١: ٣٠٧-٣٠٨)، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٢: ٩٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢). وينظر: «المنار» (١: ٣٠٨).

(٥) ينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٧٣.

«ولو كان للمقلِّدين قلوب يفقهون بها، لكانت الآية كافيةً بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد الأعمى، فإنها حُجَّة عقلية لا تُنقض، إذ أبعدُ الناس عن معرفة الحق المقلدون الذي لا يبحثون ولا يستدلون..»[١].

وقال في تفسير سورة لقمان: «يريدون أن يتفكَّروا بعقول آبائهم لا بعقولهم:

صُوَرُ العَمَى شَتَّى وأقْبَحُها إذا نَظَرَتْ بغيرِ عُيونِهنَّ الهَامُ

ما أقبح التقليد وما أشدَّه جهالة»[٢].

وكان الشيخ رشيد يطبق ذلك عملياً، إذ كان يطلب من طلابه أن لا يتقبلوا آراءه بالتسليم، وأن يشبعوها درساً وتمحيصاً. وكان لا يسلِّم لأبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) بكل آرائه، وقد يُسلِّم للمعتزلة إذا وجد الحق معهم[٣]. وهذا يدلُّ على تحرُّره الفعلي من الاتباع بلا دليل، ولعلَّ هذا الذي حَمَل عدداً من الناس على نسبته إلى المعتزلة، مع أنه ـ بدون أدنى ريب ـ من أهل السنة.

أما السحر فقد أنكره الشيخ محمد عبده وعدَّهُ نوعاً من الحيل، أو صناعة علمية خفية، أو من تأثير النفس الإنسانيَّة في نفس أخرى[٤]، وأنكر أن يكون الرسول ﷺ قد سحر وأغلظ للقائلين بذلك، ثم نقد الحديث الوارد في سِحْر الرسول ﷺ نقداً علمياً مبنياً على أصول العقائد الإسلامية، فقال: «وأما الحديث فعلى فرض صحَّته هو آحاد،

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٣٩). وينظر: «المنار» (٢: ٩١) فإن بعض النص متطابق لفظاً.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٩).

(٣) «مجلة إحياء التراث الإسلامي» ص١٦٥، مقال للشيخ إبراهيم النعمة بعنوان: (الشيخ رشيد الخطيب الموصلي).

(٤) «تفسير جزء عم» ص١٨٣-١٨٦.

والآحاد لا يؤخذ بها في العقائد، وعصمة النبي ﷺ من تأثير السحر في عقله عقيدةٌ من العقائد التي لا يؤخذ بنفيها إلا باليقين..»[١].

وقد نُقد الشيخ محمد عبده بسبب موقفه من الحديث الصحيح الوارد في سحر النبي ﷺ غير واحد من المعاصرين: كالذهبي[٢]، والمحتسب[٣]، وعبد الغفار عبد الرحيم[٤].

أما الشيخ رشيد الخطيب فقد تابعه في هذا الرأي، ولكن لا إلى النهاية إذ قلَّل من شأن السحر بما نقله عن البيضاوي بأن المراد بالنفث في العقد: إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد، بنفث الريق ليسهل حلها، وقلل من شأنه أيضاً بما نقله من كلام محمد عبده بأنهم «النمّامون ودعاة الشر»[٥].

ويعضد بيان موقف الخطيب من السحر، ما ذهب إليه في قصة (هاروت وماروت) إذ عدَّ السحر نوعاً من «الزعبرات»[٦] والحيل والخداع. ثم نقل عدة أقوال مفادها أن محاولة السحر قد حصلت ولكنها لم تؤثر في عقله ﷺ[٧]. فهو بهذا يقف

---

(١) «تفسير جزء عم» ص١٨٢، والحديث رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧٣).

(٣) «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» ص١٤٨.

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه» ص٢٥٩.

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٣).

(٦) كلمة عامية فصيحها (زبعر)، في «اللسان»: (رجل زبعري: شكس الخلق سفيه)، وفي «القاموس»: (السَّيِّئ الخلق الغليظ) وهم اشتقوا الفعل (زبعر) فقلبوه إلى: زعبر، وفلان مزعبر ـ مزبعر ـ حيال مشاكس. (اللهجة الموصلية، محمود الجومرد ص١٤٥).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ١٤٧-١٥١).

موقفاً وسطاً، إذ يقرّ بحديث السحر، ولكن من غير أن ينال من عصمة الرسول ﷺ. وكان الطوسي قد احتمل ذلك قديماً، كما هو واضح من كلامه الذي وَرَد آنفاً.

أما في الحسد فهو ينقل رأي محمد عبده بإنكاره الحسد وتأويله إلى عمل يقوم به الحاسد من كيد ومكر لإزالة النعمة عن المحسود. ولكن مع هذا يحتمل إصابة المحسود بها فيقول: «وربما يكون لعين بعضهم أثرٌ فوق ما له من سعي في أنواع الضرر..»[١]. فتأثره في هذا واضح بالشيخ محمد عبده إلا أنه لا يريد أن ينأى عمَّا صحَّ في الأثر من تأثير العين.

وهذا ينقلنا إلى موقف الشيخ محمد عبده ومدرسته من عصمة الأنبياء ودفاعه عنها، وموافقة الشيخ رشيد الخطيب لها تماماً، وقد مرَّ الكلام عليها في المبحث السابق، ومنها حديث الغرانيق الباطل فإن الشيخ رشيد نقل أحد الوجوه التي عرضها محمد عبده في تأويل الآية بما يدفع الشبهة عن النبي ﷺ[٢].

أما موقف مدرسة محمد عبده من المعجزات فهو الحرص على إعادة كلِّ آية فيها ظاهرة غريبة إلى السنن الكونيَّة، بقدر المستطاع كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] إذ قال صاحب «المنار»: «والظاهر أن ذلك كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل، إذا وجد القتيل قرب بلد، ولم يعرف قاتله ليُعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم في الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الخيانة، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عُرضة لأن تسفك بسبب الخلاف...»[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٨)، الحاشية.

(٢) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٦١-٢٧٣، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «المنار» (١: ٣٥١).

وهو تأويل ظاهرُ البعد، والجمهور على أنَّ المراد من إحياء القتيل أمام بني إسرائيل إحياؤه حقيقة لإثبات البعث والنشور بصورة عملية مرئيّة لِقِلَّة إيمانهم بذلك، بعد تأثرهم بالشعوب التي لم تكن تدين بهذا المعتقد.

وقد مرَّ بنا موقف الشيخ رشيد في هذا الموضوع فهو منها على هذا المنهج، بل شارك بآرائه الخاصة في عدّة تأويلات فيها اجتهاد واضح، ومن ذلك قوله في الحيوانات التي حملها نوح معه في السفينة: «والظاهر أنَّ الحيوانات لما غمرها الماء خافت مذعورة، وطلبت منجاة فلم تجد غير السفينة فازدحمت عليها، فأمر أن يحمل من كلّ زوجين اثنين، لأن ذلك هو الممكن لبقاء النسل، ولشدّة اندهاشها وذعرها لم يعتد بعضها على بعض، أو لمعجزة من الله لنبيه، هذا ما أراه، والله أعلم»[١]، وعبارة «أو لمعجزة» تدل على احتماله لوجهين فيما ذهب إليه.

ويقف نفس موقف مدرسة محمد عبده في معجزات النبي محمد ﷺ غير القرآن إذ يعدها من البركات التي أنعم الله بها عليه، وليست حجة على نبوته، ولا أمر بالتحدي بها إذ القرآن هو حجته ومعجزته[٢]. وهذا فيه ما فيه، إذ لا شك أنَّ للنبي محمدٍ عدَّةَ معجزات دالة على نبوته، ولكن معجزته الكبرى التي تحدَّى بها هي القرآن.

ولقد أُخذ على مدرسة محمد عبده هذه الانطلاقة العقليَّة إلا أن المتفِّهم لظروف عصرهم قد يجد لـهم شيئاً من العذر، فقد عانَوا في أيامهم من ضغط الحضارة المادية الوافدة الرافضة لكلِّ خارج عن قوانينهم التي عرفوها، مع ما كان فيه حال المسلمين من استرسال في البدع وتقليد أعمى، وتشويه لمعالم الدين، حتى إنَّ علماء الأزهر أوصوا

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٢) الحاشية.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١٦٦)، ووازن بـ«المنار» (١١: ٣٣٣).

بقراءة «صحيح البخاري» عندما نزلت قوات نابليون مصر، وفي هذا يقول صاحب «في ظلال القرآن»: «إننا ندرك ونقدِّر دوافع هذه المدرسة التي كان الإمام محمد عبده على رأسها... ندرك ونقدِّر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيَّات في تفسير القرآن وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيَّة. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة وسيْل الأساطير والإسرائيليات.. وفي الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم إلى ذروتها، وموجة الشكِّ في مقولات الدين إلى قمتها، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أنَّ كل ما جاء به موافق للعقل، ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير، كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية.. وهي في صميمها العقلية القرآنية»[١].

وهو كلام يدلُّ على تفهُّم لدوافع هذه المدرسة في منهجها الذي اعتمدته في التفسير.

وهنا يرد سؤال: هل كانت متابعة الشيخ رشيد لمدرسة محمد عبده في هذا الاتجاه والمنهج لنفس الظرف، مع ما بين زمنيهما من فارق في السنوات؟ وحيث إن الشيخ قد أنهى كتابة تفسيره عام ١٩٤٦م، أم هو مجرَّد اقتناع بهذه الآراء؟ الحق أن الظرف كان واحداً، وكذلك الدافع، والفرق الزمني لم يفعل فعله المجدّد في العراق، فقد بقي هذا البلد العريق بعيداً عن التأثيرات الجديدة التي حصلت في مصر ولبنان بشكل خاص وهما: الموطنان الرئيسان لنشأة مدرسة محمد عبده، ويؤكد ذلك أن الكتب المصرية وغيرها لم تدخل العراق إلا بعد تشكيل أول حكومة عربية[٢]، زهاء عام ١٩٢٠ بعد وفاة الشيخ محمد عبده بخمسة عشر عاماً.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣٠: ٢٥٤). وينظر: «تطور تفسير القرآن» للدكتور محسن عبد الحميد ص٢٢٣-٢٢٤.

(٢) «مخطوط للشيخ رشيد» ص١، محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي.

٤ـ التفسير العلمي:

إن ما قيل في المبحث السابق عند التفسير العلمي لدى الشيخ رشيد الخطيب، يكاد يوافق ما قاله أكثر الباحثين عن التفسير العلمي من مدرسة محمد عبده، فإنَّ الكون عند مدرسة محمد عبده كتاب الله المنظور والقرآن كتاب الله المقروء، والقرآن سابق للكثير من علوم العصر على نحو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] إذ استدل منها على كروية الأرض وبيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية[١] ويقيس ما حققه العلم من اكتشافات لم تكن معروفة ومقبولة من قبل، على صحة عدد من المعتقدات الدينية، كالإيمان بالملائكة والوحي[٢]، وهذا عينُ ما فعله الشيخ رشيد كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ [الأعراف: ٤٤] إذ يقول: «وهذا النداء لا يقتضي قرب المكان، كما هو معهود. فعالم الآخرة له سنن أخرى... وما ظهر الآن من المخترعات في تقريب التخاطب بين الناس يجعلنا ندرك أمر هذا النداء وأمثاله..»[٣].

٥ـ رفض التعصب المذهبي:

وهو ضرب من الانفتاح العقلي وعدم الانغلاق على الرأي الواحد الذي لا يرى المتعصب عادة غيره. فمن المعروف أن الشيخ محمد عبده ـ انطلاقاً من رفضه التقليد ـ كان يرفض التعصب المذهبي، ويرى أن تراث المسلمين كلَّه يجب أن يستفاد منه، لا أن يؤخذ بعضه وينبذ أكثره، يقول رشيد رضا معبراً عن هذه الحقيقة: «إنني مستعد

---

(١) «المنار» (١: ٢١٠-٢١١)، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٦: ٢٧٠).

(٢) «المنار» (١: ٢١٠-٢١١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٠).

للتوفيق بين الإسلام الحقيقي، وكل ما يحتاج إليه العثمانيون لترقية دولتهم، مما جربه الإفرنج قبلهم، وغير ذلك بشرط أن لا ألتزم مذهباً من المذاهب، بل القرآن والسنة الصحيحة، وأرجو أن يكون ذلك مقبولاً عند جميع العناصر العثمانية، إلا المقلدين المتعصبين لمذاهبهم من المسلمين»[١]. وهو كلام في غاية السمو والموضوعية. كما طالب بفتح أبواب الاجتهاد الذي أغلقه (الباب العالي)، بوجه الآراء التي قد لا توافق مطمحه ووجهته.

وقد ظهر هذا في تفسير الشيخ رشيد الخطيب، إذ يستشهد بأقوال الشافعية والحنفية وغيرهم. ولم يظهر له أثر تعصب لمذهب، أو تحامل على مذهب آخر، وقد جاوز ذلك عنده إلى الأخذ من العلماء من غير السنة كالمعتزلة والشيعة، وهذا ما مر في فصل المصادر.

ومن شدَّة حرصه على وحدة المسلمين استنباطه من الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، حكماً بعدم جواز «الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خَفَاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإن التمسُّك بها قد أضلَّ كثيراً من الناس وتعلق بها صاحب كل مذهب في الاستدلال على رأيه بأحد الوجوه فتعددت الفرق..»[٢]. وهذا رأيٌ سديد يدل على موضوعية وعلمية، فكأنه يقول: إن هذه الآيات لا يتأتى تأويلها لكل واحد، إذ هي تحتمل وجوهاً فلا يصح أن نستدل بها على صحة مذهب أو فساده، ففي المحكمات الواضحات كفاية وصيانة من الزلل والفرقة.

---

(١) «المنار» (١٢: ١٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢١٩).

٢٠٢ ـــــــ

هذه مقارنة سريعة بين منهج الشيخ محمد عبده ومنهج الشيخ رشيد الخطيب، وقد بدا واضحاً تأثر الشيخ رشيد بمنهج الشيخ محمد عبده وأفكاره.

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث

ما انفرد به أو أغرب من تأويل

منح الشيخ رشيد نفسه حرية واضحة في التأويل، فبرغم اعتماده الكبير على ما جاءت به مدرسة محمد عبده في التفسير كما رأينا سابقاً، وبرغم كثرة مصادره وتنوعها، فإن تفسيره لم يَخْلُ من تأويلات جديدة استنبطها بنفسه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته بقوله: «لذلك تجد في تفسيري هذا من المعاني ما لا تجده في التفاسير القديمة والحديثة، وأكتب في آخره عبارة: (والله أعلم) للإشارة إلى أنه من رأيي الخاص...»[1]، فمن هذه الآراء:

١ـ الفرق بين الروح والحياة:

الروح في رأي الشيخ رشيد يختص بها الإنسان والجن والملائكة، وهي مناط التكليف والتفكير، وهي ـ عنده ـ غير الحياة، فالحياة عامة في سائر المخلوقات من حيوان ونبات وغير ذلك، وهي تقوم على تسوية معينة يقيمها الله تعالى عليها، مثل الدورة الدموية في الإنسان والحيوان، والدورة المائية في النبات.. فإذا اختلت فقدت هذه الحياة. والحياة للإنسان هي التسوية التي تهيئه للاتصال بالروح. واستدل بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]. فإذا اختلت هذه التسوية فارقته الروح. وإطلاق الروح على الحياة من عرف التخاطب، والروح هي التي تُهَيِّئُ

(١) «أولى ما قيل» (١: ٣٥).

الإنسان للحياتين، في الدنيا تكون خفية والجسم ظاهراً، وفي البرزخ ـ وهو الحاجز بين الحياتين ـ تكون ظاهرة والجسم خفياً، وفي الآخرة تعود إلى جسمها بعد أن يسويه الله بالبعث خلقاً قابلاً للخلود، في الجنة أو النار. وهو يرى أن القرآن يطلق النفس على الروح كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

هذه خلاصة لرأي الشيخ في الفرق بين الروح والحياة، استنتجها من آيات وأحاديث وأقوال للصحابة والمفسرين[١]. وكل ما جاء في كلامه صحيح وعليه أكثر العلماء، ما خلا قوله: إن غير الإنسان والجن والملائكة ليس لها روح، فإن العلماء لم يثيروا هذا الموضوع وإن كان كلامهم عن الروح في نطاق الإنسان وحده[٢]، ولم يتطرقوا لمسألة الروح عند الحيوان، وإنما كانوا يشيرون إلى ما له (نفس سائلة) أي: ما له دم يسيل عند تذكيته، تمييزاً له مما لا دم له يسيل كالجراد مثلاً. وقد نبه الشيخ رشيد على أنه لم يخض في حقيقة الروح وكنهها، فهذا فيما يرى لا يعلمه إلا الله[٣]، وكأنه يجد هذا الكلام في الحديث عن الروح ليس خوضاً في ماهيتها وكنهها، لأنه لم يبحث عن (ما هي الروح؟).

٢ـ ماهية دابة الأرض:

حين وقف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢٦-٤٢٧)، (٤: ٥٦٩)، (٥: ٢١٢)، (٦: ٢٥٩). «رسالة في مواضيع مهمة» ص٤-٨.

(٢) ينظر: «الروح» لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٠).

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] ذكر في تفسيرها بعد أن أورد حديث أبي هريرة وغيره، أن قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، «وهو موضع التعليل بمعنى أنها تؤذن ببلوغ الفساد أقصاه ولذلك سلطها الله، فهو: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] ثم قال «والله أعلم». وقال بعد ذلك: «وعليه يجوز أن تكون ـ يقصد الدابة ـ مسلطاً دجالاً من أهل الأرض من أمم كثيرة من الأتباع تدب في الأرض فساداً. هذا رأيي بمقتضى احتمال اللفظ بحسب اللغة، وإن أخطأت فأستغفر الله»[١] وهذا التأويل مما انفرد به الشيخ، ولكنه بعيد، ولا يخلو من تعسف؛ إذ كان المفسرون[٢] يذكرون أنه (دابة) حقيقية تخطم الكافر وتمسح على رأس المسلم. وإذا سلمنا برأيه في الآية، فإنه في الحديث الذي رواه مسلم[٣] محال. وقد أشار الشيخ إليه بعبارة موجزة.

٣ـ **قوله في أن لقب (يأجوج ومأجوج)**: يطلق على غوغاء الناس وهمجهم وعلى الكثير المرتبك منهم، وعلى السفلة المشرعين إلى الشر، وليس على جيل أو صنف معين من الناس، واستند في ذلك إلى قراءة مجاهد (ت١٠٤هـ): ﴿مِّن كُلِّ جَدَثٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أي: «قبر» بدلاً من ﴿حَدَبٍ﴾[٤] وهو النشز من الأرض، ليجعل من الآية تعبيراً عن يوم القيامة، لا علامة من علاماتها. كما استند إلى حديث أورده البخاري، ومنه قوله ﷺ: «أبشروا فإن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٨).

قلت: ينظر ردّي عليه عند تفسيره لهذه الآية في سورة النمل (مجد).

(٢) «التاج» (٤: ١٩٧).

(٣) ينظر: على سبيل المثال الروايات في «تفسير الطبري» (٢٠: ١٠)، دار المعرفة.

(٤) ذكر ابن جني في «المحتسب» (٢: ٦٦) قراءة ﴿مِّن كُلِّ جَدَثٍ يَنسِلُونَ﴾ ونسبها لابن مسعود. (مجد).

ألفاً»[١] أي في النار. ثم جعل معنى الآية التي تلتها وهي: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحساب، وليس الساعة؛ لتستقيم مع تأويله. والحق أن هذا شبيه بما ورد في «الكشاف»[٢] و«مفاتيح الغيب»[٣]، ولكن ليس بهذه الصورة المتكاملة. ومهما يكن من أمر، فهو خلاف رأي الجمهور القائل: إن خروج يأجوج ومأجوج ـ وهم قوم مخصوصون ـ بعد انفتاح السدّ الذي أنشأه ذو القرنين، من علامات الساعة الكبرى[٤].

٤ـ تأويل ما قد يشعر في الظاهر بالاستبعاد:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] يقول في تفسيرها: «ويظهر لي على نهج القرآن في إجمال السؤال والدلالة عليه بتفصيل الجواب ـ والله أعلم ـ أن السائل استطال مدة البرزخ من الأزمان الطويلة التي مرَّت على أمثال أهل هذه القرية، وتخيَّل صعوبة ذلك عليهم، ولاسيما أن ما مر بهم قليل من كثير سيمر عليهم، فبين له سبحانه بالواقع أن له سُنَناً في كونه ونظامه تُقَرِّب البعيد، وتجعل المُدَد الطويلة قصيرةً. إذ الأرواح المجرَّدة لا تتقيد بالزمان والمكان ـ والله أعلم ـ فعلم السائل علماً واقعياً

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨) ورواه مسلم أيضاً (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (مجد).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (٣: ١٣٥).

(٣) للرازي (٢٢: ٢٢٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤: ٥٩٢-٥٩٦).

قدرة الله على ذلك ونظامه في أمر البرزخ»[١]. وهو رأي معقول أراد به الشيخ إبعاد الشبهة في سؤال السائل، وهو كما ورد في الآثار نبي من الأنبياء يدعى (عُزَيْر)[٢].

٥ـ تأويل آية متشابهة على أساس التعبير التركيبي لها:

ذلك ما أورده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] إذ قال: «يلوح لي ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الجملة لا ينظر فيها إلى معناها الإفرادي، ونَكِلُ عِلْمَه إلى الله ولا نحتاج حينئذ إلى أن نؤول (استوى) بمعنى (استولى) ولكن ننظر في فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه وتعالى على هذه الموجودات التي أوجدها بخلق السموات والأرض وخلق ما فيها ـ والله أعلم ـ والمعاني التركيبية التي لا تراعى فيها المعاني الإفرادية موجودة في اللغة وفي القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأحزاب: ١٠]، يعبر بها عن شدَّة الخوف ولا يراد معناها الإفرادي. وقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، مأخوذ من حال المخاطبين ولا يصحُّ إطلاق معناها الإفرادي على الله سبحانه، وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، وليس في ذلك شيء من الالتباس، لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته ولا في صفاته، والقرآن يعبر عن ذات الله وشؤونه بأحوال الملوك والسلاطين تماشياً مع علمنا ومعرفة شؤوننا وتقريباً لأفهامنا، هذا ما أراه والله أعلم»[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٨٨).

(٢) «جامع البيان» الطبري (٥: ٤٣٩)، دار المعرفة.

(٣) (٥: ٣٧٩) حاشية.

فهو هنا يرى أن هذا التعبير ضرب من المجاز إذا أخذناه مجملاً في نطاق تعبيره التركيبي، لا الإفرادي في لفظة (استوى) وأمثلته التي أوردها تدل على ذلك، ومن الشائع أن المسلمين في مثل هذه الآيات على قسمين؛ قسمٍ ـ وهم السلف ـ يقف عند ظاهرها ويفوض كيفيتها إلى الله تعالى ـ وقسمٍ ـ وهم الخَلَف يؤوِّلونها تأويلاً عقلياً مجازياً[١]. ومما أولت به هذه الآية أن الاستواء بمعنى الاستيلاء وبسط النفوذ وقد رد عليهم المفوضون من الخلف أو كما يسمون أنفسهم أنصار السلف بأن كلامهم هذا يدل على أنه لم يكن مستولياً من قبل، وهذا يجرُّ إلى جدل طويل أورده ابن الجوزي[٢] (ت٥٩٦هـ)، والشوكاني[٣] (ت١٢٥٠هـ) ولجوء الشيخ إلى المعنى الإجمالي التركيبي بتأويله بضرب من المجاز، وهو السلطان، يدل على وعيه لماهية هذا التعبير ويخرج من ذلك الجدل، ومثل ذلك ما أورده في وقوفه عند الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] وقد تقدم الكلام عنها في هذا الفصل.

---

(١) «دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية» للدكتور عرفان عبد الحميد ص٢٠٩. وقد رد هذا الرأي الدكتور محسن عبد الحميد في المناقشة مبيناً أن استقراء التفاسير دلَّه على أنه لا يمكن الفصل في هذه القضية بين السلف والخلف فقد بدأ التأويل منذ عصر الصحابة كما أن التفويض موجود في الخلف، وقد صدر للدكتور محسن كتاب حول هذا الموضوع.

(٢) في «زاد المسير في علم التفسير» (٣: ٢١٢)، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٥.

(٣) في «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير» (٢: ٢١١)، دار الفكر للطباعة والنشر.

٢١٠ ـــــــ

وهناك عدد آخر من التأويلات[١] التي استطاع الشيخ بثاقب فكره وطول تأمله أن يذهب إليها، اكتفيت بالإشارة إليها في الحاشية دفعاً للإطالة غير أنه لا يمكن الجزم بأن هذه التأويلات جديدة كل الجدة فإن إرث التفسير ضخم شارك فيه عدد كبير من العلماء في العصور المختلفة على اختلاف مناهجهم وأفكارهم وثقافاتهم فلابد أن تلتقي بعض الجوانب وتتشابه، إلا أن الملاحظ أن الشيخ كان يفيد من هذا الإرث ويخرج بشيء من النظرات الجديدة كما رأينا، وإن كان بين هذه التأويلات ما قد يبدو بعيداً أو في الأقل مخالفاً لما يذهب إليه جمهور المفسرين.

❊ ❊ ❊

(١) ينظر مثلاً: (٥: ٢٠٩)، (٥: ٣٢٤)، (٨: ٢٩٧)، (٦: ١٤٧-١٤٨)، (٧: ٢٤٢)، (٤: ٢٣٢) حاشية، (٧: ١٦٣-١٦٤)، (٥: ٢٦٥-٢٦٧)، (٥: ١٩٣)، (٨: ٨٤-٨٥)، (٧: ٢١٣)، (٤: ٤٢)، (٥: ٤٨)، (٢: ٢٢٠).

الفصل الرابع
القراءات

المبحث الأول

مقدمته في القراءات

تحدَّث الشيخ رشيد في مقدمة تفسيره عن جمع القرآن، وترتيبه، وقراءاته وعلاقتها باللهجات العربية، كما تحدَّث عن الأحرف السبعة التي أنزل بها، فعرض آراءه واختياراته في هذا الموضوع، سالكاً في ذلك طريق التوفيق بين أقوال العلماء، والخلوص إلى وجهة نظر خاصة به، أو مجرد الاكتفاء بعرض الآراء.

ولا بدَّ أن نقف على الموضوعات التي طرقها الشيخ في تفسيره، ممَّا يتعلق بالقراءات، ووجهة نظره فيها، وما انتهى إليه أهلُ العلم في كلٍّ منها على وجه الإيجاز.

١) القراءات واللغة التي نزل بها القرآن:

ذكر الشيخ في غير موضع من مقدمته أنَّ القرآن نزل بلغة قريش، على نحو ما نراه في قوله: «إن أبا بكر رضي الله عنه لم يجمع الناس على اللهجة التي كتب بها المصحف وهي لهجة قريش، التي نزل بها القرآن»[١].

ونحو قوله: «إن الرسول ﷺ كان يقرأ بلهجة قريش كما نزل»[٢].

واستدل على ذلك بظاهر رواية مأثورة، وهي قول عثمان رضي الله عنه لكتبة

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٢١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠).

المصحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلسانها»[١]، وهذا الرأي ليس بسديد، إلا إذا أراد بذلك التغليب وهو ما لم يشعر به كلامه، أي إن لغة قريش كانت غالبة على بقية اللغات في نصِّ القرآن، فهذا ما تؤوَّل به هذه الرواية، ورواية أخرى مأثورة عن عمر رضي الله عنه في كتابه لابن مسعود حين أقْرأ بعضهم بلغة هذيل[٢].

يقول الباقلاني (ت٤٠٣هـ): «ومعنى قول عثمان: يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أنَّ القرآن بأسره نزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] ولم يقل قرشياً[٣].

ويقول ابن عبد البر[٤] (ت٤٦٣هـ): «وقول من قال: نزل بلغة قريش، معناه عندي: على الأغلب لأن لغة قريش موجودة في جميع القراءات»[٥].

ويؤيد هذا ما روي عن الإمام علي وابن عباس رضي الله عنهما: «أن الله أنزل هذا القرآن بلغة كلِّ حيٍّ من أحياء العرب»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٢٣). وسيأتي تخريج الحديث في التعليق على مقدمة المؤلف. (مجد).

(٢) «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» لأبي شامة ص١٠١.

(٣) «نكت الانتصار لنقل القرآن» ص٣٨٥. وينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١: ٣٣).

(٤) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري أبو عمر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ «وفيات الأعيان» (٢: ٢٥٨).

(٥) «الإتقان» (١: ١٧٧).

(٦) أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ): «المرشد الوجيز» ص٩٦. وينظر: «القراءات القرآنية تاريخ وتعريف» لعبد الهادي الفضلي ص٩٥، دار العلم، بيروت، ط٣، ١٩٨٥.

وقد روى ابن حسنون المقرئ بإسناده عن ابن عباس كتاب «اللغات في القرآن»[١] ورد فيه لغات للعرب في القرآن. بل إنَّ لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٤٤هـ) كتاباً في لغات العرب التي في القرآن وهو مطبوع.

أما استدلال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، على أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها، فهو دليل على احتوائه عدَّة لهجات من العرب، إذ إنَّ القرآن عبر باللسان عن اللغة بعامة لا عن لهجة بعينها، فليست هي كما نفهمها الآن، أما اللغة فكانت تعني عندهم اللهجة بمفهومنا اليوم[٢]. ولهذا قال الباقلاني: «بل قومُه العربُ كلُّها، ولو جاز هذا لقائله، لجاز لآخَر أن يقول: بل قومُه هاشم لا من سواهم»[٣].

وقد أجمع الباحثون المحدثون على أن القرآن نزل باللغة (المشتركة) أو كما تسمَّى أيضاً (المُوحَّدة) وهي اللغة الأدبية التي تسمو عل اللهجات الخاصَّة المتداولة عند القوم في الحياة اليومية، وإن كانت اللهجات تعدُّ إذ ذاك من الفصيح أيضاً. وقد كانت مكة (أم القرى) مركز تلك اللغة المشتركة، فهي المجال الذي ترعرعت فيه هذه اللغة وترسَّخت بفضل أسواقها ومواسمها الدينية والأدبية، وكانت لغة قريش نواتها وطبها[٤]، ولم تكن هي اللغة المشتركة نفسها.

---

(١) وهو كتاب مطبوع، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية ١٩٧٢.

(٢) «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص٢٠٥.

(٣) «النكت في الانتصار لنقل القرآن» ص٣٨٦.

(٤) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص١١٣-١١٤. «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص٢٠٥. وينظر: «أثر القراءات القرآنية» لعبد العال سالم مكرم.

ويبدو أنَّ الشيخ لم يكن يجهل وجودَ هذه اللغة المشتركة، إذ تحدَّث عن اللغة الأدبيَّة الراقية في عصر نزول القرآن، التي كانت سائرة في سبيل الوحدة والتمازج بفضل المجامع والأسواق[١]، إلا أنه مع ذلك كان يرى أن القرآن نزل بلغة قريش، وهو ما لا يصح القول به، لما قدَّمناه من أدلة.

والحق أنَّ قولنا بنزول القرآن باللغة المشتركة، أمرٌ يقرُّه واقع المعجزة القرآنيَّة التي تحدَّى بها الله عزَّ وجل العرب جميعاً، فلو كانت لغته لغة قريش وحدها لما صحَّ به تحدي غير قريش. فضلاً عن الانتفاع به وحفظه، إذ لو كان بلغة قريش وحدها لما استطاعت غير قريش أن تحقق هذه الغاية لأنه بلهجة غير لهجتها[٢].

٢) الأحرف السبعة والقراءات السبع:

يفهم من كلام الشيخ على القراءات السبع والأحرف السبعة أنَّهما شيء واحد؛ فقد أورد في (المقدمة الثانية عشرة) عنواناً هو: (القراءات القرآنية السبع)، ذكر فيها أنَّ الرسول ﷺ كان يقرأ بلغة قريش كما نزل، وأنَّ القبائل كانت تقرؤه بلهجاتها تيسيراً عليها[٣]، ثم قال: «وقد حصر العلماء هذه اللهجات في قراءة القرآن في أنواع سبعة». وعدّد القراءات التي جمعها أبو بكر بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، ثم أردف ذلك بقول لابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ)[٤]: «بلغني أن تلك السبعة إنما هي في الأمر الذي

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠).

(٢) «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» ص١٦.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠-٧٣١).

(٤) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أول من دوَّن الحديث، وأحد الفقهاء والأعلام بالمدينة المنورة (٥٨-١٢٤هـ) «وفيات الأعيان» (١: ٥٧١)، ط القاهرة. «تهذيب التهذيب»، لابن حجر (٩: ٤٤٥).

يكون واحداً لا يختلف في حلال أو حرام»[١].

ومن الواضح أنَّ ابن شهاب يعني الأحرف السبعة. ثم أورد الشيخ روايات ثلاثاً عن الأحرف السبعة، إحداها عن عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، والثانية عن ابن عباس، والثالثة عن أُبي بن كعب. واستنتج استنتاجات لا يصلح لها إلا حديث الأحرف السبعة لا القراءات السبع[٢].

ويبدو أنَّ هذا الوهم الذي يفهم من كلام الشيخ قد وقع فيه كثير من العلماء بسبب اتفاق العدد، مـمَّا حدا بأبي شامة أن يوضِّح الأمر والحقيقة بقوله: «وقد ظنَّ جماعة.. أن قراءة هؤلاء الأئمة السبعة هي التي عبر عنها النبي ﷺ بقوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فقراءة كلِّ واحد من هؤلاء حرف من تلك الأحرف، ولقد أخطأ من نسب إلى ابن مجاهد أنه قال ذلك»[٣].

ويقول مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ): «هذه القراءات كلُّها التي يقرأها الناس اليوم، وصحَّت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووافق اللفظ بها خط المصحف الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه، وعلى اطِّراح ما سواه، ولم ينقط ولم يضبط فاحتمل التأويل لذلك». ثم قال: «من ظنَّ أن قراءة كلِّ واحد من هؤلاء القراء، كنافع، وعاصم، وأبي عمرو، أحد الأحرف السبعة التي نصَّ النبي ﷺ فذلك منه غلط عظيم...»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٢).

(٣) «المرشد الوجيز» ص١٤٦.

(٤) المصدر نفسه ص١٥١.

ولا بد هنا من بيان **الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع**.

فالأحرف السبعة هي ما نصَّت عليها الأحاديث النبوية التي ذكر الشيخ عدداً منها، ومفادها: أن القرآن نزل بسبعة أحرف.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في المراد من هذه الأحرف اختلافاً غير قليل حتى إنَّ السيوطي أورد خمسةً وثلاثين وجهاً في تفسيرها[١].

ويبدو أنَّ الراجح منها هو: إرادة التيسير على الأمة في قراءة القرآن، وأنه لا يراد بالسبعة حقيقة العدد على وجه التَّحديد، بل يراد السعة والكثرة، وهو ما ذكره الشيخ في مقدمته وعليه غير واحد من القدامى[٢]، والمحدَثين أمثال: إبراهيم أنيس[٣]، وعبد الصبور شاهين[٤]، وأستاذنا الدكتور كاصد الزيدي[٥].

وقد كان الصحابة يقرؤون بهذه الأحرف إلى عهد عثمان رضي الله عنه عندما ظهر الخلاف فيها، فخشي الفتنة فنسخ عدَّة نسخ من المصاحف محتملة وجوه القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ ثم وزع هذه المصاحف على الأمصار وأمر باطِّراح ما سواها، وقرأ المسلمون القرآن على أيدي القُرَّاء الذين تلقَّوا قراءته عن الصحابة رضي الله عنهم بما يوافق رسم المصحف العثماني وبقراءات كثيرة إلى أن جاء أبو بكر بن مجاهد واختار

---

(١) «الإتقان» (١: ١٧٣).

(٢) ينظر: «المرشد الوجيز» لأبي شامة ص٩٧، ٩٩.

(٣) «اللهجات العربية» ص٤٧.

(٤) «تاريخ القرآن» ص٤٣.

(٥) في محاضراته في علوم القرآن على طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب، المطبوعة بالآلة سنة ١٩٧٣م.

من بين القراء سبعة، ولكل قارئ راويان. ولم يكن لاختياره أية علاقة بحديث الأحرف السبعة[١]. إلا أن كثيراً من الناس وهموا في ماهيَّة الوشيجة التي بينهما، ولذلك لامه عدد من العلماء لاختياره سبعة لا أكثر ولا أقل، يقول ابن الجزري (ت٨٣٠هـ): إنما أوقع هؤلاء في الشبهة كونهم سمعوا: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، وسمعوا قراءات السبعة، فظنوا أن هذه السبعة هي تلك المشار إليها، ولذلك كره كثير من المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء.

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت٤٤٠هـ): «وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة»[٢].

فالقراءات القرآنية سبعيّة كانت أوعشريّة أو أكثر من ذلك نشأت بعد إرسال المصاحف العثمانيّة إلى الأمصار الإسلامية، وقد وضعت لهذه القراءات ضوابط وأسس ثلاثة وهي: موافقة رسم المصحف العثماني ولو احتمالاً، وصحَّة السَّنَد، وموافقة العربية ولو بوجه[٣].

٣) مصادر القراءات:

أكد الشيخ غير مرة أنَّ الرسول ﷺ رخَّص للقبائل أن تقرأ القرآن بلهجاتها تيسيراً وتسهيلاً عليهم، وعرض رأيين في كيفيَّة هذه الرخصة.

أحدهما: أن تقرأ القبائل القرآن بلهجاتها، أي خلاف قراءة الرسول ﷺ، إذ كان الرسول ﷺ يقرأ بلغة قريش، واستدلَّ بقول ابن قتيبة[٤]: «لو أراد كل فريق أن يزول

---

(١) «المرشد الوجيز» ص١٤٦.

(٢) «النشر» (١: ٣٦-٣٧).

(٣) المصدر نفسه (١: ٩).

(٤) «تأويل مشكل القرآن» ص٣٠.

عن لغته التي انطبع عليها لاشتدَّ ذلك عليه، فجعل الله له متَّسعاً في أمره وخصَّ بقراءته على هذه الأحرف واللهجات».

وبحديث رواه الشيخان، أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف واحد فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[١].

الثاني: أن القراءات ـ على اختلافها ـ كان يقرأ بها رسول الله ﷺ، وأنها من عند الله، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣][٢].

وقد وقف الشيخ مع الرأي الأول إذ يقول: «إنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف تسهيلاً على قبائل العرب لاختلاف لهجاتها، فكانوا يقرؤون بها جميعاً، لا اختياراً وتكراراً، كما نفعل اليوم، بل قَسْراً واضطراراً لأنه لا يستطيع النطق بغير اللهجة التي درج عليها... نظير قول التركي: (الهمد لله رب الآلمين)»[٣].

وهذا الرأي لا يمكن التسليم به على إطلاقه للأسباب الآتية:

أحدها: أنَّ هذا لا يؤيِّده ظاهر النصوص، فالنصُّ الذي استدلَّ به الشيخ هو: أقرأني جبريل على حرف واحد، فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف، وكلمة: أقرأني جبريل تدل على أنه استزاده في الإقراء.

وحديث عمر مع هشام رضي الله عنه يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ الرسول ﷺ

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٢). ويأتي تخريجه في تعليقاتي على «المقدمة» للمؤلف. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٣-٧٤٤).

أقرَأَهُما، وإذا تجوزنا نقول: أقرّهما، ويقول البغوي[١] (ت ٥١٦هـ): ليس معنى هذه الحروف أن يقرأ كل فريق بما شاء ممَّا يوافق لغته من غير توقيف، بل كل هذه الحروف منصوصة وكلُّها كلام الله عزَّ وجلَّ، نزل بها الروح الأمين على النبي ﷺ...».

وثانيها: أنه ثبت بما لا يقبل الشكَّ أن القراءة سُنّـة متّبعة[٢]، تُـؤْخَذ بالرواية والمشافهة لا بالقياس، والرأي، وترجع إلى أحد الصحابة، ولابد أنَّ الصحابي قد أخذها عن رسول الله ﷺ على نحو ما نجده في قراءة حفص عن عاصم بن أبي النَّجود التابعي التي أخذها عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، عن عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وقد ثبت أن عثمـان رضي الله عنه لم يثبت في مصحفه إلا ما تيقّنه عن النبي ﷺ بشهادة الصحابة وعلمهم، وأسقط ما وراء ذلك مما لم يثبت[٣].

ولو كانت القراءات على طريقة قراءة القبائل لاقتصر بالرواية عنهم، ولم يطلب اتصالها بالرسول ﷺ، فإن قيل بأن قراءات القبائل أبطلت وبقيت قراءة الرسول ﷺ وحدها، فالجواب: ما وجه تعدد القراءات واللغات في القرآن وكلها مروية عن الرسول ﷺ؟

وثالثها: أنَّ هذا القول يستـوجب ظهور كل العادات اللهجية بين القبائـل في القراءات ومنها كشكشة ربيعة، وفحفحة هذيل، والعيوب النطقية، وهذا ما لم نره حتى في القراءات الشاذة. ولا يمكن الاستدلال بقراءة (عتى حين) التي بلغة هذيل

---

(١) «المرشد الوجيز» ص١٣٤-١٣٥.

(٢) ينظر: «القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس» للزيدي، بحث منشور في مجلة الجامعة، عدد (٦)، ١٩٧٩.

(٣) «نكت الانتصار» للباقلاني ص٣٨٣.

لأنها لم تطَّرِد في القرآن، والأغلب أنَّ ابن مسعود رضي الله عنهما قد سبقته إليها هذليَّتُه ممَّا استدعى عمر رضي الله عنه أن ينهاه عن إقراء القرآن بغير لغة قريش[١].

ورابعها: أنَّ تلك الرخصة التي للقبائل لا يمكن عدُّها مصدراً للقراءات، لأنها قائمة إلى يوم القيامة، لا لقبائل عصر صدر الإسلام فحسب، بل لكلِّ من يتعذَّر عليه النطق السليم بعد بذل الجهد[٢]، بدليل المثل الذي ضربه الشيخ عن التركي الذي يقرأ (الهمد لله رب الآلـمين)، وهذا حال أكثر المسلمين ممَّن لم ينشأ في بيئة عربية أو يتعلم العربية صغيراً، فالرخصة إذاً قائمة وهي بحكم الضرورة ولا يمكن عدُّها مصدراً للقراءات.

وخامسها: ثم إنَّ هذا القول يفتح باباً خطيراً، المسلمون في غنى عنه، كالذي فتحه طه حسين حين قال: «إنَّ القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا كثير، وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً، ولا مغتمزاً في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها، وأن ينكروا بعضها. وقد حاولوا بالفعل وتمارَوْا، وخطَّأ بعضهم بعضاً ولم نعلم أنَّ أحداً من المسلمين كفّر أحداً لشيء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن»[٣].

إنَّ القول بأنَّ اللهجات هي مصدر القراءات هو الذي حمل طه حسين أن يقول مقالته هذه.

---

(١) «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» لعبد العال سالم مكرم ص٢٦.

(٢) ينظر: «نكت الانتصار» ص٤٢٠-٤٢١.

(٣) «في الأدب الجاهلي» ص٩٥، ط دار المعارف، مصر، عن «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» ص٢٧.

والرأي: أن القراءات الصحيحة هي ما سُمع من الرسول ﷺ أو سمعه الرسول وأقرّه، وهذا الذي حرص عثمان رضي الله عنه عليه في جمعه للقرآن، ويحرص المُقْرئون على تَحَرِّيه في قراءاتهم، وعلى ذلك فكلُّ قراءة اسْتَوْفت الشروط المنصوص عليها إنما هي قرآن، لها ما له من حرمة ومن أحكام.

٤) المصاحف العثمانية والأحرف السبعة:

عرض الشيخ رأيين في موضوع المصاحف، الأول: ذهب إليه جمهور من الخلف والسلف، وهو أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمل رسمها من الأحرف السبعة جامعة العرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام، والثاني: ذهب إليه ابن جرير الطبري ومن تابعه، وهو أنَّ المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة، وهي لغة قريش، جمعاً لكلمة المسلمين، فأخذت به وأهملت ما عداه، وأخذ عنها الأمة جمعاء[1]. ولم يُرَجِّحْ أحدَ القولين.

والحقُّ أن الخلاف هنا صُوري، فكلا الفريقين مُقِرٌّ بأنَّ القراءات القرآنية المستوفية لشروط الصحَّة ممَّا تلقته الأمة بالقَبول، وقرأ به أهل الأمصار المُجْمع على قراءاتهم، إنما هي قراءات يتعبد بها ولا يصحُّ إنكارها غير أن الفريق الثاني يعدّ هذه القراءات حرفاً واحداً من السبعة التي نصَّ عليها حديث الرسول ﷺ، وهي لغة قريش، وأغلب الظنّ أنهم يعنون (اللغة المشتركة) باصطلاحنا اليوم، إذ لا يعقل أن يفوت الطبري أنَّ في هذه القراءات التي أورد منها طائفة صالحة في تفسيره، كثيراً من لغات العرب.

وهذا الرأي ينسجم مع رأي القائلين بأنَّ الأحرف السبعة كانت رخصةً للعاجزين

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٢). ورأي الطبري في «جامع البيان» (١: ٥٧-٦٦)، دار المعارف.

عن الضبط والحفظ لتفشّي الأميَّة، فلما فشا التعليم ألغيت هذه الرخصة وأبقي على حرف واحد، ومن هذا الحرف هذه القراءات الصحيحة[١].

فالحرف عندهم متعدِّد ولا يعني وجهاً واحداً في القراءة. أما الفريق الأول فقد حصر الخلاف في الرواية[٢]. فمصاحف عثمان، فيها ما ثبت روايته من الأحرف السبعة، فهو مشتمل عليها.

وهناك رأي ثالث وهو يُعزى للمهدوي المقرئ (ت٤٤٠هـ) مفاده: أنَّ القراءات التي نحن عليها هي بعض الحروف السبعة التي نزل بها القرآن.

وتفسير ذلك أنها على ضربين: الأول: زيادة كلمة ونقص أخرى، وإبدال كلمة مكان أخرى، وتقديم كلمة على أخرى. فهذا الضرب وما أشبهه متروك لا تجوز القراءة به.

والثاني: ما اختلف القراء فيه من إظهار وإدغام ورَوْم وإشمام... فهذا الضرب هو المستعمل في زماننا، وهو الذي عليه خط المصاحف[٣]... وقد ذهب إلى هذا الرأي د. محسن سالم محيسن في كتابه: «القراءات وأثرها في علوم العربية»[٤].

❊ ❊ ❊

(١) «المرشد الوجيز» ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه ص١٤٣.

(٣) المصدر نفسه ص١٤٢.

(٤) (١: ٤٦)، الناشر: مكتبة الكليات، الأزهر ١٩٨٤.

المبحث الثاني

القراءات وتوجيهها

عَرَّفَ الزركشي[١] القراءات بأنها: «اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفيَّتها من تخفيف وتشديد وغيرها» وعَرَّفها ابن الجزري[٢] بأنها: «علم بكيفيّة أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة». وقد وضع العلماء ضوابط وشروطاً لصحة القراءات وقبولها، ومن ثمَّ جواز القراءة بها وقد أشرت إليها سابقاً، وهي: موافقة خط المصحف العثماني، وصحة الرواية، وموافقة العربية.

ويرى الدكتور شوقي ضيف[٣] أن ابن مجاهد، أوّلُ من وضع هذه الأصول بشكل علميّ، وطبقها في كتابه: «السبعة». ثم جلّاها مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) بعد ذلك. وتلاهما ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) الذي أدخل تعديلات على هذه الشروط وهي: موافقة العربية (ولو بوجه)، وموافقة المصاحف العثمانية (ولو احتمالاً) وصحّة السند[٤].

ثم اشتهرت بعد ذلك عشرة ابن الجزري[٥]، وهي تزيد على سبعة ابن مجاهد

---

(١) «البرهان» (١: ٣١٨).

(٢) «منجد المقرئين ومرشد الطالبين» ص٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

(٣) «السبعة»: «المقدمة» ص١٩.

(٤) «النشر» (١: ٩).

(٥) سبق ابن الجزري في تعشير القراءات عدد من القراء أشار إليهم في كتابه «النشر» (١: ٧٥-٨٢، ٨٤-٨٦، ٩٠-٩٣، ٩٤).

بثلاث قراءات هي: قراءة يعقوب الحضرمي (ت٢٠٥هـ)، وقراءة خلف بن هشام (ت٢٢٩هـ)، وقراءة أبي جعفر المدني يزيد بن القعقاع (ت١٣٠هـ) شيخ نافع.

فما زاد على العشرة عند الأصوليين والفقهاء والمحدثين من الآحاد أو الشاذ[١].

يقول الدمياطي (ت١١١٧هـ): «إنَّ العلماء قد أجمعوا على أنه لم يتواتر شيء ممَّا زاد على العشرة المشهورة»[٢].

أما المحققون مثل مكي بن أبي طالب وأبي شامة وابن الجزري ومن تابعهم، فإنَّ القراءات الصحيحة عندهم ما انطبقت عليها الأصول الثلاثة[٣].

(١) أنواع القراءات

أ) القراءات المشهورة:

أورد الشيخ رشيد عدداً من القراءات المشهورة، عزا طائفةً منها إلى أصحابها، وأغفل عزو أكثرها. فممَّا لم يعزه إلى قارئه ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]، إذ قال: «قُرئ الفعلان بالبناء للمعلوم والهاء لله.. وقرئ الفعلان بالبناء للمجهول، والهاء للإنسان الكافر..»[٤]. وبالبناء للمجهول قرأ يعقوب والكسائي وقرأ باقي العشرة بالكسر[٥].

وقد استعمل الشيخ رشيد لفظة (قرئ)، كما استعمل عبارة (قرأ كثير) ليدلَّ

---

(١) «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٢٥٧.

(٢) «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر» (١: ٧١).

(٣) «منهج الطوسي في التفسير» للزيدي ص٢٥٧.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٣٦).

(٥) «النشر» (٢: ٤٠٠).

على كثرة القارئين لقراءة من القراءات المشهورة، على نحو ما جاء وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، إذ أشار إلى قراءة ليست مشهورة وهي: (إذا دَبَرَ) قال: «المعنى: أدْبَرَ، كقَبَلَ بمعنى: أقْبَلَ»، ثم أشار إلى المشهورة بقوله: «وقرأ كثير من القُرّاء (إذا دَبَرَ): ﴿إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ بإسكان الدال وفتح الهمزة، وبيَّن أنها القراءة التي يقرأ بها المشارقة اليوم فقال: «وبها نقرأ»[١]. ويعني بها قراءة حفص عن عاصم، وقد قرأ بها أيضاً من بقية السبعة نافع وحمزة ويعقوب وخلف، وقد قرأ بقراءة فتح الذال والدال ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم[٢]، وكثيراً ما يربط المعنى بالقراءة، فيرده إليها، فيقول: «هذا المعنى على قراءة كذا»[٣].

ومع أنه عموماً لا يُسمِّي صاحب القراءة، إلا أنه لا يعدم في مواضع تسميته، كما في قراءة (كِذّاباً) من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ [النبأ: ٣٥]، إذ يبيِّن أن الكسائي قرأ (كذاباً) الأولى: أي التي في الآية (٢٨) التي سبقتها، والثانية: هذه بالتخفيف، وأنَّ الباقين قرؤوا كليهما بالتشديد[٤]. ولفظة (الباقون) في كلام الشيخ مبهمة لا تبيِّن المراد، هل هم بقية السبعة أم العشرة؟ وعند العودة إلى المصدرين تبيَّن أنه أراد بقية العشرة لأن ابن مجاهد لم يذكر اتفاقهم على (كذاباً) الأولى[٥]، على حين ذكر ذلك ابن الجزري[٦].

ومن هذا القبيل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٥٦) الحاشية.

(٢) «السبعة» ص٦٥٩. و«النشر» (٢: ٣٩٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٣٩).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ١١٥).

(٥) «السبعة» ص٦٦٩.

(٦) «النشر» (٢: ٣٩٧).

[الصافات: ٦] إذ بيَّن أن حفصاً قرأ بتنوين (زينة) وجر (الكواكب) وذلك على أنها بدل منها[١]. وقد قرأ بها من السبعة: حمزة وحفص عن عاصم[٢]، ولم يقرأ بها من الثلاثة المتمِّمة للعشرة قارئ[٣].

ب) القراءات غير المشهورة:

وهي عند المحققين: ما خالف الأُسس الثلاثة التي أجمعوا عليها، وعند الأصوليين والفقهاء والمحدثين: ما زاد على العشرة[٤]، كما مرَّ سالفاً، وتنقسم هذه القراءات على الصحيح، وما ينبغي التعويل عليه على قسمين:

ـ **قراءات آحاد:**

وقد ميَّز هذا النوع من القراءات الشواذ مكي بن أبي طالب[٥]. واعتمده من المحدَثين الرافعي[٦] وإليه ذهب أستاذنا كاصد الزيدي في دراسته للقراءات[٧]، وهي تلك القراءات التي رُويت عن عدد من الصحابة الذين عُرفوا بالقراءة والإقراء[٨]، ممَّا روي عنهم آحاداً، ولم يرد عنهم تواتراً أو إجماعاً[٩].

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٢).

(٢) «السبعة» ص٥٤٦.

(٣) «النشر» (٢: ٣٥٦).

(٤) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٥٧.

(٥) ينظر: «الإبانة» ص١٨، ٥٧، عن رافع عبد الله مالو: «منهج الراغب» ص١٠٢.

(٦) «تاريخ أداب العرب» (٢: ٥٥).

(٧) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٥٧.

(٨) «القراءات عند الزجاج» لكاصد الزيدي ص١٦، بحث مخطوط.

(٩) من القراءات ما روي آحاداً، ومنها ما روي تواتراً قد أخذ بإجماع عن مقرئي الأمصار الإسلامية المشهورين.

أورد الشيخ رشيد عدداً من هذا النوع من القراءات كقراءة ابن عباس، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، إذ قال: «كان مجاهد يقرأ: (مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلون) وهو القبر»[١]، ومعلوم أن لفظتي (حدب) و(جدث) يتفقان في خط المصحف، ويختلفان في اللفظ والمعنى. ولم يورد الطبري[٢] هذه القراءة لمجاهد وإنما بيَّن أن قوماً نسبوا إليه قوله: «إن جمع الناس من كل مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب» فهو هنا أشار إلى المعنى الذي ذهب إليه الشيخ رشيد.

على حين عزاها ابن خالويه[٣] لابن عباس والكلبي والضحاك. وليس في هذا نقض لروايتها عن مجاهد، لأن مجاهداً أكبر وأشهر تلامذة ابن عباس، فروايتها عنه محتملة جداً إذن، بل هي هنا مؤكدة لاتفاقهما فيها، وعزاها ابن جنِّي[٤] (ت٣٩٢هـ) إلى ابن مسعود أيضاً.

وأورد قراءة (عرضهن) المنسوبة لابن مسعود[٥]، وقراءة (عرضها) المنسوبة لأبي بن كعب[٦] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١][٧]. فكلتا تينك القراءتين من الآحاد، ولا يقرأ بهما بالطبع، لآحاديتهما أولاً، ولمخالفتهما خط المصحف أيضاً.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

(٢) «جامع البيان» (١٧: ٧٣)، دار المعرفة.

(٣) «مختصر شواذ القرآن» ص٩٣.

(٤) «المحتسب» (٢: ١٦٦).

(٥) «مختصر شواذ القرآن» ص٤.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٦٩).

ـ القراءات الشواذ:

وهي تلك القراءات التي ليست مشهورة ولا آحاداً، وهي مرويَّة عن عدد من التابعين ومن تلاهم من علماء الأمة.

أورد الشيخ رشيد عدداً من القراءات الشاذة من غير أن يشير إلى أنها من هذا النوع، منها في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، إذ قال بعد تفسير ﴿جَهْرَةً﴾: «وقرئ بفتح الهاء على أنها مصدر كالغَلَبَة، أو جمع كالكَتَبَة»[١]. وهذه القراءة الشاذة[٢] نُسبت لسهيل بن شعيب[٣].

ومن ذلك ما أورده في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] إذ بيّن أن «لا: مزيدة للمبالغة»، وأن الذي «يؤيِّد هذه الزيادة، قراءات: ليَعْلَمَ، ولكي يَعْلَمَ، ولأَنْ يَعْلَمَ»[٤]. وهذه قراءات ثلاث شاذة[٥]. ولم يشر الشيخ إلى القراءة الشاذة الأخرى التي قرأ بها الحسن البصري: «كَيْلا يَعْلَمَ أهلُ الكِتابِ»[٦]، وذلك أنه معنيٌّ هنا بإيراد القراءات التي تؤيد زيادة (لا) التي قال بها في الآية ولم تكن قراءة الحسن منها لأنها لا تشعر بالزيادة بل بأصالة هذه الأداة.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٩٧).

(٢) «مختصر شواذ القرآن» ص٥، وابن جني «المحتسب» (١: ٨٤).

(٣) كوفي عرض على عاصم بن أبي النجود وعلى أبي بكر بن عياش. «طبقات القراء»، ابن الجزري (١: ٣١٩).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

(٥) «مختصر شواذ القرآن» ص١٥٢.

(٦) «المحتسب» (٢: ٣١٣).

(٢) توجيه القراءات:

عُني الشيخ رشيد بتوجيه عددٍ من القراءات التي أوردها، والاحتجاج لها وبها، معتمداً في توضيحها المعنى والنحو والصرف.

أ) التوجيه المعنوي:

ويراد به المعنى الذي يترتَّب على قراءة دون قراءة أخرى، وهو ممَّا تمتاز به القراءات القرآنية، مشهورة كانت أو غير مشهورة. ويقول الدمياطي: «لم تزل العلماء تستنبط من كلِّ حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر»[١].

فسَّر الشيخ قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] حمل عبارة ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ على محملين:

أحدهما: ضربٌ من المجاز العقلي، بإسناد المسبَّب إلى سببه، وهو هنا المَلَكُ.

والآخر: حكاية عن قول الله عزَّ وجلَّ، وقد احتجَّ لهذا بقراءة مشهورة[٢]: (لِيَهَبَ لَكِ) وهي قراءة أبي عمرو ونافع ـ في رواية ورش ـ والحلواني عن قالون عن ورش[٣].

وقد يكون في قراءة الجمهور ما يوهم بإشكال صوريّ لدى الشيخ، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]. فلا بأس أن يستعان بقراءة ثانية إن وجدت في حَلِّ هذا الإشكال، على نحو ما ورد في قراءة الكسائي[٤]: (هَلْ تَسْتَطِيعُ ربَّكَ)، إذ رأى الشيخ جواز حَمْل قراءة الجمهور

---

(١) «إتحاف فضلاء البشر» (١: ٦٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٧١).

(٣) «السبعة» ص٤٠٨، و«النشر» (٢: ٣١٧).

(٤) «السبعة» ص٢٤٩، و«الحجة» لابن خالويه ص١٣٥.

عليها[١]. وهو أن يكون الحواريُّون في حال من الرغبة في زيادة[٢] التَّصديق والإيمان بنبوَّة عيسى ورسالته، فطلبوا هذا الطلب، وأن ذلك يمكن أن يطلب ولا ينكره.

وقد يجعل القراءة المشهورة القويَّة المعنى، حُجَّة للقراءة الأخرى التي لها نفس تلك القوة المعنويَّـة، على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]، إذ فسّـر (بُشراً) بأنها مبشرة بالمطر، وعلّل ذلك بقوله؛ لأنها هي التي تكوّن الغيوم وتقلبها ماءً، ثم قال: «وعلى هذا المعنى قراءة (نُشراً) بالنون»[٣]. ولعله أراد بذلك تكوين الغيوم، فهذا ـ يبدو ـ عنده معنى النشر.

وقد فسَّرها مكي بن أبي طالب بالإحياء، بأن يرسل الرياح مُحيـية الأرض[٤]. (وبُشْراً) قراءة عاصم، و(نُشْراً) قراءة ابن عامر، و(نَشْراً) قراءة حمزة والكسائي وخلف، و(نُشُراً) قراءة الباقين من العشرة. وذلك في الأعراف والنمل والفرقان[٥].

ويلحظ أن عناية الشيخ بتوجيه القراءات معنوياً لم تقتصـر على المشهورة، بل شملت الآحاد والشواذ كذلك، فقد أفاد من قراءة شاذة في توجيه معنىً ذهب إليه فمن ذلك ما مرَّ بنـا من قراءة (جدث)[٦]، وهي قراءة آحاد في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فقد ذهب إلى أن عبارة ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٨)، الحاشية.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٤).

(٤) «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١: ٤٦٦).

(٥) «النشر» (٢: ٣٦٩-٣٧٠).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

تطلق على الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يوم القيامة[١]. مع ما في هذا التأويل من البُعد الظاهر عمَّا اشتهر في القراءة والمعنى أيضاً، وهي قراءة ﴿حَدَبٍ﴾، كما تقدم.

وقد يوجِّه قراءتين توجيهاً معنوياً، ثم يرجح إحداهما لتلاؤمها مع السياق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، إذ قال: «وقد قرئ بالضاد والظاء، أما على الأولى فمعناه: ليس محمد ﷺ ببخيل فيما يؤدي عن الله سبحانه أن يعلمه للناس، وأما على الثانية: فمعناه ليس بمُتَّهم على الغيب. والمعنى الثاني أوْلى بالسياق»[٢]. وكلتا القراءتين من القراءات المشهورة[٣]، وترجيحه كما هو واضح لم يدخل في مجال الحظر، من إسقاط قراءة مشهورة بقراءة أخرى مشهورة، بل عمد إلى الاختيار فحسب، وهو ما اختاره حفص، أي ما نقرأ ويقرأ به الشيخ كذلك في أيامنا هذه.

ب) التوجيه النحوي:

اتصلت القراءات باللغة والنحو والصرف اتِّصالاً وثيقاً، وفتحت العناية بها باباً لنموِّ العربية بعامة، وقد عُني كبار النحاة بتوجيه القراءات كسيبويه والفراء وأبي عبيدة وابن جنّي والمبرد وأبي علي الفارسي وابن خالويه، ومكي بن أبي طالب[٤] وغيرهم.

وجَّه الشيخ رشيد عدداً من القراءات توجيهاً نحوياً كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]. إذ وجه قراءة النصب (تنزيل) وهي قراءة مشهورة قرأ بها ابن

---

(١) «أولى ما قيل». وقد رددت على قوله هذا في تعليقاتي على سورتي الكهف والأنبياء. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٥٣).

(٣) «السبعة» ص٦٦٣، و«النشر» (٢: ٣٩٨)، وينظر: «الحُجَّة في القراءات» لابن خالويه ص٣٦٤.

(٤) «القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس» لكاصد الزيدي ص١٣، مجلة الجامعة، عدد (٦)، سنة ١٩٧٩.

عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم براوية حفص[١]، «على أنه مصدر نائب عن فاعله بمعنى أنزله العزيز الرحيم»[٢]. ولم يوجِّه قراءة الرفع، وقد وُجِّهت بأنها خبر لمبتدأ محذوف، أي هو تنزيل العزيز[٣].

ومنه ما أوْرَده في قراءة: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، إذ قال: «قرأ حفص بتنوين (زينة) وجر (الكواكب)، وذلك على أنها بدل منها والمراد بها الاسم لا المصدر»[٤]، فإشارته إلى أن المراد بها الاسم لا المصدر تنبيه على قراءة ترك التنوين: (بِزِينَةِ الكَواكِب)، إذ تكون (بزينة) فيها مصدراً، وتعمل في (الكواكب) مثل (سؤال نعجتك)[٥].

ونراه يوجِّه (تخاصم) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. بقراءة الرفع: (تخاصم)، فيعربها بدلاً من قوله: (الحق)، أو خبراً لمحذوف. ثم وجّه قراءة ثانية بنصب (تخاصم)، على أنه بدل من (ذلك) أي من اسم (إن)[٦]. ولم ينسبها إلى قارئها، وهي غير معزوة كذلك عند غيره، فقد أَوْرَدَها الزمخشري دون عزو وعدّها نعتاً لاسم الإشارة، فقال: «وقرئ بالنصب على أنه صفة، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس»[٧].

---

(١) «النشر» (٢: ٣٥٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٣).

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» لمكي بن أبي طالب (٢: ٢١٤).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٢).

(٥) «الكشف» (٢: ٢٢١).

(٦) «أولى ما قيل» (٦: ٢٥٨).

(٧) «الكشاف» (٤: ١٠٣).

أما قراءة الرفع، وهي القراءة المشهورة فقد أجاز القرطبي[١] أن تكون بدلاً من (ذلك) على الموضع، كما ذهب إليه الشيخ، وأضاف أبو البركات ابن الأنباري[٢] وجهاً رابعاً وهو: أن يكون خبراً بعد خبر (إنّ).

وربما ذكر توجيهاً لِما ظنّه قراءةً، مع أنه عند التحقيق ليس بقراءة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، إذ قال: «فيه قراءتان، الأولى بنصب (الطاغوت) على أنه مفعول به، و(عَبَدَ): فعل ماضٍ معطوف على لعنه. أي: من لعنه الله، ومن عبد الطاغوت. والثانية: بجر (الطاغوت)، فيكون (عبد) جمع عابد، مثل خَدَمٍ وخادِمٍ، وهو معطوف على (القردة)، أي: جعل منهم القردة وعبيد الطاغوت بإفسادهم لفطرتهم[٣].

والشيخ هنا يشير إلى خصوص قراءتين، من تسع عشرة قراءة رُويت في الآية[٤] ثنتان مشهورتان، والباقي شواذ، فمن المحتمل أن الشيخ يريد المشهورتين، وإلا فهما أكثر من قراءتين كما رأينا. وقد وجَّه القراءة الأولى وهي (عَبَدَ الطَّاغوتَ)، وربما وهم فظنَّ القراءة الثانية المشهورة وهي قراءة حمزة[٥]: (عَبَدَ الطّاغوتِ) بفتح الأحرف الثلاثة، والدليل على ذلك، إذ لم تكن محركة في التفسير، هو أنه أغفل ذكر الرفع من ناحية، وقاسها على خدم وخادم من ناحية أخرى. وهذا الوجه لم يرد حتى مع القراءات الشواذ. وقد وجَّهَ ابنُ خالويه قراءةَ حمزة: (عَبُدَ الطَّاغوتِ) أنها جمع عبد، ولكنه نبّه إلى

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ١٤٦).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ٣١٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣١).

(٤) «مختصر شواذ القرآن» لابن خالويه ص٣٣.

(٥) «السبعة» ص٢٤٦، و«النشر» (٢: ٢٥٥)، وينظر: السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، و«بحر العلوم» (٣: ١١٣-١١٤).

ضعف هذا التوجيه، فقال: (وعَبْدٌ) يجمع على ثمانية أوجه هذا أقلُّها. ثم نقل قول الفراء في ذلك، ومفاده: جواز أن تكون (عَبُدَ) مفرداً ضُمت الباء منه دلالة على المبالغة كما قالوا: حَذُر، ويَقُظ، ومعناه: وخَدُم الطاغوت[١].

وقد تعقب محقِّق كتاب «الحجة» هذه القراءة ناقلاً عن الجوهري مبطلاً كون (عَبُد) جمعاً لعَبْد وذكر تسعة وجوه لجمع (عبْد) ليس فيها (عَبُد)[٢]. وهذا قريب من توجيه مكي إذ قال: «وحجة من ضم الباء وكسر التاء أنه جعل (عبُد) اسماً يبنى على فعل كعضُد، فهو بناء للمبالغة والكثرة كـ(يَقُظ ونَدُس)[٣]. وهذه القراءة دليل واضح على أنَّ الرواية هي الأساس في القراءات، إذ في القراءات الشاذة لهذه الآية[٤] ما هو أقرب إلى وجوه العربية من هذه القراءة المشهورة.

ج) التوجيه الصرفي:

وهو ما يتعلق ببنية الكلمة، وقد عُني به الشيخ في مواضع من تفسيره، على نحو ما جاء في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، إذ أشار إلى قراءتين على (فعلتم) و(فاعلتم)، فبيّن أن قتادة والزهري ذهبا إلى أن المراد: «إذا سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع بأن رضي كل واحد من الأبوين بذلك»، ثم قال: «أقول: وهذا المعنى على قراءة: (أتيتم) بمعنى علمتم وفعلتم، أي إذا تمَّ الاتفاق بينكم في الفصال والاسترضاع أو كليهما،

---

(١) «الحجة في القراءات السبع» ص١٣٢-١٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص١٣٣ الحاشية.

(٣) «الكشف» (١: ٤١٤).

(٤) ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» ص٣٤.

وكان على صورة مرضيَّة متعارفة، أما على قراءة: (آتيتم) بمد الهمزة بمعنى وافقتم عليه أو بمعنى أعطيتم، فقد قيل في معنى الآية: إذا أردتم إيتاءه المراضع من الأجور: بحسب المتعارف المستحسن شرعاً..»[١].

فقد فـرَّق هنا بين قراءتي القصر والمدّ، الأولى: قراءة ابن كثير، والثانية: قراءة الباقين من السبعة[٢] والعشرة[٣] وبيّن فرق المعنى مع كل قراءة، فالمدّ وزنه: (أَفْعلْتُم) يراد به الإعطاء وحجته: (إذا سلمتم)، والتسليم لا يكون إلا بالإعطاء.

والقصر ووزنه: (فَعَلْتُمْ) معناه: المجيء[٤]، ودليله عند الشيخ أن التسليم بمعنى الرضا.

وفي القراءة الشاذة التي مرَّت سابقاً: (جَهَرةً) بدلاً من المشهورة: (جَهْرةً) من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. نراه يلتمس لها توجيهاً صرفياً، وهو أنها مصدر كالغَلَبَة أو جمع كالكَتَبَة[٥]، وهو أمر نبَّه عليه ابن جني[٦] بقوله: ومذهب أصحابنا في كل شيء من هذا النحو مـمَّا فيه حرف حلقي ساكن بعد حرف مفتوح، أنه لا يـحرَّك إلا على أنه لغة منه كالزهْر والزهَر، والنهْر والنهَر، فهذه لغات عندهم، ومذهب الكوفيين فيه أنه يحرك الثاني لكونه حرفاً حلقياً، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوها.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٩٩-٣٤٠).

(٢) «السبعة» ص١٨٣.

(٣) «النشر» (٢: ٢٨٨).

(٤) «الحجة» لابن خالويه ص٩٧، وينظر: «الكشف» (١: ٢٩٦-٢٩٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٩٧).

(٦) في «المحتسب» (١: ٨٤).

وفي قراءة: (إذا دبر) [المدثر: ٢٣] يعدُّ (دبر) بمعنى (أدبر) كقبل بمعنى (أقبل)[١].
وهو توجيهٌ صرفيّ للتوفيق بين القراءتين ببيان جواز مجيء (فعل) بمعنى (أفعل)[٢]
وكلتاهما من القراءات المشهورة[٣].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٥٦).
(٢) «مختار الصحاح» (دبر).
(٣) انظر: «النشر» (٢: ٣٩٣)، و«تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة» للجزري ص١٩١، تحقيق: عبد الفتاح القاضي، ومحمد الصادق قمحاوي، القاهرة ١٩٧٢.

الفصل الخامس
اللغة والنحو والصرف

تمهيد

كان الشيخ رشيد كثير الاهتمام باللغة والأدب، وما خلّفه من مصنّفات ومختصرات في هذا المجال يدلُّ دلالةً واضحة على ذلك[١]. وكان شديد الإعجاب باللغة العربية معتزاً بها، وما فتئ في تفسيره وفي كثير من دروسه ومجالسه يدعو إلى تَعَلُّمِها وفهمها، ويعدّ ذلك من صلب الدِّين وواجبات الشريعة، ويستدلُّ على ذلك بأصول الفقه وأقوال العلماء كالشافعي[٢]، ويؤكد دائماً فضلها وخصائصها، وروعتها، وجمالها. ويرى أن ما تتمتّع به العربية من هذه الميزات هو سببُ اختيارها لهذا الدِّين الحنيف، ونراه يؤكد مراراً عالمية هذه اللغة المستمَدَّة من عالمية هذا الدين، وأن المسلمين من غير العرب أخطأوا أيّما خطأ عندما جعلوا لغاتِهم الخاصَّة هي اللغات الرسمية في بلادهم مُتَخَلِّين بذلك عن هذه اللغة الكريمة، لغةِ القرآن العظيم. وقد حمل مسؤوليةَ هذا العمل السلطانُ العثماني سليمان القانوني، الذي ابتدع هذه البدعة، فقد كانت الدول الإسلامية قبله تعتمد اللغة العربية لغة رسمية لبلادها[٣].

ولقد أعطى الشيخ في تفسيره تفهُّم اللغة وعلومها وأساليبها دوراً رئيساً في فهم الآيات وتأويلها[٤]، فلا غَرْوَ إذن أن نراه مهتماً في تفسيره باللغة ومباحثها النحوية والصرفية، وهذا ما سنبيِّنه في هذا الفصل إن شاء الله.

---

(١) ينظر: «مصنفات الشيخ في اللغة والأدب»، «التمهيد» ص٢١-٢٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٨٧)، (١: ٧٧٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٢)، (٥: ١٣٧)، (٥: ٣٨٣-٣٨٤)، (٦: ٣٢٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

المبحث الأول

اللغة

١) التفسير اللغوي للألفاظ:

إن تفسير الألفاظ أو المفردات القرآنيّة الغريبة يُعدّ البدايةَ السليمة والضرورية لتفسير المعنى الإجمالي للآيات، لأن هذه المفردات تمثل اللَّبِناتِ الأولى التي تبنى منها هذه الآيات[١]، وهذا ما حدا بكثير من المفسرين القدامى والمحدَثين إلى الاقتصار على تفسير كلمات أو مفردات أو غريب القرآن على اختلاف تسمياتهم، كابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وأبي بكر السجستاني (ت٣٣٠هـ)، والراغب الأصبهاني (ت نحو ٤٢٥هـ)[٢]. ولقد عُني الشيخ رشيد بتفسير الألفاظ القرآنية، وكانت له طريقتان في ذلك هما:

أ ـ **طريقة غير مباشرة**: وتكون عادة بالتفسير الإجمالي للآية من غير وقوف عند اللفظة الغريبة بعينها لتوضيح معناها، وذلك بأن يفسِّر المفردة، باستعمالها خلال الشرح بما يُزيل غموضَها ويوضِّح معناها، على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي (٢: ١٧٣). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٢٧٩.

(٢) وينظر: «الإتقان» (١: ١٤٩).

فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ [يس: ٨] إذ قال: «والكلام على التمثيل؛ أي: مَثَلُ هؤلاء المشركين في إعراضهم عمَّا يدعوهم إليه، كمثل رجل قامح برأسه من جرّاء غلّ في عنقه يضطره أن لا يبصر موطن قدميه، لأن الـمُقْمَح هو الذي يلجأ لرفع رأسه إلى فوق»[١]. فهو لم يعمد مباشرة إلى تفسير لفظة ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾، ولكنه فسَّر هذه اللفظة الغريبة من خلال الشرح وتنويع الاستخدام (قامح ومقمح) فأوضح معناها.

ونظيره ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢] إذ قال: «أي عذاباً تضطرب له القلوب وترتجز»[٢]. فقد بيَّن أن المراد بالرجز العذاب، ثم بيَّن صفة هذا الرجز بأنه الذي تضطرب له القلوب خوفاً وهلعاً، وذلك من خلال استعمال الكلمة استعمالاً مغايراً مع عطفها على مفردة أخرى ترادفها وهي (تضطرب). وقد جاء في أساس البلاغة[٣]: «ارتجز الرعدُ: إذا تدارك صوته الراجز».

وفي قوله تعالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٨] يقول: «في حدائق من نبق مخضود الشوك»[٤] ومثله ما بيَّنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ [ص: ٤٤] إذ قال: «في يمينك»[٥] فيفهم معنى الحنث بأنه عدم البرّ في القسم، بقرينة: «في يمينك»، مع أنه لم يعرض مباشرة لتفسير لفظة ﴿تحنث﴾.

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨٨).

(٣) الزمخشري ص٢٢١.

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٢٥٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٢٥٢).

ب ـ **طريقة مباشرة**: وهي أن يعمد إلى تفسير المفردة الغريبة وتوضيح معناها مباشرة قبل توضيح المعنى العام للآي أو بعده، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] يقدِّم معنى المفردة على المعنى العام فيقول: «أي: ذلّت وخضعت»[١]، وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] إذ يقول: «أي: دماً جامداً»[٢]، ومثله في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١] إذ يقول: «أي: تَخْلُطون..»[٣].

وقد يعكس الحال فيفسِّر المفردة بعد بيان المعنى العام، لا قبله كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، إذ قال: «أي طبعناه على معرفة طريقَي الخير والشر»، ثم فسّر ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ بطريقة التعليل بقوله: «لأن ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ما ارتفع من الأرض»[٤].

ومن أساليبه في تفسير المفردة: إيراد ما يقابلها أو يضادّها في الدلالة من المفردات، فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] يقول: «معين: ظاهر للعيان فهو ضد الغائر»[٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] يقول: «والنحس: نقيض السعد»[٦].

وكثيراً ما يعزو تفسير غريب المفردات إلى الصحابة والتابعين وكبار اللغويين،

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٣٦).
(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٦٤).
(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩١).
(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٤٤).
(٥) «أولى ما قيل» (٧: ٤٥٥).
(٦) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦٠).

كابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، والضحاك[١]، والفراء[٢]، والزجّاج[٣]، والمبرد، والزمخشري وغيرهم، وقد تقدم بيان ذلك في فصل المصادر.

ويعمد الشيخ رشيد أحياناً إلى بيان الأصل اللغوي للفظة القرآنية ليربط المعنى به، وهو منهج يُعِين على تقريب المعنى وربطه بالدلالة التي عليها اللفظة، وهي في الآية، وهذا معروف في عدد من التفاسير القديمة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] إذ قال: «شَجَر: اختلط واختلف، وسُمِّي الشجر شجراً لاشتجار أغصانه وتداخلها واختلافها في بعضها، واختلاطها. ويطلق على النزاع والخصام»[٤]. ويفهم من عبارة الشيخ هنا: «ويطلق على النزاع والخصام» بعد كلامه المتقدِّم، أنَّ الحسِّي هو الأصل ثم انتقل إلى المعنوي، وهو هنا دقيق إذ لم يجعل المعنويَّ أصلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] يقول: «تقتلون المشركين قتلاً ذريعاً»، ثم يعلل تفسير ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بـ(تقتلون) ببيان الأصل اللغوي «من أحسَّه: إذا أبطل حسَّه»[٥].

يغلب على منهج الشيخ في بيان الأصل اللغوي للمفردات الاقتضابُ، والسبب

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٨٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٨٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٨٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٥٥٦).

هو ما التـزمه من الاختصار، وتأكيد جوانب أخرى في التفسير[١]. ونلحظ ذلك في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود: ٨٩] إذ قال: «ولا يجرمنَّكم مأخوذ من قولهم: جَرَمَ الذَّنْبَ إذا كَسَبَهُ»[٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] يقول: «والقِطُّ: القطعة من كل شيء من قَطَّـهُ يَقُطُّهُ، والمراد هنا: القسط والحصَّة من العذاب»[٣]. فهو هنا معني بتوضيح اللفظة القرآنية بأوجز عبارة، فلا يتوسَّع توسُّعَ غيره من التفاسير كالقرطبي مثلاً[٤].

٢) تمييز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي:

يقف الشيخ أحياناً عند طائفة من المفردات ليبيّن معناها الأول الحقيقي، ثم الثاني المجازي المراد في الآية، موضِّحاً قيمة ذلك المعنى المجازي وأثره في بيان المعنى.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧] يقول: «الطمس في اللغة: إزالة الأثر وإخفاؤه، كما تطمس آثار الديار. والظاهر أنَّ المراد المعنى المجازي»[٥].

ونراه في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤].

يتوسَّع بتوضيح المعنى المجازي قائلاً: «والسّاهِرَةُ: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ،

---

(١) مثل سنن الله في خلقه والهداية والضلال، إذ كان يطيل في ذلك ويُبدي ويعيد.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٢).

(٤) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ١٠٣-١٠٤).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٦٩).

سُمِّيت بذلك لأنَّ السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة: للتي يجري ماؤها، وعين نائمة: للتي لا تجري»، ثم يذكر بصيغة التضعيف: (قيل): إنها «المفازة؛ لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة»، ثم بيَّن أنها على هذا «تكون مجازاً عقلياً من إسناد وَصْف للمكان». ويرى أنَّ «هذا أنسب للموضوع، لأنَّ الناس على أرض المحشر في أشد الجزع والهلع»[١].

٣) في الدلالة اللفظية:

أ ـ **الاشتراك**: ويراد به أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر[٢]. وقد أورد الشيخ عدداً من المفردات المشتركة مُبيّناً احتمالها أكثر من معنى يعين عليه السياق، من غير أن ينبِّه على أنه من المشترك صراحةً.

ومن ذلك: ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] إذ قال: «وقد ضمَّن الكلام رداً لكثير من شبههم، حيث أراد بلفظ الآية ثلاثة أنواع، منها: الآية القرآنية التي تأتي بحكم شرعي، والآية الكونية التي تكون معجزة لنبي، والآية الكونية التعذيبيَّة التي كان الرسول ﷺ يتوعَّدهم بها، ويستهزئون[٣] بطلب تعجيلها»[٤].

فهو هنا يشير بوضوح إلى الاشتراك اللفظي في اللغة. كما يفهم من عبارته: «ثلاثة أنواع منها» أنَّ ما أورده ليس كل المعاني التي تحتمله كلمة (الآية)، إذ وراءها ما هو

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٢٤).

(٢) «فقه اللغة» للزيدي ص١٤١.

(٣) في الأصل يستهزؤن والصحيح ما أثبته.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧٨).

٢٥٠ ـــــــ

«وهذه الجملة تُنبئ عن شدَّة خفاء أمر الساعة، لأنها لا تكون إلا بَغْتة. وقيل: ﴿أُخْفِيهَا﴾ بمعنى: أظهرها، من أخفى الشيء: إذا أزال خفاءه، لأنَّ كلمة أسرَّ الشيء وأخفاه تأتيان للضدِّ أيضاً، أي: تأتي كلٌّ منهما بمعنى أخفى وبمعنى أزال الخفاء»[١]. وقول الشيخ هنا بأن كلمتي (أسرَّ) و(أخفى) تأتيان للضدِّ فيه نظر، فكلمة (أسر) جاءت في جميع القرآن بمعنى الخفاء، ما خلا آية واحدة ظنَّ بعضهم ومنهم أبو علي الجبائيُّ أنها بمعنى الإظهار، وهي التي في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]. وقد أنكر عليه ذلك الطوسي (ت٤٦٠هـ)[٢] وأبو البركات ابن الأنباري[٣] (ت٥٥٧هـ) ذاهبين إلى أنها على ظاهر دلالتها، وهو الإخفاء، وهذا ما ذهب إليه السلف، فقد رُوي أنَّ الإمام جعفر الصادق قد أخذ اللفظة على ظاهرها في الآية، فرأى أنهم: «أسرُّوا الندامة في الآخرة خوف شماتة الأعداء»[٤].

وأما (أخفيها) فقد ذهب غير واحد من اللغويين القدامى إلى أنها من الأضداد، وأنها هنا بمعنى: أظهرها[٥]، ومنهم الأصمعي (ت٢١٦هـ)[٦] ونقل القرطبي[٧] عن أحد المفسِّرين أن هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، فمعنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ على هذا التأويل: أُزيل عنها خفاءها، ومن هذا قولهم: أشْكَيْتُه، أي: أزلت شكواه،

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٠٤).

(٢) «التبيان» (٨: ٣٩٨). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» لكاصد الزيدي ص٢٨٨.

(٣) «الإغراب في جدل الإعراب» ص٥٤. وينظر: «فقه اللغة» للزيدي ص١٥٨.

(٤) «فقه اللغة» للزيدي ص١٥٨-١٥٩.

(٥) ينظر: «المفردات» ص١٥٣. و«القرطبي» (١١: ١٢٢).

(٦) ثلاثة كتب في الأضداد، بتحقيق: أوكست هفنر ص٢١.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١١: ١٢٤).

فتكون الهمزة للسلب. وقد أورد الشيخ في تفسيره هذا القول أيضاً. وقد ذهب قطرب (ت٢٠٦هـ) إلى أن (خفي) من الأضداد[١]. واستشهد بقول امرئ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ سَحابٍ مُرَكَّبِ[٢]

أما في لفظة (ظَنَّ) فإنَّ الشيخ قد أورد عدَّة أقوال في دلالة ظن، منها في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] إذ قال: «أي: كنت أظنُّ أنَّ الله سيحاسبني ويؤاخذني بهَفَواتي، ولكن تَفَضَّلَ عليّ بالعفو عنها»[٣]، ويفهم من كلام الشيخ هنا أنَّ الظنَّ هنا ليس بمعنى اليقين الجازم، لما يحمل قلب المؤمن من الرجاء بعفو الله وكرمه، فهو لا يشكُّ بالحساب وإنما يتوقَّع أن لا يحاسب حساباً عسيراً.

وشبيه هذا الرأي أورده الرازي[٤] إذ عدَّ اليقين هنا شبيهاً بالظنّ لأنه يقين استدلالي.

ونسب الشيخ رأياً للرازي وهو: «أنه إذا أريد المبالغة في الكثير يقرن الكلام بكلام يدل على التقليل، وإذا أريد المبالغة في اليقين يقرن الكلام بلفظ يدلُّ على الشكِّ»[٥] وهذا الرأي لم أعثر عليه في «مفاتيح الغيب».

ويذكر الشيخ رشيد أنَّ كثيراً من المفسِّرين قالوا «بأن ظننت بمعنى علمت، إذ الظن قد يأتي بمعنى أقوى الاعتقاد، أي: علمت أني مُلاقٍ حِسَابيَه فعملتُ ونَجَوْتُ»[٦]

---

(١) «الأضداد في كلام العرب» لأبي الطيب اللغوي (١: ٢٣٨)، تحقيق: عزة حسن، دمشق ١٩٦٣.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٧٧. وفيه: «من عشي مجلّب»، بدل: «من سحاب مركّب».

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب» (٣٠: ١١).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٢٧)، (٢: ٣٦٦)، (٧: ٤٨٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

فهو إذن لا ينكر التَّضادّ في هذه المفردة. وقد ذهب العديد من قدماء اللغويين والمفسِّرين إلى أن (ظن) من الأضداد، ومنهم الأصمعي[١] الذي قال: «الظن: اليقين، والظن: الشك». وأبو حاتم السجستاني[٢] (ت٢٥٥هـ) الذي بيَّن أنَّ الظن في القرآن شك ويقين واحتج لكلِّ معنى منهما بعدد من الآي، وكابن السِّكِّيت[٣] (ت٢٤٤هـ) الذي جعل من اليقين قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، وكأبي الطيب اللغوي الحلبي (ت٣٥١هـ) واستشهد لها بالشعر العربي القديم[٤].

ويَعُدُّ الشيخ رشيد[٥] ﴿عَسْعَسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] من الأضداد، فهو عنده يعني: أقبل بظلامه أو أدبر، وهذا عين ما قال به قُدامى الذين صنَّفوا في الأضداد، كأبي عبيدة (ت٢١٠هـ)[٦] وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنه[٧] وقد عدَّه أبو الطيب اللغوي من الأضداد[٨].

ج ـ **الترادف**: وهو في المصطلح اللغوي دلالة عدة كلمات مختلفة ومنفردة على

---

(١) ثلاثة كتب في الأضداد ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص٧٦-٧٧.

(٣) المصدر نفسه ص١٨٨-١٨٩.

وابن السكِّيت هو: أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق، إمام في اللغة والأدب، له: «إصلاح المنطق»، و«النوادر». «الأعلام» للزركلي (٨: ١٩٥). (مجد).

(٤) «الأضداد في كلام العرب» (١: ٤٧٠). وينظر ما حقَّقه شيخُنا العلامة الميداني في دلالة كلمة (الظن) في القرآن الكريم في كتابه النافع «قواعد التدبر الأمثل في كتاب الله». (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ١٥١).

(٦) «مجاز القرآن» (٢: ٢٨٧).

(٧) ثلاثة كتب في الأضداد ص٩٧.

(٨) «الأضداد في كلام العرب» (٢: ٤٨٨).

المسمَّى الواحد أو المعنى الواحد دلالة واحدة[١]. والأصل في الألفاظ المترادفة أن تكون ذات دلالة واحدة لا فارق بينها البتة، غير أنَّ من قدامى اللغويين من يسمِّي ما بينه فروق دلالية مترادفاً على نحو ما ذهب إليه الراغب[٢].

ولا يفوت الشيخ أن ينبِّه على الترادف في اللغة والاختلاف فيه لدى القدامى، ففي قوله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١] يقول: «والمساكين المراد بهم الفقراء. فقد ذهب أخصّ العلماء إلى أن المسكين والفقير قسمان لصنف واحد، أو هما صفتان مترادفتان على موصوف واحد بالذات، وإن اختلف الاعتبار. وأرباب الرأي الأول يقولون: الفقير من لا يحصل على ما يقع موقعاً من كفايته، والمسكين من يحصل على مثل ذلك، ولكنه لا يكفيه ويكفي عياله، وقيل بالعكس»[٣].

فعرض الشيخ رأيين في هاتين المفردتين، الأول: أنهما مترادفتان مع تباين الاعتبار، والثاني: وجود فرق بينهما في المعنى.

والنص القرآني يدلُّ على وجود فارق بينهما، إذ وردا في آية الصدقات (الزكاة) في سياق واحد معطوفاً فيها المساكين على الفقراء ومعلوم في اللغة أنَّ الشيء لا يعطف على نفسه.

والخلاف في الترادف لدى القدامى معروف في مثل الصارم والمهند والهندواني للسيف، هل هي صفات أم مترادفات، أما مثل المدية والسكين، والحنطة والبر والقمح

---

(١) «الترادف في اللغة» لحاكم مالك لعيبي ص٣٢، دار الثقافة والإعلام ١٩٨٠، سلسلة دراسات (٢٢١).

(٢) «المفردات في غريب القرآن»، «المقدمة» ص٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣١).

فلا خلاف فيها لأنها أسماء ذات وليس صفات[١]، ويَرى بعض الباحثين أنه لا يثبت في المترادفات إلا ما يعود إلى تعدّد اللهجات أو إلى ما نسي أصل وضعه بحكم التطور الدلالي في اللغة[٢].

ومهما يكن من أمر فإنَّ أكثر العلماء يذهبون إلى التفريق بين دلالتي المسكين والفقير، فقد قال الأزهري: «الفقير: الذي لا يسأل، والمسكين: الذي يسأل[٣]، ومثله عن ابن عباس، والحسن وجابر ومجاهد، وهو قول أبي حنيفة... ويجوز أن يقال: المسكين: هو الذي يرقّ له الإنسان إذا تأمَّل حاله، وكل من يرقّ له الإنسان يسميه مسكيناً»[٤] ولا يمنع من ذلك ما ذهب إليه أبو عمرو بن العلاء (ت١٧٠هـ) من أن المساكين: الأذلاء المقهورون، ولو كانوا أغنياء[٥] بناءً على ما تُوحيه كلمة المساكين في قصَّة موسى والخضر، وذلك لأنّ مَظَانَّ الفقر في المسكين كبيرة.

وينقل الشيخ عن الراغب[٦] التفرقة الدلالية بين ثلاثة ألفاظ: الأنفال والفيء والغنيمة «بأن تـنوُّع العبارة لاختلاف الاعتبار، فلكونه مظفوراً به يقال له: غنيمة، ولكونه منحة من الله يقال له: نفل أو فيء، فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات»[٧].

---

(١) «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص١٧١.

(٢) «الترادف في اللغة» لحاكم لعيبي ص٣٠٦.

(٣) وهذا الذي رجحه شيخنا الميداني في دراسته لدلالة الكلمتين: الفقير والمسكين في كتاب «قواعد التدبر الأمثل». (مجد).

(٤) أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ): «الفروق في اللغة» ص١٧٠-١٧١، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٧٩. وينظر: الثعالبي: «فقه اللغة» ص٥٢-٥٣.

(٥) «اللسان» (٣: ٤٨٥-٤٨٦).

(٦) «المفردات» ص٥٠٢.

(٧) «أولى ما قيل» (٤: ٨).

وكذا الحال في الفرق بين لفظتي الظل والفيء عند قوله تعالى: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] إذ نقل الشيخ عن الراغب أيضاً أنَّ «الظلَّ أعمُّ من الفيء، وأنه يقال لكلِّ موضع لم تصله الشمس: ظل، ولا يقال: فيء إلا لما زال عنه الشمس»[١]. وهذا يؤكِّد مذهب أبي هلال العسكري، إذ يذهب إلى وجود الفروق بين المفردات التي يُسمِّيها اللغويون بالمترادفات.

د ـ **العرف اللغوي**: وللعرف اللغوي دورٌ في دلالة الألفاظ، فقد تتطوَّر المفردة ويغيِّر العرفُ اللغويُّ مدلولَها فيخصِّصه بعد أن كان عامّاً، كما في كلمة (مصيبة) التي ذكر الشيخ «أنه في أصل اللغة ما يصيب الإنسان، ثم خصَّه العرف بالشر»[٢].

وتركيب ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الذي مثَّل به القرآن شجرة الزقوم في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، هو لدى الشيخ من العرف اللغوي، ولذلك قال: «وهذا التعبير من عُرف اللغة، وهو تمثيلٌ للبشاعة والقبح والهول، على طريقة التخييل، لأنَّ قبح صورة الشياطين أمر مُتخيَّل في النفوس وإن لم يُر، وعلى هذه الطريقة قول امرئ القيس:

ومسنونة زرق كأنياب أغوال»[٣]

وقد نبه قديماً إلى هذه المسألة أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، فذكر أنَّ كاتباً للفضل ابن الربيع سأله عن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فقال: «إنما يقع الوعد والوعيد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. فقال له أبو عبيدة: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٣٠٣)، حاشيته.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٠٢).

أَيَقْتُلُنِـي والمَشْـرَفِيُّ مُضـاجِعِي وَمَسْنونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَـابِ أَغْـوَالِ[١]

وهم لم يروا الغول قط، ولكنَّهم لما كان أمر الغول يَهُولهم أوْعَدوا به فاستحسن فضل ذلك واستحسنه السائل» فكان ذلك ـ كما يذكر أبو عبيدة ـ داعياً لوضع كتابه «مجاز القرآن» لمثل هذا وأشباهه[٢].

٤) أصل الاشتقاق:

الاشتقاق أحد الوسائل المهمَّة في نُموِّ اللغات واتِّساعها[٣]، وهو توليد بعض الألفاظ من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد يحدِّد مادتها، ويُوحي بمعناها المشترك الأصيل[٤]. والاشتقاق أنواع أوصلها بعضُهم[٥] إلى أربعة واختلفوا في تسمياتها.

والذي يعنينا هنا من الاشتقاق هو الأصل اللغوي، وهو المتعلق بالرجوع إلى الأصل اللغوي عند النظر في الاشتقاق، فقد كان الشيخ رشيد يعمد أحياناً إلى العودة إلى الجذر الاشتقاقي للمفردة ليوضِّح معناها.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـًٔا فَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٧] يقول: «أي: فعلت أمراً منكراً يَفْري جلد الوجه أو من الافتراء»[٦]. فهو هنا يحتمل

---

(١) وهو في «ديوانه» ص١٣٧.

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢: ١٥٦). وينظر: «مجاز القرآن»، «مقدمة»: ١٦، ط الأولى ١٩٥٤، الخانجي.

(٣) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبد التواب ص٢٥٧، مكتبة دار التراث، ط١، ١٩٧٣، القاهرة.

(٤) «دراسات في فقه اللغة» لصبحي الصالح ص١٧٤، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٧٨.

(٥) المصدر نفسه ص١٧٣، ٢٧٤.

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٧٤).

للفري أَصْلَين أحدهما: الشق والقطع، والآخر: الكذب والاختلاق[١]. فعلى الأولى يكون المعنى عنده: يفري الجلد أي جلد الوجه، وعلى الثاني: من الافتراء.

وفي تحليل لعدد من المفردات القرآنية نجد الشيخ يورد أحياناً أكثر من معنى يحتمله النص القرآني. (فالكلالة) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢] يذكر أولاً: أنها يُراد بها من ليس له ولد، وإن نزل ولا والد وإن علا، لأنَّ الكلالة لغة: الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، وإنما سُمِّي مَنْ عدا الوالد والولد بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان.

وأما قرابة الولادة فكالشجرة أصول وفروع، ثم يجيز كذلك «أن تكون الكلالة بمعنى الضعف والإعياء، لأنه متحقق فيمن لا أصول له ولا فروع»[٢].

والمعنيان تجيزهما اللغة، قال ابن الأعرابي: «(الكلالة) بنو العم الأباعد. ويقال: هو مصدر من (تكلله) النسب أي: تطرَّفه كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد، فليس له منهما أحد فسمِّي بالمصدر»[٣].

وقد أورد الزمخشري هذا المعنى[٤]، ونسبهُ القرطبيُّ إلى عدد من الصحابة واللغويين[٥] ونسبه أبو الليث السمرقندي (ت٣٧٥هـ) إلى أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى[٦].

---

(١) «لسان العرب». مادة (فري).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٥).

(٣) «الصحاح» للجوهري. (كلل)، دار الكتاب، أحمد عبد الغفور عطار.

(٤) «الكشاف» (١: ٤٨٠).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٥: ٥١).

(٦) تفسير «بحر العلوم» (١: ١١٩).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] يذكر الشيخ أنَّ الصَّلصال: الطين اليابس الذي يُسمع له عند النقر صلصلةٌ، ثم يجيز «أن يكون بمعنى الخالص المصفَّى من (صلّ الشراب): إذا صفّـاه» وختم ذلك بعبارة «والله أعلم»[١]. فأفاد هنا من الأصل اللغوي للكلمة في تحديد معنى لها يتناسب مع السياق. والمعنى الثاني: صلّ الشراب: إذا صفاه، أشار إليه صاحب «اللسان»، وبيَّن أنه ضعيف، والأشهر منه: أنتن[٢].

٥) لَمْحُ دقة القرآن في اختيار اللفظة:

وللشيخ في تفسيره لفتات ذكيَّة في سرِّ اختيار اللفظة من الناحية اللغوية، فهو يرى في كلمة (قصم) من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] «إشارة إلى تجبُّر هؤلاء القوم وعنادهم، لأن القصم أفظع أنواع الكسر للمتجبِّر»[٣] يقول ابن سيده (ت٤٥٨هـ) القصم: الكسر[٤].

ويرى الشيخ أنَّ اختيار التعبير بالوالدات والمولود له دون الآباء والأمهات فيه إشعار بعلَّة الحكم وبما تقتضيه الولادة من الاستحقاق والاستعطاف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣][٥] وهو ملحظ دقيق.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢٥).

(٢) «لسان العرب» (صل).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٥٩).

(٤) «المخصص» (١٣: ٤١٠). وينظر: «لسان العرب» (قصم).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٣٨).

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، يذكر أنَّ السِّجِّين مشتقّ من السجن.. ثم يقول: «ومعنى سجّين يدل على الشدّة والكره... فمدلول الآية أن أعمال الفجار تكتب في سجل مكروه، كما يقال في السجل الأسود، يكني بذلك عن شدَّة ما يصيبهم من العذاب جزاءَ أعمالهم المحصية عليهم في هذا السجل، فنقل وصف العذاب للسجل المسجَّل فيه»[١]. فأظهر الشيخ هنا دقة اختيار هذه اللفظة في هذا النص دون غيرها من الألفاظ. وقد عَدَّها الراغب[٢] من المبهمات. وقال: «زيد لفظهُ تنبيهاً على زيادة معناه» ومراده من ذلك، أن (فعيل) فيه زيادة لفظية على (سجن)، وأنه مشعر بزيادة المعنى.

٦) أصول اللغة:

إن أصول اللغة هي عينها أصول النحو، وكلاهما مستمدّ ومستفيد من أصول الفقه، ولذلك عَرَّفَ أبو البركات ابن الأنباري[٣] أصول النحو بأنها «أدلة النحو التي تفرَّعت منها فروعه وفصوله، كما أنَّ أصول الفقه: أدلة الفقه التي تنوَّعت عنها جملته وتفصيله».

أ ـ **السماع**: عرفه ابن الأنباري بأنه «الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدِّ القِلَّة إلى حد الكثرة»[٤] وعرَّفه السيوطي[٥] بأنه «ما ثبت في كلام من

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٨).

(٢) «المفردات» ص٢٢٥.

(٣) «لمع الأدلة في أصول النحو» مطبوع مع «الإغراب في جدل الأعراب» ص٨٠، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

(٤) المصدر نفسه ص٨١.

(٥) «الاقتراح في علم أصول النحو»، تحقيق: أحمد محمد قاسم، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، =

يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن وكلام نبيه ﷺ وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولَّدين نظماً ونثراً عن مسلم أو كافر.

أشار الشيخ في تأمُّله في النصوص اللغوية إلى هذه الأصول، ثم أفاد منها في تفسير الآي، فهو يذكر أحياناً عبارة: «ونطقت به العرب»، في توضيحه لعدد من المفردات أو الأساليب اللغوية في القرآن. على نحو ما أورده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، فقد قال: «أي: المتخاصمين، إذ هو يطلق على الواحد والجمع والمراد به: الجمع. ولذلك قال: (إذ تسوروا المحراب)... وقيل: هما اثنان فقط، وإطلاق الجمع عليهما من إطلاق صيغ الجمع على الاثنين فما فوق، وذلك من خصائص اللغة وقد نطقت به العرب»[(١)]. فهو هنا يحتج لتعبير قرآني بما نطقت به العرب، وقد استشهد سيبويه بهذه الآية على ما جاء عن العرب بهذا الاستعمال. فقال[(٢)]: «سألت الخليل رحمه الله عن: (ما أحسن وجوههما)، فقال: لأنّ الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذاك... وقال الله جلَّ ثناؤه: (وهل أتاك نبأ الخصم.. الآية)، وذكر ذلك أبو عبيدة[(٣)] أيضاً.

ب ـ **القياس**: ويعرف بأنه: «حمل فرع على أصل بعلَّة، وإجراء حكم الأصل على

= مصر ١٩٧٦م. وينظر: «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» للسيوطي (١: ١٤٤)، عيسى البابي الحلبي.

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٧). وينظر: (٦: ٧٧)، وقوله: جرياً على العرف اللغوي عند العرب فإنها تقول: كذا.

(٢) «الكتاب» (٢: ٤٨)، وينظر: (٣: ٦٢١)، باب ما لفظ به مما هو مثنى كما لفظ بالجمع.

(٣) «مجاز القرآن» (٢: ١٨٠).

الفرع[١]، أو انتحاء كلام العرب[٢]. والقياس في أصل اللغة عبارة عن التقدير[٣]، ثم استعمل اصطلاحاً في الفقه واللغة والنحو بدلالة أخرى.

يطبق الشيخ نوعاً من القياس اللغوي لتوضيح المعنى، وهو قياس مفردة غريبة غير مشهورة، على مفردة معروفة في زنتها وصيغتها ودلالتها، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٤] إذ يقول «والنُّسْخَةُ من النُّسَخِ كالخُطْبَة من الخُطَب»[٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] يقول: «والقيعة جمع قاع كجيرةٍ جمعُ جارٍ»[٥]. وقد وَرَدَ لدى الراغب[٦] «القِيْعُ والقَاعُ: المستوي من الأرض جمعه قيعان وتصغيره قويع». وذكر الزمخشري أنَّ القيعة ﴿كَسَرَابٍ﴾، وإنه يقال بقيعة وبقاع[٧]، وقال ابن منظور[٨]: «..والجمع أقواع وقيعان وقيعة ولا نظير له إلا جار وجيرة.. وقال الفَرَّاءُ: القيعة جمع قاع»[٩].

---

(١) «لمع الأدلة» ص٩٣. وينظر: «أصول النحو العربي» لمحمد خير الحلواني ص٩١، مطبعة الشرق، حلب ١٩٧٩.

(٢) «الأصول» لتمام حسان ص١٦٤.

(٣) «التعريفات» للسيد الشريف ص١٠٢.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٠).

(٦) «المفردات» ص٤١٥.

(٧) ينظر: «الكشاف» (٣: ٢٤٣).

(٨) في «لسان العرب» (قوع).

(٩) «معاني القرآن» (٢: ٢٥٤). (مجد).

ج ـ **استصحاب الحال**: وهو «إبقاء حال اللفظ على ما يستحقُّه في الأصل عند عدم وجود دليل النقل عن الأصل»[١]. يعده قسم كبير من النحاة من الأدلة الضعيفة[٢]، أما الأصوليون فكثير منهم يعدّه حجَّةً ومنهم الرازي[٣].

وقد عَمَدَ الشيخ إليه في مواضع، فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، إذ فسَّره على الأصل بعد أن عَرَض الوجه الأول المشهور. وهو: التهكُّم فقال بعد ذلك: «وقيل: على الحقيقة لأنَّ التبشير هو الإخبار بما تتأثر منه بشرة الوجه حزناً وفرحاً»[٤]، فرجع في هذا إلى أصل الكلام وحقيقة التعبير، مستصحباً إياه في فهم دلالة هذا التعبير.

وفي قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ...﴾ [البقرة: ٧] يقول: «وأفرد السمع دون القلوب والأبصار، قيل: لأنه في الأصل مصدر والمصادر لا تجمع فَرُوعِيَ فيه الأصل...»[٥].

* * *

(١) «الإغراب في جدل الأعراب» لابن الأنباري ص٤٦.
(٢) «لمع الأدلة» ص١٤٢. وينظر: «أصول النحو العربي» للحلواني ص١٢٧.
(٣) «الرازي النحوي من خلال تفسيره» لطلال يحيى إبراهيم ص١٤١.
(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٠).
(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٠).

المبحث الثاني
النَّحو

أبدى الشيخ رشيد في تفسيره عنايةً واضحة بالمسائل النحويَّة وإعراب الآيات، تقريباً للمعنى وتوضيحاً له، إلا أن هذه العناية لم تبلغ مستوى عناية التفاسير القديمة التي أكثرت عموماً من النحو ومسائلِه المختلفة بحيث لم يَفُتْها إلا القليل من إعراب الآي، وتوسط الشيخ في هذا المجال ملائماً لمنهج المفسرين المحدَثين، إذ لم تَعُدْ ثمَّة حاجة إلى هذا التفصيل النحوي والإعرابي بعد أن تكفلت التفاسير القديمة به، وإنما انصبَّ الجهد عموماً في زماننا هذا على المعنى والالتفاتات الدلالية والبلاغية، أو القضايا الاجتماعية والعملية.

كان الشيخ يلجأ إلى الإعراب في مواضع، وكان يعرض من خلال الإعراب لمسائل نحوية طفيفة، من غير إيغال في ذلك أو استقصاء فيه، جرياً مع منهجه في الإيجاز. ويلحظ بأنه نقل إعراباً وآراء نحوية عن كبار النَّحويين والمفسِّرين كالفراء[١]، والزجاج[٢]، وأبي البركات الأنباري[٣]، والزمخشري[٤]، والرازي[٥]، وأبي السعود[٦]. وقد مرّ علينا ذلك كلُّه في فصل المصادر فلا وجه لإعادته هنا.

(١) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤).
(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ١٥٧).
(٣) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٧).
(٤) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٣).
(٥) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٠)، (٥: ١٣٥).
(٦) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٩)، (٥: ٣٣٠).

١) إعراب الآي:

وبِقَصدِ زيادة الكشف عن معاني الآي، أعرب الشيخ كثيراً من الآيات القرآنية، مُبيِّناً الوجوه النحوية، مع ربطها بالمعنى ربطاً حسناً، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، يقلب الوجوه المعنوية باحثاً عمَّا يمكن أن يعلق به ﴿فِي بُيُوتٍ﴾، فذكر أن «الجار والمجرور ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بفعل محذوف، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]»، وعلَّل ذلك الوجه بـ«أن الهداية تفضي إلى العبادة، أي: يعبد هؤلاء المهتدون في بيوت». ثم أجاز «أن يكون متعلقاً بيسبح، وإنما قدم للاهتمام به..»[١]. وقد أورد الوجه الثاني أبو البركات بن الأنباري مع وجه آخر جعل فيه ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ صفة (مشكاة) وتقديره: في مشكاة كائنة في بيوت[٢].

وأورد الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] عدداً من الاحتمالات في إعراب ﴿أَمَنَةً﴾ وهي أنها: «يجوز أن تكون مصدراً مفعولاً به، و﴿نُّعَاسًا﴾ بدلاً منه، أو أحدهما مفعولاً والآخر حالاً[٣] من المخاطبين مؤولاً بالمشتق، ويجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً﴾ جمعاً كَبَرَرَة، فلا يحتاج إلى تأويل»[٤]. وهناك وجه آخر في إعرابها ذكره ابن الأنباري[٥] وهو أن تكون ﴿أَمَنَةً﴾

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٢٨).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٩٩).

(٣) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١: ٣٠٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٦٠)، حاشية.

(٥) «البيان في إعراب غريب القرآن» (١: ٢٢٦). وينظر: «مشكل إعراب القرآن» ص١٧٧.

مفعولاً له. ووجه الحال تسوّغه القاعدة «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً»[١].
وهناك أمثلة كثيرة[٢] غير هذه.

وفي كثير من الآيات التي تعدَّدت فيها وجوه الإعراب، واشتدَّ الخلاف في تلك الوجوه، يختار من هذه الاحتمالات دون القطع بواحدةٍ منها، ودون التوسُّع في أمر الخلاف في إعرابها. كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، إذ بيَّن أنه سبحانه «علل التَّزيين وفسَّره بقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وأنه «يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بدلاً من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعولاً ليهتدون على التوسع أو التضمين، وزيدت (لا) لتقرير النفي»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ [المائدة: ١٠٧] يقول: «أي: جنى عليهم أو حكم عليهم. وهذا إذا قرئ الفعل بصيغة المجهول، أما إذا قرئ الفعل بصيغة المعلوم، فيكون معناه من الذين وقع عليهم الحق. على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: وقع التقطُّع بينكم بعد أن وصف (الآخران) بكونهما من الذين وقع الحق عليهم، فتعرفا أو تخصصا بالموصول، أبدلهما أو وصفهما بقوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾»[٤]. وهذه الآية وصفها الزجاج[٥] بأنها من أصعب ما في القرآن في الإعراب، وذكر أن (أوليان) في قول أكثر البصريين يرتفعان

---

(١) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» لمحمد علي طه الدرة (٢٠: ٢٤٦).
(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ١٨٢)، (٣: ٢٩٧)، (٧: ٤٨).
(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤٤). وينظر: في إعرابها «الجامع لأحكام القرآن» (١٣: ١٢٤-١٢٥).
(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧١).
(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٢١٦).

على البدل ممَّا في (يقومان)، والمعنى: «فلْيقم الأوليان من الذين استحقّت الوصية عليهم، أو استحق الإيصاء عليهم. وعرض وجوهاً أخرى، عدا النصب ووصف الوجه الأول بأنه أجود الوجوه. وعرض العكبري[١] (ت٦١٦هـ) لحالة الرفع خمسة وجوه.

وللسياق دورٌ مهم في توجيه الإعراب لدى الشيخ، فهو يرى مثلاً أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ...﴾ [يونس: ١٠٣] «معطوف على محذوف يفهم من السياق على نهج القرآن في مثله، والتقدير: فسنهلك المكذِّبين ثم ننجِّي رسلنا والذين آمنوا»[٢].

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] وجهين في (أم) فهي: «إما متصلة حذف معادلها اعتماداً على السياق... وإما منقطعة بمعنى بل للإضراب»[٣].

ومزج الشيخ الإعراب بالمعنى بطريقةٍ أكسب الإعرابَ كثيراً من الحياة وأعاده إلى أصله الذي وضع من أجله، وهو الارتباط التام الوثيق بالمعنى، وكأنه يُحيي بذلك (معاني النحو) التي انسلخت منه في العصور المتأخرة وصارت جزءاً من البلاغة، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]، يقول: في (يخرج الحي من الميت): «لما كانت هذه الجملة تفسيراً للأولى وبياناً لها، عطف على الأولى ولم يعطف عليها، فقال: ومخرج الميت من الحي، فهو معطوف على فالق، ولذلك عبر باسم الفاعل دون الفعل»[٤]. فاللُّحمة قويَّة بين الإعراب والمعنى. إذ لما كانت الجملة الثانية تفسيراً للأولى[٥] أصبحتا جزءاً واحداً،

---

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٤٦٩-٤٧٠)، وينظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) ص٢٤٣، تحقيق: حاتم الضامن.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٠٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٣٤٥).

(٥) وأعربت خبراً ثانياً لإنَّ، أو جملة مستأنفة «تفسير القرآن وإعرابه» لطه محمد الدُّره (٤: ٢١٨).

فعطف الجملة الثالثة على الأولى بدليل مجيء اسم الفاعل (مخرج). فكان من قبيل عطف الوصف على الوصف، لما تقدَّم من (فالق) في الأولى و(مخرج) في الثالثة.

ونراه يجعل الإعراب والتفسير شيئاً واحداً في وقوفه عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] إذ يقول: «حال كونه» ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]. فتعبير: «حال كونه» إعراب وتفسير.

وقد أعربت[٢]: (ثَانِيَ): منصوبة على الحال من المُضْمر في (يُجادل).

٢) النحو والمعنى:

المعنى عند الشيخ هو الذي يُوجِّه الإعراب ويقرِّره لا العكس. وهذا هو المنهج العدل الذي ينبغي أن يعالج به النحو في القرآن، إذ لا ينبغي أن تحيف الصنعة الإعرابية على المعنى المراد، بل ينبغي أن يكون المعنى الأساسُ الذي يدور عليه الإعراب ووجوهه المتعددة، لا العكس.

يعرض الشيخ وجوهَ الإعراب تَبعاً لاحتمالات المعنى القرآني. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢] يذكر أن «قوله: (والذي فطرنا) يحتمل أن يكون معطوفاً على (ما)، أي: وعلى الذي فطرنا وخلقنا وهو الله سبحانه، أو أن يكون قسماً لتقرير الإيثار، أي: والذي فطرنا لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البينات»[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢١٩)، ومثله (٦: ٨٧).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٧٠). و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب ص٤٨٧.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٢٠).

ويعرب في ضوء المعنى الذي يطمئنُّ إليه اللام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فيرى أنها «لام العاقبة وليست لام الغاية، إذ هم يحسبون أنهم يتقرَّبون بذلك إلى الله، ويرشدون الناس إليه»[١]. وإن كان كثير من الضَّالين يعرفون أنهم على ضلال، وما يمنعهم من الإيمان، إلا الكِبْرُ والمصالح، وهذا ما صرَّح به الشيخ في موضع آخر من تفسيره[٢].

وتتجلى هيمنة المعنى على الإعراب لدى الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فيقول: «أي: إني أتبرأ ممَّا كنتم تعتقدون في الدنيا من أني شريك لله»، ثم يعرب (ما) بما يقتضيه هذا المعنى على أنها (مصدرية)»، ويستدل على هذا المعنى بآية أُخرى فيقول: «وهذا مفاد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ثم يحتمل معنى آخر للآية فيقول: «أو المعنى بأني كفرت من قبل بالله الذي أشركتموني به»، ويجعل (ما) في ضوء هذا المعنى (موصولة). والمعنى الثاني الذي احتمله الشيخ يحتاج إلى تأمل، ولذا أوضحه بقوله: «ويكون المراد إني كفرت من قبلكم بالله حين خالفتُ أمره، وقد أشركتموني بمثل ذلك واتَّبعتموني»[٣].

واللام التي تدخل على اسم الإشارة ـ كما نعلم ـ للبعد[٤] ولذلك نرى الشيخ، يلحظ ذلك في النص القرآني، فبيّن المعنى في ضوء هذا التكييف النحوي، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] إذ يقول: «والإشارة إلى الوصايا

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١٩٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩٨)، وينظر: (٣: ٢٩٧).

(٤) «همع الهوامع شرح جمع الجوامع» للسيوطي (١: ٧٤-٧٥)، دار المعرفة، بيروت.

الخمس المتقدمة، واللام فيها للدلالة على بُعْد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها من الحكم والأحكام والمصالح الدنيوية»[١]. ومثل ذلك كثير في تفسيره[٢].

وحَفَلَ تفسير الشيخ بمصطلحات النحو المعروفة، إلا أن الجديد فيها هو أنه لا مانع لديه من إطلاقه تسميات جديدة عليها تحدد المعنى النحوي بصورة أدق كأن يسمي «بدل الخاص الممتاز»[٣]، ويريد به بدل البعض من كلّ.. وهذا ما سيرد مفصَّلاً في الحديث عن المصطلح النحوي.

كما أشار في أكثر من موضع إلى خصائص القرآن في الحذف[٤]، وهو ما أكَّده أحمد عبد الستار الجواري في كتابه «نحو القرآن»، إلا أنَّ الشيخ كان يقدِّر المحذوف على حين كان الجواري[٥] لا يرى داعياً للتقدير في مواضع كثيرة، لأنه فيما يرى يذهب بجمال الآية. على أنَّ هذا الخلاف شكلي، لأنَّ الذين يقدرون المحذوف، يُقِرّون بأنَّ الحذف أبلغ من التقدير، وإنما يحاولون التوضيح لمن خفيَ عليه الأمر ممن جهل أساليب العربية، وما وُضِع النحو إلا من أجلهم.

وهذا كلُّه يدل بوضوح على أنَّ النحو تابع للمعنى لدى الشيخ في النص القرآني.

٣) القواعد النحوية:

يذكر الشيخ رشيد شيئاً من القواعد النحوية أثناء إعرابه الآي، مثل «إضافة الموصوف إلى الصفة» التي ذكرها في تفسير قوله تعالى: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩١).

(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦)، (٤: ٤١١)، (٥: ٥٠٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨١).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٦٥)، (٣: ٤٧٩)، (٤: ١٨٨).

(٥) ص٤٧.

وعللها بإفادة المبالغة في الاختصاص، فهي عنده مثل «مسجد الجامع» و«حق اليقين»[١]، والأصل أن لا يضاف الموصوف إلى الصفة، وما وَرَدَ موهماً ذلك «فمؤول بحذف المضاف إليه الموصوف بتلك الصفة كقولهم: «حبة الحمقاء»، وصلاة الأولى «والأصل حبة البقلة الحمقاء وصلاة الساعة الأولى»[٢].

ومن القواعد التي نبَّه عليها الشيخ: (حذف خبر كان واسمها) كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، إذ بيَّن: «أن ﴿خَيْرًا﴾ خبر ليكن المحذوفة هي واسمها، والتقدير: يكن الإيمان خيراً لكم»[٣]، وذُكِرَ أنَّ حذف كان مع اسمها يكثر بعد (لو) و(أن)[٤]. وهي هنا محذوفة بدون هاتين الأداتين، وهي فيما يبدو حالة مُطَّردة ويقاس عليها.

وهذا يؤيد رأي الجواري[٥] من أن النحاة لم يَسْتَقْروا نصوص القرآن استقراء كاملاً في قواعدهم النحوية.

وهذا يدل أيضاً على أن الشيخ رشيد يعدُّ القرآن أصلاً في وضع القواعد النحوية، لا أن القواعد هي المتحكِّمة فيه.

وقد ذهب الخليل وسيبويه[٦] في قوله تعالى: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٢).

(٢) «شرح ابن عقيل» (٣: ٤٩)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ١٦٤).

(٤) ينظر: «الكتاب» (١: ٢٥٨-٢٦٢)، (١: ٢٩٣)، (٣: ٧)، (٣: ١٤٩). و«شرح ابن عقيل» (١: ٢٩٤). و«ارتشاف الضرب» لأبي حيان الأندلسي (٣: ٩٦-٩٩).

(٥) «نحو القرآن» ص٣.

(٦) «الكتاب» (١: ٢٨٢). وينظر: «ارتشاف الضرب» (٢: ٢٧٩).

إلى أن (خيراً) منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الأول، وذهب أبو عبيدة[١] والكسائي إلى أنَّ هذه منصوبة على إضمار يكن، كما نسب ذلك إليهما أبو حيّان الأندلسي[٢].

وممَّا أشار إليه من القواعد النَّحوية، قاعدة مسَوِّغات وصف النكرة[٣].

وقد يعرض رأياً جديداً كأنه يقرِّر قاعدة معروفة في رأي، لم يسبق إليه في ما يبدو للباحث، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] يقول: «إذا توسطت (أن) بين (لَـمّا) والفعل دلت على أنَّ الفعل فيه تراخ[٤]، وهذا ما لم يشر إليه النحاة، وإنما أشاروا إلى كونها زائدة، أو صلة. فأكثرهم يشير إلى زيادتها وأنها للتأكيد، ومنهم سيبويه[٥]، والرماني[٦] (ت٣٨٤هـ).

وذكر المرادي (ت٧٤٩هـ)[٧] أنّ (أنْ) الزائدة «تَطَّرِدُ زيادتها بعد (لمّا)، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾... ولا تعمل (أن) الزائدة شيئاً وفائدة زيادتها التوكيد». على حين سمَّاها الزمخشري تسمية أخرى، وذكر لها وظيفة معنويّة غير ما ذكره عامة النحاة، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] إذ قال: «أَنْ: صلة أكدت وجود الفعلين مترتِّباً أحدُهما على

---

(١) لم أجده في «المجاز» (١: ١٤٤).

(٢) «ارتشاف الضرب» (٢: ٢٧٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣٧).

(٥) «الكتاب» (٤: ٢٢٢).

(٦) «معاني الحروف» ص٧٣، تحقيق: عبد الفتاح الشلبي، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٤.

(٧) «الجنى الداني» ص٢٣٩، تحقيق: طه محسن، بغداد ١٩٧٩. وينظر: «دراسة في حروف المعاني» لعباس محمد السامرائي ص٢١-٢٢، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

الآخر، في وقتين لا فاصل بينهما، كأنما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كما أحس مجيئهم فاجأته المساءة من غير رَيْث خيفة عليهم من قومه»[١].

ويقول مصطفى صادق الرافعي[٢]: «المراد بها: تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب بمقدمه واستقراره غُنَّةُ هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهي ﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن جَآءَ﴾ . فلاحظ لها وظيفتين: إحداهما التراخي الذي أشار إليه الشيخ رشيد، والآخر، التطريب بالغُنَّة التي في النون. وتأثُّر الشيخ به غير مستبعد، بل هو ظاهر.

٤) التعليل:

يعمد الشيخ رشيد أحياناً إلى التعليل في الإعراب. وليس التعليل عنده من العلل النحويَّة المعروفة، أي: الأوائل والثواني والثوالث، أو التعليميَّة والقياسيَّة والجدليَّة[٣]، التي تتعلق بتفسير الظاهرة النحويَّة، والنفوذ إلى ما وراءها وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه[٤].

ويمكننا القول إنه كان مقتصراً على العلل الأوائل، وهذا ما لا بُدَّ فيه لكل معرب، وهو ما دعا إليه ابن مضاء القرطبي من وجوب إسقاط العلل الثواني والثوالث[٥].

---

(١) «الكشاف» (٣: ٤٥٣).

(٢) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ص٢٣١، دار الكتاب العربي، ط٢.

(٣) «الإيضاح في علل النحو» للزجاجي ص٦٤.

(٤) «أصول النحو العربي» للحلواني ص١٠٨.

(٥) «الرد على النحاة» ص١٥١، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار الفكر العربي، طبعة أولى، ١٩٤٧. =

إلا أنَّ الشيخ عُني بنوع آخر من التعليل هو ـ إن صحَّت التسمية ـ (التحليل الإعرابي)، و(التعليل المعنوي) الذي يبعث في النحو الحياة. وهذا ما دعا إليه الدكتور مهدي المخزومي في كتابه: «النحو العربي نقد وتوجيه»، إذ اقترح استبدال العلل المعنوية بالعلل الثواني والثوالث[١].

ومن أمثلة التعليل المعنوي لدى الشيخ ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

إذ علَّل إعراب جملة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾ حالاً بقوله: «وهذا أروع تهديد على كتمان الحق. وتسوية الأرض بهم عبارة عن مواراتهم بها خجلاً، فهي كناية عن خجلهم الفظيع من جراء ما كتموا من الحق الذي يعرفونه عن أمر النبي ﷺ وعن الوحي الذي جاء به. فتكون جملة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ حالية».

ثم أورد وجهين آخرين في إعرابها: أحدهما: أن تكون معطوفة على جملة يود، والآخر: أن تكون مستأنفة، وعلل ذلك أيضاً تعليلاً معنوياً بقوله: «والمعنى لا يقدرون يومئذ على كتمان ما عملوه من سيئات»[٢].

وحين يقف عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، يذكر: «أن جملة: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

= ينظر: «محاولات حديثة في تيسير النحو العربي» لقاسم عبد الرضا ص١٥٧، رسالة ماجستير، مخطوطة.

(١) ص٢٧-٧٢، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٦١).

﴿هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل اشتمال من ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾»، ويقدر الكلام: «أي: يستبشرون بهم من حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، ثم أجاز «أن يكون المعنى: يسرُّون ويفرحون بحال الذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم عندما علموا أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١].

وعندما أعرب كلمة ﴿مُفْسِدِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] حالاً مؤكدة، علَّل ذلك بأن العثو هو الفساد[٢]. فعلل كونها حالاً مؤكدة، بتطابق معنى الحال وعاملها، مع اختلاف اللفظ. وهو نوع من أنواع الحال المؤكدة الذي نصَّ عليه النحاة[٣].

كما علل مجيء ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤] إفادته خبراً جديداً جيء به بعد الخبر الأول[٤]. وسبب ذلك ـ كما هو بيّنٌ ـ تكرُّر الجملة، فأراد أن يُبيِّن أن الأولى غير الثانية، إذ لكل منهما غرض.

٥) حروف المعاني:

الحرف كلمة تدل على معنى في غيرها[٥]، وسُمِّيت (حروف المعاني) بهذا الاسم، لما تحمله من معانٍ، والحروف ثلاثة: مختصّ بالاسم، ومختص بالفعل، ومشترك بين الاسم والفعل[٦]، والحرف عامل وغير عامل، فالعامل قسمان: قسم يعمل عملاً واحداً،

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥٤).

(٣) «معاني النحو» للدكتور فاضل صالح السامرائي (٢: ٧٤٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٣٤٠).

(٥) «الجنى الداني» للمرادي ص٨٥.

(٦) المصدر نفسه ص٩٠.

وقسم يعمل عملين[١]. وجملة حروف المعاني: ثلاثة وسبعون وزاد بعضهم حروفاً مختلفاً فيها[٢]. وحين نبحث في تعامل الشيخ رشيد مع حروف المعاني يتبيَّن الآتي:

أ ـ عنايته بحروف المعاني وتحديد معانيها:

حظيت حروف المعاني بعناية الشيخ الفائقة، إذ عرض في تفسيره للمعاني المتعدِّدة لهذه الحروف، ولأثرها في توجيه المعنى. فاللام في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، «يجوز أن تكون للأمر، والكلام على التهديد، أو لام كي والكلام لزيادة التَّشنيع والتوبيخ، والباء للتعدية أو السببية»[٣].

«وكلمة (كلا) زجر تفيد في الأغلب أن ما بعدها مخالف لأثر ما قبلها»[٤].

و(ثم) في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] إنما هي «لإفادة أن ذلك الصدوف مع تصريف الحجج على هذه الصورة، كان مستبعداً وغير متصوّر»[٥].

وكما يلفتنا إلى الفروق المعنويَّة في الحرف الواحد وأثرها في فهم المعنى، يلفتنا كذلك إلى الفروق المعنويَّة الدقيقة بين هذه الحروف.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦-٥٧]

---

(١) «الجنى الداني» ص٩٢.

(٢) المصدر نفسه ص٩٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٩٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٨).

يذكر أن «تصدير خبر الموصول الثاني بالفاء للإيذان بأنَّ تعذيبهم بسبب أعمالهم كما أنَّ تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين المضاعفة، هي بطريقة التفضُّل من الله تعالى»[١]. واستنتاج الشيخ هنا قائم على ما يحمله كل حرف من المعاني. فالفاء الجوابية تلازمها السببيَّة[٢].

ب ـ التوسُّع في معاني حروف المعاني بما عليه النص القرآني:

جهد النحاة في بيان وتعداد المعاني التي تفيدها هذه الحروف على اختلاف سياقاتها في الكلام، فذكروا لكلِّ حرف عدداً من المعاني، إلا أنَّ الشيخ لم يكتف بتقسيماتهم، بل انبرى يُحدِّد لها معاني جديدة في ضوء مواقعها في الآيات وما عليه السياق والمعنى.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بيّن أن: «.. (لو) هذه لاستقصاء الأحوال على وَجْه الإجمال، وتدخل على أبعد الأحوال لكون ما عداه داخلاً بالأولى»[٣].

و(لو) ـ كما يذكر (المرادي) ـ لها أربع حالات، إحداها: أن تكون بمعنى (أن)[٤]، ومنهم من أعربها (وصلية)[٥].

و(ثُمّ) لدى النحاة حرف عطف في الحكم، يفيد الترتيب بمُهلة[٦]. ولكنَّ الشيخ يرى له معاني أخرى في استعمالاته القرآنيّة، فهي في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٥).

(٢) «الجنى الداني» ص١٢٤.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٢٢).

(٤) «الجنى الداني» ص٢٩٥.

(٥) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» لمحمد طه الدُرّة (١: ٣٤٦).

(٦) «الجنى الداني» ص٤٠٦.

﴿قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ ...﴾ [البقرة: ٧٤] يذكر أنها «تفيد أنَّ الأوَّلين منهم قد خشعت قلوبهم لما رأوا من العذاب في زمن موسى عليه السلام ما رأوا، ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتهم ما وصفه عز وجل.. وتجوز أن تكون كلمة (ثم) لاستفظاع تلك القسوة بعد مشاهدة الآيات»[١]. ومعنى الاستفظاع جديد في (ثم)، وهو ممَّا اسْتَشفَّه الشيخ ـ في ما يبدو ـ من استعمال اللفظة في سياقها القرآني.

وقد تفيد (ثم) بيان عظمة المعطوف، أي إنّ ما بعدها عَمَلٌ مهم عظيم بها، وتراخيه وتعاليه في الرتبة عما قبل، أي: إنها لمجرَّد عطف الخبر من دون ملاحظة الترتيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الرعد: ٢][٢].

وهي للتجديد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧][٣].

وعسى[٤]: في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٨٤] للتنبيه والإعداد، فهي هنا بمعنى الخبر والوعد، وقد ذيَّل هذا الوعد بما يدلّ على إنجازه وتحقيقه فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾»[٥].

وأصل عسى: للرجاء[٦] والإشفاق[٧]. وهي تفيد الإطماع والإطماع من الله

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٤٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٤١).

(٤) الجمهور على أنها فعل، وذهب بعضهم إلى أنها حرف منهم: ابن السراج وثعلب. «الجنى الداني» ص٤٣٤.

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٩٩).

(٦) «شرح ابن عقيل» (١: ١٢٣).

(٧) «الجنى الداني» ص٤٣٤.

واجب[١] أي إنها عندئذ تفيد الوجوب والتحقق. ونُقل ذلك عن الحسن البصري[٢]. إلا أن الشيخ يرى فيها معنى آخر، هو تنبيه المؤمنين للإعداد. أو كما يقول سيد قطب[٣] ليكونوا ستاراً لقدرته في كفِّ بأس الكفار عن المسلمين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] يذكر أن (عسى) تفيد الرجاء والطمع بوقوع الفعل[٤]، ولم يقل بالوجوب الذي نبَّه عليه قدامى المفسِّرين، كالقرطبي[٥].

على حين نرى الزمخشري[٦] يرى فيها حسماً لأطماع المشركين من الانتفاع بأعمالهم. بأنَّ الذين آمنوا أمْرُهم دائرٌ بين عسى ولعل، فما بالهم هم! وفيه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء، وعدم الاغترار. وأيَّد هذا الكلام ابن المُنيِّر الإسكندري[٧].

ج ـ أصالة الحروف وتناوبها:

بذل الشيخ جهداً لتأكيد أصالة الحروف في كثير من مواضع التفسير، فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، إذ قال: «وآثر كلمة (في) للدلالة على إبقائهم عليها زمناً مديداً تشبيهاً لاستقرارهم عليها استقرار المظروف في الظرف»[٨]. فلم يحملها على (على)، كما ذهب أكثر النحاة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥: ١٨٩).
(٢) «تفسير الطبرسي» (٥: ١٧٦).
(٣) «في ظلال القرآن» (٢: ٤٧٠).
(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٦٩).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٨: ٥٨).
(٦) «الكشاف» (٢: ٢٥٥).
(٧) «الانتصاف على حاشية الكشاف» (٢: ٢٥٥).
(٨) «أولى ما قيل» (٥: ١١٩).

وأفاد من التضمين وتوسَّع فيه ليَخْلُص إلى أصالة الحروف. والتضمين ـ أو كما يُسمِّيه العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ): مجاز التضمين ـ هو: أن تضمِّن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين، فتعديه تعديته أيضاً[١].

وللتضمين علاقة كبيرة في الخلاف بين البصريين والكوفيين في نيابة حرف مكان حرف.

والبصريون لا يجيزون ذلك، ويقولون بالتناوب بين الأفعال، والفعل عندهم، إما مؤول تأويلاً يقبله اللفظ[٢]، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف[٣].

على حين يذهب الكوفيون إلى جواز نيابة حرف مكان حرف[٤].

ومما أفاده الشيخ من التضمين في تفسيره ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، إذ رأى أنه تعالى: «ضمَّن كلمة ظلموا معنى كفروا فعدَّاها بالباء، لتفيد المعنيين معاً على نهج القرآن في مثله»[٥]. وهذا من تضمين الفعل، ومن تضمين الاسم ما أورده في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، إذ قال: «ولتضمُّن كلمة (تماماً) معنى التفضيل عُدِّيت بعلى»[٦].

---

(١) الإشارة إلى «الإيجاز في بعض أنواع المجاز» ص٥٤-٥٥، دار الطباعة، العامرة ١٣١٢هـ.

(٢) «الإنصاف في مسائل الخلاف» لابن الأنباري (٢: ٤٧٨)، الطبعة الرابعة ١٩٦١.

(٣) «مغني اللبيب» لابن هشام (١: ١٠٨-١٠٩)، وينظر: «الجنى الداني» ص٨٥-٨٦.

(٤) «الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢: ٤٧٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٠).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩٥).

والتضمين ـ كما هو واضح ـ نوع من التأويل الذي يؤيِّد فكرة أصالة حروف المعاني، ولأهميته عند الشيخ أفرد له مكاناً في مقدمته، على أنه نوع من الإيجاز القرآني، وذلك بدمج المعاني في المفردات[١]. وقد أكثر من الإشارة إلى التضمين[٢] عند تفسيره الآي.

ومع ذلك فقد أجاز في مواضع نيابة حرف عن حرف كنيابة (في) مناب (على)، وتبيَّن ذلك ممَّا أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ [الأعراف: ٣٨]، إذ قال: «أي على أمم»[٣].

على حين حملها الزمخشري[٤] على أصالتها حين ذكر أنَّ المعنى: «في غمارهم مصاحبين لهم» وهو الأسلم، إذ عدم التقدير أسلم من التقدير، كما هو مقرَّر لدى النحاة بلا خلاف بينهم.

وللشيخ رسالة في معاني الحروف وقيام بعضها مقام بعض، وهي مخطوطة. وعلى ذلك يمكننا القول إنَّ الشيخ يقدِّم القول بأصالة حروف المعاني، فإن امتنع ذلك في رأيه فلا مانع لديه من التضمين الحرفي.

٦) الحروف الزائدة:

يكاد النحاة يجمعون على القول بزيادة عدد من الحروف، وأنكر زيادتها في القرآن

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٥)، (٣: ٤٨٢)، (٣: ٤١١)، (٤: ١٩٠)، (٤: ٣٧٨)، (٧: ٦٧)، (٦: ١٧٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٦)، وينظر: (٣: ٢٩٨) حيث أجرى الواو مجرى الفاء، وينظر: (٢: ٥٥٣) حيث قامت (كأين) مقام (كم).

(٤) «الكشاف» (٢: ١٠٣).

الطبري، فهو يرى أنَّ كل لفظ في التنزيل أصيل في موضعه، فلا يصحُّ أن يَزعَمَ زاعمٌ أنه زائد ونقد على أبي عبيدة[١] (ت٢١٠هـ) قوله بزيادة عدد من الحروف والأدوات في القرآن[٢].

كما أنكرها مطلقاً من بعده ابن درستويه (ت٣٤٧هـ) الذي صنَّف كتاباً سماه: «الرد على من قال بالزوائد وأن يكون في الكلام حرف زائد»[٣]. والعنوان مُشْعِرٌ بأن الرجل كان لا يقف عند إنكار الزيادة القرآنية وحدها، بل يتجاوزها إلى الكلام أيضاً.

وقد تابع الشيخ رشيد جمهور النحاة في القول بالزيادة، وأكَّد ما تحمله هذه الزيادة من معنى. فالزيادة عنده نحويَّة إعرابيَّة وليست معنويَّة. والزيادة النحوية ممكنة ـ كما يقول أستاذنا الدكتور كاصد الزيدي[٤] ـ بأن يكون وجود اللفظ غير مؤثِّر في الإعراب ونحو الكلام، أما من ناحية المعنى فالأمر مختلف، إذ لا بدَّ أن يكون لوجوده أثر في المعنى كالتأكيد والتعظيم.

وقد رفض من المحدثين أحمد عبد الستار الجواري[٥] قول النحاة بزيادة عدد من الحروف والأدوات في القرآن، برغم قولهم بفائدتها في المعنى، داعياً إلى استقراء جديد لهذه الأساليب. كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) ينظر مثلاً: «مجاز القرآن» (٢: ٢٥٧).

(٢) «الطبري المفسر الناقد» لكاصد الزيدي ص١٩-٢٠، بحث مقدم لندوة ذكرى الإمام الطبري المعقود في القاهرة ١٩٨٩.

(٣) «دراسة في حروف المعاني الزائدة» لعباس محيي السامرائي ص٢، ط١، بغداد ١٩٨٧.

(٤) «الطبري المفسر الناقد» ص٢٠.

(٥) «نحو القرآن» ص٨٩-٩٠.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الشيخ رشيد أَكَّد ـ كما أسلفت ـ الفائدة المعنويَّة لما عدَّه زائداً، فإن كانت الجملة مؤكِّدة، وكان الحرف للتوكيد كان توكيداً مزدوجاً، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦] يقول: «وزيدت (ما) في إن الشرطية، ونون التوكيد في فعل الشرط، فكان توكيداً مزدوجاً»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] يقول: «وكلمة (لا) مزيدة للمبالغة في نفي متعلِّق العلم الآتي»، ثم يستدل بآيات أخر على ما ذهب إليه فيقول: «على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾» [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢][٢].

وأكثر المفسِّرين على أن (لا) في الآية (١٥١) من سورة الأنعام ليست زائدة، وإنما هي نهي[٣] أو نفي[٤].

وقد أورد أبو البركات ابن الأنباري وجهاً بزيادتها للتأكيد[٥]. والآية الثانية التي استدل بها [الأعراف: ١٢] حملها الشيخ في موضع تفسيرها على التضمين الفعلي، بتأويل منع بمعنى حمل فقال: «أي: ما حملك على أن لا تسجد، فضمَّن معنى حمل وعداها تعديتها»[٦]. ولست أدري ما الذي جعله يتخلَّى عما ذهب إليه سابقاً.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

(٣) «الكشاف» (٢: ٧٨).

(٤) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» (٤: ٣١٢).

(٥) «البيان في غريب إعراب القرآن» (١: ٣٤٩).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٤١١).

ونراه يقيس الآية الكريمة: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، على آية أخرى مشابهة لها في اللفظ ومقاربة في الدلالة، وردت بلا باء، ليقرِّر أن الباء هنا زائدة للتأكيد، فيقول: «ويجوز أن تكون الآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦]، وإلقاء القول تمكينه في النفس، وعلى هذا تكون الباء زائدة للتأكيد[١] وقياسه ـ فيما يبدو ـ قائم على إمكان تسلط الفعل على معموله من غير واسطة حرف الجر، وبذا يحكم بزيادته، وهذا عين ما ذهب إليه النحاة في تسميتهم حرف الجر الزائد[٢].

ومن تأكيده معنى الحروف الزوائد استشفافه معاني جديدة بمعونة السياق كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] وقد مرَّ الحديث عنها في القواعد النحوية[٣].

٧) المصطلح النَّحوي:

وهو اتفاق جماعة من النحاة على استعمال ألفاظ معيَّنة في التعبير عن الأفكار والمعاني النحوية[٤]. ولا بد بداهة من وجود علاقة معنوية بين المصطلح وما أطلق عليه.

وقد اختلف البصريون والكوفيون في طائفة من المصطلحات، ومَرَدُّ ذلك إما إلى اختلاف في المسألة النَّحويَّة نفسِها، أو لسَعَة اللغة التي يبحث كلُّ فريق عن العبارة الأكثر دقة وتحديداً فيها. فالكوفيون مثلاً يسمُّون الظرف: المحل[٥] ويسمُّون البدل: الترجمة[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٥٤).

(٢) ينظر: «المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها» لمحمد الأنطاكي (٢: ١٣٧).

(٣) ص٢٧٢.

(٤) «المصطلح النحوي» لعوض أحمد القوزي ص٢٢-٢٣، عمادة شؤون المكتبات، الرياض ١٩٨١.

(٥) «الإنصاف» (١: ٥١)، المسألة السادسة.

(٦) «المصطلح النحوي» ص١٦٣.

والمصطلح السائد لدى الشيخ رشيد هو المصطلح البصري؛ إذ لم نَرَه يستخدم من مصطلحات الكوفيين شيئاً. أما النعت الذي استخدمه[١]، فليس مصطلحاً بصرياً صِرْفاً، بل هو مشترك بين المدرستين، وقيل: إن الفراء أول من أطلقه على الصفة[٢].

إلا أن الملاحظ على الشيخ توسُّعه أحياناً في المُصْطلح ليعبِّر بشكل أدق عن الحالة التي يصفها، انطلاقاً من فهمه للآية. وهذا مما يحمد له، إذ يؤكد فيه العلاقة القائمة بين النحو والمعنى.

ففي قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠]، يقول: «وهذا العطف للمقارنة والمساواة»، ويعلل ذلك بقول: «فقد قَرَنَ الحالين لبيان أنَّهما على نَسَق واحد، مقترنان برزانة الرأي والتدبير، فكلامه في المهد مثل كلامه وهو كهل[٣]. وفي هذا المعنى ملحظٌ لطيف[٤]. مزجه بالنحو وأضاف إلى معاني الواو العاطفة معنىً جديداً لمعانيها أجراه مجرى المصطلح النحوي.

والبدل كما قرَّره النحاة أربعة أنواع: بدلُ الكلِّ من الكلِّ، وبدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، والبدل المباين[٥] إلا أن الشيخ يفرِّع في ذلك قائلاً: هو: بدل (مفصَّل من مجمل)، وبدل (خاصّ من ممتاز).

ففي قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢٥).

(٢) «المصطلح النحوي» ص١٦٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (١: ٦٩١).

(٥) «شرح ابن عقيل» (٢: ٢٤٩).

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، يقول: «ويجوز أن يكون قوله: (ليهلك من هلك) بدلاً من قوله: (ليقضي الله...) بدل مفصَّل من مجمل»[١]. وهذا ما يعرف لدى اللغويين وعلماء القرآن بالتفصيل بعد الإجمال.

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] يقول: «ثم أبدل من كلمة (ما) بدل الخاص الممتاز من أفراد العام قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، إذْ هذا أعظم ما يطلبون»[٢]. وهذا ما يعرف لدى اللغويين أيضاً بإيراد الخاص بعد العام.

والصفة أنواع يمليها المعنى عند الشيخ، فهي: (صفة ذاتية) للإنجيل في قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وصفة فعلية في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وعلَّل ذلك بقوله: «أي: أنه يؤثِّر هذا التأثير في المتَّقين الذين لم يفسدوا فطرهم»[٣].

والفاء يراد بها (التفريع) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢] إذ «يكون المعنى: الذين خسروا أنفسهم بتَدْسيتهم لها، وإفسادهم لطبيعتها، لم يَرَوا الحق حقاً فيتَّبعوه، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئت من الحق»[٤].

٨) موقفه من الآيات التي جاءت خلاف قواعد النحاة:

هناك عددٌ من الآيات التي خرجت عن القاعدة التي قرَّرها النحاة ابتداءاً، وقد

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٨١). وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ٣٠١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٢٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٦) حاشية.

جهدوا في تأويلها لتنسجم وتلك القواعد. ولم يخالف الشيخ عموماً أساليب النحاة وقواعدهم العامة، وإنما اختار من تخريجاتهم ما يطمئن إليه، إلا أنه زاد عليهم أن هذا التغيير في نسق الإعراب، أي الانتقال من وجه إلى وجه ـ وكلاهما ضمن الأصول ـ كان مقصوداً به التنبيه والإشارة، فهو إذن يتعلق بالمعنى وذلك جاء بصيغة تركيبية مغايرة.

فهو مثلاً يلحظ رفع كلمة (الصابئون) بعد منصوبَين سبقاها، عطفت في السياق على ثانيهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فعلَّل هذا التغاير ما بين الرفع والنصب تعليلاً قائماً على التغاير المعنوي في السياق فيقول: «...وإنما رفع (الصابئون) لأنه مقحم في السياق وجديد فيه، إذ لم يكن مشهوراً أنهم من أهل الكتاب. فهو على هذا المعنى: والصابئون كذلك، لأنهم أهل كتاب أيضاً. فنبَّه على هذا بتغيير الإعراب وذلك من أساليب القرآن»[(١)]. وهذا من أدقِّ ما التفت إليه الشيخ من وجوه الإعراب في الكتاب وقد ربطه ربطاً رائعاً بالمعنى.

والذي ذهب إليه الشيخ في تخريج الإعراب هو أحد الوجوه التي ذهب إليها البصريون، أما الكوفيون فقد جَوَّزوا العطف على موضع (إنّ) قبل تمام الخبر، وجعلوا هذه الآية دليلاً على ذلك. وقد احتج عليهم البصريون بأن ذلك يستوجب عاملين في اسم واحد[(٢)].

وهو يلحظ المعنى ويربطه بالتركيب النحوي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، يقول: «جعل اسم إنْ ضمير الشأن لتدل الجملة على زيادة التَّحريض والاهتمام

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٠)، وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (١: ٢٩٩).

(٢) «الإنصاف» (١: ١٨٥-١٨٦)، المسألة (٢٣).

منهم لهذا الشأن الذي قصدوا بيانه، وهذا يشبه ما نصنعه في الكتابة من وضع خط تحت كلمة مهمة يراد التنبيه لها»[١]. وهو وجهٌ في إعراب الآية، وهناك وجوه أخرى على هذه القراءة التي بتخفيف (إنْ) منها: أن (إنْ) بمعنى (ما)، واللام بمعنى إلا[٢].

وقد رأى إبراهيم مصطفى في هاتين الآيتين سَنَداً له على ما ذهب إليه من أن رفع اسم (إن) هو الأصل وما جاء منصوباً فهو على الوهم الذي حصل بسبب كثرة اتصال ضمير النصب بـ«إنّ»[٣]، وذلك في سياق استدلاله على أنَّ كل مرفوع مسند إليه متحدث عنه، وهو رأي ظاهر البطلان.

وقد جعل الشيخ رشيد من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ...﴾ [البقرة: ١٧٧] إذ عدّ تغيير النَّسق هنا على الاختصاص مبالغةً بالعناية أو الاهتمام[٤]. وهو أحد وجوه ذكرت في إعرابها[٥]، ومنها: أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: (ذوي القربى) أي: وآتى الصابرين. والوجه الذي ذهب إليه الشيخ أظهرُها وأقربُها.

ويعرب الشيخ رشيد ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣]، إعراباً ينأى بها عن لغة (يتعاقبون)، أو كما يسمُّونها (أكلوني البراغيث) وينحو منحىً عاماً في الإعراب يربطه بالمعنى الذي عليه الآية وهو الأبلغيَّة، فيقول: «أتى بواو الجماعة ثم أبدل منه

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١١٧). وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٤٥).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٨٩٥).

(٣) «إحياء النحو» ص٦٩-٧٠.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٠).

(٥) ينظر: «العكبري» (١: ١٤٥) و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب ص١١٨.

(الذين ظلموا) لأنه أبلغ في التنصيص على الذمّ وتقرير المعنى الذي بصدده وهو بيان قوة مكرهم»[١]. وللآية أربعة وجوه إعرابية أحدها هذا الوجه[٢].

٩) مزج النحو بالبلاغة:

يتبيَّن للباحث من مسائل النحو التي عَرَض لها الشيخ وإعراب الآيات، مزجه النحو بالبلاغة في كثير من المواطن وخاصَّة ما له وشيجة بعلم المعاني؛ العلمِ الذي كان في الأصل جزءاً من النحو ولحمة له قبل أن ينسلخ عنه إلى علم البلاغة. وقد عُني به الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» عناية فائقة، وحاول أن يدلل على أن الفضيلة الكبرى في نظم الكلام وبلاغته وفصاحته كامنة في النحو، يقول: «فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتَّصل بباب من أبوابه»[٣].

وكان الشيخ رشيد يعلِّل الظواهر النحويَّة بوجوه وظواهر بلاغيَّة أغلبها معنويّ، على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] إذ قال: «وجواب لو محذوف للمبالغة في التهويل»[٤]. والتهويل معنى يراد به تفخيم الحدث، والحذف: أسلوب بلاغي، وجواز حذف جواب لو بابٌ في النحو.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٥٦).

(٢) ينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٥٨). والعكبري (٢: ٩١١). «مشكل إعراب القرآن»، لمكي (١: ٤٧٧). و«إعراب القرآن» للنحاس (٢: ٣١٦).

(٣) «دلائل الإعجاز» ص٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٩).

ويلمح الشيخ التأكيد باللام، ويعده ممَّا يسميه (كمال الاعتناء)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ١٢] فيقول: «وصدّر البيان باللام الموطئة للقسم، لإظهار كمال الاعتناء»[١].

كما يلمح تجدُّد الحدث ودوامه في فعل القتل المضارع، وما له من أثر في استحضار الصورة حتى كأنها ماثلة للعيان في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، فيقول: «والتعبير عن القتل بالمضارع دون الماضي لاستحضار صورته المنكرة في الذهن كأنه واقع في الحال». ويلمح في التقديم أثره في التركيز على ما يليه فيقول: «وفي تقديم الفعل تشويق للمتأخر، ففيه تنبيه الذهن إلى شناعة الفعل»[٢].

وهذا من قبيل ما التفت إليه عبد القاهر الجرجاني من قبل، فصِيَغُ الكلام لا تعدو ما رسمته قواعد النحو وتراكيبه المختلفة، إلا أنَّ الناظم يتوخَّى منها ما يناسب المقام، ويبلغ المراد. وهنا ينبِّه الشيخ على سرِّ هذه الصيغ والتراكيب كاستخدام المضارع بدل الماضي، وتقديم ما حقُّه التأخير وما لذلك من مقاصد بلاغية.

١٠) الخلاف النحوي:

لم يرد ذكر البصريين والكوفيين في تفسير الشيخ رشيد إلا مرة واحدة عند إعرابه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠]، فقد ذكر أنَّ البصريين يجعلون الضمير مفعولاً به، والمعنى: أَرَأَيْتُم أَنْفُسَكُم، وأن الكوفيين يجعلونه تأكيداً للخطاب، والمعنى عندهم: أرأيتم، ومحصل المعنيين: أخبروني[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٦) حاشية.

ويبدو أن الشيخ قد عكس المسألة هنا، فقد ذكر مكي بن أبي طالب[١]: إنَّ الكاف والميم للخطاب لا موضع لهما من الإعراب عند البصريين، ونسب إلى الفرَّاء قوله بأن لفظها لفظ منصوب ومعناها معنى مرفوع، وعلق بأن هذا محال لاجتماع فاعلين لفعل واحد، ونقل كلامه أبو البركات ابن الأنباري[٢]. وذكر العكبري[٣] (ت٦١٦هـ) أنَّ مفعول (أرأيت) محذوف دل عليه الكلام، تقديره: أرأيتكم عبادتكم الأصنام... وذكر ذلك القرطبي[٤] أيضاً، مبيِّناً أنه اختيار الزجاج. وعبارة الفراء[٥]: «موضع الكاف نصب وتأويله رفع، كما أنك إذا قلت للرجل: دونك زيداً، وجدت الكاف في اللفظ خفضاً وفي المعنى رفعاً، لأنها مأمورة».

أما مذهبه النَّحوي فهو اتباع المنهج البصري، وذلك يتبيَّن بوضوح وإن لم يصرِّح به، وقد تبيَّن ذلك فيما تقدم سالفاً من استعمال المصطلحات البصرية دون الكوفيَّة، ومن إعرابه المبنيِّ على ما يراه البصريون، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] يقول: «أي: بجانب المكان الغربي»[٦]، فهو يؤول هذه الإضافة على الطريقة البصريَّة على حين يجيز الكوفيون إضافة الصفة إلى موصوفها من غير تأويل[٧].

---

(١) «مشكل إعراب القرآن» ص٢٥١-٢٥٢.

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (١: ٣٢١).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٤٩٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٦: ٤٢٣).

(٥) «معاني القرآن» (١: ٣٣٣).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٤٩٥).

(٧) «الإنصاف» (٢: ٤٣٦). وينظر: «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» لعبد العال سالم مكرم ص١٢٥.

المبحث الثالث

الصّرف

عَرَض الشيخ في تفسيره لعدد من الموضوعات والمسائل الصرفيَّة، لتوضيح معنى الآي، وكشف المراد منها. وكان في ذلك يسلك سبيل الإيجاز، ومن هذه المسائل التي عرض لها:

١) المصدر واسم المصدر:

أ- **المصدر**: وهو حَدَثٌ بلا زمن، ويقول ابن السرَّاج[١] (ت٣١٦هـ): «المصدر اسم كسائر الأسماء إلا أنه معنى غير شخص» يريد أنه حدث وليس اسم ذات، ويرى البصريون أنه أصل المشتقات[٢] على حين يرى الكوفيون أن الفعل هو الأصل[٣].

وقف الشيخ رشيد عند عدد من المصادر ذاكراً فوائدها المعنويَّة، وربما يحللها ويُبيِّن زنتها، كما في قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، إذ يقول: «وقِيَم مصدر قام بمعنى اعتدل وأصله قِوَم، على وزن كِبَر وصِغَر، فقُلبت واوه ياءً»[٤]. وهذا مختصر ما

---

(١) «الأصول في النحو» ص١٦٢.

(٢) «الإنصاف» لأبي البركات بن الأنباري (١: ٢٣٥). وينظر: «المقتصد في شرح الإيضاح» لعبد القاهر الجرجاني (١: ٥٥٣).

(٣) «الإنصاف» (١: ٢٣٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩٩).

ذكره أبو إسحاق الزجَّاج[١] (ت٣١١هـ) إذ قال: «القِيَمُ مصدر كالصِّغَر والكِبَر، إلا أنه لم يقل قِوَم مثل قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] لأن قولك قام قِيَاماً، كأنه على قُوَم أو قَوِم، فلما اعتلّ فصار قام اعتل قِيَم».

ويشير إلى المصدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ [الزخرف: ٢٦] فيقول: «براء مصدر نُعِتَ به مُبالَغةً»[٢]. وفي «لسان العرب»[٣]: «تبرأت من كذا وأنا براء منه وخلاء لا يثنى ولا يجمع، لأنه مصدر في الأصل مثل سمع سماعاً. وحكى عن الأزهري أنَّ العرب تقول: نحن منك البراء والخلاء، والواحد والاثنان والجمع من المذكر والمؤنث يقال: براء لأنه مصدر».

ويعدّ (القدم) في قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] مصدراً بمعنى السابقة، واستعمل هنا وصفاً للمبالغة، يقول: «ويجوز أن يراد بالقدم: قَدَمَ الرِجْل، ذكر به السبق في العمل، أو القدوم على الله من ذكر السبب وإرادة المسبِّب، كإطلاق اليد على النعمة»[٤]. وأشار ابن منظور[٥] إلى أنَّ الأخفش وحده ذهب إلى أن قدم هو التقديم من بين الذين نقل عنهم، أما البقية فعلى أن القَدَم مصدر قَدِمَ، والتقديم مصدر تَقَدَّمَ. وعدّها الزمخشري من المجاز فقال: «ومن المجاز.. ولفلان قَدَمٌ في هذا الأمر: سابقة وتَقَدُّمُ. وله قَدَمُ صِدْقٍ، وَوَضَعَ قَدَمَهُ في العمل أَخَذَ مِنْهُ...»[٦].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (١: ٣٤٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٠).

(٣) مادة (برأ).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٥٠).

(٥) «لسان العرب» (قدم).

(٦) «أساس البلاغة» ص٤٩٦.

ب ـ **اسم المصدر**: وأشار الشيخ إلى اسم المصدر (سُخْرِيّاً) في قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] قال: «وهذا اسم مصدر من التَّسخير»[١]. والتسخير مصدر سَخَّرَ أي: قهر وذلل[٢] فلمَّا جاء مصدر سخر (سُخْرِيّاً) وليس (تسخيراً)، سُمّي اسم المصدر، كما يقال: كلَّمته كلاماً، بدلاً من تكليماً. وأما المراد بقوله (سخرياً) فقد حكى الطوسي أنه «تسخيرُ بعض العباد لبعض بإحواجهم إليهم، لما في ذلك من الأحوال التي تدعو إلى طلب الرفعة وارتباط النعمة»[٣]. وقال الزمخشري: «فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج، وموالي وخدماً ليعرف بعضُهم بعضاً في حوائجهم... ولِيُسخِّروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا...»[٤].

وربما كانت فائدة اسم المصدر هنا الجمع بين التسخير والسُّخرية[٥]، واللام للعاقبة.

ويشير الشيخ كذلك إلى اسم المصدر في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فيبيِّن قيمته المعنويَّة وهي التوكيد «والنبات اسم مصدر لأنبتكم مؤكد له»[٦]. ومعنى هذا أن (نباتاً) ناب عن المصدر (إنباتاً) لكونه اسماً له، إذ إنَّ مصدر (أفعل) (إفعال) وليس (فعالاً) وإنما (فَعَّال) اسم له.

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٢).

(٢) «اللسان» (٢: ١١٣-١١٤) م (سخر).

(٣) «التبيان في تفسير القرآن» (٩: ١٩٦).

(٤) «الكشاف» (٤: ٢٤٨).

(٥) وينظر: «التعبير القرآني» لفاضل السامرائي ص٢٤.

(٦) «أولى ما قيل» (٨: ١٢).

٢) اختلاف المعنى باختلاف البنية:

يبيِّن الشيخ في مواضع علاقة بنية اللفظة بمعناها، وذلك بالنظر لما في الصيغة من الدلالة على ذلك كصيغة (فَعَّلَ) مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] التي دلت على تكثير الحدث وتطاوله آناً بعد آن لا حصوله دفعة واحدة، إذ يذكر أنه سبحانه: «قال: (نَـزَّلْنا) ولم يقل (أنْـزَلْنا)، لأنَّ التنزيل يدل على التدرُّج الذي عليه القرآن»[١]. ولم تشر كتب الصرف إلى هذا الفرق بين نَـزَّلَ وأنْـزَلَ، وأشار إليه الزمخشري[٢] من قبل.

ويرى الشيخ رشيد في (فعيل) دلالة على الكثرة، وإن كان لفظها مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، إذ يقول: «وتجيء فعيل مفرداً يُراد به الكثرة»[٣]. فهي اسم فاعل على صيغة فعيل الدالة على الكثرة والمبالغة[٤]، كما يأتي هذا البناء للدلالة على الثبوت[٥]، أي دوام النصرة. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، إذ قال سبحانه: (تَـأَذَّنَ) ولم يقل (أَذِنَ) يقول الشيخ: «وتأذن: هو فعل مرادف لأذن بمعنى أعلم، وهما في الاشتقاق مثل تَوَعَّدَ وأَوْعَدَ، وهو أبلغ من (أذن) لما في (تَفَعَّلَ) من معنى المبالغة، أي: قد بالغ في إعلامكم»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٥).

(٢) «الكشاف» (١: ٩٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٣٤).

(٤) «شذا العرف» للحملاوي ص٧٤.

(٥) «معاني الأبنية» لفاضل السامرائي ص٧٤، جامعة الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣٨٩).

كما يلمح ذلك في استعمال (فاعل) بدلاً من (فعل)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، فقد قال سبحانه (يدافع) ولم يقل (يدفع) فعلله الشيخ بأنه «للمبالغة للدلالة على تكرار الدفع كما في الممارسة»[١].

٣) خروج الصِّيغ عن أصلها:

لكل معنى صيغة وُضِعَت له، كاسم الفاعل للدلالة على اسم الفاعل، واسم المفعول واسم التفضيل ونحوها، ولكنها كثيراً ما تخرج عن هذه الصيغ إلى صيغ أخرى.

وقد نبَّه الشيخ في مواطن عليها مشيراً إلى فروقها المعنويَّـة. فقد يأتي المصدر بصيغة اسم الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] إذ المراد فيما يرى: خيانة منهم، يقول: «والعرب تعبِّر بصيغة الفاعل عن المصدر أحياناً، فاستعملت القائلة والخاطئة بمعنى الخطيئـة، والمعنى: أنك لا تزال تطَّلع على هؤلاء اليهود المجاورين لك على خيانة بعد خيانة»[٢]، وكان ابن منظور[٣] قد حمل (خائنة) هذا الـمحمل في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] إذ يُبيِّـن أنه سبحانه «أراد يعلم خيانةَ الأعين، فأخرج المصدر على فاعله كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، أي: لغواً... وكل ذلك من كلام العرب... والخائنة بمعنى الخيانة، وهي من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة العاقبة».

والتفت الشيخ إلى: ورود (فعيل) بمعنى (فاعل) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ [يس: ٤٣] فقال: «لا مغيث لهم، هذا على اعتبار أنه وصف على وزن فعيل بمعنى

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٣).

(٣) «اللسان» (١: ٩٤٣)، عمود (٣) مادة (خون). وذلك فيما نقله عن غيره من اللغويين.

فاعل كسخي وعدي، مشتق من قولهم: صرخ القوم بمعنى أغاثهم وأجاب صريخهم». ثم أجاز أن يكون مصدراً بمعنى الصراخ والصياح، فيكون المعنى أنه لا يتمكنون من الصريخ والصياح لتعجيل الغرق عليهم»[١].

والأول هو الوجه، وهو الذي يدلُّ عليه التنزيل في مواضيع كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: ١٨]. ويؤيِّد ذلك الجار والمجرور بعده (له).

وقد يخرج اسم التفضيل عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] إذ يرى الشيخ أن: «اسم التفضيل ليس على بابه، ولكن أتي به للمبالغة في الخسران»[٢].

ولاسم التفضيل باعتبار المعنى ثلاث حالات منها: أن يراد به ثبوت الوصف لمحله من غير نظر إلى التفضيل كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان[٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] لأن كل شيء هيِّن عليه سبحانه، لا تفاضلَ بين شيء وآخر في السهولة عليه. ومنه قول الشاعر[٤]:

إنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيتاً دَعائِمُه أعَزُّ وَأطْوَلُ[٥]

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤)، ومثله (٥: ٤٥).

(٣) «شذا العرف» للحملاوي ص٨١.

(٤) نسبه المبرد في «الكامل» (٢: ٢٢٧) للفرزدق. (مجد).

(٥) «دقائق التصريف» للقاسم بن محمد بن سعيد المؤدب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٧م. وينظر: «دقائق العربية» لأمين آل ناصر الدين ص٣٠، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

وقد يراد باسم الفاعل معنى اسم المفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-٩]. فقد التفت الشيخ إلى أنها: «سميت هاوية مع أنها يُهوى بها، كما سُمِّيت العيشة راضية مع أنها يرضى بها». ثم يبيِّن أن: «مثل هذا عند البيانيين يسمَّى المجاز العقلي من إعطاء صفة الفاعل للمفعول مبالغة للوصف»[(١)].

ومثله بيت الحطيئة:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... واقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

قالوا: المطعوم، المكسوّ.

٤) إيراد النظير:

وفي سبيل توضيح معنى المفردة، والاستدلال على اشتقاقها يورد نظائرها من المفردات التي تُماثلها في الوزن الصَّرفي كلفظة (الطغوى) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] إذ يقول: «والطغوى من الطغيان، كالدعوى من الدعاء، والسلوى من السلوان»[(٢)].

و(طوبى) من الطيِّب كبُشْرى وزُلْفى، والجملة لإفادة المبالغة في نَيْل الطيِّبات وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩][(٣)].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٣٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٦٩).

وللتصغير فوائد لا يفوت الشيخ الإشارة إليها كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ [يوسف: ٥] فقد بيَّن أنّ تصغير ابن هنا أريد به العطف عليه والتَّحبُّب إليه والإشفاق عليه[١].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٧٦).

الفصل السادس
البلاغة

الفصل السادس
البلاغة

أوْلى الشيخُ رشيد البلاغةَ في تفسيره عنايةً فائقة، فوقف عند كثير من الظواهر والفنون البلاغية مبيِّناً صُوَرها وأسرارها مستعيناً بما وصل إليه البلاغيون من علوم البلاغة الكاشفة عن أسرار جمال القرآن وإعجازه، وإن كانت لم تبلغ إدراك أو استيعاب كثير من أسرار هذا الكتاب الربّاني وفنونه وخصائصه[1].

❊ ❊ ❊

(١) قلت: ألحقت بهذا المبحث، رسالة الدكتور خالد حمودي العزاوي: «البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل لآيات التنزيل»، لأنه استفاد ممَّا كتبه الأخ الدكتور خالد الحماش في مبحث البلاغة، وأضاف إضافات كثيرة، وأكثر من الاستشهادات والمناقشات. وتنظر رسالة «البيان القرآني» ملحقة في آخر هذا المجلد. (مجد).

مدخل

موقفه من إعجاز القرآن:

المراد بإعجاز القرآن: ضعف القدرة الإنسانيَّة في محاولة المعجزة على شدَّة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه[١].

لم يفرد الشيخ رشيد في مقدِّمته أو في تفسيره الحديث عن إعجاز القرآن، وإنما جاءت آراؤه عن الإعجاز بين ثنايا المقدمة والتفسير.

فالإعجاز عنده عامٌّ شامل لا يختصُّ بجانب دون آخر، أو شيء دون شيء، بل يشمل النواحي التعبيريّة والفكريّة والاجتماعيّة والتربويّة، وأنباء ماضيه ومستقبله، وهو في هذه الشمولية على رأي غير واحد من قُدامى العلماء من أشاعرة وغيرهم، كأبي بكر الباقلاني[٢] (ت٤٠٣هـ) وأبي جعفر الطوسي[٣].

يقول الشيخ رشيد: «القرآن معجز بتراكيبه وأساليبه، وأنواع صور تعبيره وبياناته، ورفعة علومه وآدابه، وجلالة حِكَمِه وأحكامه، وسَعَة معانيه ومدلولاته، ودقة إشارته وتلميحاته، وسَدَاد تربيته وتوجيهاته، وصحَّة سياساته واجتماعياته. تلك التي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها لا يقدرون، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[٤].

---

(١) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» للرافعي ص١٣٩، دار الكتاب العربي.

(٢) «إعجاز القرآن» ص٦١-٦٣ على هامش «الإتقان في علوم القرآن».

(٣) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٢٥.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٤٥).

والقرآن «بما فيه من أنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل... ومن إعجازه أنه تلطف مع النفس الإنسانية تارة بالأداء العقلي الرقيق، وتارة بالأداء البياني المقنع، وتارة بالبرهان الملزم»[١].

وتعليقاً على قول يحكيه عن السكَّاكي (ت٦٢٦هـ) من «أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه» يقول: «ولا يُدرِكُ إعجازه إدراكاً صحيحاً إلا الذين لهم وقوفٌ تامٌّ على خصائص آداب اللغة، ثم يمارسون القرآن جيداً حتى يفهموه، وبنسبة فهمهم له تظهر لهم درجة إعجازه، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات الإفهام، إذ لا يدرك الكمال إلا بالكمال، والقرآن نسيج وحده في ديباجته ونظمه وأسلوبه...»[٢]. وهو كلامٌ يدل على وعيٍ وفهمٍ حَسَن لقضية الإعجاز. ثم يقول: «ولو أن أحداً حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام البلغاء أو النبيين لاضطرب نظامه. ونادى الكلام بأنه داخل، وظهر كالخرزة التافهة بين الجواهر، ولنفاه القرآن بنفسه عن نفسه كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد، هذا من جهة لفظه فكيف أمر المعنى وما حواه من علوم وتثقيف إنساني عظيم؟»[٣].

ويُعلل تَحدِّي القرآن العرب بعشر سُور في موضع وبسورة واحدة في موضع آخر، فيقول: «كان التحدِّي بعشر سور لأن التحدي باعتبار ما احتوى عليه لا يتم إلا بمثل هذا المقدار، وأما ما جاء من التحدي بسورة واحدة، فهي جملة آيات تخصُّ موضوعاً واحداً»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٧)، وينظر: (١: ٥٠٧).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٣).

(٣) م.ن (٤: ٤١٩) حاشية.

(٤) م.ن (٤: ٢١٨)، ويُنظر: (١: ٦٣٠).

وفي المقدمة الثالثة يضيّق الشيخ الدائرة قليلاً فيخص إعجاز القرآن بأسلوبه وتراكيبه واختيار كلماته وبلاغته العالية وصياغته العجيبة، التي لا تمتُّ إلى أساليب البشر المعهودة مهما بلغت من الرقي وعُلو الدرجة، فلو اجتمع كلُّ البُلَغاء على أن يأتوا بتركيب واحد على غرار تلك التراكيب لعجزوا بكليَّتهم عَجْزاً كبيراً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١].

ومقولة الشيخ هذه في الإعجاز لا تناقض ما تقدَّم أو هي من مصاديق الإعجاز ودلائله، وهي تلائم كثيراً من آراء العلماء القدماء والـمُحْدَثين الذين جعلوا بلاغة القرآن[٢]، ونظمه[٣]، وأسلوبه[٤] مدار الإعجاز وموطن التحدِّي.

وجوه البلاغة:

عمد الشيخ رشيد في تفسيره إلى ترجمة ما قاله عن إعجاز القرآن، من رفعة بلاغته وسموِّها وتفرّد أسلوبه، وخصائصه العالية.

بيّن ابتداءً أنه «كثيراً ما تتداعى لديه معانٍ لا تُحصى وأغراض لا تُستقصى، ولكنه يرى نفسه عاجزاً تجاه تصوير ذلك المعنى الدقيق وبيانه»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٦٣).

(٢) ينظر: «النكت في إعجاز القرآن» للرماني (ت٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٧٥. وينظر: «بيان إعجاز القرآن» للخطابي (ت٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٤.

(٣) ينظر: الباقلاني في «إعجاز القرآن» (١: ٦٣)، على هامش كتاب «الإتقان في علوم القرآن». وينظر: عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز» ص٧٨.

(٤) «إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعي ص٢٠٣-٢٠٤.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

ويفهم من كلامه أنَّ ما جاء في علوم البلاغة لا يفي في حصر أساليب القرآن وخصائصه، ومع ذلك فقد اعتمد الشيخ علوم البلاغة بفروعها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع للكشف عن أسرار القرآن وجماله، ولم يُسمّ هذه العلوم وإنما كان يصف الحالة بما ينبئ عن نوعها وصورتها، وقد يشير إلى مواطن السرِّ والجمال والإعجاز بالصورة التي تبدو له موائمةً للكشف عن رَوْعة بلاغة القرآن.

ويبدو من تعابيره البلاغية ورَصْده لظواهر البلاغة وفنونها المختلفة استفادته من معرفته الواسعة بعلم أصول الفقه الذي صنف فيه كتاباً، إذ لا شكَّ أنَّ هذا العلم يعرض لألوان من وجوه البلاغة القرآنية، وقد أتى بثمرات قيِّمة في هذا المضمار، أفاد منها الدارسون، وإن لم تنل كفاية العناية بها، لأن الدرس البلاغي انصبَّ على كتب البلاغيين والمؤلفين في الإعجاز.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول
علم المعاني

١) النظم:

وردت في تفسير الشيخ رشيد عدة إشارات إلى (النظم) ويعني به تركيب الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٤]، إذ يقول: «وهذا النظم والتركيب من أعلى تعابير البيان على مثل هذا الشعور والحنان، فهم يستبعدون عدم إيمانهم مع وضوح الحق وتبيُّن الصدق وتحقق الفلاح، ويظهرون تحقيق إيمانهم وتقريره بإنكار انتفائه، مع قيام الداعي الذي هو الطمع في الانخراط مع الصَّالحين»[١].

والذي أراده الشيخ هنا من مصطلح (النَّظم)، لا يبعد كثيراً عمَّا أراده عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ)، في نظريته النظم التي اشتهر بها وهي: اختيار الوجه النحوي المناسب لما يراد من معنى[٢]. هذا ما يفهم من كلام الجرجاني فقد تناول المبتدأ والخبر والفصل والوصل، والاستفهام وأغراضه، والتقديم والتأخير، والحذف. وكلُّها من مباحث علم المعاني، التي كانت في الأصل من مباحث النحو، فضُمَّت إلى البلاغة، وهذا دليل على الوشيجة القوية بين النحو والبلاغة[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٩).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٦٤-٦٥.

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» لأحمد مطلوب وحسن البصير ص٨٩-٩٤.

ونجد الشيخ في بعض المواضع يُعِمُّ مفهوم النَّظم ليشمل علم البديع، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، يقول: «ونَظْم الآية من أعلى درجات البلاغة ولاسيما توقيع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ بين الشهادتين المتقابلتين»[١]. وهذا ما يسمَّى في علم البديع اعتراض ومقابلة.

٢) الخبر:

الخبر البلاغي ما يحتمل الصِّدق والكذب، ولكنه يَرِدُ في ضروب الكلام أشكالاً متعدِّدة تتعلق بمناسبة الكلام ووقعه وتأثيره، وقد أفاض الجرجاني في تبيين الفروق في كتابه «دلائل الإعجاز»[٢].

نبّه الشيخ في تفسيره على أمثال هذه الصور، فالتأكيد في الخبر ودرجاته لأغراض معنوية بلاغية، مما يرد في الكتاب العزيز، كما يرد في الكلام. وقد وضع الشيخ أيدينا على لمع منه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] إذ يقول: «ومن بلاغة القرآن: تأكيد الجملة الثانية باللام دون الأولى لأنها في العقاب»[٣].

وقد يخرج الخبر عن معناه الأصلي إلى معان ثوانٍ يدل عليها السياق والحال، كالدعاء في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، إذ يذكر أنَّ «هذه الجملة للخبر والدعاء»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٩١).

(٢) ينظر: «التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني» للدكتور عبد الفتاح لاشين ص٩٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٠٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٤٤).

وقد يكون الخبر للتقبيح والتنديد كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] إذ بيَّن أنَّ «﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للمبالغة في تقبيح شأنهم»[١] أي: شأن المشركين.

ولاحظ الشيخ أنه قد يُراد بالخبر الأمر[٢] كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوَءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكأنَّه سبحانه قال: تَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِكُنَّ.

٣) النفي:

ووقف الشيخ رشيد عند النفي وأساليبه في القرآن عدة وقفات، مبيِّناً صُورَه وأنواعه وأغراضه، على نحو ما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، إذ قال: «وهذا النوع من النفي يقال له نفي الشأن، وهو أبلغ صور النفي وأدلُّهُ على بعد الإمكان»[٣]. وكذا في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] إذ رأى أنَّ «نفي الشأن هذا بمعنى النهي، وهو أبلغ منه»[٤].

وقد يكون النفي للوعيد[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

٤) الإنشاء:

وقف الشيخ رشيد عند الظواهر البلاغيَّة المتعلقة بالإنشاء، وما تحتمله من معان

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٣٢٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٢١٢)، وهذا على قراءةِ غيرِ حفص.

ووجوه في النصِّ القرآني، والإنشاء هو الفن المقابل للخبر، من حيث إنه لا يحتمل الصدق والكذب بخلاف الخبر، فمن ذلك:

٥) الاستفهام:

الذي أطلعنا فيه على كثير من المعاني المضافة إلى الاستفهام، فكان الاستفهام يخرج عن معناه الأصلي في كثير من الأحيان إلى معانٍ أخرى تفهم في ضوء النص والسياق[١].

فالاستفهام قد يَرد للنهي وهو يبلغ النهاية في ذلك في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

يقول الشيخ: «وهذه الصيغة من أبلغ صيغ النَّهي، لأنَّ فيها إيذاناً بأنَّ أمر المنع والتحذير قد بلغ الغاية، وأنَّ الأعذار قد انقطعت»[٢].

وقد يكون الاستفهام للتقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨] إذ هو عنده «تقرير لثوائهم فيها بصورة ما هو معروف بداهة»[٣].

وكان الجرجاني قد نبَّه على مثل هذا الاستفهام التقريري في قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢][٤]. فكأنهم قالوا: أنت فعلته.

---

(١) «دلائل الإعجاز» للجرجاني ص٨٨. «مفتاح العلوم» للسكاكي ص٥٣٧.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٥٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥١).

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٨٨-٨٩.

وربما كان الاستفهام استرحامياً، كما في قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥][(١)].

وقد يكون للتوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠][(٢)].

وقد يكون مشبعاً بالخوف والندم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢][(٣)]. أو مراداً به التبكيت[(٤)]، أو التوبيخ والاحتجاج[(٥)]، أو الإنكار والتهويل[(٦)]، أو الإنكار والتهديد[(٧)]، أو التهكم والتنديم[(٨)].

وقد يكون استفهاماً استشهادياً كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥][(٩)].

٦) التعريف والتنكير:

وللتعريف والتنكير فوائد بلاغية نبَّه الشيخ على طائفة منها بإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فقد بيَّن أنَّ «التنكير

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨١).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٤٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٤)، (٣: ٣٣٣)، (٤: ١٦٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٧)، (٢: ١٣٢)، (٣: ٥٩).

(٦) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٨).

(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣١)، (٣: ١٤٧).

(٨) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٣).

(٩) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٩).

للتحقير أي: وإن كانت في بؤس وشقاء»[١]. ورأى تنكير (العذاب) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] للتعظيم والتهويل، وأجاز أن تكون الإشارة إلى أنه نوع من العذاب مجهول لهم كمّاً وكيفاً[٢].

وكان الجرجاني قد وقف عند الآية الأولى، فقال[٣] فيها: «إذا أنت راجعت نفسك وأذكَيْت حسَّك، وجدت لهذا التنكير إن قيل: (على حياة)، ولم يقل: (على الحياة) حُسناً وروعةً ولطفَ موقعٍ، لا يُقادَرُ قدره. وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافها». ثم بيَّن أن سرَّ تنكيرها: «أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها... فكأنه قيل: ولتجدنَّهم أحرصَ الناس ـ ولو عاشوا ما عاشوا ـ على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه، حياة في الذي يستقبل».

وما ذهب إليه الشيخ رشيد أسرع تبادراً إلى الذِّهن وأدَلُّ على التنكير في مثل هذه الحال، وهذا السياق الذي ندّد بالمشركين. إلا أنَّ ما أراده الجرجاني لا يخلو من عمق، وكلاهما له وجه.

٧) التقديم والتأخير:

وصفه الجرجاني[٤] بأنه: «باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة...».

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٣١).

(٣) «دلائل الإعجاز» ص٢٢٣. وينظر: «التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر» ص١٦٥.

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٨٣.

ومن هنا عُنيَ به الشيخ رشيد، فوقف مراراً معلِّلاً إيَّاه بعلل مختلفة، مستقاة من روح النص وجوِّه، أو سياق الآيات لإفادة معنى مقصود.

فهو يلمح تقديم الجار والمجرور (فبذلك) في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ويعلِّله بأنه «لإفادة القصر»[١]. فكأنه قصر استحقاق الفرح بنَيْل فضل الله ورحمته وما عداه لا يستحقُّ ذلك الفرح.

وهو يلمح التقديم لإظهار شدة الشناعة[٢] فيما فعلوا إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وللزيادة في مدلول الجملة، قدَّم ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠][٣]. ويبدو أن فائدة القصر أيضاً في هذا التقديم يراد بها لا ترهبوا غيري، فالتقديم لغرض التخصيص، كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وترد في القرآن عبارتا السماء والأرض متعاطفتين ومترادفتين في السياق، فتتقدَّم السماء أو العكس، فينبهُ الشيخ على ذلك في ضوء السياق الدال على القصد من هذا التقديم أو التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] إذ يقول: «وقد قدَّم ذكر الأرض هنا، لأنَّ الكلام مع أهلها، وأخّره في آية (سبأ) المماثِلة لها وهي: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، وقدَّم السماء لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٨٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥١).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٨٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٠١).

وكان ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) يرى أن تقديم الأرض على السماء في آية يونس بناءاً على الرتبة؛ بتقديم ما هو أقرب إلى المخاطبين[١].

٨) الفصل والوصل:

وهو فنٌّ من القول دقيق[٢]، والأصل فيه أن يكون في الجمل[٣].

وقد نبَّه الشيخ على مواطن تتعلق بهذا الموضوع، وهو العطف أو عدمه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] إذ بيّن أن جملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ ليست معطوفة على ما قبلها، بل هي مستأنفة عنده، أي: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم، ماداموا على حالتهم ودمتم على حالتكم[٤] وقد التفت الطوسي من قبل إلى هذا الأسلوب فقال: «﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ رفع على الاستئناف، ولم يعطف ليجري الثاني على مثال الأول، لأن سبب التولية القتال، وليس كذلك منع النصر لأن سببه الكفر»[٥].

وجاءت الآية التي تليها بغير عطف، فقال فيها الشيخ رشيد: «ثم سجَّل عليهم الجزاء الدنيوي وسَبَكه على التعليل لما قبله، فقال[٦]: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢]. فكأنه هنا يبيّن سبب ترك العطف وهو التعليل.

---

(١) «ابن القيم وحسّه البلاغي في القرآن الكريم» لعبد الفتاح لاشين ص١٠٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢م.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص١٨٨.

(٣) «مفتاح العلوم» ص٤٥٩.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٢٦).

(٥) «التبيان» (٢: ٥٥٩). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٤٠.

(٦) «أولى ما قيل» (٢: ٥٢٦-٥٢٧).

وقد نصَّ الجرجاني على مَوْطن الوصل أو ترك العطف، ومنه أن يكون حال الجملة مع التي قبلها حال التأكيد مع المؤكد[١]. والتعليل ضرب من التأكيد، فترك فيه العطف.

وقد صرّح به في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] فقال: «وهذه الفاصلة تعليل للدعاء»[٢].

ومن أنواع الفصل التي أشار إليها الشيخ وعلَّلها تعليلاً بلاغياً معنوياً، الفصل الذي يقع معترضاً بين كلامين في سياق واحد، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٧-٢٨] إذ التفت إلى الفصل باسم الإشارة (كذلك)، فقال: «ثم فصل الكلام بهذا الفاصل للمبالغة في التَّحسيس، أي: كذلك كان أمر فرعون وقومه، أو كذلك أفعل بمن عارضني وعصاني»[٣].

٩) في فواصل الآي:

الفاصلة كلمة تقع في آخر الآية[٤]، فهي في القرآن كالقافية في الشعر، مع الفارق بينهما، من حيث أن الفواصل لا تخضع للضرورات، وقد فرَّق أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) بين الفواصل ورؤوس الآي[٥]. فالفواصل عنده يكنَّ رؤوس آي

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١٨٧.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٤).

(٤) «الإتقان» (٢: ١٢٤).

(٥) «المكتفى في الوقف والابتدا» ص١٠٧، دراسة وتحقيق: جايد زيدان خلف، مطبعة وزارة الأوقاف ١٩٨٣. وينظر: «الفاصلة في القرآن» لمحمد الحسناوي ص٢٢-٢٧، دار الأصيل، حلب.

وكل رأس آية فاصلة، لفصلها بين الآية والتي تليها، فالذي نعنيه هُنا بفواصل الآي، هو: رؤوسُها التي تنتهي بها.

وقد عُني الشيخ فيها وسماها: فواصل، ووقف عند كثير منها يبين أسرارها وعلاقتها المعنوية بالآية التي سبقتها، وهو لا يغفل عن قيمتها الدلالية والأسلوبية، بل يعدّها من خصائص القرآن المطَّردة[١].

وقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فبين العلاقة المعنوية بين ما وَرَد في الآية ونهايتها، فأجاز «أن تكون هذه الفاصلة احتراساً عمَّا يرد من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم يكن عن عجز قدرة الله لنصرهم، فهو على كلِّ شيء قدير، ولكنها جاءت على سنن الله الكونيَّة»[٢]. وهذه الالتفاتة من الشيخ في غاية التوفيق.

وتتكرَّر في القرآن عند رؤوس الآيات عبارات: (أفلا تعقلون)، و(لأولي الألباب)، (لعلكم تعقلون) فيعلق الشيخ في تفسيره عليها منبِّهاً على العلاقة الوثيقة بينها وبين المعنى المراد في الآية كما في عبارة: (أفلا تعقلون) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] إذ نراه يقول: «وفي هذه الفاصلة من لذعة التعنيف والتخجيل بقدر ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل»[٣].

وقد نبَّه الشيخ في مقدِّمته لتفسيره على عدد من فوائد الفواصل ومنها: أن يختم

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥١٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧١).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٦٢).

كل حكم أو عدة أحكام بذكر الله حَمْلاً على التمسك بها وتحذيراً وإنذاراً، أو يختم الآية بفاصلة تؤيِّد مضمون ما قبلها، فتكون كالبرهان والتقرير، وقد تأتي للحَمْل على المُقرَّرات السابقة، وقد يطوي معاني ومقاصد يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتذكير بأسمائه الحسنى، وقد يأتي بالجملة يُنهي بها السياق ويُمهِّد للسياق اللاحق معاً على طريقة التأييد[١].

ولم يقف الشيخ عند الجانب الموسيقي لهذه الفواصل ـ وهو جانب مهمٌّ في القرآن ولا يمكن تجاهله، وقد التفت إليه القدامى[٢] والمُحْدَثون[٣] ـ وإنما اكتفى الشيخ بما نقله عن محمد عبده في نقده على المفسِّر جلال الدين السيوطي قوله: إن تقديم (الرأفة) ـ وهو الأبلغ ـ على الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] إنما كان لأجل الفاصلة[٤].

ويبدو أنَّ هذا الحذر من مثل هذه الأقوال دفعاً لتوهُّم الشبه بالضرورة الشعرية التي يمليها الوزن والقافية، وتنزيه القرآن عنها.

ويبدو أن انشغال محمد عبده والشيخ رشيد الخطيب بالمعاني جعلهما يهملان الجانب الموسيقيَّ المتعلِّقَ بالجرس والإيقاع في هذه الفواصل.

١٠) الإيجاز والإطناب:

وقف الشيخ رشيد عند ظاهرتي الإيجاز والإطناب في القرآن الكريم، مبيِّناً قيمتهما

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥١٤-٥١٥).

(٢) ينظر: «الإتقان» (٢: ١٣٤). و«الفاصلة في القرآن» لمحمد الحسناوي ص٤٥.

(٣) أمثال مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب، وأحمد أحمد بدوي، وإبراهيم أنيس، وعبد الوهاب حمودة، وعلي الجندي. ينظر: «الفاصلة في القرآن» ص٧١.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠١).

البلاغية، إذ عدَّهما من خصائص القرآن وأساليبه المعجزة، في حديثه عنهما في مقدمته كما أشار إلى مواضعهما في الآي عندما فسرها.

أ ـ **الإيجاز**: وهو نوعان: إيجاز قِصَر، وإيجاز حذف، أما إيجاز القِصَر فلا حذف فيه مع أنَّ معناه كثير يزيد على لفظه[١]. والإيجاز من أهم خصائص العربية، حتى أن أكثم ابن صيفي يرى أن البلاغة هي الإيجاز، وكان جعفر بن يحيى يقول لكُتَّابه: «إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»[٢].

وقد أوْلى الشيخ رشيد إيجاز الحذف أهمية كبيرة من بين أساليب القرآن، وعدَّد كثيراً من أنواعه، وحاول أن يضع يده على سرِّه وجماله مبيناً دور السياق في توضيحه، والسياقُ من أهمِّ الأدلة على المحذوف[٣].

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ...﴾ [البقرة: ١٣٥] يقول: «وفي هذا الكلام إيجاز القرآن وسبكه الخاص، والمراد: قالت اليهود: كونوا يهوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وإنما يوجز القرآن هذا الإيجاز اعتماداً على ظهور المراد بدلالة الاقتضاء ومعونة السياق، وذلك من البلاغة العالية»[٤].

وأشار إلى عدد من أنواع الحذف وما يؤدّيه ـ فضلاً عن تقليل الألفاظ بالإيجاز ـ من فائدة دلالية كحذف جواب (لو) الذي يَرِدُ في التنزيل في عدَّة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا ...﴾ [الأنعام: ٢٧] إذ قال: «وجواب

---

(١) «الإيضاح» للخطيب القزويني (١: ٢٨٧)، دار الكتاب اللبناني، ط٥، ١٩٨٣م.

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ (١: ٨٦)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨م. وكتاب «الصناعتين» ص١٧٣. وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص١٧٩.

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» ص١٨٥.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٦).

(لو) محذوف للمبالغة في التهويل، والتقدير: لرأيتَ هَوْلاً عظيماً ولرأيتهم في أشدِّ الجزع»[١].

ومن أنواع الحذف ما أطلق عليه اسم (**الاقتضاب**)، وهو أن يقتصر في كل ما ذكر فيه اقتضاباً عن البقية التي ذكرت في موطن آخر قد ورد فيه الموضوع نفسه. فمن ذلك ما يجري في قصص الأنبياء[٢].

ومثله: (**الاكتفاء**) وقد عرّفه السيوطي بقوله: «هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة»[٣].

ومن أنواعه عند الشيخ ما ينهجه القرآن في الوصف والبيان من الاقتصار على ذكر ما يظهر للعيان، أو ما يقرب إلى الأذهان، فيكتفي في وصف الجنان بقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، مع أن أوصافها لا تتناهى.

وفي وصف المُكذِّبين بيوم الدين بقوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣][٤].

ومن الاكتفاء ما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] إذ يقول: «ذكر التنبيء وأراد الجزاء، من ذِكْر الشيء وإرادة نتيجته، ثم ذكر جزاء المؤمنين مكتفياً به عن جزاء المعلوم من المقابلة بدلالة مفهوم المخالفة على نهج إيجاز القرآن[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٩)، وينظر: (٧: ٩٩)، (٦: ١٧٨).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٧).

(٣) «الإتقان» (٢: ٧٩).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٥٢٣)، وينظر: (٥: ٥٠٥)، (٣: ٢٩٢)، (٨: ٢٤٢).

وثَمَّ ضَرْبٌ من الإيجاز الجُملي أو التركيبي وهو (**الاحتباك**) يقول عنه السيوطي (ت٩١١هـ): «هو من ألطف الأنواع وأبدعِها. وقلَّ من تنبَّه إليه أو نبه عليه من أهل فن البلاغة... وذكره الزركشي ولم يسمه هذا الاسم، بل سمَّاه: الحذف التقابلي، وأفرده في التصنيف برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ).. وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول»[١].

ومن أمثلتـه ما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦] فقد أشار إليه بقوله: «ومن مباحث اللفظ (الاحتباك)، فقد حذف من صدر الجملة كلمة (مظلماً)، اعتماداً على ما يقابلها في عجزها، وحذفت جملة (لِتبْتَغُوْا مِن فَضْلِهِ) من عَجْز الجملة اعتماداً على ما يقابلها في صدرها»[٢].

ومن روائـع الاحتـباك ما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، يقول الشيخ: «وفيه لـفٌّ واحتـباك على نـهج القرآن... وإنما أتى بهذا اللون من النظم، فجمع بين الليل والنهار وأحاطهمـا بالمنام للابتغاء، ولم يقرن كل واحد بزمانه الطبيعي؛ تحرياً للصدق في الواقع، إذ قد يقع النوم في النهار والابتغاء في الليل»[٣].

وقد يجتمع الاكتفاء والاحتباك والتضمين في آية واحدة وسياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١] يقول الشيخ:

---

(١) «الإتقان» (٢: ٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٤٧١)، وينظر: (٧: ٢١٥)، (٤: ٣٦٥)، (٢: ٦٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٦٤).

«ويجوز أن يكون في الآية احتباك واكتفاء على سُنَّة القرآن، فاكتفى بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله، لأنها بمعنى: ولَـوْ يُعجِّل الله للناس الشـرَّ تعجيله للخيـر حين يستعجلون الشرَّ بأعمالهم وأقوالهم استعجالهم بالخير لقُضي إليهم أجلهم، ولكنّه سبحانه لا يعجل لهم ذلك، وإنما يُمهلهم ويُؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمًّى.. وقد ضمَّن قضى معنى عجَّل فعدّاه تعديته»[١].

وحذف جواب القسم ضرب من الإيجاز في القرآن، وهو كثير فيه. فمن أمثلته التي أشار إليها الشيخ ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، إذ بيَّن أن «جواب القسم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، وتقديره كما يفهم بعده: ليس الأمر كما تقولون، وإن الحشر والحساب لآت ومتحقق»[٢].

والعطف على محذوف وخاصة بعد الأداة (أم) من ضروب الإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، رأى أن «أم ابتدائية تأتي في القرآن لابتداء الجملة والاستفهام، ويجوز أن تكون عاطفة للجملة معطوفة على محذوف على سنَّة إيجاز القرآن، والتقدير كذا...»[٣].

ويقف الخطيب مبهوراً إزاء الإيجاز بحذف المفعول في نحو قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، لما فيه من سرٍّ تعجز الأفهامُ عن إدراكه فيقول: «وما أبلغ حذف مفعول آتنا في هذا المقام فهو من دقائق الإيجاز التي تحار فيها الأفهام وتعجز عنها قرائح الأنام»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٥٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٢٢٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٠-١١).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٩٦).

وكان الجرجاني قد وقف عند ظاهرة حذف المفعول به وأوضح شيئاً من أسراره في القرآن وغيره[١].

ويلفتنا الشيخ إلى عدد من الآيات التي تتزاحم فيها المعاني، مع إيجازها الشديد، كالتي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فالآية كما يراها الشيخ «حكم عامٌّ من أحكام البِرِّ، وبمقتضى السياق تقريعٌ لأولئك المشاغبين المرابين، وهي تقابل العلاقة بين العبد وربه في الصوم، إذ هي تنظِّم العلاقة بين العبد والعبد.

وقد ورد هذا الحكم بهذه العبارة للإشعار بوحدة الأمة وتكاملها، للتنبيه على أنَّ احترام مال الغير هو احترامٌ وحفظٌ لمال نفسه، واستحلال مال الغير يجري على استحلال ماله» وهذا المعنى الكبير عبَّر عنه بهذه الألفاظ القليلة. الأمر الذي حمل الشيخ على القول: «فما أبلغ هذا الإيجاز وما أجدره بوصف الإعجاز؟»[٢].

ونراه يربط بين الإيجاز والإعجاز، فيراهما ـ في موضع ـ صورة واحدة ووجهاً واحداً، كالذي في قوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] إذ يبيِّن أن هذه العبارة «من أبلغ عبارات الإعجاز والإيجاز»[٣]. وهذه العبارة القرآنية لفتت أنظار المفسرين قديماً ومنهم الطوسي، فقد قال عنها: «إنها من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة»[٤].

ب ـ **الإطناب**: وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة[٥]، وفرقوا بينه وبين التطويل

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١١٨.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٧٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣١).

(٤) «التبيان» (٦: ١٨٧). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» للزيدي ص٣٤٦.

(٥) «المثل السائر» (٢: ١٢٨). وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٢٠١.

فعدّوا التطويل عيباً[١] وقد وقف الشيخ رشيد وقفات عند أساليب الإطناب، وبخاصَّة أسلوب التكرار فقد تحدث عنه في مقدمته، كما عرض له في ثنايا التفسير.

فمن خصائص أساليب القرآن: التعاقب على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والتعابير، لأن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها وقع عظيم في النفوس. وهو يُسَمِّي هذا الأسلوب: التكرار مع تنوّع الأساليب والتفنّن في التراكيب[٢].

كما نبَّه على التكرار في القصص القرآني، وما لكل موضع من نمط في الأسلوب والترتيب يتفقان مع أبلغ الوجوه في العبرة والتذكير، وأدعاها إلى التأثير، حسب السياق. وتختلف القصة في كل سورة عن الأخرى بزيادةٍ أو قِلَّةٍ في عدد من الجمل أو الألفاظ تمشِّياً مع مقتضيات الأحوال والأغراض في السياق، وفي كل مرة تتكرَّر فيها القصَّة لونٌ من العبرة والموعظة[٣].

ويلحظ الشيخ كذلك أنَّ البيان عن القيامة والحساب يَتكرَّر في القرآن، فلا تخلو سورة منه وإن كان أكثره في السور المكيَّـة، ولكن لكل موضع منه أسلوب وسياق وصورة خاصة تمتاز من الأخرى ولا تتباين معها، على نهج مجاز القرآن فيما يتكرَّر فيه من البيان[٤].

ومن التكرار في القرآن: الاستطراد إلى أشياء لها مساس بموضوعه، زيادة في التقرير، وهي ليست من النوع المخلِّ بالبلاغة، بل هي في أعلى مقام منها[٥].

---

(١) «المثل السائر» (٢: ٧٤-١٥٧).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥١٠، ٥١٦، ٥١٧، ٥٩٤)، (٢: ١٣٨).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٦).

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٥١٣).

وللتكرار مقاصده في التنزيل، منها: (التقرير) كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧]، إذ بين أن: «التكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير النِّعم، وتأكيد التذكير بها، يعيدها عن بيان كل نوع من أنواعها إيجاباً وسلباً.

والتكرار لاختلاف ما يُقَرَّر به معروف عند العرب وفي أساليبهم وأشعارهم كما في رثاء المهلهل أخاه كليباً»، وأحال إلى ما كتبه ابن رشيق في «العمدة» عن التكرار في أشعار العرب لأغراض متنوعة[١]. وكان الطوسي قد نبَّه على معنى التقرير في هذا التكرار من قبل[٢].

وذهب القزويني إلى أن التكرار في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لتعدّد المتعلق، لأنه تعالى ذكر نعمة بعد نعمة، وعقب على كل نعمة بهذا القول[٣]. ملفتاً بكلامه هذا إلى ما في هذا التكرار من تقرير.

وقد يكون التكرار (للمبالغة) كما في آية [البقرة: ١٤١]، إذ يقول فيها: «ثم ختم المُحاجّة بتكرير الجملة السابقة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، لأنَّ ما قبلها مماثل لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زجْرهم عما هم عليه من الافتخار بالآباء، والادعاء بأنهم على ملتهم وسالكون مسلكهم»[٤].

وقد يكون التكرار للعناية كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٤)، وينظر: (٢: ٣٧٠)، (١: ٥١٢).

(٢) راجع «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» للزيدي ص٣٧٤.

(٣) «الإيضاح» (١: ٣٠٤).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٩١)، وينظر: (٨: ٩٧).

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، فقد بيَّن أنه كرَّر اسم الإشارة (أولئك) لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم[١].

وكما يتكرَّر الاسم يتكرر الحرف، فيكون له غرضه البلاغي، على نحو تكرار الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، فقد بيّن أنَّ: تكريرها «للمبالغة والتشديد»[٢].

على أنَّ التكرار كما يكون بلاغة، يكون عِيّاً وتطويلاً، وهو ما يتنزَّه عنه البيان الأعلى المعجز، ولذلك ينفيه الشيخ في صورته الثانية عن كتاب الله المبين، على نحو ما ورد في تفسير سورة (الكافرون)، إذ بيَّن أن (ما) في الآيتين الأوليين من السورة موصولة، وفي الآيتين التاليتين مصدرية، فلا تكرار على هذا في (ما)، «فمفاد الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، ومفاد الجملتين الأخريين: تمام الاختلاف في شكل العبادة، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة»[٣].

والشيخ في بيان فائدة التَّكرار ينطلق من النصِّ وما يحمله من معنى، ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، يذكر أنَّ: «هذه الإعادة لبيان عدم إخلال ذلك العمل بالحكم وللمبالغة في تقريره»[٤]. على حين عدّ الخطيب القزويني تكرار اللفظ هنا لطول الكلام[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٨٦).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٧).

(٥) «الإيضاح» (١: ٣٠٤).

١١) وضع الظاهر موضع المضمر والعكس:

ومن سُنن القرآن التي التفت إليها الشيخ «أن يذكر المظهَر في موضع المُضْمَر إيذاناً بالتعليل بالوصف الذي يدل عليه المظهَر، وبياناً لموجب الحكم، وتقريراً لحكم عام يدخل في مدلول ذلك المضمر وغيره، وتسجيلاً بالوصف على أولئك الموصوفين به، إلى أمثال ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولم يقل: ولهم عذاب مهين»[١]. أو بعبارة أخرى: أن في وضع المُظْهَر مكان المُضْمَر هنا دمغاً لهم بصفة من صفاتهم التي ذُمّوا بها واستحقوا الوعيد عليها.

وقد يكون الإظهار لتربية المَهَابة في نفس السامع، ويكون ذلك بذكر لفظ الجلالة في موضع ضميره، وهو في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤][٢]. فأظهر لفظ الجلالة في آخر الآية، بدل الضمير الذي يعودُ عليه في لفظه الأوَّل الذي تقدَّم.

وقد ذكر السكَّاكي: أن المظهَر يوضع موضع المضمَر «إذا أريد تمكين نفسه زيادةَ تمكين كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، أو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة، أو تقوية داعي المأمور، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٣]، فكرر لفظ الجلالة، ولم يقل: إنه يحب المتوكلين، حثاً للنبي ﷺ على إمضاء هذا العزم بالتوكل.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٤)، (٢: ١٣٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٢٧)، (١: ٥٣٤، ٦٢٤).

(٣) «مفتاح العلوم» ص٣٩٤-٣٩٥.

ومن مقاصد وضع المُضْمَر مَوْضع المظهر: «أن يعود الضمير على ما يدركه الذهن وإن لم يتقدَّم له معنى، أو على ما يفهم من السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي: على ظهر الأرض إذ لا يجهل الذهن أنها المراد، أو كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البقرة: ١٦٢، آل عمران: ٨٨] أي: في جهنَّم»[١]. مع أنه لم يتقدَّم لجهنم ذكر في السياق. ولكن ذلك يدركه الذهن بدليل العقل، الذي هو أحد القرائن الدلاليَّة[٢] في فهم النصوص، ومنها النص القرآني الكريم.

١٢) استعمال الأفعال:

وللشيخ لفتات بلاغية رائعة عند استعمال الأفعال يُوقفنا فيها على ما تحتويه من أسرار.

فمن ذلك استعمال صيغة البناء للمجهول في موضع دون آخر على نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] إذ يقول في تعليقه عليه: «وذلك من البلاغة العالية، حذف الفاعل في المعادل الأول وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾.. وذكره في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وذلك لتنسب إرادة الخير إلى الله دون الشر، كما في قوله تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] إذ نسب المرض لنفسه ونسب الشفاء إلى الله تعالى[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٢).

(٢) وهناك قرينة (الحال)، والقرينة اللفظية، وخاصة السياقية.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥).

ومنه استعمال الفعل المضارع دون الماضي، لإفادة الاستمرار في الحدث وتجدُّده آناً بعد آن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] إذ بيَّن أنَّ «العدول إلى صيغة المضارع، لإفادَةِ دوام الاطمئنان وتجدُّده كلَّما تجددت الذكريات»[١].

١٣) التغليب:

دَرَجَهُ القزويني في علم المعاني، وقال إنه: «باب واسع يجري في فنون كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، فعبّر عن الإناث بصيغة التذكير تغليباً للذكور عليهنّ، وكقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] فعدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب»[٢].

والتغليب عند الشيخ رشيد من أساليب اللغة وخصائص العربية، كتغليب الأَوْلى على ما دونه في الأَولَويَّة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] إذ بيّن أنه يريد أمه وأباه على طريقة التغليب[٣]. أي: تغليب الأب على الأم.

وقد يكون تغليب العاقل على ما لا يعقل كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١]، إذ قال: «أي: مما ذكر من السموات والأرض وما بينهما، وأتى بـ(من) دون (ما) تغليباً للعقلاء ـ وهم الملائكة ـ وهي أنسب في معادلتها للضمير: هم»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٦٨).

(٢) «الإيضاح في علوم البلاغة» (١: ١٨١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢١).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٤).

وقد يكون العكس فيغلب القرآن غير العقلاء على العقلاء كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦] لنكتة بلاغية إذ بيَّن أنه: «غلب في الملكية ما لا يعقل فاستعمل (ما) بدل (من)، لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، ويستوي في ذلك العاقل وغيرُه ولكنه في غير العاقل أظهر»[١].

فهو يعلِّل كل لون من ألوان التغليب ويُبيِّن سرَّه في الأسلوب العربي، ومثله تغليب إحدى الجهتين على ما يقابلها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، إذ التفت إلى أنَّ القرآن غلَّب المشرق على المغرب، يقول: «المراد من المشرقين: المشرق والمغرب على التغليب، وهو مثل يضرب لبعد المسافة البالغ»[٢] ومثله: القمران والأسودان في كلام العرب للشمس والقمر، والتمر والماء.

وفي قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [فاطر: ٣٣] يفترض الشيخ التغليب في فعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ «من باب أن يذكر أمران ويسند لهما ما هو لأحدهما، لأنَّ واو الجماعة هذا يشمل الذكور ويشمل الإناث بطريق التغليب»[٣].

ويبدو أن الشيخ هنا أراد أن يستبعد الحليَّ للرجال بتخريج لغويّ بلاغي، وهو خلاف رأي الجمهور، لذلك جعل رأيه هذا الثاني وقدَّم قوله: «ويظهر أنَّ هذا في مكان وسام التقدير والتلطيف». وفي كلا الرأيين تبدو نفرته من تزيّن الرجال بزينة النساء، وفي رأيه كثير من التوفيق.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٦٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٥٤).

المبحث الثاني

علم البَيَان

وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[١] ويتعلق بالتشبيهات، والـمجازات بأنواعها من استعارات ومجازات عقلية ومرسلة وكنايات.

ولعلم البيان مكانة مرموقة في علم البلاغة، يدل على ذلك قول الجرجاني: «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدّر»[٢].

وكان للشيخ رشيد في تفسيره وقفات ونفحات، أضاء فيها جوانب من بيان القرآن وسحره وإعجازه.

١ـ التشبيه:

وقف الشيخ عند عدد من التشبيهات القرآنيَّة، يُحلِّلها ويُبرز دورها في تَـجْلية المعنى القرآني، والوصول إلى الغاية والتأثير، إلا أنه لم يكن حريصاً على تسمية هذه التشبيهات، وتبيين أنواعها التي نصَّ عليها البلاغيون إلا نوعاً واحداً هو (التشبيه

---

(١) «الإيضاح» للقزويني (٢: ٣٢٦).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٤.

الضمني)، فقد سمّاه باسمه محللاً إياه ومبيّناً الغرض منه، كالذي في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، فقد قال: «ثم شبَّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميِّت، مبالغةً في التَّنفير منها والتَّقبيح لأمرها، وصاغ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي للتنبه على مكان الفعلة عن قبح هذه الخصلة وبشاعتها ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، ثم أردف الإنكار بما لا نزاع عليه، وهو تقرير القبح، فقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أنَّ كراهة مثل ذلك أمر مقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً على طريقة قياس النظير. فقد نبَّه النفوس إلى ما لا تنكر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تنتبه له، لأنها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار[١].

ومن المعروف أنَّ التشبيه الضمني، هو الذي يأتي بعد تمام المعنى، ويكون بمثابة البرهان والدليل عليه. كما أنه لا يأتي في أسلوب من أساليب التشبيه، وإنما يلمح المشبه والمشبه به ويفهمان من المعنى، وقد أشار إليه الجرجاني[٢] بلا نصٍّ صريح على مصطلحه[٣].

ويبدو التحليل الذي قدَّمه الشيخ لهذه الآية قريباً من تحليل الزمخشري[٤] لها، مع سمة أسلوبية تمتاز بجودة السبك وقوة التعبير.

وقد يشير إلى الضمني بعبارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١٢٤).

(٢) «أسرار البلاغة» (١٠٩-١١٠).

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٠٨، و«البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٦٩-٧٠).

(٤) «الكشاف» (٤: ٣٧٣-٣٧٤).

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٢] فيقول: «صورة التعبير في منتهى السخرية والتسخيف لهم، حيث تضمَّنت تشبيههم بمن يحاول بنفخه إطفاء نور مُنْبَثٍّ في الآفاق، أو من يحاول إطفاء نور الشمس بفيه»(١).

ونستطيع أن نلمح (التشبيه التمثيلي) في عددٍ من التشبيهات التي وقف عندها الشيخ، وإن لم يكن قد أشار إليها بصراحة، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، إذ قال: «يمثل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويُمثِّل الشرك والضلال بهذا السقوط والهلاك والردى... ومحصَّل الكلام: تشبيه لحال المشرك بحال من يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً. فإما أن يندقّ ويتفسخ، ويكون نصيب الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فضلاً عما في ذلك من المهاوي والمهالك»(٢).

يبدو من ظاهر الآية أنَّ الذي يخرّ من السماء بين مصيرين، فإما أن تخطفه الطير وهو في السماء، تشبيهاً بالجوارح التي تخطف الطيور الصغيرة وهي في الفضاء، وإما أن يهوي في مكان سحيق، وتُرك تقدير مصيره في هذا المكان السحيق للخيال(٣).

وهذا التشبيه تمثيلي لدى الجرجاني(٤)، لأنَّ وجه الشبه فيه عقلي يحتاج إلى تأويل، وكذلك هو لدى السكاكي(٥)، لأنَّ وجه الشبه عقلي وهيئته منتزعة من متعدد، ومثلهما القزويني(٦)، لأنَّ وجه الشبه مركب.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٨٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٢).

(٣) ينظر: «في ظلال القرآن» (٥: ٥٩٧).

(٤) «أسرار البلاغة» ص٨٢-٨٧، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

(٥) «مفتاح العلوم» ص٥٧٥-٥٧٦، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

(٦) «الإيضاح» (٢: ٣٧١-٣٧٢)، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

وقد يكون الشيخ استبدل باصطلاح (التشبيه التمثيلي) قوله: «تمثيل الإيمان». ونرى نظير ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، إذ يقول: «والآية تمثيلٌ شبِّهت فيه حال أولئك الماكرين الذي يدبِّرون أنواعاً من المكر للإيقاع برسل الله، وشبَّه إبطاله لتلك الحيل، وجعله إيّاها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً وعَمَّدُوه بالأساطين[١]، فأتى ذلك البناء من أساطينه، بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا، ثم أردف هذا التمثيل بالحقيقة جرياً على قواعد البلاغة العالية»[٢].

ونراه يشير إشارة مجملة إلى التشبيه في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] من دون بيان نوعه وأحواله التركيبية، بل يقول: «عقد المشابه الاستيلاد والاستنبات»[٣]. وهذا تشبيه حذفت منه أداة الشبه ووجهه، فهو تشبيه بليغ إذ يكون التقدير: نساؤكم كالحرث لكم، أي كالزرع، وقد يكون استعارة من جهة أخرى والأول أظهر.

ومجمل القول أن الشيخ لم يكن حريصاً على تفصيل التشبيهات وأنواعها حسب ما نصَّت عليه كتب البلاغة بقدر ما كان حريصاً على بيان صورة التشبيه ودلالته المعنوية، وما يشتمل عليه من جمال وتأثير.

٢ـ الحقيقة والمجاز:

الحقيقة ـ لدى الجرجاني ـ[٤] أن يقرَّ اللفظ على أصله، والمجاز أن يزال عن

---

(١) جمع أسطوانة «لسان العرب» (سطن).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٣).

(٣) «البلاغة والتطبيق» ص٣٠٥.

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٢٨٠، و«أسرار البلاغة» ص٣٥٦.

موضعه ويستعمل في غير ما وضع له، وزاد من تلاه: لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي[١].

أولى الشيخ رشيد المجازات في القرآن أهمية كبيرة، إذ أفرد لها مكاناً في مقدمته بعنوان «المجازات في القرآن»[٢]. عدّد فيها أنواعاً كثيرة من المجازات شملت «المجاز العقلي، والمجاز المرسل، ومجازات الاستعارة، ومجازات التشبيه»[٣] كما يسميها.. فعدّ التشبيه من المجاز، وهو رأيٌ يذهب إليه طائفة من البلاغيين وإن كانوا عموماً يفردون التشبيه من المجاز، وعبارة الشيخ في أول المقدمة السادسة: «في القرآن العظيم أنواع من المجازات والكنايات والتشبيهات»[٤]، لا تضادّ تسميته التشبيه: «مجاز التشبيه»[٥]، وقد استقى قسماً من هذه المجازات من كتاب: (الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز) لعز الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ). الذي أشار إليه في تفسير سورة الرحمن، وقد مرّ ذلك في فصل المصادر.

نبّه الشيخ رشيد على احتمال الحقيقة والمجاز في تفسير طائفة من الآيات بقرينة عقلية كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فقال: «وأما كلمة ﴿وَرَآءَ﴾ فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي، ويحتمل أن تكون مستعارة للقوة والتعقيب»[٦].

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٣٩٤)، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانه» (٢: ١٢٨)، و«البلاغة والتطبيق» ص٣٢٠-٣٢٣.

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٨٦-٧٠٠).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٤).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٦٨٦).

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤).

ويتصل الحمل على المجاز والعدول عن الحقيقة في مواضع بوجهة الشيخ التأويلية وروحه النازعة إلى الإصلاح، وهو مع ذلك لا يرى مانعاً من الجمع بين الوجهين: الظاهر والحقيقي، والتأويلي والمجازي، وهي وجهة لغير واحد من البلاغيين كالرازي وغيره على نحو ما نجده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥] يقول: «أغلال التقليد الأعمى والضلال، وبمعنى مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز»[١].

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] يقول: «يريد السيد العزيز، ويورّي بالله سبحانه، ويجمع بين المعنيين الحقيقي والمجازي...»[٢].

وفيما أورده الشيخ من هذه المعاني دليل واضح على جواز المجاز في القرآن وهو رأي جمهور المفسرين، خلافاً لما ذهب إليه الظاهرية ونفرٌ من الفقهاء والمتكلمين الذي أنكروا وقوع المجاز في القرآن[٣]. وهو أمر لا يسلّم به، لأنه يُجرِّد القرآن من أروع ما فيه من صور التعبير والإعجاز.

ولابد بعد هذا من الكلام على ضروب المجاز التي ذكرها الشيخ في تفسيره.

أـ المجاز العقلي:

وهو الذي يشترط فيه الإسناد، أي: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، إذ المجاز اللغوي يكون في الكلمة نفسها باستخدامها لغير ما وضعت له[٤]. وسماه

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥١).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٠).

(٣) ينظر: «المجاز في القرآن» لمهدي صالح السامرائي ص١٤٣، و«البلاغة والتطبيق» ص٣٢٢، و«البلاغة فنونها وأفنانها» للدكتور فضل عباس (٢: ١٣٢-١٣٣).

(٤) «البلاغة فنونها وأفنانها» للدكتور فضل حسن عباس (٢: ١٣٩).

الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في «دلائل الإعجاز»[١] على حين سماه (المجاز العقلي) في «أسرار البلاغة»[٢]، وسماه الرازي المجاز العقلي أيضاً وعرفه بنفس التعريف[٣].

وقف الشيخ رشيد على عدد من المجازات العقلية محلِّلاً ومعلِّلاً ومبيِّناً فائدة هذا النوع من المجاز، فمن ذلك المجاز الذي يرد بصيغة (مفعول) ويراد به لدى أغلب البلاغيين صيغة (فاعل)، كالذي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] إذ رأى: «أن اسم المفعول هنا بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله على طريقة المجاز العقلي»[٤]. على حين أنه قد يراد المعنى الحقيقي أي: حجاباً خفياً لا تراه أبصارهم، أو لا تدركه قلوبهم[٥]. وهو الرأي الذي يذهب إليه أستاذنا الزيدي.

وقد يحتمل اللفظ وجهين: أحدهما يؤول بالمجاز العقلي، فينبه عليه الشيخ محللاً ومعللاً ومرجِّحاً، كالذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] إذ يقول: «والساهرة: الأرض البيضاء المستوية سُمِّيت بذلك لأنَّ السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها، وعين نائمة للتي لا تجري. وقيل: هي المفازة لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة، فتكون مجازاً عقلياً من إسناد وصف للمكان، وهذا أنسب

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) «أسرار البلاغة» ص٣٠٦.

(٣) «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» لفخر الدين الرازي ص٨٤، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر ١٩٨٥.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٤٢).

(٥) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠: ١٧٦).

للموضوع لأن الناس على أرض المحشر في أشد الجزع والهلع»[١].

وقد يورد عدداً من أنواع المجازات العقليَّة من غير أن ينسبها إلى المجاز العقلي ويصفها به كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، إذ يقول: «المراد نحت الصخر لبناء البيوت وفيه ذكر السبب وإرادة المسبَّب»[٢] فهذا من المجاز العقلي، لأن الكلمة لم تخرج عن استعمالها العقلي وإنما المجاز في الإسناد، وذكر السبب وإرادة المسبّب من علاقات المجاز العقلي التي نصّ عليها البلاغيون[٣].

ب ـ المجاز اللغوي:

ويُسمَّى المجاز المفرد وهو: «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له.

في اصطلاح التخاطب، على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته»[٤]. وكان الجرجاني قد فرق بين المجاز اللغوي والعقلي، بأن اللغوي يكون في الكلمة المفردة[٥].

وينقسم المجاز اللغوي على قسمين: فما كانت علاقته المشابهة فهو الاستعارة وإلا فهو مجاز مرسل.

أولاً: المجاز المرسل:

«وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير المشابهة، كاليد إذا استعملت في النعمة»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٤٧).

(٣) ينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ١٥٠).

(٤) «الإيضاح» (٢: ٣٩٤).

(٥) «أسرار البلاغة» ص٣٧٦.

(٦) «الإيضاح» (٢: ٣٩٧).

وقف الشيخ عند كثير من المجازات المرسلة التي وردت في الآي بأنواعها، فأشار إلى عدد من علاقاتها، كالسببيّة بذكر المسبب وإرادة السبب وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ [التوبة: ١١٠] فقد بيّن أنه: «ذكر البنيان وأراد سببه بطريقة المجاز المرسل، أي سبب بنيانهم، يُبقي لها قابليَّة الإدراك، يبين بذلك أن نفاقهم وكفرهم راسخ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه»[١].

ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] إذ بيّن أنه: «سُمِّيَ عبادة لأنه السبب في عبادة غير الله»[٢].

ومنه ما كانت علاقته الذاتيَّة، كالتجوُّز بالذات عن العلم في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، إذ قال: «أي: ما يخطر بباله ويلوح في هواجسه، ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من عرق عنقه. فتَجَوَّزَ بالذات عن العلم لأنه من موجباته»[٣].

ومنه الذي علاقته (العموميَّة)، وهو الذي يكون التجوز فيه بذكر العام وإرادة الخاص، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، إذ يقول فيها: «وفي كلمة الناس ذكر العام وإرادة الخاص وهو من المجاز المرسل»[٤]. ومراده من ذلك: أن المراد بالناس هنا خصوص الذين آمنوا لا مطلق الناس، وهذا من قبيل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إذ المراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود الأشجعي وليس كافَّتهم[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٤١).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥).

(٥) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (٤: ١٧٨).

ومنه التَّجوُّز بالقول عن الفعل كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، إذ قال: «ليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين، ولكن المراد أنهم فهموا الميثاق ولم يعملوا به ففيه تَجَوُّزٌ بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن»[١].

وقد يشير إلى المجاز المرسل من دون الإشارة إلى علاقته، اكتفاء بتحليله، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]، يقول: «والمراد من إثبات الشر لمكانهم، إثباته لأنفسهم على طريقة المجاز المرسل»[٢].

ثانياً: مجاز التضمين:

عدّ الشيخ من أنواع المجازات ما سمَّاه (مجاز التَّضمين) وعرَّفه بقوله: «أن تضمّن الكلمة معنى كلمة أخرى فتعديها تعديتها، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فضمَّن سَفِهَ أهلك، فأفادت المعنيين...»[٣] وقد نبَّه الشيخ في تفسيره على عدد كبير من هذا النوع من المجاز، وهو ما لم تذكره كتب البلاغة مع المجاز.

وإنما جاء في كتب النحو، وقد أشرت إليه في فصل النحو، وقد أفاده الشيخ من كتاب «الإشارة في الإيجاز إلى بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم» لعز الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) الذي عدّ التضمين من مجازات القرآن[٤].

ثالثاً: الاستعارة:

عرفها السكاكي[٥] بقوله: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣٠).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٦).

(٤) «الإشارة في الإيجاز إلى بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم» ص٥٥-٥٨.

(٥) «مفتاح العلوم» ص٥٩٩.

الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به».

وقف الشيخ رشيد عند كثير من الاستعارات في القرآن، مبيناً مواطن الجمال فيها، وقد سمّى عدداً منها، وبيَّن نوعها، وأشار إلى عدد آخر من غير أن يبين نوعها. ووصفه لها يدل على تذوق فني عالٍ لها.

فمن ذلك الاستعارة التصريحية، في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، إذ قال: «وفي الكلام استعارة بديعة مزدوجة من صفات المطعوم والملبوس»[(١)].

وهذه استعارة تصريحيَّة لم يسمِّها الشيخ ولكنه عدّها مزدوجة، وذلك لأنه استعار للخوف والجوع صفتين: صفة الطعام بقوله: (أذاقها)، وصفه اللباس بقوله (لباس) ففي النص استعارتان فضلاً عن الاستعارة التخييلية في لفظ القرينة وهي الإذاقة، حيث شبهت الإذاقة المتخيلة بالإذاقة المتحققة واستعيرت للمتخيلة[(٢)].

ونراه يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] بوجهين: أحدهما: باعتبار (إن) نافية «فيكون قد استعار الجبال لحجج القرآن القوية ودلائل النبوة الثابتة»[(٣)]. فهي عنده استعارة تصريحية كما يفهم من كلامه، إذ شبه الحجج بالجبال، فحذف المشبه وأبقى المشبه به.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٤).

(٢) «الاستعارة في القرآن» لأحمد فتحي ص٧٩، رسالة ماجستير، مخطوطة عام ١٩٨٨، في كلية آداب الموصل.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٤١١).

ويلمح الشيخ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] استعارتين: مكنية وتمثيلية، فيقول: «ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكان القوي للتقوى استعارة مكنية، واستعار شفا جرف هار للكفر والنفاق استعارة تمثيلية، وعقد المقابلة بينهما. وقوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيح للبناء وللنفاق معاً..»[١].

وتحليل الشيخ هنا ينبئ عن فهم دقيق للاستعارة، فالأولى حذف فيها المشبه به وهو البناء الذي شبهت به التقوى، وترك شيء من لوازمه وهو أسس البنيان. والثانية تشبيه صورة النفاق بما فيه من تقلقل وتذبذب ـ وهي صورة معقولة ـ بحال بناء قائم على شفا جرف هار ـ وهي صورة مُحَسَّة ـ لما بينهما من وشيجة عدم الاستقرار وتوقع الانهيار والسقوط، ثم حذف الصورة الأولى المشبه، وبقيت الثانية المشبه به.

ونجده يشير إلى الاستعارة المكنية من غير أن يبين نوعها عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فقال: «وقد استعار صفة الغضب للإشارة إلى أنه هو الذي كان يغريه بالكلام»[٢] وكأن الآية هنا قد شخّصت الغضب كائناً حياً شريراً يستفزّه ويثيره[٣]. فحُذف المشبه به وتُرِك شيء من لوازمه وهو السكوت. يقول الزمخشري[٤]: «كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجرّ برأس أخيك إليك..».

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٩).

(٣) ينظر: «الاستعارة في القرآن» لأحمد فتحي ص ١٣٠.

(٤) «الكشاف» (٢: ١٦٣).

ومن الاستعارة التمثيليَّـة ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] إذ فسّر الإدبار بأنه: «عن موقف الحساب إلى النار»، ثم قال: «ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيلية من حالة الإبل النافرة من شدة الخوف. وتفرّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب»[١]. وعدّه لها استعارة أمر غريب، فمتى كانت التولية للأدبار خاصةً بالإبل؟ إذ هي عبارات عامة تصلح لكل هارب خائف.

وبالمثل يحتمل الشيخ الاستعارة التمثيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن لم يقطع بذلك فيقول: «يحتمل أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. وتلمح إلى ما يكون بينهم من عزلة تامة، إلا من ناحية خاصَّة وهي معرفة البعض بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنى عنها بالباب... فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجه خاص وبين السور الذي له باب على طريقة الاستعارة التمثيلية»، ثم يقول بعد هذا التحليل البياني للاستعارة: «هذا ما أراه والله أعلم»[٢]، إذ اجتهاده في فهمها وتحليلها غير خاف، ولذا أوكل علم ذلك إلى الباري سبحانه.

ولا يفوت الشيخ أن يشير إلى (الاستعارة التخييلية) وهي ضرب من الاستعارة المكنية إلا أن عملية إسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه عملية تخييلية وليست حقيقية[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] إذ يقول: «استعارة تخييلية مبنيَّة على تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يسدّ آذانه من الصواعق حَذَرَ الموت

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٣٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢٩٤).

(٣) ينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ١٧٥).

حماقةً وبلهاً. فقد سيقت هذه الاستعارة لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تصوُّر شدَّة بلههم وحماقتهم، وتقرُّر إعراضهم عن الحق الجليِّ القوي وصممهم وتعاميهم عنه..»[١].

ويذكر الشيخ ملحظاً منهجياً في علم البلاغة، وهو أن الاستعارة مجَاز ترشح للاستعارة، إذا كانت العلاقة المشابهة، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] يقول: «أي: النَّمامة الواشية التي تؤجِّج النار بين الناس بنميمتها.

ثم ترشح هذا المجاز باستعارة تخييليَّة تناسبها لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع فقال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾، في عنقها حبل قوي من ليف تجمع به الحطب لوقود نار الفساد والفتنة والمشاغبات، يكني بذلك عن شدَّة سعيها بالمشاغبة ضدَّ رسول الله ﷺ وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جمع الحطب لإيقاد النار»[٢]. وهذا ذهاب منه إلى جهة المجاز في اللفظ، وقد تابع فيه الشيخ محمد عبده، إذ كان سابقاً في ذلك[٣]. وكان الشيخ محمد عبده استمدَّه من الراغب (ت٤٢٥هـ)، إذ كان يذهب إلى ذلك[٤].

وأشار الشيخ رشيد إلى الاستعارة التهكميَّة في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦]، فقال: «صوَّر ذلك بصورة خسارة التجارة على طريقة الاستعارة التهكمية. وهي من البلاغة بمكان، والجملة ترشيح للشراء في الجملة التي قبلها، ثم مكَّن المعنى وجرَّد الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٤٠١).

(٣) «تفسير جزء عم»، سورة المسد ص١٧٥.

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن»، مادة (حطب).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٦).

والاستعارة التهكمية نوعٌ من الاستعارة العنادية، وهي: «ما استعمل في ضدِّ معناه أو نقيضه بتنزيل التضادّ أو التناقض منزلةَ التناسب بواسطة تهكّم أو تلميح. كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]»[١].

٣ـ الكناية:

عرَّفها عبد القاهر الجرجاني بأن: «يريد المتكلِّم إثبات معنىً من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنىً هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»[٢].

وقد أشار الشيخ رشيد إلى كثير من الكنايات التي وردت في القرآن الكريم، وأفاد منها في تفسير عدد من الآيات، وبيان وجه التجوّز فيها. وهو يرى أنَّ الكناية لا يشترط فيها صحَّة إرادة المعنى الحقيقي، على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، إذ عدّ فَوَرَانَ التنورِ «كناية عن شدَّة الغضب، مثل حمي الوطيس»، ثم ذكر بصيغة التضعيف: (قيل) إنها «كناية عن قوة انبعاث الماء لأن التنور يطلق على كوة من الماء، ولا يشترط في الكناية صحَّة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع».

وما ذكره الشيخ هنا هو الفرق بين الكناية والمجاز الذي ليس بكناية، لأن المجاز يمتنع فيه إرادة المعنى الحقيقي[٣].

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٤٢٠).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٥٢.

(٣) «الإيضاح» للقزويني (٢: ٤٥٦)، وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٦٩.

وبعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي، ومع ذلك فإن من الباحثين من لا يدخلها في المجاز[١]. وظاهر كلام القزويني يُوحي بذلك[٢] وإليه ذهب الرازي وبذلك صرَّح في كتابه «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز»[٣].

ولا يني الشيخ رشيد يؤكد القواعد والشروط اللازمة للكناية، التي تميزها من أنواع المجاز الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] فقال: «وهذا تصوير لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكناية عن ذلك، والكناية يراد بها لازم معناها، وهو هنا كثرة الخزائن ولا يجب فيها تحقق المعنى الأصلي، بل لا يتحقق إلا في القليل من الكنايات»[٤].

ونراه يومئ إلى الكناية (عن صفة)[٥]، ومن دون أن يصرح بها وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، إذ يُبيِّن أنه «كناية عن منتهى السخاء مأخوذ من حال المخاطبين... لأنَّ السخيّ يعطي بيده لكثرة السائلين»[٦].

ومثل ذلك ما رآه في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] إذ قال: «أي: بركة أمطار السماء ونبات الأرض، وهي كنايةٌ عن سَعَة رزقهم مع الراحة والهناء»[٧].

---

(١) «البلاغة فنونها وأفنانها» لفضل حسن عباس (٢: ٢٤٣).

(٢) «الإيضاح» (٢: ٤٥٦).

(٣) ص١٣٦.

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٥١١).

(٥) ينظر: «الإيضاح» (٢: ٤٦٥).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٤).

(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٦).

كما أشار إلى (التعريض) في عدد من الآيات، والتعريض عند السكاكي نوع من الكناية إن كانت عرضية، فإن كان بينها وبين المكنى تباعد سمِّيت تلويحاً، وأن كانت خفية سمِّيت رمزاً[١].

وقد عرفها ابن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ) بأنها «اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»[٢].

يقول الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]: «وفي ذلك تعريضٌ بمن اتَّخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة»[٣].

وقد تجتمع عدة أغراض بلاغيَّة في الآية الواحدة، ومن بينها التعريض كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] رأى أن: «هذا تهكُّم وتنديم وتعريض»[٤]. وترد لدى الشيخ عبارتا إلماح[٥] وإلماع[٦]، وهما دالتان على التعريض.

٤ـ الصورة:

عُنِي الشيخ رحمه الله تعالى بما يُسمِّيه: (الصورة)، و(التصوير)، و(اللوحة). وأشار في مقدمته إلى التصوير في القرآن وفائدته وجماله، فقال: «ومن سُنَنِ القرآن:

---

(١) «مفتاح العلوم» ص٦٤٧، و«الإيضاح» (٢: ٤٦٦).

(٢) «المثل السائر» (٣: ٥٦)، وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٧٥.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ١٨١).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ٤٣٨).

تصوير المعنى وتثبيته بصورة الحكاية والمحاورة، أو بصورة التمثيل، لما في ذلك من قوة البيان، والتأثير في النفوس» وتأثره بصاحب «التصوير الفني في القرآن» واضح إذ يقول: «والتمثيل والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسوسة أو المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبية والطبائع البشرية»[١]. وقد أشرت إلى ذلك في فصل مصادره. ويقول أيضاً: «ومن سنن القرآن: تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئي، فيستعير له الرؤية لأنها أقوى سند الإخبار فيقول: ألم تر كيف كذا؟»[٢].

ويفرّق الشيخ بين (التصوير) و(التمثيل)، فالتصوير عام، وهو رسم صورة ما، أما التمثيل فخاص بما لم يحدث، وإنما يشخص فيه المعنى أو يجسَّد، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٥]، يقول: «وهذا تصويرٌ لما كان يحاوله بعض الكفار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء منه والإعراض عنه وثني الصدر... أو مجرَّد تمثيل لحالهم»[٣]. فمن الواضح أنه أراد بالتمثيل أنه ليس هناك ثني صدر ولا استخفاء على الحقيقة وإنما هذا تجسيد لإعراضهم.

غير أنَّ الشيخ يؤول عدداً من النصوص بحَمْلها على التمثيل، تاركاً لظاهرها الدال على الحقيقة.

فقد سمَّى الحوار الذي دار بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة، وبينه تعالى وبين إبليس تمثيلاً[٤]. وقد مرّ بنا ذلك في الفصل الثالث عند الكلام على التأويل العقلي.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٠).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٨).

قلت: قد ردَدت عليه هذا المنحى في تفسير هذه الآية وأمثالها. (مجد).

كما عدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] من هذا القبيل، فقال: «والكلام على التمثيل». وذلك بعد أن قال: «ثم ذكر تعالى تصوير قوة إعراضهم».

وظاهر الآية، وما عليه كثير من المفسرين أنَّ ذلك على الحقيقة، وأنهم سينالون ذلك العقاب. ويقول بعد ذلك: «ثم بالغ في التمثيل لتقرير هذا المعنى»، وذكر صورة تمثيليَّة أخرى أشد من الأولى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩][1].

فكأنه جعل الصورة قرينة سياقيَّة لتلك الصورة التي تقدَّمت، وشاهداً على أن ما تقدم يراد به التمثيل لا الحقيقة.

فهذا حين حمل على المجاز له وجه وقرينة، إذ الأغشية والسدود هنا معنويَّة، وهي الرَّيْنُ والطَّبْعُ والعَمَهُ ونحوها ممَّا ابتلى الله به الكافرين كما ورد في مواضع أخرى من القرآن.

و(المثل) أيضاً نوع من (التمثيل) وغايته «تصوير المعاني المعقولة بصورة المحسوسات فيدنيها من الحسِّ ويقرِّبها للفهم، فيلمسها السامع لمساً»[2]. فهذا ما قاله الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقد يستخدم الشيخ عبارات تُوحي بفهم متقدِّم للصورة، فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] قال: «فالكلام عرض لوحة لما جرى على

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٠٠).

المُدسّين لأنفسهم»[١]، وكان قد تقدَّم قبل ذلك مباشرة في السياق قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]. إلا أن الشيخ سرعان ما عاد إلى طريقته في التفسير واكتفى بهذه الإلماحة الخفيفة عند هذه اللوحة التي امتلكت كل عناصر القصة القصيرة جداً: من الحوار، والحركة، والموسيقى، والعقدة، والنهاية المأساوية.

ومن إشارته إلى اللوحة ما أورده في تفسير سورة الفجر، إذ التفت إلى أنه سبحانه: «عرض بذلك لوحة لشقاء المكذبين من جبابرة أهل الوبر، ثم لجبابرة أهل الحضر، ثم للعريقين في المدنية»[٢]. وهو يعني بذلك قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم فرعون.

ونـراه عنـد قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨] يعدل عن تسميات الاستعارات والتشبيهات والمجازات إلى التعبير عنها بالصورة، فيقول: «صوَّر هذه النار بصورة مخلوق رهيب عابس مكفهرّ الوجه يغلي صدره حقداً وغيظاً على فريسته»[٣].

ولا ينسى وهو يعرض للحديث عن الصُّورة أن يُنبِّه إلى الجانب النفسيّ فيها، فيقول في وصف الوليد بن المغيرة: «ثم إنه تعالى وصف بعد ذلك أحوال وجهه المُنْبئة عن حالته النفسيَّـة: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٣-٢٤][٤].

وهو يلمح الصورة المُتخيَّلة في التركيب، ويصفه في موضع بأنه (بديع) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، إذ رأى

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٤٨).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٥٢).

أن: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ من التخييل البديع، حيث خيَّله بالشيء المخيف وبالوحش المفترس تنفيراً منه وتبعيداً عنه، وذلك فوق ما في النهي عن دواعيه..»[1].

على أنه ليس بالوسع القول إنَّ الشيخ قد عرف الصورة الفنية كما ينبغي فطبقها بدقة في تفسيره، بل الذي يمكن قوله: إنه حاول محاولة حسنة قصد فيها إلى أن يفيد مما وصل إليه وأدركه منها. وهو ممَّا استقاه من كتاب: «التصوير الفني»، ومن تفسير: «في ظلال القرآن» أو لَمحهُ هو أيضاً في ضوء ما انتهى إليه من تراث تفسيريٍّ ضخم، اطَّلع على كثير منه.

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٣٥).

المبحث الثالث
علم البَديع

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهو ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[١].

فالأول الذي يرجع إلى المعنى يسمَّى: (المحسنات المعنوية)، وهو عدة أنواع أشهرها:

١ـ المقابلة:

عرفها أبو هلال العسكري[٢] بأنها «يُراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة..».

أشار الشيخ رشيد إلى المقابلة في عدد من الآيات ولم يفرق بين الطباق والمقابلة، على حين فرَّق أكثر البلاغيين، فقد عرف السكاكي[٣] الطباق بأن تجمع بين متضادين، أما المقابلة فهي بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما.

---

(١) «الإيضاح» للخطيب القزويني (٢: ٤٧٧).

(٢) «الصناعتين» ص٣٣٧، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦٠.

واختيار الشيخ لمصطلح (المقابلة) مبنيٌّ على واقع الدلالة، إذ أحد اللفظين يقابل الآخر في معناه. أما الطباق فمصطلح تعارف عليه البلاغيون.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣]: «ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٍ﴾ بـ﴿دَانِيَةٌ﴾ من الإبداع البليغ»[١]. وهذا في اصطلاح عموم البلاغيين طباق.

ويذكر في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، أن هذه الجملة مقابلة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩][٢]. وهذا من مقابلة جملة بجملة.

وتتَّسع المقابلة عند الشيخ لتشمل مشهداً كاملاً بإزاء مشهدٍ آخر، وهذا من خصائص القرآن، إذ يقابل مثلاً مَشَاهدَ العذاب مشاهد النعيم في كثير من نصوصه، جَرْياً على نهجه وأسلوبه في الترغيب والترهيب. ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] يقول: «وهذا وما بعده مقابل لما جاء في السياق عن الكافرين من ندمهم، وتلاومهم وتلاعنهم، وشقائهم في الجحيم»[٣]. وهذه المشاهد من أصدق الصور على المقابلة عند البلاغيين، إذ تتعدَّد فيها الأشياء في الطرفين المتضادين.

ويشير الشيخ كذلك إلى سرِّ المقابلة أو فائدتها، فيقول: «وبعد أن أشبع الكلام في المشركين والمنافقين وأحوالهم ومصيرهم، ذكر المؤمنين ومصيرهم، زيادة تحسيسٍ

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥٠٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٨).

في الترغيب والترهيب، فالضد يظهر حسنه الضد، وذلك من خصائص القرآن في بلاغته»[١].

وقد لا تكون المقابلة واضحةً في النصِّ الكريم، وإنما تلمح من خلال التعبير فيلتقطها الشيخ على نحو ما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، إذ رأى أنَّ «هذا التعبير يتضمَّن المقابلة لقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤][٢]، وذلك أنَّ فيه إغراءً بالعداء والخصام، على حين أنَّ ما يقابله فيه بيانٌ للسلام والوئام، فهما على هذا متقابلان.

٢ـ المشاكلة:

وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[٣]، ويطلق عليها أيضاً اسم (المزاوَجَة)[٤] أو (الازدواج)[٥].

وعرَّف القزويني[٦] المزاوجة: بأن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، وقد عُني الشيخ بها عناية واضحة لما فيها من دفع شبهة قد ترد في نسبة ألفاظ لا تليق بذاته

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٦، ٣١٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٦).

(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦١، و«جواهر البلاغة» للهاشمي ص٣٧٥، مطبعة الاستقامة ١٩٦٠م.

(٤) «النكت في إعجاز القرآن» للرماني (ت٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٩٩، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٨.

(٥) ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٦٢.

(٦) «الإيضاح» (٢: ٤٩٧).

تعالى كالنسيان، والمكر، والخديعة، وما إليها فهو لونٌ بديعي، وهو كذلك لدى الشيخ، إذ عدّ هذا اللون من الكلام من فنون (البديع)، وقد نصَّ على ذلك في بعض المواضع فقال: «هذا من البديع»، وذلك في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] إذ يقول: «والمكر: التدبير الخفي، وفي الآية مشاكلة، وهي من بديع الكلام. والمراد بمكر الله: إبطال مكرهم وحفظه منهم، بتدبير الله وهم لا يعلمون»[١].

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ۖ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] بيَّن المراد: «تركناكم في العذاب الدائم ترك الشيء المنسيّ، وعبَّر بهذا للمشاكلة، وللإيذان بإبقائهم في العذاب وحرمانهم من النعيم»[٢].

ويسمِّي الشيخ الجناس في أحد المواضع (مشاكَلة)، على نحو ما رآه بين (يوزعون) من قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] و﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩][٣]. فهذا لدى البلاغيين من ضروب الجناس، الذي يسمُّونه (الناقص) لعدم اتفاق اللفظين فيه.

وينقل عن الشيخ محمد عبده قوله بما كان يسميه (المشاكلة التقديرية) كالذي في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] رداً على صنيع النصارى من غمس أولادهم بماء أصفر يسمُّونه المعمودية[٤]. فقد تقدم في السياق قول اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾. وتعبير (المشاكلة التقديرية) مصطلح بلاغيّ، وممَّن ذكره

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٥).
(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤٣).
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٩).

القزويني[١] وأورد أيضاً نفس ما قاله الشيخ محمد عبده في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٣ـ الالتفات:

كثير من البلاغيين يعدُّونه من البديع، وقد وضعه السكاكي[٢] في علم المعاني، وكان في ذلك على صواب، إذ هو بهذا العلم أشكل. وعَـرَّفَه بأنه: «نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة... بل الحكاية والخطاب والغيبة ينقل كل واحد منها إلى الآخر» فيسمي هذا النقل التفاتاً، ويذكر أن «العرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب [إلى آخر كان][٣] أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه».

أورد الشيخ أنواعاً ثلاثة من الالتفات في القرآن الكريم:

الأول: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وهو أكثر الأنواع التي أوردها، وفي كل مرَّة لا يقتصر على الإشارة إليه إنما يعلِّل مبيِّناً غرضه ودوره البلاغي في أداء المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠] يقول: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المُصَدَّرة بالإنكار التَّهديدي مُلتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، يقول: «تقضون سمركم ليلاً بتكذيب هذا القرآن والاستهزاء به، ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار...

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٤٩٥). وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٤٤٥.

(٢) «مفتاح العلوم» ص٣٩٥-٣٩٦ ومن المحدثين د. فضل حسن عباس في كتاب: «البلاغة فنونها وأفنانها».

(٣) في الأصل غير موجودة والأغلب أنها ساقطة في الطبع.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٨٠).

وعدل عن الخطاب إلى الغيبة مبالغةً في ذلك كأنه أبعدهم عن ساحة الخطاب إلى الغيبة لقِلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨][١].

والثاني: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، الذي رآه للوعيد في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦] إذ قال: «والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»[٢]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، إذ: «التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد، وقال ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ ...﴾»[٣].

والثالث: الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وقد احتمل له أكثر من غرض معنويّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، إذ قال: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقُّق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»[٤].

٤ـ التورية:

وهي أن يُطلَق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويُراد به البعيد منهما[٥].

وقد أشار الشيخ إلى هذا الفنِّ البديعي في عدَّة مواضع، معلِّلاً ومُوضِّحاً سرَّ التورية وجمالها في موقعها من الكلام في كل موضع، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى:

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٨٢).
(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٧٥).
(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٦١).
(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩).
(٥) «الإيضاح» (٢: ٤٩٩).

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، إذ قال: «يريد السيد العزيز ويُورِّي بالله سبحانه، ويجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي على أن المعنى الأول أيضاً لا يصدر إلا عن متَّقٍ لله حقَّ اتقائه، فهو مستلزم للمعنى الثاني، يدلُّ عليه بالدلالة الالتزاميَّة وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مضمرة في نفس يوسف عليه السلام، ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لـها بأنها داست كرامة زوجها وحقوقَه...»[١]. وهذا من رائع التحليل البلاغي أي: إنه في الظاهر يقصد زوجها، وفي السرِّ يقصد الباري عزَّ وجلَّ، فهو ربه الذي نجّاه من موت محقَّق، ويسَّر له من آواه وكرّمه.

وقد يتردَّد احتمـال الشيخ للوجه البلاغي في النص القرآني بين التورية وفن بلاغي آخر ليس من البديع على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] إذ يقول الشيخ: «وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارة أو تورية بديعة عقد بها المشابهة بين الميِّت والجَمَل البارك»[٢]. ويريد الشيخ هنا أنَّ الاستعارة على وَجْه المجاز بتشبيه الكفار بالموتى، إذ الكفر ضرب من الموات في الفكر والعقيدة، لانحرافه عن الحق. أو يريد التورية على وجه الخفاء، والتورية هنا عن بلادة التفكير والإحساس لدى الكفار.

٥ـ حسن التعليل:

وهو أن ينكر الأديب صراحةً أو ضمناً علَّة الشيء المعروفة، ويأتي بعلَّة أخرى أدبية طريفة لها اعتبار لطيف[٣]. وهذا الحكم لا يقف عند الأديب من دون رَيْب، بل

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٣).

(٣) «البلاغة والتطبيق» ص٤٣٥.

يشمل الكلام الفنيَّ كلَّه وفي القرآن منه ما يلائم سموّ معانيه، ورَوْعة بيانه، إذ حُسْن التعليل فيه مَسُوق لتثبيت القيم الكريمة والعقائد السليمة التي أراد القرآن نشرها بين الناس.

وقد أشار الشيخ إلى حُسْن التعليل في عددٍ من الآيات، ومن ذلك ما وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]، فقد قال: «وقد أردف تحقيق البعث بوجهٍ من حُسْن التعليل يتضمَّن الزجر لهم والتبكيت على أحسن الوجوه وأجملها فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]»[(١)].

٦ـ اللف والنشر:

وهو أن تلفَّ بين شيئين في الذِّكر ثم تتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كلاً منهما إلى ما هو له»[(٢)].

ومن أمثلته التي وَرَدت في تفسير الشيخ رشيد، ما بيَّنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، إذ قال: «وهذه الجملة مقابلة لقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وقد جاء هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المفرّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه من المهتدين»[(٣)].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٨).

(٢) «مفتاح العلوم» ص٦٦٢.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٥٠٥).

وقد يلمح الشيخ في النصِّ لفاً دون تفريق فيجد فيه صورة من صور الإيجاز القرآني، على نحو ما رآه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] يقول: «وفيه لفٌّ واحتباك على نهج إيجاز القرآن»[١].

٧ـ الإبهام:

يطلق الشيخ مصطلح (الإبهام) على ما سُمِّي لدى البلاغيين بـ(تجاهل العارف)[٢]، وسمَّاه السكاكي[٣] (سَوْق المعلوم مساق غيره)، وقال: «لا أحب أن أسميه بالتجاهل»، ويراه الشيخ من حيث القيمة البلاغية في موضعه ومناسبته أبلغ من التصريح وعدم التجاهل، ومثاله ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

إذ قال: «وهذا الإبهام الصُّوري التهكُّمي، بعد أن بيَّن من هو على الهدى ومن هو على الضلال أبلغ من التصريح»[٤]، وفي هذا الإبهام بعد الإفصاح والتوضيح، استفزاز لعقول المنكرين بالتعقل والإنصاف، وهو من روائع الجدل في القرآن.

٨ـ الاعتراض:

ويُسمَّى الحشو، والأول أليق بالبيان المعجز المبين، وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٥٦٤).

(٢) «الإيضاح» (٢: ٥٣٠).

(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦٦.

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١١٨)، وينظر: (المقدمة ١: ٥٤٢).

(٥) «مفتاح العلوم» ص٦٦٧.

يحدثنا الشيخ عن الاعتراض في القرآن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] قائلاً: «فهو من الجدل بالتي أحسن... وجاءت هذه الآية معترضة في قصة نوح، والاعتراض بالجمل أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهود في القرآن.

ومن ذلك الاعتراض بالوصية للوالدين أثناء موعظة لقمان لأبيه، وكذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [٥٥]، فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون..»، ثم ينقل عن «المنار» فوائد الاعتراض، منها: «تنبيه الذهن وتلوين الخطاب والتشويق..»[١]. فأدخل العامل النفسي في هذا الفن.

وقد يتكرر الاعتراض ويتوالى فيكون ضرباً من الكلام المركّب كالذي في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] إذ يقول: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ..﴾ اعتراض قصد به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القسمية، وقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في الاعتراض، قُصد به الزيادة في التعظيم، أي: إنه ليس من الممكن أن تطلعوا عليه اطلاعاً تاماً تفصيلياً لعظم محتوياته»[٢].

٩ـ التذييل:

للتذييل كما يقول أبو هلال العسكري[٣] في الكلام «موقع جليل ومكان شريف، لأنَّ المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً، وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه».

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢٧١).

(٣) كتاب «الصناعتين» ص٣٧٣.

ومن أمثلته في تفسير الشيخ في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، إذ بيَّن أن قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: «أي: مقرون بالإهانة والذل مقابل تكبرهم عن الحق» وأجاز «أن يكون هذا عاماً لعذاب الدنيا والآخرة معاً، فيكون تذييلاً لما قبله»[١].

ونراه يبيِّن ما يحمله التذييل من فائدة في المعنى، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥]، فقد بيَّن أنه سبحانه قرَّر بعد ذلك مضمون هذا التسجيل بتذييل متضمن للتهديد فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

والتذييل مقرِّر للزيادة والكرامة التي يعطيها الله سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨][٣].

١٠ـ أسلوب الحكيم أو القول بالموجب:

وهو أن تحدِّث المخاطب بغير ما يتوقع إما بتجاهلك لسؤاله وإجابته عن سؤال لم يسأله أو يحمل كلامه على غير ما يقصد، وكأنك توجهه إلى ما ينبغي عليه أن يسأله[٤].

ومن أمثلته في تفسير الشيخ ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] إذ بيّن أن المراد: «غرير سريع الانخداع»، ثم بيّن أنَّ «ذلك من أكبر عيوب الرؤساء لما يترتَّب عليه من قبول الغش». ثم قال: «والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجُّحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذن لهم بمعاذيرهم.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٤١).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٢٨).

(٤) «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٢٨٩)، وينظر: «الإيضاح» (٢: ٥٣٢).

وقد ردّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يسمِّيها البلغاء: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، ثم ذكر له من الصفات ما بعث منه لهم أفضل الخير وأعلاه»[١].

وفي قولـه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] يقول: «أي: عَوْذاً معاذاً، يقول الكَفَرة هذه الكلمة استعاذةً واستجارةً بالله أن يمنعهم من الملائكة.. وهي تمثِّل هَوْل ما نزل بهم وجَزَعهم الشديد ولا تُجْديهم نفعاً.. وفي هذا الرد نوعٌ مما يسمِّيه البلغاء القول بالموجب وهو أن يجاري المتكلم السائل ويعكس الأمر عليه، ومحصل الرد: أنهم سيرون الملائكة ولكن بصورة تجلب لهم الويل والثبور لا كمـا يريدون ويشتهون...»[٢]. وذلك أنهم طلبوا نزول الملائكة في الآية السابقة [الفرقان: ٢١].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٦٢، ٣٦٣).

خاتمة

وفي نهاية مطاف رحلتنا مع «منهج الشيخ رشيد في تفسير القرآن الكريم» يمكننا القول:

١ـ خلص البحث في حياة الشيخ رشيد إلى أنَّه ولد لرجل عالم هو الشيخ صالح الخطيب عام ١٣٠٣هـ-١٨٨٦م، وتلقَّى تربية صالحة، وتنشئة علمية ممتازة، أجازه فيها تلميذ أبيه: الشيخ محمد الرضواني عام ١٣٣١هـ. ولم يكتف الشيخ بذلك، بل كانت له نفس نزَّاعة إلى الاستزادة من العلم، وعقلية وثَّابة إلى التجديد والإصلاح. وقد وافقت كتب الإصلاح الوافدة من مصر تطلعاته، فانبرى ينهل منها ويتمثلها.

وكان له من الرصيد العلمي الذي صقله وعمّقه بالقراءة الدائبة، وبالتدريس المخلص في المدارس الرسميَّة وفي بيته، وبعضويته في المجلس العلمي للأوقاف، ممَّا جعله مهيأً لكتابة تفسير كامل للقرآن، فَضْلاً عن عدد من المصنّفات يربُو على السبعين، جلّه ما زال مخطوطاً ومحفوظاً عند حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي، وتلميذه الشيخ إبراهيم النعمة، وقد تجلّى ذلك في الإحصاء الذي قدَّمته في التمهيد.

وقد تلمذ على الشيخ عددٌ كبير من الطلاب، أشرتُ إلى أبرزهم، وخاصَّة الذين أجازهم.

تميَّز الشيخ بأخلاق فاضلة، وسَمَاحةٍ وأريحيَّةٍ تليقُ بمكانته العلميَّة، وبقيت له عقليَّته النيّرة الجادَّة إلى أن لقي ربه، وذلك في ١٩/ ١١/ ١٩٧٩م عليه رحمة الله[١].

---

(١) في وفاته خلاف، أشرت إليه عند ذكر وفاته في مقدمة هذه الرسالة، ورجَّحت وفاته يوم الخميس ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٩م الموافق ٣٠ محرم ١٤٠٠هـ. (مجد).

٢ـ وتبيَّن في الفصل الأول أنَّ الشيخ اعتمد في تفسيره عدداً كبيراً من المصادر المتنوعة، فمن كتب التفسير اعتمد ما يمثل المأثور والمعقول، وما يشمل القديم والحديث، ولم يقتصر على تفاسير لأهل السنة، بل اعتمد تفاسير للمعتزلة والإماميَّة، مُعبِّراً بذلك بحق عن رغبة صادقة في وحدة المسلمين، وعقلية متحرِّرة بعيدةٍ عن التعصُّب.

فقد أفاد من «تفسير الطبري» التفسير المأثور من أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ومن «تفسير الزمخشري» لفتاته البلاغية والعقلية، ومن «تفسير الرازي» نظراته العلمية والعقلية، واعتمد على الأخيرين وعلى الطبرسي في نقل كثير من أقوال مفسِّري المعتزلة القدامى: البلخي والجبَّائي وأبي مسلم، وكذلك القفَّال الذي قيل بتراجعه عن الاعتزال. فضلاً عن أقوال للزجَّاج والأخفش، وأفاد من «تفسير البيضاوي» وابن كثير والبقاعي والجلالين وأبي السعود وغيرهم إفادات متنوعة.

وأما «تفسير جزء عم» لمحمد عبده، وتفسير «المنار» المحتوي على أفكار محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فقد كان له معهما شأن آخر، إذ أكثر من النقل عنهما، ونَحَا منحاهما في التفسير متابعاً لهما في كثير من الأقوال والتأويلات.

وقد نقل من هذه التفاسير باللفظ والمعنى وبإشارة ومن غير إشارة، كما أفاد من تفسير معاصر هو «في ظلال القرآن» وإن لم يشر إليه.

وكانت له فوق ذلك عدَّة نقول عن غير كتاب من كتب معاني القرآن، ككتاب الأخفش والفرَّاء والزجَّاج، وأغلب الظن أنَّ نقوله عن الأخفش والزجاج لم تكن مباشرة، بل كانت عن طريق الطبرسي أو الرازي أو كليهما.

وكانت له نقول في آيات الأحكام وغيرها من كتب أحكام القرآن للجصّاص، وابن العربي، والقرطبي.

وأفاد الشيخ من كتب الحديث المشهورة المعتمدة كـ«صحيحي البخاري ومسلم»، و«سنن الترمذي» و«أبي داود» و«النسائي»، و«مسند أحمد»، فنقل عدداً كبيراً من الأحاديث[1]، فضلاً عمَّا أفاده من الأحاديث من «تفسير الطبري».

واعتمد الشيخ كذلك على كتب اللغة والنحو كـ«كتاب سيبويه»، و«المفردات في ألفاظ القرآن» للراغب، كما كانت له نقول من كتب البلاغة والنقد، كـ«العمدة» لابن رشيق، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني، و«مفتاح العلوم» للسكاكي، و«الإشارة إلى الإيجاز» لعز الدين بن عبد السلام.

وأفاد كذلك من عدد من كتب الدراسات القرآنيَّة القديمة كـ«الإتقان» للسيوطي، والحديثة كمقدمة «صفوة العرفان» لمحمد فريد وجدي، و«التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

وهناك مصادر أخرى متفرقة وحديثة، أفاد منها الشيخ، كـ«الرسالة» و«اختلاف الحديث» للشافعي، و«الفِصَل في الملل والنِّحَل» لابن حزم، و«تاريخ العصور القديمة» لجايمس هنري برستد، كما نقل أقوالاً لمستشرقين وفلاسفة وعلماء نفس، يعضد ما ذهب إليه في التفسير.

٣ـ وتبيَّن من مادة تفسيره جمعه بين المنقول والمعقول، فقد فسَّر القرآن بالقرآن بقرائن متعددة، عقلية ولفظية، سياقية وغير سياقية، وفصّل بالقرآن ما أجمل في بعض المواضع.

---

(١) نقلهُ عن كتب الحديث بواسطة من كتب التفسير التي عُنيت بالمأثور، كابن كثير ولم ينقل عنها مباشرة. كما أورد بعض الأحاديث من كتب الأدب والتاريخ ممَّا لا يصح سنده، بل أورد بعض الموضوعات التي نبّهت عليها في التخريج، وأكثر من تكرار بعض الأحاديث. ونظرة إلى فهارس الحديث تبيِّن طريقته في إيراد الأحاديث واستشهاده بها. (مجد).

وفسَّر بما صحَّ عن الرسول ﷺ من روايات التفسير، وقد يفسِّر الآية بما هو أعم ممَّا يفيده الحديث، وربما أوّل آية تأويلاً عقلياً، وإنْ وجدَ الحديثَ الصحيح في تفسيرها، كما فصَّل بالسنَّة ما أجمل في القرآن، وأورَدَ من الأحاديث ما يلتقي المعاني القرآنيَّة ويقربها للأفهام.

٤ـ ووقف من أسباب النزول موقفاً متحفِّظاً، فاقتصر على الصحيح المفيد منه، وخاصَّة في آيات الأحكام مؤكِّداً القاعدة الأصوليَّة: إنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد نقل كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين، ممَّا يناسب تأويلاته العقلية، وكان كسائر المفسرين لا يجد بأساً أحياناً في مخالفة أقوال الصحابة أو التابعين، إذ عدّ تعدُّد آرائهم دليلاً على جواز التفسير بالرأي.

٥ـ ورجَّح لدى البحث مَيْلَ الشيخ إلى إنكار النسخ في القرآن، فقد أوّل كثيراً من الآيات التي قيل بنسخها، ناقلاً ذلك عن أبي مسلم ومحمد عبده ما ينفي نسخها. وقد حمل قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] بأنه نسخٌ للشرائع متابعاً بذلك رأي أبي مسلم[1].

٦ـ ووقف من الإسرائيليَّات موقفاً مُتشدِّداً، مُنبِّهاً على خطرها، ومُوضِّحاً أنَّ مصدرها ـ قد يكون ـ زنادقة اليهود المُندسِّين في الإسلام للكيْد، ولذلك خلا تفسيره من الإسرائيليَّات إلا ما لا ضرر منه، وقد يستشهد بما في العهد القديم أو الجديد ليوثق وجهة قرآنيَّة أو قولاً في التفسير، واستبدل بالإسرائيليات أحياناً كتب التاريخ.

---

(١) ليس هذا رأي أبي مسلم، بل رأيه أنَّ الآية المنسوخة هي المعجزة. (مجد).

٧ـ كما وقف البحث على مظاهر التفسير العقلي عند الشيخ رشيد، وأهمها:

ـ تسويغ التفسير العقلي في ضوء قلّة المأثور عن الرسول ﷺ في التفسير.

ـ عرضه للآراء العقليَّة حتى مع مخالفتها جمهور المفسرين وخاصَّة ما نقله عن عدد من مفسري المعتزلة، ومن آراء محمد عبده الذي سبقه بالأخذ عنهم.

ـ عنايته بردِّ الآيات المتشابهة إلى المحكمة، انطلاقاً من محاكمة عقلية نفى فيها الجبر في الهدى والضلال، وأوّل ما يوهم ظاهره من الآي بخلاف ذلك، معتمداً أساليب اللغة وأفانينها.

ـ وحمل على التمثيل لا الحقيقة كل ما رآه منافياً في ظاهره من معاني القرآن للعقل.

ـ وأكَّد عصمة الأنبياء، إذ نفى أن يكون الرسول ﷺ قد سُحِر بما ينال من عصمته، وإنما كان ذلك ـ في رأيه ـ محاولة من اليهود كشفها الله عزّ وجل له فأحبطها.

ـ وكان له موقفه العقلي الواضح من المعجزات التي وردت في القرآن، فقد تابع فيها مدرسة محمد عبده، وأضاف إليها من آرائه الخاصَّة في محاولته تأويل هذه المعجزات بما يتناسب مع القوانين الطبيعيَّة، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ـ واهتمامه بالتفسير العلمي مع فهم ووعي لحدوده في القرآن من مظاهر تفسيره العقلي، وربما ندّ عن حقائق علميَّة في بعض ما ذهب إليه.

٨ ـ وقد عَرَض البحث أهم خصائص مدرسة محمد عبده للوصول إلى حقيقة تأثر الشيخ رشيد الخطيب بها بما لا يقبل الشكَّ، حتى إنه ليمكن عدُّه أحد أقطابها، وهذا ما لم يشر إليه الدارسون على كثرة ما كتب عن مدرسة محمد عبده، إلا إشارة الأستاذ عبد الوهاب الكحلة في بحثه المنشور سنة ١٩٨٤.

٩ـ وعلى كثرة نقول الشيخ رشيد من تراث التفسير العريض، القديم والحديث،

وتأثره بمدرسة محمد عبده خاصَّة، كان له تأويلات ومقولات خاصة انفرد بها، قد أغرب في كثير منها. وقد أوردت عدداً منها، ومن ذلك حمله (يأجوج ومأجوج) على الـهمج من الناس والكثير الـمرتبك المشرع إلى الشر، وليس على جيل معيَّن أو قوم مخصوصين كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسِّرين، وكذا تفريقه بين الروح والحياة، وقوله باختصاص الروح بما يعقل من المخلوقات في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩].

١٠ـ وفيما يخصُّ القراءات القرآنيَّة، عرض البحث لما كتبه الشيخ في مقدمته عن جمع المصحف، والأحرف السبع، والقراءات، فتناول بالتحليل أربعة موضوعات:

أولها: اللغة التي نزل بها القرآن، إذ تبيَّن وَهَم الشيخ بقوله بنزول القرآن بلغة قريش.

وثانيها: تناول المراد بالأحرف السبعة، والقراءات السبع، فقد كان ظاهر كلام الشيخ عنهما فيه لَبْس، إذ عدّ في بعض المواضع الأحرف السبعة هي القراءات السبع.

وثالثها: تناول مصدر القراءات، وقد تبيّن فيه أنَّ الشيخ يذهب إلى أنها قراءات القبائل بلهجاتهم. والإشكال في رأيه هذا كما تبيّن عند الرجوع إلى المصادر أنَّ القراءة سُنَّة مُتَّبعة تُنمىٰ إلى الرسول ﷺ قراءةً أو إقراراً، وإن جاء طائفة منها على وَفْق لهجات العرب المختلفة.

ورابع هذه الموضوعات: علاقة المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة، وقد تبيَّن لي أنَّ الخلاف في هذه المسألة شكليّ لا جوهري.

ثم تناول البحث القراءات التي عَرَض لها الشيخ في تفسيره من مشهورة وغير مشهورة وتوجيهها معنوياً ونحوياً صرفياً، وهو عموماً لم يكن مكثراً في عرض القراءات، على منهج كثير من المفسرين.

١١ـ ودلَّ البحث في (اللغة والنحو والصرف) على عناية الشيخ بتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن، وكان منهجه في ذلك يقوم على تفسير مباشر وغير مباشر لتلك الألفاظ.

وقد عُني بالتفريق بين الدلالات المجازيَّة والحقيقيَّة، وما احتمل الاثنين عنده. كما كانت له وقفات عند الاشتراك اللفظي والتَّضادّ والترادف، وقد عُني ببيان الفروق الدلاليَّة بين طائفة من الألفاظ التي يظنُّ بأنها مترادفة، ناقلاً في ذلك عن بعض من عُني بهذا الموضوع ومُرجِّحاً الفروق اللغويَّة بين طائفة من المفردات.

وكان يعمد أحياناً إلى العودة إلى الجذر الاشتقاقيِّ للمفردة ليستنبط منها معاني تتناسب مع المعنىٰ العام للآية.

وأشار إلى دقة اختيار اللفظة القرآنيَّة في موقعها، ويلمح من خلال تفسيره إفادته من أصول اللغة في تحديد دلالات الألفاظ، كالسماع والقياس واستصحاب الحال.

أما في النحو فقد عُني بإعراب عدد من الآيات بغيةَ توضيح المعنى من غير إيغال واستطراد. وكان يمزج النحو بالمعنى، ويعد المعنى الأصل، والنحو تابعاً له، وهذا هو المنهج العدل في التعامل مع نحو القرآن، وعليه كبار قدامى المفسرين كالطوسي والزمخشري ولذا كانت عِللُه في الإعراب معنويّة وليست قياسيّة جدليّة.

كما أشار إلى عدد من القواعد النَّحويَّة المعروفة، ولشدَّة عنايته بالمعنى كانت له مصطلحات تنبثق من المعنى القرآني، ويحمد له ردّه علم المعاني إلى علم النحو من خلال بيانه لوجوه إعراب الآي، والتفت إلى تغيير النَّسق الإعرابي في بعض الآيات، وما فيه من تنبيه لمعنى جديد.

ووقف عند حروف المعاني، يُبيّن معانيها متوسِّعاً في ذلك حسب ما يمليه عليه

النصّ القرآني، ومبيِّناً الفروق الدقيقة بين تلك المعاني. وقد رجّح عموماً أصالة كل حرف في موضعه مستعيناً بالتضمين الفعلي والاسمي على ذلك، وإن كان يقرّ أحياناً قيام حرف مقام حرف.

وفي موضوع الزيادة الحرفية كان يتابع رأي جمهور النحاة بالقول بالزيادة النحوية، مع تأكيده فائدتها المعنوية. وكان اتجاهه النحوي عموماً الميل إلى البصريين.

وعنايته بالصَّرف ليست قليلة، إذ كانت له وقفات صرفيَّة عند المصدر واسم المصدر واختلاف المعنى باختلاف المبنى، وخروج الصيغ عن أصل ما وُضعت له.

١٢ـ وكشف البحث في فصل البلاغة عنايةَ الشيخ الفائقة ببلاغة القرآن، وسرِّ إعجازه، فتبيَّن أن الإعجاز القرآنيَّ عنده عام يشمل النواحي التعبيرية والفكرية والاجتماعية والتربوية والأنباء الماضية والمستقبلة، وقد يضيّق الدائرة قليلاً فيذكر في موضع أن القرآن معجز بتراكيبه واختيار ألفاظه.

عُني الشيخ بعلم المعاني من نظم، وخبر وإنشاء، وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وفصل ووصل، وإيجاز وإطناب، مبيناً في كل ذلك دقائق المعاني القرآنية، كما كانت له عناية بفواصل الآي وتناسبها مع المعنى رافضاً النظرة التقليديَّة التي تذهب إلى ما يُسمَّى برعاية الفاصلة، متابعاً في ذلك محمد عبده.

وعُني بعلم البيان فعرض لتشبيهات القرآن الرائعة من غير اهتمام زائد بتسمياتها الاصطلاحية.

ونبَّه على الفرق البلاغي بين الحقيقة والمجاز، ثم عرض للمجاز العقلي واللغوي بأنواعها، وأكثر بشكل ملحوظ من الإشارة إلى ما سمَّاه عز الدين بن عبد السلام مجاز التضمين، وهو ما لم يشر إليه البلاغيون إلا نادراً.

وعُني بالاستعارة بأنواعها: المكنيَّة والتصريحيَّة، والتمثيليَّة، والتخييليَّة، والتهكميَّة. ووقف عند الكناية في عدد من الآيات مبيِّناً الفرق بينها وبين المجاز.

وكانت للشيخ لمحات عن الصورة الفنيَّة، يرجح أنه أفادها من كتاب «التصوير الفني في القرآن»، كما أكد دور المثل القرآني وفائدته في القرآن.

أما في علم البديع فقد كانت له وقفات مع عدد من المُحسِّنات المعنوية. كالمقابلة التي شملت الطِّباق عنده، وكالمشاكلة التي عني بها واتكأ عليها في نفي شبهة قد ترد في نسبة ألفاظ لا تليق بذات الله سبحانه وتعالى، كالنسيان والمكر وما إليها.

ونبَّه على الالتفات بأنواعه، وما له من دور بلاغي جمالي في أداء المعنى، وعلى التورية، وحُسْن التعليل، واللفّ والنشر، والإبهام، والاعتراض، والتذييل، وما سمَّاه: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب.

وقد أغفل المحسِّنات اللفظية، كما أغفل جانبي الجرس والإيقاع في فواصل الآيات، وفي القرآن عموماً. ويبدو أنَّ عنايته بالمعاني هي التي شغلته عن هذه الجوانب.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات والرسائل الجامعية غير المطبوعة:

١ـ أبو السعود ومنهجه في التفسير، عبد الستار فاضل النعيمي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة في بغداد ١٩٨٨.

٢ـ الاستعارة في القرآن، أحمد فتحي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٨.

٣ـ أسنى الأرب في تاريخ العرب، رشيد الخطيب الموصلي، مخطوط محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النجيفي.

٤ـ الرازي النحوي من خلال تفسيره، طلال يحيى إبراهيم، رسالة ماجستير مقدّمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٦.

٥ـ الطبري المفسر الناقد، كاصد ياسر الزيدي، بحث ألقي في ندوة الإمام الطبري، القاهرة، تموز ١٩٨٩.

٦ـ القراءات عند الزجّاج، كاصد الزيدي، بحث مخطوط ١٩٨٩، مقبول للنشر في مجلة آداب المستنصرية.

٧ـ مخطوط للشيخ الخطيب يعرِّف به نفسه، محفوظ عند حفيده أثيل.

٨ـ مخطوط للشيخ رشيد الخطيب يعرف به نفسه وأباه وجده وشيخه، محفوظ عند أثيل.

٩ـ محاولات حديثة في تيسير النحو العربي، قاسم عبد الرضا كاصد، رسالة ماجستير مقدَّمة إلى كلية الآداب جامعة البصرة ١٩٨٤.

١٠ـ منهج الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن، رافع عبد الله مالو، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٩.

ثانياً: المصادر والمراجع المطبوعة:

١ـ ابن القيم وحسّه البلاغي في القرآن الكريم، لاشين عبد الفتاح، ط١، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢م.

٢ـ اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد المحتسب، دار النهضة، عمان ١٩٨٠م.

٣ـ الاتجاهات الفكرية في التفسير، الشحات السيد زغلول، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، الإسكندرية ١٩٧٧م.

٤ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، الشيخ أحمد بن محمد البنا الدمياطي (ت١١٢٥هـ) حققه وقدم له الدكتور شعبان محمد إسماعيل، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م.

٥ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، ط٤، مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٧٨

٦ـ أحكام القرآن، ابن العربي أبو بكر الأندلسي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتاب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢، القاهرة ١٩٥٨م.

٧ـ أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصّاص (ت٣٧٠هـ)، المطبعة البهيّة المصرية ١٣٤٧هـ.

٨ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.

٩ـ إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩.

١٠ـ اختلاف الحديث، محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، على هامش كتاب الأم، ط١، مطبعة بولاق بمصر ١٣٢٥هـ.

١١ـ ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. مصطفى أحمد النحاس، ط١، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر ١٩٨٤ـ ١٩٨٨م.

١٢ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ)، طبعة محمد صبيح وأولاده بمصر.

١٣ـ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.

١٤ـ أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، عالم الكتب، بيروت.

١٥ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: هـ. ريتر، استانبول، مطبعة وزارة المعارف ١٩٤٥م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ١٩٧٩م.

١٦ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم، عز الدين بن عبد السلام السلمي (ت٦٦٠هـ)، دار الطباعة العامرة ١٣١٢هـ.

١٧ـ إصلاح الوجوه والنظائر، محمد بن علي بن محمد الدامغاني (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.

١٨ـ الأصول، دراسة، تمّام حسان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨م.

١٩ـ أصول الفقه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٠ـ الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٧٩م.

٢١ـ أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، مطبعة الشرق، حلب ١٩٧٩م.

٢٢ـ الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي (ت٣٠٠هـ)، تحقيق: د. عزة حسن، دمشق ١٩٦٣م.

٢٣ـ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، على هامش «الإتقان في علوم القرآن»، ط٤، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٧٨م.

٢٤ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة، مصطفى صادق الرافعي، ط٨، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٥ـ إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: د.زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٠م.

٢٦ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٣، بيروت ١٩٦٩م.

٢٧ـ الإغراب في جدل الأعراب، أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

٢٨ـ الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد محمد قاسم، ط١، مطبعة السعادة، مصر ١٩٧٦م.

٢٩ـ الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، د. عبد الغفار عبد الرحيم، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت ١٩٨٠م.

٣٠ـ الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو بكر بن الأنباري، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى.

٣١ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي (ت٦٩١هـ) في حاشية المصحف الشريف.

٣٢ـ أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٧٣، ١٩٧٤م.

٣٣ـ الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: مازن المبارك، ط٤، دار النفائس، بيروت ١٩٨٢م.

٣٤ـ الإيضاح في علوم اللغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: عبد المنعم الخفاجي، ط٥، دار الكتب اللبناني ١٩٨٣م.

٣٥ـ بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، مطبعة الإرشاد، ط١، بغداد ١٩٨٥م.

٣٦ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٧م.

٣٧ـ البغوي ومنهجه في التفسير، عفاف عبد الغفور، ط١، دار الفرقان، عمان ١٩٨٢م.

٣٨ـ البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب، وكامل حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط١، ١٩٨٢م.

٣٩ـ البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، ط٢، دار الفرقان، عمان ١٩٨٩م.

٤٠ـ البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات بن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: طه عبد الحميد طه، ومراجعة: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ج١: ١٩٦٩م، ج٢: ١٩٧٠م.

٤١ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ، منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت، بغداد، ط٢، ١٩٧٥م.

٤٢ـ تاريخ العصور القديمة، جايمس هنري برستد، المطبعة الأمريكانية، بيروت ١٩٢٦م.

٤٣ـ تاريخ علماء الموصل، أحمد محمد المختار، مطبعة الزهراء، ط٢، الموصل ١٩٨٤م.

٤٤ـ التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، طباعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٧٦م.

٤٥ـ التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، المطبعة العلمية ومطبعة النعمان، النجف ١٩٥٧م.

٤٦ـ تحبير التيسير، ابن الجزري (ت٨٣٠هـ)، تحقيق: عبد الفتاح القاضي، ومحمد الصادق قمحاوي، ط١، دار الوعي، بحلب، مطبعة النهضة الحديثة، القاهرة ١٩٧٢م.

٤٧ـ الترادف في اللغة، حاكم مالك لعيبي، دار الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠م.

٤٨ـ التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، لاشين عبد الفتاح، دار المريخ للنشر، الرياض.

٤٩ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ط٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

٥٠ـ تطور تفسير القرآن قراءة جديدة، محسن عبد الحميد، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة (٥) ١٩٨٩م.

٥١ـ التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، جامعة الموصل، بيت الحكمة ١٩٨٨م.

٥٢ـ التعريفات، السيد الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

٥٣ـ تفسير جزء عم، محمد عبده، الجمعية الخيرية الإسلامية، ط٣، مطبعة مصر ١٣٤١هـ.

٥٤ـ تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي (ت٨٤٦هـ) وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، مطابع دار الكتاب العربي، بمصر، ط٢.

٥٥ـ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦م.

٥٦ـ تفسير القرآن وإعرابه وبيانه، محمد علي طه الدرة، منشورات دار الحكمة، دمشق، بيروت ١٩٨٢م.
٥٧ـ تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، بالأوفست.
٥٨ـ التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ١٩٨٦م.
٥٩ـ جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ط٢، دار المعرفة، بيروت، وطبعة دار المعارف، بتحقيق: محمود شاكر، وأحمد محمد شاكر، القاهرة.
٦٠ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.
٦١ـ الجنى الداني في حروف المعاني، حسين بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: الدكتور طه محسن، دار الكتاب للطباعة والنشر، بغداد ١٩٧٦م.
٦٢ـ جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٠.
٦٣ـ الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي جوهري، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٣٥٠هـ.
٦٤ـ الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، د. عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة.
٦٥ـ الحجة في علل القراءات السبع، أحمد بن أحمد أبو علي الفارسي، تحقيق: علي النجدي ناصيف، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٣م.
٦٦ـ الحجة في القراءات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، ط٤، دار الشروق، بيروت ١٩٨١م.
٦٧ـ دراسات في أصول التفسير، د. محسن عبد الحميد، ط٢، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٤م.
٦٨ـ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد، دار التربية، بغداد.
٦٩ـ دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٧، بيروت ١٩٧٨م.
٧٠ـ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، د. فاضل صالح السامرائي، بغداد ١٩٧١م.
٧١ـ دقائق التصريف، القاسم بن محمد بن سعيد المؤدب (من علماء القرن الرابع الهجري)، تحقيق: د. أحمد ناجي القيس، ود. حاتم الضامن، ود. حسين تورال، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٧م.

٧٢ـ دقائق العربية، الأمير أمين آل ناصر الدين، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٦٨م.
٧٣ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صَحَّح أصله: محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلق على حواشيه: رشيد رضا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.
٧٤ـ الرازي بلاغياً، ماهر مهدي هلال، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد ١٩٧٧م.
٧٥ـ الرازي مفسراً، د. محسن عبد الحميد، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٤م.
٧٦ـ الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
٧٧ـ الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط١، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٤٠م.
٧٨ـ رسالة في علم العقائد، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٦٥م.
٧٩ـ رسالة في مواضيع مهمة، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٧٩م.
٨٠ـ روائع وطرائف، إبراهيم النعمة، مطبعة الخلود، الموصل ١٩٩٠م.
٨١ـ الروح، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار العلوم الحديثة، بيروت.
٨٢ـ السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٨٠م.
٨٣ـ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن إسحاق الأزدي (ت٢٧٥هـ)، ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢م.
٨٤ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، طباعة دار الفكر، ط٢، ١٩٧٤م.
٨٥ـ سنن النسائي، عبد الرحمن بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، طبعة ١٩٦٤م، معه: زهر الربى على المجتبى.
٨٦ـ شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، مكتبة النهضة العربية، بغداد ١٩٨٨م.
٨٧ـ شذرات الذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

٨٨ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت.

٨٩ـ الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطار، دار الكتاب العراقي.

٩٠ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

٩١ـ صحيح مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥م.

٩٢ـ صفوة العرفان في تفسير القرآن، محمد فريد وجدي، مطبعة الشعب بمصر ١٣٢١هـ.

٩٣ـ طبقات الشافعية، عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناجي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٤م.

٩٤ـ طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي أحمد الداودي (ت٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٢م.

٩٥ـ طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، مصوَّرة عن طبعة ليدن ١٨٣٩م، طهران ١٩٦٠م.

٩٦ـ الطبيعة في القرآن، د. كاصد الزيدي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد ١٩٨٠م.

٩٧ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

٩٨ـ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (ت٨٣٠هـ)، عُني بنشره: ج. براجستراسر، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٣٢م.

٩٩ـ الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار الأصيل، حلب.

١٠٠ـ الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)، ط٣، دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩م.

١٠١ـ الفصل في الملل والنحل، علي بن حزم الأندلسي (ت٤٦٥هـ)، المطبعة الأدبية ١٨٩٦م.
١٠٢ـ فصول في فقه اللغة، د. رمضان عبد التواب، ط١، مكتبة دار التراث القاهرة ١٩٧٣م.
١٠٣ـ فقه اللغة العربية، د. كاصد الزيدي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دار الكتب، الموصل ١٩٧٨م.
١٠٤ـ فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٥ـ الفهرست، محمد بن إسحاق بن النديم (ت٣٨٥هـ)، طبعة دار المعرفة، بيروت.
١٠٦ـ فهرس مخطوطات الموصل، سالم عبد الرزاق، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل ١٩٧٥م.
١٠٧ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٧، بيروت ١٩٧١م.
١٠٨ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط٢، ١٩٧٨م.
١٠٩ـ القراءات القرآنية تاريخ وتعريف، عبد الهادي الفضلي، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.
١١٠ـ القراءات القرآنية، في ضوء علم اللغة الحديث، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي القاهرة.
١١١ـ القراءات وأثرها في علوم العربية، د. محمد سالم محيسن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٤م.
١١٢ـ الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٣م.
١١٣ـ كتاب الأضداد، أبو بكر محمد بن قاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، إحياء التراث العربي، الكويت ١٩٦٠م.
١١٤ـ كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت ١٩٨٦م.

١١٥ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٦هـ.

١١٦ـ الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: محيي الدين رمضان ١٩٧٤.

١١٧ـ لسان العرب المحيط، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، قدم له: الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت ١٩٧٨م.

١١٨ـ لمع الأدلة، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

١١٩ـ اللهجة الموصلية دراسة وصفية، ومعجم ما فيها من الكلمات الفصيحة، محمود الجومرد، منشورات مركز البحوث الآثارية والحضارية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، كلية الآداب ١٩٨٨م.

١٢٠ـ مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١٦، بيروت ١٩٨٥م.

١٢١ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٣٩م.

١٢٢ـ المجاز في البلاغة العربية، مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة، حماة، ط١، ١٩٧٤م.

١٢٣ـ مجاز القرآن، معمر بن المثنى التيمي أبو عبيدة (ت٢١٠هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط١، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٩٥٤م.

١٢٤ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١م.

١٢٥ـ محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

١٢٦ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢٧ـ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧١م.

١٢٨ـ مختار الصحاح، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد ٦٦٦)، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩م.

١٢٩ـ مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، عني بنشره: ج. براجستراسر، دار الهجرة.

١٣٠ـ المخصَّص، ابن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٤٥٩هـ)، المكتب التجاري، بيروت.

١٣١ـ مذاهب التفسير الإسلامي، المستشرق اجنتس كولد تسهير، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد ١٩٥٥م.

١٣٢ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، المعروف بأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت ١٩٧٥م.

١٣٣ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٣٤ـ مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، ترتيب وشرح: عبد الرحمن البنا، وسمَّاه: الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، مع مختصر بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، ط١، ١٣٧١هـ، مطبعة الإخوان المسلمين.

١٣٥ـ مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٨م.

١٣٦ـ المصاحف، أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، ط١، المطبعة الرحمانية بمصر.

١٣٧ـ المصحف المفسَّر، محمد فريد وجدي، مطابع الشعب.

١٣٨ـ المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، الرياض ١٩٨١م.

١٣٩ـ معاني الأبنية، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الكويت، ط١، ١٩٨١م.

١٤٠ـ معاني القرآن، سعيد بن مسعدة، الأخفش الأوسط (ت ٢١٠هـ)، تحقيق: عبد الأمير الورد ١٩٨٥م.

١٤١ـ معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق بن السري بن سهل الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد العزيز الجلبي، القاهرة ١٩٨٨م.

١٤٢ـ معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب ١٩٨٠م.

١٤٣ـ معاني النحو، د. فاضل السامرائي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ١٩٨٧م.

١٤٤ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت٦٢٧هـ)، ط٣، دار الفكر ١٩٨٠م.

١٤٥ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار مطابع الشعب.

١٤٦ـ مع سيد قطب في فكره السياسي والديني، د. مهدي فضل الله، رسالة دكتوراه من جامعة السوربون، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م.

١٤٧ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني، ط٢، دار الفكر، دمشق ١٩٦٩م.

١٤٨ـ مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، صورة للطبعة الأولى، طهران.

١٤٩ـ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط١، مطبعة دار الرسالة، بغداد ١٩٨١م.

١٥٠ـ مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت في الربع الأول من القرن الخامس للهجري)، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٥١ـ مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت ٧١٨هـ)، تحقيق: محمد حسين النصار، دار الجيل للطباعة، مصر.

١٥٢ـ المكتفى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: جايد زيدان مخلف، مطبعة دار الأوقاف، بغداد ١٩٨٣م.

١٥٣ـ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦١م.

١٥٤ـ مناهج المفسرين، د. منيع عبد الحليم محمود، ط١، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ١٩٧٨م.

١٥٥ـ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

١٥٦ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الحويني، دار المعارف بمصر.

١٥٧ـ القرطبي ومنهجه في التفسير، د. القصبي محمود زلط، المركز الغربي للثقافة والعلوم.

١٥٨ـ نحو القرآن، أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٧م.

١٥٩ـ في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٦م.

١٦٠ـ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

١٦١ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند ١٩٦٩م.

١٦٢ـ نكت الانتصار لنقل القرآن، أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧١م.

١٦٣ـ النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ)، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م.

١٦٤ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمان ١٩٨٥م.

١٦٥ـ نهج البلاغة، الشريف الرضي، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، تحقيق: محمد عبده، مكتبة النهضة، بغداد.

١٦٦ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

١٦٧ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى (أواخر القرن الثاني الهجري)، تحقيق: حاتم الضامن، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٨م.

١٦٨ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلِّكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١.

ثالثاً: الدوريات:

١ـ التفسير في نهج البلاغة، د. كاصد الزيدي، مجلة رسالة الإسلام بكلية أصول الدين في بغداد، العدد (٣-٤)، ١٩٧١م.

٢ـ تفسير القرآن بالقرآن: نشأته وتطوره حتى عصر الجلالين، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد (١٢)، الموصل، ١٩٨٠م.

٣ـ حول أمراض حضارة العصر والإعجاز الطبي في القرآن، د. عزت نصر، حوار منشور في مجلة الفيصل، العدد (١٥٤) سنة ١٤٠١هـ.

٤ـ رشيد الخطيب الموصلي مفسِّراً، عبد الوهاب الكحلة، مقال منشور في مجلة الرسالة الإسلامية، عدد (١٦٤-١٦٥)، ١٩٨٤م.

٥ـ الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، إبراهيم النعمة، مقال منشور في مجلة إحياء التراث الإسلامي، العدد (١٦) سنة ١٩٨٤م.

٦ـ القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة الجامعة، عدد (٦) ١٩٧٩م.

٧ـ منهج الجلالين في تفسير القرآن، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، الموصل، العدد (٥)، ١٩٧٤م.

❊ ❊ ❊

البيان القرآني

في تفسير

أولى ما قيل في آيات التنزيل

للعلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

بقلم

د. عقيد خالد حمودي العزاوي

كلية التربية بجامعة بغداد

قسم علوم القرآن الكريم

المقدمة

الحمدُ لله الذي كثرت آلاؤه عن الإحصاء، وجلّت نعمه عن الجزاء، تفضَّل على عباده بالنِّعم، لا يريد منهم سوى شكرها؛ ليتفضل عليهم بالمزيد منها: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

نحمدهُ حمداً يليق بجلالِهِ وعظمتِهِ؛ أنزلَ علينا خيرَ كُتُبِهِ، وأرسلَ إلينا أفضلَ رُسُلِهِ، وجعلنا من خيرِ أُمةٍ أخرجتْ للناسِ، من غير حولٍ ولا قوة، فله الحمدُ حتى يرضى، ولهُ الحمدُ بعد الرِّضا.

إلهي لك الحمدُ الذي أنت أهلُهُ ... على نِعَمٍ ما كنتُ قطُّ لها أهلا

متى ازددت تقصيراً تزِدْني تفضُّلاً ... كأنّي بالتقصيرِ استوجِبُ الفَضْلا[1]

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وصفيّه من خلقه، خير الأوّلين والآخرين، إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعدُ،

فلمّا كان كتاب الله خير الكتب، وبيانه أعلى بيان، كانت خدمته من أجلِّ الأعمال وأرفعها، وأعلى القرب وأسمقها، ولهذا قمت بجمع هذه المباحث المتعلقة ببيان القرآن الكريم، الذي أعجز فطاحل العرب بلفظه، وأعياهم بسبكه فكان اختياري لتفسير

---

(١) ديوان محمود الوراق: ١٠٨.

مهم جداً درست فيه وجه إعجاز القرآن البياني لعالمٍ كبير لم يأخذ حظَّه من الدراسة فضيلة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي في تفسيره (أولى ما قيل في آيات التنزيل) أوضحت فيه بلاغة البيان القرآني.

وبيد أنه مع تطاول الأزمنة، وانحراف الألسنة وطغيان اللكنة، افتقد الناس الذوق الذي به يتذوقون كلام الله، ويفهمون أبعاده ومراميه، ومظاهر إعجازه ومبانيه.

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب، والذي فيه يحس القارئ بالظلال الوارفة لكتاب الله، ويعيش لحظات مليئة بالجمال والروعة والفائدة، ويدرك جزءاً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وبعداً من أبعاد البيان القرآني.

ولاشك أنَّ الحرص على هذا الموضوع، كان بسبب من الأهمية الخاصة الذي يحتلها بحث من هذا القبيل.

ومن هنا تكمن أهمية البحث؛ إذ يشخص موقف علم من أعلام المدرسة البلاغية العراقية، وهو الشيخ رشيد الخطيب الموصلي رحمه الله أنَّ الأسباب السابقة تتعاون لتعطي هذا الموضوع أهميته، وهي نفسها الدوافع التي حفّزت الباحث على اختيار الموضوع، والكتابة في ميدانه.

وقد اخترت تقسيم البحث الى فصول، جاء تقسيمها كالآتي: بعد المقدمة يأتي التمهيد الذي تناولتُ فيه لمحة موجزة عن حياة الشيخ رشيد الخطيب مولده، نشأته، وآثاره العلمية[1].

وجاء الفصل الأول؛ إذ تناولت فيه علم المعاني عند الشيخ رشيد، كالخبر والإنشاء والتقديم والتأخير، والحذف والذكر والقصر، والإيجاز والإطناب، والفصْل والوصْل.

---

(١) حذفت هذا التمهيد لأنه مختصر من رسالة الأخ د. خالد المتقدمة، وليس فيه إضافة مهمة (مجد).

أما الفصل الثاني، فقد تناولت فيه صور البيان، مبيناً رأي الشيخ رشيد في التشبيه، ومتنقلاً منه إلى المجاز العقلي وعلاقاته، ثم إلى المجاز اللغوي بقسميه: المرسل والاستعارة، وأخيراً كان الحديث عن الكناية والتعريض.

أما الفصل الثالث، فتناولت فيه ألوان البديع المعنوية واللفظية التي عرض لها الشيخ رشيد الخطيب، مثل: المشاكلة، واللف والنشر، والمقابلة والالتفات وأنواعه، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتورية وحسن التعليل وأسلوب الحكيم، والإبهام، والفاصلة القرآنية، ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث، وقائمة المصادر والمراجع.

ومهما يكن من شيء فأنا أقدم هذا الجهد إسهاماً متواضعاً في خدمة كتاب الله تعالى الذي تفانى علماؤنا السابقون والمحدثون ـ ومنهم صاحب التفسير الخطيب الموصلي ـ في خدمته والذود عنه، وشرحه ودراسته، وبيان ما لبلاغته ونظمه من سمو وإعجاز، يبتغون بذلك وجه الله العلي العظيم، والله عنده حسن الثواب، وإليه المآب.

أ. م. د. عقيد خالد حمودي العزاوي

بغداد ١٤٣١هـ

هدف الدراسة

١) هي الكشف والبيان لكثير من المباحث والأساليب والصور البلاغية، وكذلك الظواهر التي امتاز بها تفسير الخطيب الموصلي، ثم الوقوف عليها وسبْر أغوارها، ومعرفة الإعجاز القرآني والبياني في تفسير (أولى ما قيل في آيات التنزيل).

٢) إظهار قدرة علماء أمتنا ممن خدموا القرآن الكريم، وأرفدوا تراثنا بالكثير من المؤلفات والعلوم، أخص منهم عالمنا الموصلي الذي لم يأخذ حَقّه من الدراسة والبحث.

٣) البحث دراسة جادّة وجديدة بحسب علم الباحث؛ إذ لم يدرس من جوانبه البيانيَّة والبلاغيَّة[١]، على الرُّغم من كثرة فنون هذا العلم في تفسيره، فكان من الواجب الشرعي والعلمي، دراسته وبيان مقدرته للقارئ الكريم والله وراء القصد.

مشكلة البحث الدراسة:

تقع مشكلة الدراسة في التفسير نفسه؛ إذ طبع على شكل أجزاء متفرقة، ولم يطبع دفعة واحدة، فضلاً عن تأخر كل طبعة عن التي تليها من أجزاء التفسير، وزيادة على كثرة الأخطاء الطباعيَّة والفنيَّة ممَّا أثر على مادة الموضوع العلمية، وعزوف كثير من الدارسين عنه، ولقلة المطبوع منه في المكتبات؛ إذ لم تكن نسخ طبعه متساوية من حيث

---

(١) قام الباحث الأخ خالد حماش بجهد مشكور في هذا الجانب، ودرس الجوانب البلاغية في تفسير الخطيب وإن لم يستقص، ولا بد من الإشادة بجهده وتقدّمه في هذا المضمار (مجد).

الأجزاء لاختلاف أوقات طبع أجزائه كل تلك الأسباب وغيرها أثَّرت على المؤلف مما جعله يعيد النظر في تفسيره، فوضع زيادات قد فاتته في أثناء مراجعته للتفسير المطبوع، وحذف بعض المعلومات واستدراكه على ما فاته من معانٍ، وشرح لطائفةٍ من القضايا التي يجب الوقوف عندها. ثم أوصى رحمه الله بأن يعاد التفسير على ما استدرك من إضافات؛ لأنَّه لم يُكملهُ بعد أن أقعده المرض طويلاً. ثم قامت كلية الإمام الأعظم مشكورة بتوزيع أجزاء التفسير على طلبتها في الدراسات العليا لتحقيقه وضبطه وتكملة الزيادات وحذف الموصى به[1]. فتمَّ ذلك والحمد لله، ونوقشت جميع رسائل التفسير الموزعة على الطلبة التسع، فكان اعتمادنا على ما ذُكِر من المطبوع، وإن أشكل علينا النص رجعنا إلى الجزء المحقق. هذه كانت أبرز مشكلة واجهت الدراسة، والله المستعان وعليه التُّكلان.

❊ ❊ ❊

(١) اطلعت على بعض هذه الأعمال، فوجدتها دون المستوى المطلوب، مع اختلاف منهج المحققين، وتفاوت مقدرتهم العلمية، وكثرة التكرار في التراجم المشهورة، والتخريج المسهب دون فائدة، والتعليق في مواطن لا تحتاج إلى تعليق،وإغفال ما يستحق التعقيب والاستدراك. وقد أغنى الله تعالى عن ذلك كله برجوعي إلى نسخة المؤلف الأخيرة، وخدمة الكتاب والتعليق عليه وتخريج أحاديثه، والتقديم له بمقدمة مهمة، وتنسيقه وإخراجه بهذا المظهر اللائق مع إضافة دراسة الأخ الدكتورخالد حماش، مع الفهارس العلمية المتنوعة (مجد).

الفصل الأول
علم المعاني

علم المعاني هو تطبيق عملي لفكرة النظم التي شرح بها عبد القاهر الجرجاني إعجاز القرآن الكريم والتي عرَّف النظم فيها بقوله: «اعلم أنْ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تحل بشيء منها»[١].

أي: أنَّ النظم عنده هو تأليف الكلام على وَفق أبواب النحو المختلفة، وعليه فإن أهم ما يميز هذا العلم ارتباطه بالنظم النحوي، وقد عُرفَ (النظم) قبل عبد القاهر، إذ قال عنه الجاحظ قال: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك»[٢].

وعُرف هذا العلم أيضاً عند سيبويه وابن قتيبة والمبرّد والرماني والباقلاني وغيرهم من العلماء والتي كانت آراؤهم بمثابة الخيوط الأولى للفهم الدقيق لعلم المعاني المعتمد على طريقة سبك الكلام.

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٦٤.

(٢) الحيوان (٣: ١٣١-١٣٢).

ومن خلال نظرية النظم تعددت موضوعات علم المعاني مثل: الفصل والوصل، وحروف العطف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والخبر والإنشاء... وهذه تقسيمات السكاكي الذي جاء بعد الجرجاني. وهذه المباحثُ درسها المفسرون في تفاسيرهم كالزمخشري والقرطبي والبيضاوي وأبي حيان ومفسرنا رشيد الخطيب الموصلي الذي تناول هذه المباحث في تفسيره «أولى ما قيل».

وعلم المعاني قد عرفه البلاغيون ومنهم السكاكي بقوله: «اعلم أن علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[1].

أي: هو العلم الذي يبحث أحوال اللفظ مثل التعريف والتنكير والإظهار...، وغير ذلك ويتبين كيف تكون هذه الأحوال واقعة في الكلام موقعاً تطابق دواعي النفس، ولم تأتِ زائدة ثقيلة، ولا متكلفة كريهة وهذه الأحوال هي الهيئات والكيفيات.

❊ ❊ ❊

(١) مفتاح العلوم، ص١٦١.

المبحث الأوّل
الخبر والإنشاء

الخبر:

الخبر (لغة): خبرتُ بالأمر أي: أعلمته، وخبرت الأمر أخبرُهُ إذا عرفته على حقيقته، والخبر ـ بالتحريك ـ واحد الأخبار، والخبر: ما أتاك من نبأ عمَّن تستخبر، والخبر: النبأ، وخبرّه بكذا وأخبره: نبأه[١].

والخبر في الاصطلاح: تناول العلماء المتقدمون هذا المصطلح البلاغي بالبحث والدراسة، منهم المبرد بقوله: «الخبر ما جاز على قائله التصديق والتكذيب»[٢]، وبهذا المعنى قال أكثر العلماء الذين جاؤوا بعده[٣].

وأوضح ابن فارس الفرق في تعريف الخبر بين أهل اللغة وأهل البلاغة، فأهل اللغة لا ينظرون إلى الخبر إلا بوصفه إعلاماً للآخرين أما أهل النظر فيقسمونه على كلام صادق أو كاذب. يقول ابن فارس: «أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من

---

(١) لسان العرب، مادة (خبر).

(٢) المقتضب (٣: ٨٩).

(٣) ينظر: قواعد الشعر، لثعلب، ص٢٥، والبرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، ص١١٣، والصاحبي، لابن فارس، ص١٧٩، والفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص٣٢.

أنه إعلام... والخبر هو العلم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستقبل دائم»[١].

وأخذ القزويني برأي الجمهور فقال: «اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا، فقال الأكثر منهم: صدقُهُ مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو المشهور عليه التعويل»[٢].

أضرب الخبر:

استنبط البلاغيون من أسلوب الكلام ثلاثة أنواع للخبر، فإن جاءت الجملة الخبرية خالية من المؤكدات سُميَّ الخبر ابتدائياً، وإذا أُكدت الجملة بمؤكد واحد كان الخبر طلبياً، وإن أكدت الجملة بمؤكدين أو أكثر كان الخبر إنكارياً.

قال القزويني في بيان أضرب الخبر: «فإن كان ـ المخاطب ـ خالي الذهن من الحكم والتردد فيه استُغني عن مؤكدات الحكم، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام إذ كذبوه في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾[٣]، ويسمَّى الضرب الأول ابتدائياً، والثاني طلبياً، والثالث إنكارياً»[٤].

وقد نبّه الشيخ رشيد في تفسيره على بعضٍ من هذه الصور، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]، فقال: «فيؤكد الخبر بلام الابتداء مع أنّ

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١: ٣٦١).

(٢) الإيضاح، ص١٧، والتلخيص، ص٣٨.

(٣) هذا جزء من قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٤-١٦].

(٤) ينظر: الإيضاح، ص٢٣.

المجيء قد وقع؛ إذ إنَّ هذا القول يكون يوم القيامة، وذلك بما كان من جحودهم إيَّاه واستبعادهم لوقوعه واستهزائهم به»[١].

ومنه أيضاً ما قاله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]: «ومن بلاغة القرآن: تأكيد الجملة الثانية باللام دون الأولى؛ لأنها في العقاب»[٢]. فهذا البيان للمعنى يدل على فهمه لهذه الأضرُب.

أغراض الخبر[٣]:

للجملة الخبرية غرضان أصليان وضعا باعتبار المخاطَب أو المتلقي وهما:

فائدة الخبر: ومعناه أن تفيد الجملة المخاطبة المعنى الذي تحمله؛ لأن المتلقي لا يعرف بالحكم نحو (زيد قائم) لمن لا يعرف.

لازم الفائدة: ومعناه أن تفيد الجملة المخاطبة أنَّ المتكلم عالم، نحو: أنت جئت: لمن قام بالمجيء.

ولكن الخبر يخرج عن ظاهر معناه إلى معانٍ باعتبار حال المتكلم وفعل المخاطب، فالسبب مرتبط بالنتيجة، والسبب هو فعل المخاطب الذي أدى إلى نتيجة الخبر، فقد يخرج الخبر بلاغياً إلى الإنكار والطلب والتعظيم...

وهذا مجمل ما ذكره العلماء بخصوص الخبر ومعناه وأغراضه وأنواعه، وبعد هذا العرض لابد من دراسة الخبر في تفسير «أولى ما قيل» لرشيد الخطيب.

---

(١) أولى ما قيل، (١: ٦٥٤).

(٢) أولى ما قيل: (٣: ٤٠٢).

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: (٢: ٤٧٨).

الخبر في تفسير أولى ما قيل:

بحث المفسرون في القرآن الكريم عن الجملة الخبرية، وأبرزوا أغراضها البلاغية في أحيان كثيرة، وكان هدفهم من دراسة الخبر ذكر الألوان البلاغية الكامنة في هذا الأسلوب المتنوع، لإيضاح المعاني القرآنية وإظهار إعجاز أسلوب القرآن الكريم، ومن أغراض الخبر التي ذكرها رشيد الخطيب:

١) الخبر للدعاء:

ومن الآيات التي جاء بها الخبر على سبيل الدعاء قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، قال رشيد: «أي: صرف الله قلوبهم عن الاهتداء، بسبب أنهم لا يتدبَّرون ليفقهوا الحق، فهم لا يستعملون عقولهم في ذلك وهذه الجملة للدعاء والخبر معاً، والمغزى واحد»(١).

وهذا المعنى قال به أكثر المفسرين، قال أبو حيان: «﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صيغته خبر، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان»(٢).

٢) الخبر للبشارة:

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، قال رشيد الخطيب: «ونكتة إيراد هذا الحكم

---

(١) أولى ما قيل: (٤: ١٤٤).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٥: ١٢٠)، وينظر: الكشاف، الزمخشري (٢: ٣١٠)، والجواهر الحسان، الثعالبي (٢: ١٤٩).

بلفظ الخبر الإشارة إلى جعله بشارة للمؤمنين الفقهاء الصابرين، بأنهم يكونون كذلك فعلاً، بفقههم ونظرهم الصائب كما يفهم ذلك من فحوى التعليل بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾... ومعنى اللفظ الخبري، أن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم مائتين من الذين كفروا المجردين من هذه الصفات الثلاث، والآية تشعر بأن العلم مصدر البسالة والقوة المعنوية...»[١].

وذكر أغلب المفسرين أن الخبر بمعنى الوعد[٢].

٣) الخبر للتقرير:

ويأتي الخبر للتقرير نحو قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال رشيد: «أي: لا تجدهم وادِّين أعداء الله ولو كانوا أقرب أقربائهم. والمعنى لا تجتمع موالاتهم الكفار في الدين مع الإيمان إذا كانت موالاة تجر إلى الضرر في الدين، وصاغ العبارة بصورة الخبر الواضح مبالغة في تقريره»[٣].

وقال الشنقيطي: «وردت هذه الآية بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء»[٤]، وهذا ما قاله الماوردي[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٩).

(٢) ينظر: الكشاف (٢: ١٦٧)، والجامع لأحكام القرآن (٧: ٤٠١)، ونظم الدرر (٨: ٣٢٠-٣٢١)، والتسهيل (٢: ٦٨)، والبحر المحيط (٤: ٥١٦)، وأنوار التنزيل (١: ٣٩٠)، وتنوير الأذهان (٢: ٦٥١).

(٣) أولى ما قيل (٧: ٣٣٠).

(٤) أضواء البيان، ص١٨٤٩.

(٥) ينظر: النكت والعيون (٥: ٤٩٦).

٤) الخبر بمعنى الأمر:

نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، قال رشيد: «وهذا ضرب من بلاغة الأسلوب والإيجاز لا تجد له مثيلاً في غير القرآن: خاطب أولي الأمر بما لقَّنه للساقي خطاب الآمر للمأمور الحاضر، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمراً سبع سنين بلا انقطاع. فالكلام خبر بمعنى الأمر. وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به. والدليل على كونه بمعنى الأمر قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧]، أي: فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي: ادَّخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه فيبقى الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب»[١].

وهذا ما ذهب إليه البغوي بقوله: «هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة»[٢].

وقال الرازي: «وهو خبر بمعنى الأمر... وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنه وجد لكي يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾. وقوله: ﴿دَأَبًا﴾»[٣]، وهذا ما ذكره الزمخشري والنسفي والماوردي[٤].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٣١١).

(٢) معالم التنزيل (٤: ٢٤٧).

(٣) التفسير الكبير (١٨: ١٢٠).

(٤) ينظر: الكشاف (٢: ٤٤٩)، ومدارك التنزيل (٢: ١٩٢)، والنكت والعيون (٣: ٤٤).

المبحث الثاني
الإنشاء

الإنشاء لغةً: هو الابتداء أو الخلق، أو الابتداع[١].

وهو في الاصطلاح: الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه[٢].

وقد علَّل البلاغيون عدم احتمال التكذيب والتصديق في الإنشاء؛ لأنه يدل على حدث لم يقع من قبل. وفرقوا بين الخبر والإنشاء اعتماداً على ذلك.

فالقزويني يقول: «ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون لها خارج. الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء»[٣].

وينقسم الإنشاء على قسمين: طلبي وغير طلبي:

الطلبي: هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، نحو: اعمل خيراً.

غير طلبي: هو ما لا يستدعي مطلوباً نحو: أكلت وشربت، وللإنشاء غير الطلبي صيغ كثيرة، كأفعال المدح والذم كـ نِعْم وبئس، وكفعلَي التعجب، وكأفعال المقاربة:

---

(١) لسان العرب، مادة (نشأ).

(٢) ينظر: التعريفات، ص٣٠.

(٣) الإيضاح، ص٨٥، والتلخيص، ص١٥١، والطراز (١: ٦١).

عسى واخلولق، وكصيغ العقود: كـ(بعت واشتريت)، والقسم. واستبعد البلاغيون هذا النوع من مباحث علم المعاني؛ لأن تلك الأساليب أخبارٌ نقلت إلى الإنشاء.

ولنتعرف الآن على أنواع الإنشاء الواردة في تفسير رشيد الخطيب، التي سنتناولها بالدراسة والتحليل، فكلما وردت آية حملت نكتة بلاغية، أشار إليها وفسر مقتضاها البلاغي، وما يخرج إليها من مقاصد بلاغية، وإليك التفصيل.

أقسام الإنشاء الطلبي:

أولاً: الأمر

الأمر في البلاغة: طلب فعل الشيء على وجه الاستعلاء، وعرَّفه العلوي بقوله: «هو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»[1].

وللأمر أربع صيغ هي:

١ـ فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

٢ـ المضارع المقرون بلام الأمر، كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

٣ـ اسم فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤ـ المصدر النائب عن فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) الطراز (٣: ٣٨١).

ويخرج الأمر إلى أغراض بلاغية تعرف دلالاتها من سياق الكلام، ومن تلك الأغراض الواردة في تفسير «أولى ما قيل»:

١) الأمر للتهديد والوعيد:

ويأتي الأمر على سبيل التهديد والوعيد كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، قال رشيد: «فإن لم يعتبر كفاركم بمعاقبة من قبلهم، فسيرون ما يحل بهم. والأمر بالصبر تهديد ووعيد»[١].

وهذا المعنى ذكره المفسرون ومنهم أبو حيان الذي قال: «ففي قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ قوة التهديد والوعيد هذا ظاهر الكلام وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار»[٢] وتبعه الشوكاني[٣]. أما الإمام أبو السعود فذكر أن هذا الأمر بمعنى: «وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين»[٤]، في حين اكتفى الألوسي في ذكر أن هذا الأمر للوعيد فقط[٥].

٢) الأمر للتكوين:

ويأتي الأمر على سبيل التكوين، وذكره ابن فارس قائلاً: «إنه لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى»[٦]، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، قال رشيد: «إنَّ إيجاد الله سبحانه للأشياء مجرد إرادة عليه لا معالجة فيها ولا نصب، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٥٢).

(٢) البحر المحيط (٤: ٣٤٢).

(٣) ينظر: فتح القدير (٢: ٣٢٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣: ٣٤٨).

(٥) ينظر: روح المعاني (٨: ١٧٩).

(٦) الصاحبي، ص١٨٥، ومعترك الأقران، للسيوطي (١: ٤٤٢).

هو المسمَّى بالأمر التكويني. والكلام تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات بأنه لا يزيد على تعلق مشيئته تعالى بها، وتصوير لسرعة حدوثها بعد تدرجها في سنن التكوين. وفي الآية إيماء إلى أن الله سبحانه هو الذي يملك سر التكوين، ولا يعلم ذلك السر إلا الله»[١].

٣) الأمر بمعنى الخبر:

ويأتي الأمر بمعنى الخبر ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

قال رشيد: «وعدد السبعين في عرف العرب بمعنى الكثرة. فليس المراد به العدد المعيَّن وليس له مفهوم مخالفة. والمعنى: مهما تكثر من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم. والأمر هنا بمعنى الخبر»[٢].

وهذا المعنى قال به أكثر المفسرين[٣]، وذهب ابن عطية إلى معنى التخيير قائلاً: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون لفظه أمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣]، والمعنى الثاني: أن يكون تخييراً كأنه قال له: إن شئت فاستغفر وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة»[٤]، ورجَّح أن هذا هو الصحيح، وتبعه ابن جزي في ذلك[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٩).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١١٥).

(٣) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢: ١١١)، وجامع البيان (١٤: ٢٩٣)، وإرشاد العقل السليم (٤: ٨٧)، ومدارك التنزيل (٢: ١٠١)، والبحر المحيط (٥: ٧٨)، وبحر العلوم، للسمرقندي (٢: ٧٧)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ١١٤).

(٤) المحرر الوجيز (٣: ٧٢).

(٥) ينظر: التسهيل (١: ٤٦٨).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦]، قال رشيد: «أي: فلترضع له مرضعة أخرى غير أمِّه، وإنما أورد الأمر على صورة الخبر، ليكون فيه تأنيب للأم. والله أعلم»[١].

وقال أبو حيان: «وقيل: ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾ خبر في معنى الأمر: أي: فلترضع له أخرى»[٢]. فالآية عنده ليست أمر في معنى الخبر، بل على العكس وهذا ما ذكره الألوسي أيضاً[٣].

٤) الأمر للتهكم:

ويخرج الأمر لغرض التهكم، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، قال رشيد: «أي: فليتوصل إلى السماء وليقطع المسافة البعيدة، وليعارض نصر الله إن قدر، وليشف غليله... والمعنى مبنيٌّ على العرف العام، وهو أن الأمر الذي يأتي من قبل الله يأتي من السماء أي: فليقاوم السماء إن قدر، وقيل: المراد فَلْيَمْدُدْ بحبل يخنق به نفسه ويقطعه. وعلى كلٍّ فالآية تمثيل أدبيٌّ بليغ مأخوذ من عرف المخاطبين، سيق إغاظةً وتهكماً بمن كان يعتقد أن رسول الله ﷺ ضال في دعوته وأعماله الفاشلة»[٤].

وإلى هذا المعنى ذهب ابن كثير[٥]، فيما أشار ابن عاشور[٦] والشنقيطي[٧] إلى أن هذا الأمر للتعجيز.

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٢٠).

(٢) البحر المحيط (٨: ٢٨١).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢٨: ١٤٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٢٢٢-٢٢٣).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣: ٢٨٣).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير (١٧: ١٥٩).

(٧) ينظر: احتواء البيان، ص٩٨٢.

٥) الأمر للدعاء:

يأتي فعل الأمر على سبيل التضرّع وطلب الحاجة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

قال رشيد: «جعل هذا البيان توطئة للدعاء عليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي: بالآفات والحوائج حتى لا يرى لها أثر. ثم نسق مع الدعاء عليهم بيان تحريفهم لطباعهم ليكون كالتعليل الضمني له، وأخرجه مخرج الدعاء، وساق مساقه فقال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: بما أحاطت بها خطيئاتهم حتى أفقدوها نورها واستعدادها للهدى والرشاد... وإنما أخرجه مخرج الدعاء ونسقه معه، مبالغة في إظهار اليأس منهم»[١].

وقال البيضاوي: «دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم من ممارسة أحوالهم...»[٢] وهذا ما ذكره الزمخشري[٣].

٦) الأمر للإهانة:

ويخرج الأمر للإهانة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا * أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٠]، قال رشيد: «فأجابهم بجواب صيغ نظمه على الاستهانة بالأمر والاستخفاف به، مهما كان حاله»[٤].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٩٧).

(٢) أنوار التنزيل (٣: ٢١٢).

(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٣٤٧).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٥٤٤).

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول، سوى السمرقندي الذي ذكر أن الأمر في الآية بمعنى الخبر قائلاً: «اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر، يعني لو كنتم من الحجارة أو من الحديد أو خلقاً مما يكبر في صدوركم»[١].

٧) الأمر للامتنان:

ويجوز أن يخرج الأمر إلى معنى الامتنان بحسب مقام الكرام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، قال رشيد: «ويتضمن هذا الأمر الامتنان»[٢].

وذكر الألوسي أن الأمر هنا للإباحة[٣]. وذهب ابن جزي إلى معنى التذكير والإنعام[٤]، في حين قال ابن عاشور: «صيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة والامتنان»[٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، قال رشيد: «ثم زاد التحسيس تمنناً بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ أي: من هذه المخرجات المباركات المنوعات»[٦].

وإلى هذا المعنى ذهب القرطبي[٧] والشوكاني[٨]، وذكر ابن عاشور أن «الأمر للإباحة مراد به المنَّة»[٩].

---

(١) بحر العلوم (٢: ٣١٥).
(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٥٠).
(٣) ينظر: روح المعاني (٢٩: ١٥).
(٤) ينظر: التسهيل (٤: ١٣٥).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩: ٣٠).
(٦) أولى ما قيل (٥: ١١٣).
(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١١: ١٩٠).
(٨) ينظر: فتح القدير (٣: ٥٢٩).
(٩) التحرير والتنوير (١٦: ١٣٤).

ثانياً: النهي

وهو طلب الكفّ عن الفعل، استعلاءً، قال السكاكي: «للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك: (لا تفعل)، والنهي محذو به حذو الأمر في أنَّ أصل استعمال (لا تفعل) أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإنْ صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب»[١]. فالوجوب والإلزام شرطان يلازمان أسلوب النهي ويعنيان وجوب إلزام المخاطب بما ينهي عنه، والسكاكي يوازن بين أسلوب الأمر وأسلوب النهي فيرى أن الأسلوبين يشتركان في اعتبار الاستعلاء والأخير، ونقصد بالآخر أن الأمر والنهي يقصدان الآخر فلا يمكن لإنسان أن ينهىٰ نفسه أو يأمرها.

أما وجه الخلاف بين الأسلوبين فهو أن لكل منهما صيغة خاصة به. «الأمر دالٌّ على الطلب، والنهي دلَّ على المنع، وأن الأمر لابدَّ من إرادة مأمورة، وأن النهي لابدَّ فيه من كراهية منهيَّة»[٢].

ويخرج النهي إلى أغراض مجازية، ومما ورد منها في تفسير «أولى ما قيل»:

١) النهي للتأكيد والتقرير:

وقد يأتي النهي للتأكيد والتقرير، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، قال رشيد الخطيب: «ثم عاد إلى الخطاب العام وختم السياق بما بدأه وهو النهي عن الإشراك بالله تأكيداً له وتقريراً، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ تعبده أو تصمد إليه أو تستوسط به أو تستوكل عليه أو تتبع تشريعه وتعليمه»[٣].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٥٢-١٥٣، وينظر: الإيضاح، ص٢٤٤، وتهذيب السعد (٣: ٤٣).
(٢) تهذيب السعد (٣: ٢٤٨).
(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٤٠).

ولم يقل هذا المعنى سوى الشيخ الجزائري[١].

في حين ذهب أغلب المفسرين إلى أن النهي في هذه الآية هو للتنبيه. قال البيضاوي: «تنبيهاً على أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاه، وأن من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وأنه رأس الحكمة وملاكها»[٢].

٢) النهي للاحتقار:

ويأتي النهي للاحتقار نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨].

قال رشيد الخطيب: «وبعد أن ذكَّره بهذه النعمة التي لا يماثلها شيء زهَّده في زخارف الدنيا التي أفاضها على المعاندين له والمعارضين لما نزل عليه، لتكون الدنيا من حظهم والآخرة من حظه، وهو أمر يوافق ما في نفسه ﷺ، ولكنه جاء النهي لمجرد المبالغة في التهييج، فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار، ويجوز أن يتعلق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾. أي: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار من أصناف النعم والأنعام والأموال فإنها مستحقرة بالإضافة إلى ما أوتيته من نعمة القرآن، كأنه قيل: إنك أوتيت هذا القرآن العظيم الذي كل شيء غيره لا شيء فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات إلى زخارف الدنيا الحقيرة. وهذا ليس على ظاهره؛ لأنه ﷺ لا تمتد عينه إلى ذلك، ولكنه إما لشدة البيان عن زهادة زخارف

---

(١) ينظر: أيسر التفاسير (٣: ١٩٥).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (٣: ٤٤٧)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٧٣)، وروح المعاني (١٥: ٧٧)، والسراج المنير (٢: ٢٤).

هذه الحياة، وإما نهيٌ للأمة في شخص النبي ﷺ. وذلك على نهج القرآن في أساليبه. ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجة مقاطعة المشركين لهم، وهجرتهم عن ديارهم وأملاكهم. وما كان عليه الكفار من التمول والغنى. والحروب تحتاج إلى الأموال: كل ذلك يحز في نفسه ﷺ، فوعظه مع أتباعه سبحانه وتعالى وهون عليه»[١].

وذهب الزمخشري بالقول: «وقد أوتيت النعمة العظمى التي كل النعم وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي القرآن الكريم»[٢]، وقال أبو حيان: «ولمّا ذكر تعالى ما أنعم به على رسوله ﷺ من إتيانه ما أتاه نهاه، وقد قلنا: إن النهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة عن طموح عينه إلى شيء من متاع الدنيا هذا وإن كان خطاباً للرسول ﷺ فالمعنى نهي أمته عن ذلك؛ لأن من أوتي القرآن شغله النظر فيه وامتثال تكاليفه وفهم معانيه»[٣]. وعلى ذلك يكون ما ذكره رشيد في تفسير الآية الكريمة موافقاً لما ذكره أبو حيان في كون صيغة النهي هنا موجهة إلى الرسول ﷺ، ولكن المراد به أمة الإسلام؛ لأنَّ النهي قد يذكر للجزء ويراد به الكل، فعلى كل مسلم ألا يمد عينيه إلى ما استحسن من مفاتن الدنيا، لأن القرآن يغني عن كل متعة وزخرف للدنيا.

٣) النهي للكراهية:

ويأتي النهي للكراهية نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال رشيد الخطيب: «ثم نهانا عن الزهو والتكبر والاختيال، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالاً زاهياً، وهو حال ينبعث عن الإخلال بغريزة حُبّ الكمال، وفسادها بالتربية السيئة والتوجيه الرديء، فيتولد منها الشعور بالترفع والعظمة واحتقار

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٤٧).
(٢) الكشاف (٢: ٣٩٧).
(٣) البحر المحيط (٥: ٥٤٢).

الغير، وهو أمر مضر بالإجماع ضرراً فادحاً»[١]. فصيغة النهي ﴿لَا تَمْشِ﴾ خرجت بلاغياً إلى معنى الكراهية، ودلَّت على هذا المعنى قرينتها ﴿فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فالقرائن اللغوية تعطي غرض اللغة ودلالاتها المعنوية.

وقال القرطبي: ﴿وَلَا تَمْشِ ...﴾ هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع. والمرح: شدة الفرح، وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي، وقيل: هو البطر والأثر. وقيل: هو النشاط. وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم، والآخر محمود»[٢].

وفسَّر أبو حيان الآية معتمداً على تفسير الزجاج والزمخشري فقال: «قال الزجاج: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقال الزمخشري: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك... وهو تهكم المختال»[٣] ويضيف أبو حيان قائلاً: «والتهكم: يحمل معاً شيئاً من الكراهية؛ لأنَّ التهكم ينبع من كراهية»[٤].

ثالثاً: الاستفهام

الاستفهام لغةً: جاء في لسان العرب: «معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهَّمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً»[٥].

والاستفهام بلاغياً: هو طلب العلم بالشيء المجهول وهو من صيغ الإنشاء الطلبي.

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٥٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١: ٢٣٤).

(٣) الكشاف (٢: ٦٢٤).

(٤) البحر المحيط (٦: ٣٧).

(٥) لسان العرب، مادة (فهم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٨١).

وعرفه السكاكي بقوله: «والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق»[١].

فإذا كان التردد في الوقوع أو اللاوقوع فهو التصديق، وإذا كان التردد في المفرد فهو التصور المعنوي كقولنا: «أقام زيد» يكون الاستفهام للتصديق أي: لوقوع الفعل، أما إذا قلنا: «أزيد قام أم عمرو؟» يكون الاستفهام للتصور. والفرق بين الهمزة التي يطلب بها التصور أو التصديق: أن كل ما صلح أن يؤتى بعده بأم المتصلة فهو استفهام عن التصور.

وللاستفهام ألفاظ موضوعة له[٢] وهي: (الهمزة)، و(هل)، و(ما)، و(من)، و(أيّ)، و(لِـمَ)، و(كيف)، و(أين)، و(أنَّى)، و(متى)، و(أيَّان).

وقد يخرج الاستفهام مجازياً إلى أغراض بلاغية تعرف من سياق الكلام وقرائن الألفاظ. قال القزويني: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»[٣].

وأهم هذه الأغراض الواردة عند رشيد الخطيب:

١) الاستفهام للتنبيه:

وهو من أقسام الأمر[٤]، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، قال رشيد الخطيب في تفسير هذه الآية: «وهذا الاستفهام تمهيد لما بعده، يتضمن

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٤٦.
(٢) ينظر: الإيضاح (١: ٢٢٨).
(٣) الإيضاح (١: ٢٣٤).
(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٩١).

تنبيهاً وإيقاظاً لما سيريه من العجائب المخالفة لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام مما عدده لها»[١].

وهذا المعنى البلاغي قاله أبو السعود في تفسيره: «فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب»[٢].

وذهب الخازن إلى أنه: «سؤال تقريع، والحكمة فيه تنبيهه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة»[٣].

في حين ذهب أغلب المفسرين إلى أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة هو استفهام تقرير[٤].

٢) الاستفهام للاستبطاء:

يخرج الاستفهام إلى معنى الاستبطاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]، قال رشيد: «وهذا استفهام أخرج مخرج الاستبطاء، وفي طياته إغراء، وحمل على التجمُّع»[٥].

وإلى هذا المعنى ذهب أكثر المفسرين[٦]، قال أبو حيان في معرض تفسيره للآية:

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٠٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦: ٩).

(٣) لباب التأويل (٤: ٢٦٦).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥: ٢٧٩)، والتسهيل (٢: ١٧٠)، والمحرر الوجيز (٤: ٥٠)، وأيسر التفاسير (٣: ٣٤٣)، والبحر المديد (٤: ٦٨٨).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٣٩٨).

(٦) ينظر: الكشاف (٣: ٣١٧)، ومدارك التنزيل (٣: ١٨٤)، وإرشاد العقل السليم (٦: ٢٤٢)، وأنوار التنزيل (٤: ٢٣٧)، والسراج المنير (٣: ٣٣).

«استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم، كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق»[١].

٣) الاستفهام الإنكاري:

ويخرج الاستفهام إلى معنى الإنكار، نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود: ١٣]، قال رشيد الخطيب: «واختار الأستاذ الإمام أن (أم) في أول الكلام تكون للاستفهام. وهو هنا للإنكار. والمعنى: أيقولون: إنَّ محمداً افترى هذا الكلام»[٢].

وهذا ما ذهب إليه الألوسي وابن عاشور[٣]، وقال أبو السعود: «الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب»[٤]، وذهب الشوكاني إلى أن: «الاستفهام للتوبيخ والتقريع»[٥]، ولم يصرح الطبري بالاستفهام وإنما اكتفى بتقديره قائلاً: «ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: أيقولون افتراه؟»[٦]. وذكر رشيد أمثلة متعددة في تفسيره[٧].

وهذا الإنكار يأتي على أنواع بلاغية متعددة ذكرها المفسرون ومنهم مفسرنا رشيد الخطيب، ومن هذه الأنواع:

أ) **الاستفهام الإنكاري الهازئ:**

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠].

---

(١) البحر المحيط (٧: ١٥).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٢١٧)، وينظر: تفسير المنار (٧: ٢٣٨).

(٣) ينظر: روح المعاني (١٢: ٢٠)، والتحرير والتنوير (١١: ٢١٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤: ١٩١).

(٥) فتح القدير (٢: ٧٠٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٥: ٢٥٩).

(٧) ينظر: أولى ما قيل (٤: ١٧٣)، (٨: ٦٥)، (٨: ٢٦٤).

قال رشيد الخطيب: «بمعنى: أي جند لكم ينصركم مني، فالاستفهام إنكاري هازئ مُسفِّه لهم كأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم: بأي قوة تعصونني: ألكم جند يدفع عنكم عذابي غير رحمتي، وأتى بكلمة الذي ليتناول الفرد»[١].

وذكر أبو السعود أن الاستفهام للتبكيت[٢]، واقتصر الألوسي على معنى التهكم[٣]، وقال أبو حيان: إن الاستفهام للتقريع والتوبيخ[٤]، في حين ذكر بعض المفسرين أن الاستفهام هنا للإنكار[٥].

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]. قال رشيد الخطيب: «والاستفهام للإنكار والاستهزاء. والمعنى: أدينك هذا يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نتصرف في أموالنا بما نستطيع من حذق واحتيال على الكسب من الناس»[٦].

وذكر الزمخشري الآية على طريق السخرية والهزء، وتابعه البيضاوي[٧].

وذهب القرطبي إلى معنى الإنكار[٨]، واقتصر ابن جزي على معنى الاستهزاء[٩]،

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٥٢).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ٨)، والبحر المحيط (٨: ١٤٥).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢٩: ١٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٨: ٢٩٧).

(٥) ينظر: التسهيل (٣: ٢٠٥)، ولباب التأويل (٧: ١٢٦)، واللباب في علوم الكتاب (١٩: ٢٥٣).

(٦) أولى ما قيل (٤: ٢٥٥).

(٧) ينظر: الكشاف (٢: ٢٨٦)، وأنوار التنزيل (١: ٤٦٦).

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٩: ٧٧).

(٩) ينظر: التسهيل (١٢: ١١).

وتبعه أبو حيان في ذلك[١]، وذهب البقاعي إلى معنى التهكم[٢].

ب) **الاستفهام الإنكاري التهويلي:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٥]، قال رشيد الخطيب: «فهددهم وأنَّبهم سبحانه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التهويلي، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قياماً طويلاً، يحاسبهم فيه على أعمالهم وما ارتكبوه من السيئات»[٣].

وذهب بعض المفسرين ومنهم الرازي وأبو حيان إلى معنى الإنكار[٤]، وذهب آخرون ومنهم البيضاوي والنسفي وابن عاشور إلى أن الاستفهام تعجيبي[٥].

ج) **الاستفهام الإنكاري التبصيري:**

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

قال رشيد الخطيب في معرض تفسيره للآية: «والمكب: هو الذي ينكس رأسه إلى الأرض فلا يبصر الطريق ولا من يستقبله. والسويّ: هو الذي يستوي قائماً فيبصر

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥: ٢٥٣)، وينظر: التفسير الكبير (١٨: ٣٦)، وزاد المسير (٤: ٢٧٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر (١٢: ٤٤٠).

(٣) أولى ما قيل (٨: ١٦٨).

(٤) ينظر: التفسير الكبير (٣١: ٨٣)، والبحر المحيط (٨: ٤٣٢)، وأيسر التفاسير (٥: ٥٣٤).

(٥) ينظر: أنوار التنزيل (٥: ٤٦٤)، ومدارك التنزيل (٤: ٣٢٣)، والتحرير والتنوير (٣٠: ١٧١)، والسراج المنير (٤: ٣٦٥).

الطريق وجميع الجهات: مثّل بها للمؤمن المتبصر والكافر المعرض، بطريقة الاستفهام الإنكاري التبصيري»[١].

ولم يذكر المفسرون هذا المعنى الذي ذكره رشيد الخطيب، بل اقتصروا على معنى الإنكار فقط[٢].

د) **الاستفهام الإنكاري التعجيبي:**

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال رشيد الخطيب: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من هذه المحاجّة وغباوة صاحبها وغروره مع الإنكار عليه»[٣].

وذهب البيضاوي إلى معنى التعجيب قائلاً: «تعجيب من محاجة نمرود وحماقته»[٤]. وهذا رأي النحاس؛ إذ يقول: «وفي الكلام معنى التعجيب، أي: اعجبوا له»[٥]. وذكر ابن عطية وأبو السعود أن: «همزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي»[٦].

هـ) **الاستفهام الإنكاري التهديدي:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠].

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٥٣).

(٢) ينظر: فتح القدير (٥: ٣٦٩).

(٣) أولى ما قيل (٢: ٣٨٠)، وينظر: تفسير المنار (٣: ٣٨-٣٩).

(٤) أنوار التنزيل (١: ٥٥٩).

(٥) معاني القرآن (١: ٢٧٥).

(٦) ينظر: المحرر الوجيز (١: ٣٤٢)، وإرشاد العقل السليم (١: ٢٥١).

قال رشيد الخطيب: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير»[١].

ولم يذكر المفسرون المعنى الوارد للاستفهام في هذه الآية الكريمة، سوى صاحب «زهرة التفاسير» الذي قال: «﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: استفهام داخل على رأيتم وهو تصوير حالهم، والمعنى: أرأيتم وتصورتم حالهم إذا أتاكم عذابه بياتاً وأنتم نائمون...»[٢]، فعرض الاستفهام عنده هو للتبصير.

٤) الاستفهام التقريري:

وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال رشيد الخطيب: «... وقد قرر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري فقال: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ذلك الابتلاء: يحملهم بهذا الاستفهام على الصبر والثبات»[٤].

وذكر ابن عاشور أن غرض الاستفهام في هذه الآية هو الحث والأمر[٥]. وهذا الرأي قال به أغلب المفسرين[٦].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (١: ٣٥٨٦).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١: ١٩٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٣٦١).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٩: ٣١).

(٦) ينظر: البحر المحيط (٦: ٣٥٧)، وتفسير الجلالين (١: ٤٧٢)، وبحر العلوم (٢: ٥٣٣).

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، قال رشيد الخطيب: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ تقرير المعنى لا الاستفهام الحقيقي. فهو يقرر بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ...﴾ قبول الله للتوبة وللصدقات»[١].

وهذا المعنى جاء موافقاً لما قال به المفسرون، جاء في تفسير الجلالين: «الاستفهام للتقرير والقصد به هو تهييجهم إلى التوبة والصدقة»[٢].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، قال رشيد: «والاستفهام للتقرير، والمعنى: إن الله سبحانه جعل كيدهم فاشلاً خائباً»[٣].

وهذا رأي أغلب المفسرين[٤].

وقد أكثر الشيخ رشيد الخطيب من ذكر هذا النوع في تفسيره[٥].

٥) الاستفهام للتقريع والتبكيت:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذا الاستفهام للتقريع الصافع والتبكيت اللاذع للعبدة الضالين»[٦].

وهذا رأي البيضاوي؛ إذ قال: «لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة»[٧].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٢٧).

(٢) تفسير الجلالين (١: ٢٥٩)، وينظر: لباب التأويل (٣: ١٤٥)، وأيسر التفاسير (٢: ٤٢٢).

(٣) أولى ما قيل (٨: ٣٥٨).

(٤) ينظر: روح المعاني (٣: ٢٣٦)، وفتح القدير (٥: ٧٠٤)، والبحر المديد (٨: ٥٣٧).

(٥) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٢٣)، (٥: ٥٥١)، (٨: ٧٩)، (٨: ٢٧١).

(٦) أولى ما قيل (٥: ٣٦٠)، وانظر أمثلة أخرى في (٣: ٤٤٩)، (٥: ٤٠٥).

(٧) أنوار التنزيل (٤: ٢١٠).

وذكر الزمخشري معنى التبكيت وتبعه النسفي[١].

ويأتي الاستفهام عند رشيد الخطيب بمعنى التبكيت فقط، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]. قال رشيد الخطيب: «أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم. والمراد من هذا الاستفهام: التبكيت على ما كانوا يعتقدونه من أنها تشفع لهم عند الله»[٢].

قال القرطبي: «﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أي: بزعمكم في دعواكم، أي: الآلهة التي عبدتم من دوني، وهو سؤال توبيخ»[٣].

وأضاف أبو حيان معنى الإهانة بالقول بالتقريع والتوبيخ[٤].

وذكر البيضاوي معنى الاستهزاء قائلاً: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أضاف إلى نفسه استهزاء، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم»[٥] وإلى ذلك ذهب النسفي[٦].

ويأتي الاستفهام عنده أيضاً بمعنى التقريع فقط، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، قال رشيد: «استفهامان تقريعيان متواليان، بمعنى: أي شيء أصابكم، وكيف تحكمون أن يكون هؤلاء شركاء لله»[٧].

---

(١) ينظر: الكشاف (٣: ٢٧٣)، ومدارك التنزيل (٣: ١٦٣).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٦٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠: ٩٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧: ٢٣٠).

(٥) أنوار التنزيل (٣: ٣٣٧).

(٦) ينظر: مدارك التنزيل (٢: ١٥٧).

(٧) أولى ما قيل (١: ٦٦٠).

قال الشوكاني: «هذا تعجيبٌ من حالهم باستفهامين متواليين أي: أي شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ»[١].

وذكر أبو حيان أن الاستفهام للتعجب والإنكار قائلاً: «﴿فَمَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار، أي: أيُّ شيء لكم في اتِّخاذ هؤلاء الشركاء؛ إذ كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم، فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر: كيف تحكمون بالباطل، وتجعلون لله أنداداً وشركاء؟ وهاتان جملتان أنكر في الأولى، وتعجب من اتِّباعهم من لا يهدي ولا يهتدي»[٢].

وذهب ابن جزي إلى أن الاستفهام للتقرير والتوبيخ[٣]. وقال ابن عاشور: إن الاستفهام تعجيبي[٤].

٦) الاستفهام للاستغراب والاستعظام:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال رشيد في تفسيره للآية الكريمة: «وهذه الجملة الاستفهامية المؤكدة بعدة مؤكدات هي التي أفادت أنواعاً عديدة من الإحساسات فهي من البلاغة بمكان: شرحت الموقف شرحاً دقيقاً، مزج فيه التقرير والدهشة مع استفهام الاستغراب والاستعظام. إذ ما كانوا يظنون أنه يصبح عزيز مصر بهذه العظمة البالغة وهذا الشأن الرفيع»[٥].

---

(١) فتح القدير (٢: ٦٤٢).

(٢) البحر المحيط (٥: ١٥٨).

(٣) التسهيل (١: ٤٨٣)، وينظر: الجلالين (١: ٢٧٢).

(٤) التحرير والتنوير (٧: ٥٥).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٣٣٥).

وقال أبو السعود عن هذا الاستفهام: إنه «استفهام تقرير، ولذلك أكدوه باللام قالوه استغراباً وتعجباً»[١].

وتردد أبو حيان بين استفهام الاستخبار والاستفهام التقرير قائلاً: «واستفهموه استفهام استخبار، وقيل استفهام تقرير، لأنهم كانوا عرفوه بتلك العلامات التي سبق ذكرها»[٢].

وذهب أغلب المفسرين إلى أنه استفهام تقرير[٣].

٧) الاستفهام للاستبعاد والاستعظام:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤].

قال رشيد الخطيب: «ولما سمع بهذه البشارة التي ملأت قلبه سروراً، ووافقت غرضه ومأموله، طغت عليه موجة من الحرص الطبيعي على تحقيق إنجازها وتحقيقها. فاستفهم عما يكون من أمر المانع الطبيعي وهو الكبر، وأخرج الاستفهام عن ذلك بصورة الاستبعاد والاستعظام، ليسمع من المبشر ما يكف عنه تلك الخاطرة، ويخفف عنه ذلك الهاجس على حد قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾؟ أي: بأيِّ أعجوبة تبشروني: يستعظم عادة أن يولد له ولد وهو بهذه السن»[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤: ٣٠٤).

(٢) البحر المحيط (٥: ٣٣٧).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل (٣: ٣٠٧)، وروح المعاني (١٣: ٤٨)، والسراج المنير (٢: ١٠٧)، والتحرير والتنوير (١٢: ١١٣)، والبحر المديد (٣: ٤١٨).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٤٣٧).

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة هو استفهام تعجب.

قال ابن جرير: «قال عجب من كبره، وكبر امرأته»[١].

وذهب أبو حيان إلى أنه: «تأكيد استبعاد وتعجب»[٢].

ويأتي عنده للتعظيم والتهويل كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

قال رشيد الخطيب: أي: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها، وتغمرهم أهوالها. والمراد منها: يوم القيامة، والمعنى: هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيها؟ والاستفهام للتعظيم الأمر وتهويله»[٣].

وذهب أغلب المفسرين إلى أن الاستفهام للتعجيب[٤].

وقال ابن عاشور: «كون الاستفهام بـ(هل) فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنَّى عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلغ السامع»[٥].

٨) الاستفهام للتهويل:

ويكون للتخويف[٦] نحو قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

---

(١) جامع البيان (١٧: ١١٣)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠: ٣٥)، ومعالم التنزيل (٤: ٣٨٤)، والتفسير الكبير (٩: ٣١٩)، ونظم الدرر (٤: ٤٢٠)، وفتح القدير (٤: ١٨٣)، وأضواء البيان، ص٤٦٣.

(٢) البحر المحيط (٧: ١٩٧).

(٣) أولى ما قيل (٨: ٢١٩).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ١٤٨)، وروح المعاني (٣٠: ١١٢)، وفتح القدير (٥: ٦٠٥).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠: ٢٦١).

(٦) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٩٢).

قال رشيد الخطيب: «وقد ضمَّن معنى يتمكن فعداه تعديته، أي: ماذا يتمكنون أن يفعلوا إذا جاءهم العذاب في أيِّ وقت كان، وهذا الاستفهام للتهويل ووخامة العاقبة»[١].

قال الواحدي في معنى الآية: «وهذا استفهام معناه التهويل والتفظيع، أي: ما أعظم ما يلتمسون ويستعجلون كما تقول: أعلمت ماذا تجني على نفسك؟! فلما قال لهم النبي عليه السلام قالوا: نكذب بالعذاب ونستعجله فإذا وقع آمنّا به»[٢].

وذهب الشوكاني إلى أن الاستفهام للإنكار[٣].

وقال السمرقندي: إنَّ الاستفهام للتهديد[٤].

٩) الاستفهام للتثبيت:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

قال رشيد الخطيب: «وهذا الاستفهام من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين»[٥].

وقد ذكر أغلب المفسرين أن الاستفهام هنا في معنى الأمر[٦].

وذهب بعضهم أنه مستعمل في الحثِّ على الفعل وعدم تأخيره[٧].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) الوجيز (١: ٥٠١)، وينظر: البحر المديد (٣: ٢٢٨).

(٣) ينظر: فتح القدير (٢: ٦٥٢).

(٤) ينظر: بحر العلوم (٢: ١٢٠).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢١٩).

(٦) ينظر: الوجيز (١: ٥١٥)، ولباب التأويل (٣: ٢٢٢)، والكشف والبيان (٥: ١٦٠)، وزاد المسير (٤: ٨٣)، وبحر العلوم (٢: ١٤١)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٤٥٠)، والبحر المديد (٣: ٢٧٧).

(٧) ينظر: نظم الدرر (٣: ٥١٤)، والتحرير والتنوير (١١: ٢٢٠).

١٠) الاستفهام للاسترحام:

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

قال رشيد الخطيب: «فهذا الاستفهام مرده الاسترحام بشأنه ورأفته العامة أن لا يفتنهم بالفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة. أي: ربنا لا تهلكنا بما فعل هؤلاء»[١].

وذكر بعض المفسرين أن الاستفهام للاستعطاف[٢].

رابعاً: النداء

النداء (لغةً): النَّداء والنُّداء: صوت مثل الدُّعاء والرُّغاء، وقد ناداه ونادى به وناداهُ مناداةً ونِداءً أي: صاح بهِ[٣].

النداء (اصطلاحاً): أدخل البلاغيون النداء في صيغ الإنشاء الطلبي، ثم عرفوه بأنه: طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) لفظاً أو تقديراً[٤].

وله حروف معينة قال فيها ابن عقيل: فإن كان المنادى بعيداً فله من حروف النداء: يا، وأَيْ، وآ، وَهَيَا، وإن كان قريباً فله الهمزة، وإنْ كان مندوباً ـ وهو المتفجع أو المتوجع عنه ـ فله: وا[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٨١).

(٢) ينظر: تفسير الجلالين (١: ٢١٦)، والسراج المنير (١: ٤١٢).

(٣) لسان العرب، مادة (ندى).

(٤) ينظر: تهذيب السعد (٣: ٤٤)، والإتقان (٢: ٢٠٩).

(٥) ينظر: شرح ابن عقيل (٣: ٢٥٥-٢٥٦).

ويخرج النداء من معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية ذكرها البلاغيون، وتناول رشيد المعاني المجازية للنداء في بعض الآيات في تفسيره وذكر الأغراض البلاغية فيها ومنها:

١) النداء للتبريك:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨].

قال رشيد الخطيب مبيناً غرض النداء في هذه الآية: «وهم الملائكة الذين حضروا احتفاءً باستنباء موسى عليه السلام وهذا النداء للتبريك. والله أعلم بمراده»[١].

وقال الزمخشري في بيان معنى النداء: «﴿أَنۢ﴾ هي المفسرة؛ لأنَّ النداء فيه معنى القول، والمعنى: قيل له بورك»[٢]، فالنداء عند الزمخشري هو بمعنى القول، وهذا رأي البيضاوي والشوكاني[٣].

وذهب ابن جُزي إلى أن النداء للتنزيه قائلاً: «والمقصود تنزيه الله مما عسى أن يخطر ببال السامع من النداء»[٤].

٢) النداء للتعجب:

ويرد النداء للتعجب نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٤٣٦).

(٢) الكشاف (٣: ٣٥٤).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل (٤: ٢٥٩)، وفتح القدير (٤: ١٨١).

(٤) التسهيل (٢: ٣٠٢).

قال رشيد الخطيب: «فلما سمعت البشارة دفعها الحرص على تحققها، أن تستفهم كيف تذلل الموانع الطبيعية العادية فيها وفي زوجها، فأظهرت ذلك بصورة التعجب تمشياً مع خصائص اللغة في التعبير عما يخالج النفس من مثل ذلك و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهذا الكلام أتى للاستحياء والتعجب أي: يا عجباه»(١).

وهذا ما ذهب إليه ابن جزي قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الألف فيه مبدلة من ياء المتكلم... ومعناه التعجب من الولادة»(٢).

وقال الزمخشري في تفسير الآية: «هو استعجاب من حيث العادة»(٣)، وتبعه البغوي والرازي وأبو حيان والبيضاوي والشوكاني(٤).

٣) النداء للتنبيه:

من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال رشيد الخطيب: «فخصَّ بالنداء أصحاب العقول الكاملة؛ للتنبيه على أنهم هم الذين يفقهون سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة العامة»(٥).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الغرض للنداء في هذه الآية الكريمة.

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٤٥).

(٢) التسهيل (٢: ١٠٩).

(٣) الكشاف (٢: ٢٨١).

(٤) ينظر: معالم التنزيل (٢: ٣٩٣)، والتفسير الكبير (١٨: ٢٥)، والبحر المحيط (٥: ٢٤٣)، وأنوار التنزيل (١: ٤٦٣)، وفتح القدير (٢: ٥١٢).

(٥) أولى ما قيل (٢: ٢٥٤).

خامساً: التمنِّي

جاء في اللسان: «تمنَّى الشيء: أراده، والتمني: تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه»(١).

وهو في الاصطلاح: طلب حصول شيء على سبيل المحبة(٢).

ويكون في الأمر الذي يصعب تحقيقه أو يستحيل، والأداة الموضوعة للتمني هي (ليت)، وقد يُدلّ على التمني بحروف أخرى ليست موضوعة للتمني وهي (هل، لو، لعل)، ولا بد من أن يكون نقلها إلى التمني لأمر من أمور البلاغة(٣).

ويخرج التمني من معناه الحقيقي إلا معانٍ مجازية ذكرها البلاغيون وتناول رشيد الخطيب بعض هذه المعاني في تفسيره مُبيناً الأغراض البلاغية لأسلوب التمني ومنها:

١) التمني للنجدة والخلاص:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف ٥٣].

قال رشيد الخطيب: «﴿فَهَل لَّنَا﴾ الآن ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ فيتمنون الخلاص بكل وسيلة يتصورونها حسب عقليتهم وانطباعاتهم. وهذا التمني مظهر من مظاهر الندم العظيم واليأس العميق»(٤).

---

(١) لسان العرب، مادة (تمنى).

(٢) التلخيص (١: ٢٢٨).

(٣) بلاغة التركيب في علم المعاني، ص ١٩٨.

(٤) أولى ما قيل (٣: ٤٣٤).

وقال أبو حيان بمعنى الخلاص في هذه الآية: «ما أخبر به من الوعد والوعيد... سؤالاً عن وجه الخلاص في وقت أن لا خلاص»[١].

واقتصر القرطبي بذكر لفظ التمني قائلاً: «الاستفهام فيه معنى التمني»[٢].

ولم يذكر الزمخشري لفظ التمني في الآية بل اكتفى بالقول على أنها استفهام[٣].

٢) التمني لرفعة وعزة المُتمنِّي:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢] ذلك لأن التمني بـ(لو) إشعار بعزَّة المُتمنىٰ وقدرته؛ لأن المتكلم يظهر في صورة الممنوع؛ لأن (لو) بحسب أصلها حرف امتناع[٤]. وامتناع الشيء عن الإنسان سبب ليصبح الممتنع ذا هَيبة، ووقع في القلب والنفس، وكما يقال في علم النفس كل ممنوع مرغوب و(لو) أداة امتناع لامتناع، فامتناع الشيء عن الوجود أمام الطالب يجعل الحصول عليه ممنوعاً لذلك كان تمني الكافرين العودة المحببة والعزيزة إلى قلوبهم لدار الدنيا سبباً في عدم كونهم من المؤمنين، فالسبب المعدوم أدى إلى نتيجة معدومة.

قال رشيد الخطيب: «وللزيادة في الندم يتمنَّون الرجوع لإصلاح ما فرط منهم، تمني يائس بائس... ويجوز أن يكون هذا القول زفرة الإفاقة والعلم بأن الأوان قد فات، وأن لا فائدة في توزيع التبعات»[٥]. فهذا الرجوع للمُتمنى صار له عزة ورفعة لامتناعه.

---

(١) البحر المحيط (٤: ٣٠٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧: ١٩٦).

(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٩٢).

(٤) ينظر: علم المعاني، ص٦٣.

(٥) أولى ما قيل (٥: ٤٠٦-٤٠٧).

وذهب الزمخشري بالقول: «ولو في مثل هذا الموضع في معنى كأنه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى (لو) و(لَيتَ) من التلاقي في التقدير»[١].

وقال القرطبي في معرض تفسيره للآية: «ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء تمنوا حين لا ينفعهم التمني»[٢].

* * *

(١) الكشاف (٣: ٣٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣: ١١٧).

المبحث الثالث
التقديم والتأخير

أسلوب التقديم والتأخير من أبرز الظواهر البلاغية وأهمها في لغة العرب، إذ إن من سنن العرب «تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخر، وتأخيره وهو في المعنى مقدم»[١]، إن ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تناولها النحويون القدماء فكان سيبويه (ت١٨٠هـ) أوّل من اعتنى بالتقديم والتأخير، وأشار إلى دلالات بلاغية كتقديم الفاعل والفعول للعناية والاهتمام[٢]. ودلالات تتعلق بالصنعة الشعرية كالضرورة الشعرية التي قد يؤدي فيها التقديم والتأخير إلى قبح الكلام أحياناً.

وقد تابع النحاة واللغويون سيبويه في آرائه كالمبرد (ت٢٨٥هـ)، وابن جني (ت٢٩٣هـ) الذي تفرد في مناقشته لهذه الظاهرة، بينما تميز الفراء (ت٢٠٧هـ)، والأخفش (ت٢١٥هـ) في نصِّهما على مواضع التقديم والتأخير من نوع تقديم اللفظ والتأخير في المعنى إلى أن وصل البحث إلى الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي درس الظاهرة ـ مفيداً من سيبويه ـ دراسة دقيقة مفصَّلة، وأعطى فيها لكل حالة خصوصيتها المعنوية، وقدَّم دراسته على وَفْق منهج علمي دقيق، وتتابعت الدراسات البلاغية للتقديم والتأخير فكان الزركشي (ت٧٩٤هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ) في كتابيهما «البرهان» و«الإتقان» قد قدَّما حشداً للآراء وبياناً كاشفاً لهذه الظاهرة.

---

(١) المزهر (١: ٣٣٨).

(٢) ينظر: الكتاب (٢: ١٢٧-١٢٨).

التقديم والتأخير عند رشيد الخطيب:

وقف رشيد الخطيب على بعض الآيات القرآنية، التي اشتملت على أسلوب التقديم والتأخير، وبين الأغراض البلاغية وراء كل تقديم وتأخير، وكما بين سبب التقديم والتأخير، وسأشير إن شاء الله إلى هذه الآيات، ومن اللافت للنظر أن رشيد لم يتوسع بالقول في هذا الأسلوب وإنما اكتفى ببعض الإشارات في أثناء تفسيره للآيات القرآنية الكريمة.

١) التقديم للتخصيص:

ورد هذا النوع من التقديم في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال رشيد: «فالتقديم لغرض التخصيص»[١].

وقال أبو السعود: «وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص»[٢]. في حين ذهب ابن عطية إلى معنى الاهتمام في التقديم قائلاً: «وقدم المفعول على الفعل اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم»[٣].

٢) التقديم لإظهار شدة الشناعة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، قال رشيد: «التقديم لإظهار شدة الشناعة فيما فعلوا؛ إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا»[٤].

---

(١) لم نقف على الموضع الذي أحال عليه في التفسير.

(٢) إرشاد العقل السليم (١: ٩).

(٣) المحرر الوجيز (١: ٦٤).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٥: ٥٥١).

وهذا ما ذكره أبو السعود بقوله: «وتقديم الصلة في الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوه»[١]، وذهب البيضاوي إلى معنى الاهتمام أو الاختصاص قائلاً: «وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة»[٢]، وتبعه الألوسي[٣].

٣) التقديم لزيادة مدلول الجملة:

وجاء هذا النوع من التقديم في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال رشيد: «وللزيادة في مدلول الجملة، قدم ضمير الفصل»[٤].

وقال الشوكاني: إنَّ غرض التقديم هو الاختصاص: «وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص»[٥]، وهذا ما ذهب إليه أغلب العلماء[٦].

❊ ❊ ❊

(١) إرشاد العقل السليم (٧: ٤٧).

(٢) أنوار التنزيل (٤: ٣٢٤).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢١: ١٤)، والبحر المديد (٥: ٤٩٥).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٨٥).

(٥) فتح القدير (١: ١١٦).

(٦) ينظر: البحر المحيط (١: ٣٣١)، والتحرير والتنوير (١: ٤٤٢)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (١: ٢٧٢).

المبحث الرابع
الفصل والوصل

الفصل في اللغة: الحاجز، جاء في اللسان: والفصل الحاجز بين الشيئين، فصَّل بينهما يفصل فصلاً فانفصل وفَصَلْت الشيءَ فانفصل: أي: قطعته فانقطع، والوصل، وصل الشيء بالشيء يصلهُ وصلاً وصِلةً ووُصْلةً، واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع[١].

والوصل في البلاغة: عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركهُ[٢]. وهو من المباحث البلاغية التي جعلها العلماء مقياساً للبلاغة، فقد نقل الجاحظ أنه قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: هي معرفة الفصل والوصل[٣].

ولعل عبد القاهر من أشهر الذين بحثوه بحثاً مفصلاً والذي حدد أصول البحث في الفصل والوصل وقوانينه وأنواعه بقوله: «إن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها ـ لو عطفت ـ يعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه، فيكون حقها العطف. وجملة ليست في الشيء من الحالين... وحتى هذا ترك العطف البتة. فترك العطف يكون

---

(١) لسان العرب، مادة (فصل) و(وصل)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ١١٨).
(٢) ينظر: الإيضاح، ص١٤٥، والتلخيص، ص١٧٥، وتهذيب السعد (٣: ٥٨).
(٣) ينظر: البيان والتبيين (١: ٨٨).

إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين فاعرفه»[١].

واتفق البلاغيون فيما بعد على أن الفصل في خمسة مواضع، وأن الوصل يجب في ثلاثة مواضع[٢].

مواضع الفصل:

الأول: وهو أن يكون بين الجملتين كمال التآلف وتمام الاتحاد، إذ تنزل الثانية من الأولى المنزلة نفسها وهو (كمال الاتصال) وذلك أن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى، والمقتضي للتأكيد رفع توهم التجوّز والغلط، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] تجد أن جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مؤكدة لجملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، لأن معنى الثانية: يستوي عندهم الإنذار وعدمه. قال رشيد: «وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها»[٣].

أو أن تنزل الثانية بدلاً من الأولى، والبدل ثلاثة أضرب: المطابق، والبدل جزء من كل، وبدل الاشتمال.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، قال رشيد: «وهذا الإبدال للتقرير والتحرير وإظهار اليقين»[٤].

وقال أبو حيّان: «ولما كان قد يوهم هذا اللفظ غير الله تعالى كقول فرعون: أنا

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ص١٨٧.

(٢) ينظر: الإيضاح، ص١٤٥، والتلخيص، ص١٤٧.

(٣) أولى ما قيل (٢: ٢٧).

(٤) أولى ما قيل (٣: ٤٦٣).

ربكم الأعلى نصّوا بالبدل على أنَّ ربِّ العالمين رب موسى وهارون»[١].

ومن أمثلة بدل الاشتمال قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

قال رشيد: «وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً لـ (نسيت)، على أنه بدل اشتمال من الحوت... ويحتمل أن يكون بدل اشتمال من ضمير ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾، ويحتمل الأمرين معاً على طريقة المتنازع، ولذلك أخّره»[٢].

أو أن تكون الثانية بياناً للأولى، وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح والمقتضي للتبيين أن يكون في الأولى نوع خفاء مع اقتضاء المقام إزالته.

وقد أورد الشيخ رشيد من هذا العطف في تفسيره لكنه لم يجزم به قائلاً: «﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بدل منه أو عطف بيان عليه وحده دون الأول. وقيل: بل إنما فصل اسم الموصول هنا؛ لأنه بيان مستأنف للموصلين اللذين قبله معاً»[٣].

ثانياً: وهو أن يكون بين الجملتين (كمال الانقطاع) أي: تباين تام وليس في الفصل إيهام خلاف المقصود، وذلك أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، لفظاً ومعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٤- ٤٥].

---

(١) البحر المحيط (٤: ٣٦٤).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٣٩).

(٣) أولى ما قيل (٣: ٤٨٣).

قال رشيد: «ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ انفصال في الكلام والتفات به إلى المؤمنين يثبّتهم تجاه هؤلاء المعاندين. ومثل هذا من نهج القرآن وأساليبه»[١].

ثالثاً: وهو أن تصلح الجملة الثانية جواباً على سؤال صريح أو مفهوم من الجملة الأولى، فتنزَّل الأولى منزلة السؤال فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، ويسمَّى هذا (شبه كمال الاتصال) أو (الاستئناف) كقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٤- ٩٥].

قال رشيد: «﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم بما تستحقون. ثم استأنف الكلام وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ أي: سيؤكدون إليكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم»[٢].

رابعاً: وهي أن يكون ثمة جملة مسبوقة بجملتين يجوز عطفها على الأولى منهما، ولا يجوز عطفها على الثانية فيُترك العطف لئلا يُظن أنها معطوفة على الثانية، ويسمِّي البلاغيون هذه الحالة (شبه كمال الانقطاع)، ومثله قول الشاعر:

يَقُولُونَ: إِنِّي أَحْمِلُ الضَّيْمَ عِنْدَهُمْ ... أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ يُضَامَ نَظِيرِي

فقد فصل جملة: «أعوذ بربي» عن جملة: «يقولون» مع جواز عطفها عليها، حتى لا يتوهم عطفها على جملة: «أحمل الضيم...»، فتكون من مقولهم؛ وهي لست منه، بل هي من كلام الشاعر[٣].

ولم أجد شواهد عند رشيد الخطيب ذكرناها إكمالاً للفائدة.

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٨٩).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٢١).

(٣) علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح، ص٤٧٤.

خامساً: وهو ألا يراد إشراك الجملة الثانية مع سابقتها في الإعراب؛ لأن ذلك يغيّر المعنى، ويسمي البلاغيون هذه الحالة (التوسط بين الكمالين)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، فلو عطف ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ داخلة في كلام المنافقين، وهذا بالطبع غير هذا، ولم أجد أيضاً شواهد عند رشيد ذكرناها إكمالاً للفائدة.

مواضع الوصل بين الجمل:

المقصود الحالات التي يجب فيها العطف بين الجمل، وهي ثلاثة مواضع:

أولاً: إذ اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء وأوهم الفصل خلاف المقصود، كقولك لمن سألك عن صحة أبيك المريض: هل تحسّنت صحة أبيك؟ فتقول له: (لا وعافاك الله) فإن حرف العطف في جوابك لابد منه؛ لأن حذفه (لا عافاك الله) يوهم بخلاف المراد، أنت تريد أن تدعو له وعبارتك توهم بأنها دعاء عليه، والجملتان مختلفتان فالأولى التي تمثلها (لا) معناها (لم تتحسن صحة أبي) فهي خبرية، والثانية: (عافاك الله) دعائية إنشائية، وكان الفصل بينهما أولى فبينهما (كمال انقطاع) إلا أنه عطف بينهما لئلا يُتوهَّم عكس المراد[1].

هذا ولم أجد عند رشيد شواهد لهذه الحالة.

ثانياً: إذا اتفقت الجملتان المعطوف بينهما خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فقد اتفقت الجمل: خذوا زينتكم.. كلوا.. اشربوا.. لا تسرفوا.. في الإنشائية لفظاً ومعنى، ومن ثم وصل بينهما.

---

(١) البلاغة من منابعها، ص١٤٧.

قال رشيد: «وفي الآية حثٌّ على الاعتناء بالنظافة والتجمل... ثم أمر بالاعتدال في أخذ الزينة وتجنب السرف فيها، وذكر ذلك في حكم آخر مكمل للأول على نهج القرآن في مثله، وجعل نظم الكلام تتميماً للقسط والعدل والصلاح والاعتدال الذي يأمر به الله، فعطف على قوله: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ ليكون المعنى: تجملوا في اللباس وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ولكن اعتدلوا فيها فأوجب الاعتدال في اللبس والأكل والشرب وما إلى ذلك... فما أعظم هذه التعاليم لو عقلها المسلمون»[(١)].

ثالثاً: إذا قصد المتكلم إشراك الجملتين في حكم إعرابي واحد، وهذا كعطف المفرد على المفرد؛ لأن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد. وينبغي أن تكون مناسبة بين الجملتين[(٢)]. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

قال رشيد: «وأتى بجملة الصلة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تبصرة للنفوس بأن ما ينفق إنما هو من الله وإلى الله...»[(٣)].

* * *

(١) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٥٥٣)، والميسر في البلاغة العربية، ص١٨٢.

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٩).

المبحث الخامس
القصر والحصر

القصر لغةً: الحبس والالتزام، نقول: قَصَرتُ نفسي الشيء إذا حَبستها[١].

واصطلاحاً: هو تخصيص أمرٍ بآخر بطريق مخصوصة[٢].

والقصر توكيد وأداته التي يقوم عليها هي النفي والاستثناء. ومن المعلوم أن الغرض البلاغي الذي يؤدي القصر ليس جمالياً، فالقصر من مباحث علم المعاني. والغرض الذي يؤديه أسلوب القصر غرض جوهري يتعلق بمعاني الجمل وقد يختلف المعنى كلياً لتقديم كلمة أو تأخيرها بحسب السياق القرآني.

وأسلوب القصر يتكون من ركنين: المقصور والمقصور عليه، أي: أحد الشيئين موصوف والآخر صفة[٣].

وللقصر طرفان: المقصور، والمقصور عليه، والأخير هو الشيء المخصص به.

أنواع القصر:

حين يدرس البلاغيون أنواع القصر أو أقسامه ينظرون إليه من زوايا ثلاث:

---

(١) لسان العرب، مادة (قصر).

(٢) ينظر: الإتقان (٢: ١٠٦)، والميسر في البلاغة العربية، ص٢١٩.

(٣) ينظر: الإتقان (٣: ١٦٦).

أ) **القصر من حيث الطرفان:**

١ـ **قصر الموصوف على الصفة:** وهو من القصر الإضافي، إذ الموصوف على هذه الصفة لا يتجاوزها إلى غيرها. نحو: (المرء بعلمه لا بماله) قصرت الموصوف (المرء) على صفة العلم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال رشيد الخطيب: «وإنما أكد الجملة بهذه المؤكدات المتعددة المقتضية لحصر الكذب فيهم»(١).

٢ـ **قصر الصفة على الموصوف:** وهو قصر صفة على موصوف كما في قولك: (لا خالق إلا الله) قصرت صفة الخلق والإنشاء على الله عز وجل، ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قال رشيد: «وبعد أن حقق تفرده تعالى بالإلوهيَّة، ببيان اختصاصه بالقدرة العظيمة والإنعامات الجليلة، عقب بذكر ما هو من متمماته، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية أيضاً»(٢).

ب) **القصر من حيث الحقيقة والواقع:**

١ـ **القصر الحقيقي:** أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع فلا يتجاوزه إلى غيره كقولك: (لا خالق إلا الله) لأن الحقيقة والواقع يشهدان بذلك ولا يمكن أن يتصور العقل السليم خالقاً آخر. ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٣٢٩).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٤٦٢).

قال رشيد الخطيب: «ثم أقام البرهان على إبطال تعدد الآلهة واستحالته، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله، لفسد نظامها، لما يكون بين الآلهة من الاختلاف والتمانع، لأن لكل واحد منهم إرادة مستقلة حسبما تقتضيه حالة الإله الصحيح، وإلا لما كان إلهاً، بل كان صاحب تلك الإرادة منهم وحده هو الإله المستقبل بتدبير الملك»[١].

٢ـ **القصر غير الحقيقي (الإضافي)**: هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة إلى شيء معين ويمكن أن يتجاوزه إلى غيره، كقوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢] فهو عليه السلام بُعثَ لهذا الغرض لكن إلى جانب أغراض أخرى، فقد بعث ليدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر...، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال رشيد: «وهذا كالتعليل لما تقدم من نفي امتيازه على البشر، وبيان أن منصب الرسالة مقتصر على هذا القدر»[٣].

جـ) **القصر باعتبار حال المخاطب:**

وهذا القسم خاص بالقصر الإضافي فقط، وبيان ذلك أن القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب على ثلاثة أقسام: قصر إفراد، وقصر قلب، وقصر تعيين. والمخاطب في أسلوب القصر إما أن يكون شاكاً في الأمر، أو يكون معتقداً عكس الرأي

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٦٢).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٧٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أولى ما قيل (٣: ٥٠٨).

في الحكم، أو يكون معتقداً الشِّركة بين اثنين أو أكثر في الحكم. فهو يكون لمقتضى الحال أو ما تدَّعيه الحاجة[١].

١ـ **قصر إفراد**: وذلك إذا اعتقد المخاطب الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره[٢]، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

قال رشيد: «ثم أردف صيغة الحصر، فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله»[٣].

٢ـ **قصر القلب**: وفيه يعتقد المخاطب عكس الحكم الذي أثبته المتكلم له أي يعتقد عكس تلك الصفة الأولى ويسمى قصر القلب لقلبه حكم السامع[٤]، كقولك: جاءني زيد لا عمرو، مخاطباً من يعتقد أن عمراً هو الذي جاءك دون زيد، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده، ولذا سمي قصر قلب.

ولم أجد عند رشيد شواهد لهذا النوع من القصر.

٣ـ **قصر التعيين**: وفيه يكون المخاطب متردداً في الحكم بين عليه أي واضح أي من تساوي الأمران عنده، أي اتصاف ذلك الأمر بتلك الصفة[٥]، كقولك لمن يتردد شاكاً في الناجح: أعمرو أم بكر، إنما الناجح عمرو، وقولك: لمن يشك في أمر زيد أمقيم أم مسافر، زيد مقيم لا مسافر.

هذا ولم أجد عند رشيد شواهد لهذا القصر.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص١٣٣، والميسر في البلاغة العربية، ص٢٦٧.

(٢) معجم البلاغة العربية (٢: ٤٥٠).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).

(٤) ينظر: الإيضاح، ص١١٩، والميسر في البلاغة العربية، ص٢٦٧.

(٥) ينظر: الإيضاح، ص١١٩.

طرق القصر:

والمراد الأساليب التي يؤدى بها القصر، وقد اهتمَّ البلاغيون بأربع منها وهي: القصر بـ(إنما)، القصر بـ(ما) و(إلا) أو بالنفي والاستثناء، القصر ببعض حروف العطف، القصر بتقديم ما حقه التأخير، وهذه الأساليب ذكرها رشيد الخطيب في تفسيره، وإليك بيان ذلك:

١) **القصر بالنفي والاستثناء:**

وهي أوسع طرق القصر وأكثرها شهرة ودوراناً في كتاب الله عز وجل، والنفي والإثبات أساسا أسلوب القصر ومن خلال هذا الأسلوب تظهر لنا كل المعاني والصور المتَّصلة بأسلوب القصر وقيمته البلاغية، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه، أو فيما يجهله ولا يعرفه، أو فيما يشك فيه ويرتاب.

قال عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون الأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد فيه الإنكار أن يكون كذلك...»[(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

قال رشيد: «فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا شفاعة لهم من أحد هناك،

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١٢٧، وينظر: علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣١٠.

ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: بإيمانه وعمله الصالح فهو الناجي حسبما وعد الله سبحانه ـ وهذا الاستثناء منقطع أو محمول على المعنى»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال رشيد: «وهذا التعبير في النفي آكد تعبير، لأنه نفي الشأن، ويتضمن نفي جميع الأعذار والتقييد باستثناء المشيئة للمبالغة في تقريره»[٢].

٢) **القصر بـ (إنّما):**

إنَّ القول بإفادة (إنَّما) لمعنى القصر يكاد يجمع عليه جمهور اللغويين والنحاة والبلاغيين، ومعنى (إنَّما) «إثبات لما يذكر بعدها ونفي لما سواه...»[٣]. وهي تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تنكر ولا تدفع[٤].

وذكر رشيد دلالة (إنَّما) على الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥]، حيث قال: «ثم قرَّر نفيَ الاستئذان عن المؤمنين بإثباته للمنافقين. على طريقة حصر الوصف فيهم تقريعاً لهم وتشنيعاً عليهم»[٥].

ومنه أيضاً قوله تعالى: «﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله»[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٩٣-٩٤).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٥٣).

(٣) لسان العرب، مادة (أنن).

(٤) ينظر: علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣٢١.

(٥) أولى ما قيل (٤: ٩٥).

(٦) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).

٣) **القصر بالعطف:**

وحروف العطف التي يؤدى بها أسلوب القصر ثلاثة هي: (لا) و(بل) و(لكن).

ـ لا: وهي نافية، كقولك: (أقدِّر زيداً لا خالداً) والمقصور عليه في عبارتها هو اللفظ المقابل لما بعدها وهو (زيداً) الذي يقابل (خالداً)، فتكون قد قصرت تقديرك على زيد.

ولم أجد عند رشيد شواهد تطبيقيَّة عليه.

ـ بل: وهي من الحروف العوامل ومعناها الإضراب عن الأول والإيجاب للثاني كما نصَّ على ذلك الرماني[١]، ويكون المقصور عليه بعدها.

ولم أجد عند رشيد شواهد لقصر (بل).

ـ لكن: وهي للاستدراك تـؤدي أسلوب القصر إذا سبقها نفي أو نهي ويليها مفرد، ويشترط بعضهم[٢] للقصر بـ (لكن) فضلاً عن ما ذكر ألا تقترن بالواو، وهذا ليس بشيء؛ لأنا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة إذا اقترنت بالواو وأفادت القصر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقد قصر النبيَّ «عليه الصلاة والسلام» على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد، قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً ولكن مقرونة بالواو[٣].

ولم أجد عند رشيد شواهد لقصر (لكن).

---

(١) ينظر: معاني الحروف، ص٩٤، وأسلوب القصر في القرآن الكريم، ص٩٨-٩٩.

(٢) ينظر: النحو الوافي (٣: ٦١٧).

(٣) علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣٠٨.

٤) القصر بتقديم ما حقه التأخير:

وهو من مباحث اللغة الجليلة، وهو لون بلاغي مهم، تحدث به كبار العربية من نحويين وبلاغيين بدءاً من سيبويه، ثم تحدَّثَ السكاكي وأفصح عنه وللأغراض التي يخرج إليها كالعناية والاهتمام[١]. ويأتي الجرجاني ليضع باباً خاصاً به وقال عنه كثير الفوائد، جَمَّ المحاسن... بعيد الغاية، وهذا كله ناتج عن تحوّل اللفظ من مكان إلى مكان.

وحكم المقصور عليه في التقديم والتأخير هو المقدَّم.

ومن طرق القصر بالتقديم والتأخير عند رشيد ما جاء في القصر بتقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

قال رشيد: «قال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ليكون حضاً على التوحيد، وترهيباً من الشرك وما ينبعث عنه: والالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة. ولذلك أيضاً قدم المفعول»[٢].

ومن صور التقديم التي تناولها رشيد تقديم الجار والمجرور كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال رشيد: «وقدم الجار والمجرور لإفادة القصر»[٣].

* * *

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص١٣٣.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).
(٣) أولى ما قيل (٤: ١٨٣).

المبحث السادس
الإيجاز والإطناب

أولاً: الإيجاز:

الإيجاز لغةً: وَجُز الكلام وجازَةً ووجزاً وأوجز: قلَّ في بلاغة، وأوجزه اختصره. ويقال: أوجز فلان إيجازاً في كل أمر، وأمر وجيز وكلام وجيز أي: خفيف مقتصر[١].

الإيجاز اصطلاحاً: بحسب تعريف الرمّاني: «البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»[٢].

وقد اهتم العلماء بأسلوب الإيجاز كثيراً، وعدُّوه من أهم أساليب اللغة، إذ نقل الجاحظ قول صحار بن عياش العبدي[٣]، عندما سأله معاوية بن أبي سفيان: «ما تعدّون البلاغة فيكم؟». قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ[٤]. ونقل عن أبي عبيدة ما قاله في الإيجاز بقوله: «العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه فكأنه في تمام القول»[٥].

---

(١) لسان العرب، مادة (وجز)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٤).

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ص٧٤.

(٣) هو صحار بن عياش بن شراحيل العبدي (ت٤٠هـ) صحابي خطيب. (ينظر: الأعلام: ٣: ٢٠١).

(٤) ينظر: البيان والتبيين (١: ٩٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٤).

(٥) مجاز القرآن (١: ١١١).

ويُعدّ الرمّاني المتوفى ٣٨٦هـ أول من تحدَّث عن الإيجاز حديثاً بلاغياً في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) وهو الذي قسمه عن فرعيه المعروفين إيجاز القصر وإيجاز الحذف[١].

١) إيجاز القصر:

هو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وكان الجاحظ قد أشار إليه وهو «الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه»[٢]، وأمثلة الإيجاز كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ [الكهف: ٩٦].

قال رشيد الخطيب: «وهذا تصوير لجهد العمال واستعمال الآلات في مجموع هذا العمل، وصهر قطع الحديد. وهذا التصوير مجمل على طريقة إيجاز القرآن في البيان. فلا يستلزم أن ذلك كله جملة واحدة، فيحتمل أنه تدريجياً، كلما يفرغ من قطعة أو عدة قطع، تصهر ويفرغ عليها القطر. ويحتمل أن القطع نضدت كلها أولاً، ثم صهرت جملة وأفرغ عليها القطر على ظاهر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي: نحاساً مذاباً ولكن غالب الظن أنه تصوير لمجموع العمل، على طريقة إيجاز القرآن»[٣].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

---

(١) ينظر: البلاغة من منابعها، ص١٥٦.

(٢) البيان والتبيين (٢: ١٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٦١).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٥٢).

قال رشيد الخطيب: «وفي الآية إيجازٌ بليغٌ، والتقدير: قال: أرزق مَنْ آمن ومَنْ كفر، ولكن أمتِّع به الكافر قليلاً في الدنيا، ثم أضْطَرُّه إلىٰ عذاب النار في الآخرة»[١].

وقال الزمخشري: «قلت في ﴿قَالَ﴾ ضمير إبراهيم أي: قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق»[٢].

وقال البقاعي: «أي: أنيلهُ أيضاً ما ألهمتك من الدعاء بالأمن والرزق»[٣].

ولم يذكر أحد من المفسرين أن في الآية إيجاز فقد انفرد رشيد الخطيب بهذا الرأي.

٢) إيجاز الحذف:

وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف، أو هو كما قال ابن الأثير: «ما يحذف منه المفرد لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه»[٤].

حذف الفاعل:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

قال رشيد الخطيب: «ومن البلاغة العالية: حذف الفاعل في المعادل الأول، وبناءِ الفعل للمجهول، فقال ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذكره في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وذلك لتنسب إرادة الخير إلى الله دون الشر»[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ١٧٩)، وينظر أمثلة أخرى في تفسيره (٣: ٤٨٩، و٤: ٣٠٢، و٤: ٣١٠).

(٢) الكشاف (١: ٢٤٠)، والبحر المحيط (١: ٥٥٥).

(٣) نظم الدرر (١: ٢٤٠).

(٤) المثل السائر (٢: ٨٧)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٩).

(٥) أولى ما قيل (٨: ٢٥).

وقال ابن عاشور: «وأسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أن مقابله أسند إليه بقوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ جرياً على واجب الأدب مع الله في تحاشي إسناد الشر إليه»[١].

حذف المفعول:

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

قال رشيد الخطيب: «والمفعول محذوف والتقدير: وينزل برداً من السماء من جبال فيها كائنة من برد... الخ»[٢].

وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين، قال البيضاوي: «ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول»[٣]، وهذا ما قاله الرازي والشوكاني والشربيني وغيرهم[٤].

ومن حذف المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال رشيد الخطيب: «وما أبلغ حذف مفعول ﴿آتِنَا﴾ في هذا المقام فهو من رقائق الإيجاز التي تحتار فيها الأفهام وتعجز عنها قرائح الأنام»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩: ٢١٥).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٣٣٦).

(٣) أنوار التنزيل (٤: ١٩٤).

(٤) ينظر: التفسير الكبير (٢: ٤٩٧)، وفتح القدير (٤: ٦٠)، والسراج المنير (٢: ٤٩٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥: ٢٠٢).

(٥) أولى ما قيل (٢: ٢٩٦).

وذكر النيسابوري أن في الآية إضماراً؛ إذ قال: «يصح أن يقال إن في الآية إضماراً أي يقول: ربنا آتنا في الدنيا فيؤتيه الله في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق، لأنَّ همَّته مقصورة على الدنيا»[١].

ولم يذكر أغلب المفسرين ما قاله رشيد في الآية الكريمة.

حذف جواب الشرط:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

قال رشيد: «وجواب الشرط محذوف على نهج إيجاز القرآن، لأنه يفهم من السياق والمقابلة. والتقدير: يكن خيراً لكما»[٢].

وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين قال الرازي: «وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير: كان خيراً لكما»[٣]، وهذا ما ذكره القرطبي والألوسي وغيرهم[٤].

ومثله أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ١١ - ١٣].

قال رشيد الخطيب: «وجواب كل من الشرطين محذوف على طريقة إيجاز القرآن، أقام مقامه قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] أي: أجهل أن الله مطَّلع على أمره فإن كان على الهدى أحسن جزاءَه وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته»[٥].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١: ٥٦٨).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٣٣).

(٣) التفسير الكبير (٣٠: ٤٠).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨: ١٨٨)، وروح المعاني (٢٨: ١٥٢)، والسراج المنير (٤: ٢٣٦)، وتفسير الجلالين (١: ٧٥٢)، واللباب في علوم الكتاب (١٩: ١٩٧)، والبحر المديد (٨: ١٢٠).

(٥) أولى ما قيل (٨: ٢٩٩).

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسيم له والمعنى: أخبرني عمَّن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه أو آمراً»[١] وتبعه النسفي والألوسي وابن عاشور[٢].

ومن حذف جواب (لو) ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا﴾ [الأنعام: ٢٧].

قال رشيد الخطيب: «وجواب (لو) محذوف للمبالغة في التهويل، والتقدير: لرأيت هؤلاء عظيماً ولرأيتهم في أشد الجزع»[٣].

وقال ابن عطيَّة: «وجواب «لو» محذوف تقديره في آخر الآية: لرأيت هولاً أو مشقات أو نحو ذلك وإنما حذف جوابها في مثل هذا أبلغ؛ لأنَّ المخاطب يترك مع غاية تخيله»[٤] وتبعه ابن جزي[٥].

وذكر الرازي أن جواب (لو) محذوف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن[٦].

ولم يذكر الزمخشري والقرطبي وأبو حيان والبيضاوي[٧] وغيرهم غرض حذف جواب (لو).

---

(١) أنوار التنزيل (٥: ٥١١).

(٢) ينظر: مدارك التنزيل (٤: ٣٤٩)، وروح المعاني (٣٠: ١٨٣)، والتحرير والتنوير (٣٠: ٣٩٥).

(٣) أولى ما قيل (٣: ٢٩٩).

(٤) المحرر الوجيز (٢: ٣٣٠).

(٥) ينظر: التسهيل (١: ٣٥٣).

(٦) ينظر: التفسير الكبير (١٢: ١٥٧).

(٧) ينظر: الكشاف (٢: ١٦)، والجامع لأحكام القرآن (٢: ٢٠٥)، والبحر المحيط (٤: ١٠٩)، وأنوار التنزيل (٢: ٤٠١)، والجواهر الحسان (١: ٥١٢)، وفتح القدير (٢: ١٥٧).

حذف المقسم عليه:

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣].

قال رشيد: «أما المقسم عليه فمحذوف دل عليه ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤-٧] كأنه قال: أقسم بهذا الكون العظيم، وبذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين»[(١)].

وذكر الزمخشري أن جواب القسم محذوف قائلاً: «فإن قلت: أين جواب القسم؟ قلت: محذوف يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾»[(٢)] وتبعه النيسابوري[(٣)].

وقد يحذف جواب القسم للإيجاز أيضاً، نحو قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

قال رشيد الخطيب: «جواب القسم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، وتقديره كما يفهم بعده: ليس الأمر كما تقولون، وأن الحشر والحساب لآتٍ ومتحقق»[(٤)].

وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء من المفسرين[(٥)].

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٩٣).

(٢) الكشاف (٤: ٧٣٠).

(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦: ٤٧٣).

(٤) أولى ما قيل (٦: ٢٧٧).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز (٤: ٥٦١)، وإرشاد العقل السليم (٣: ٢١٣)، ومعالم التنزيل (٧: ٦٧)، والجامع لأحكام القرآن (١٥: ١٤٤)، والتسهيل (٢: ٤٣٨)، ولباب التأويل (٦: ٤٠)، وزاد المسير (٧: ٩٧)، وفتح القدير (٤: ٥٩٥)، وأيسر التفاسير (٤: ٤٣٧).

ثانياً: الإطناب:

الإطناب لغةً: جاء في اللسان: «الإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً كان أو ذماً، وأطنب في الكلام: بالغ فيه... وأطنب في الوصف: إذا بالغ واجتهد»[١].

الإطناب اصطلاحاً: عرَّفه الجرجاني بقوله: «أداء المقصود بأكثر من العبارة المُتعارفة، وأن يخبر المطلوبَ بمعنى المعشوق بكلام طويل، لأن كثرة الكلام عند المطلوب مقصودة، فإنَّ كثرة الكلام توجب كثرة النظر، وقيل: الإطناب: أن يكون اللفظ زائداً على أصل المُراد»[٢].

والإطناب من أقدم الفنون التي تحدث القدماء عنها، ويُعدُّ أبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة من أوائل العلماء الذين أشاروا إليه في مصنفاتهم[٣].

وأدخله السكاكي في مباحث علم المعاني، وقال: «هو أداؤه ـ الكلام ـ بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»[٤].

وثمة أسباب تدفع المتكلم إلى سلوك الإطناب في كلامه منها تثبيت المعنى في نفس السامع أو المخاطب، ومنها توضيح المراد، ومنها التوكيد ودفع الإيهام ومنها غير ذلك، وهي على أنواع:

---

(١) لسان العرب، مادة (طنب).

(٢) التعريفات، ص٢٥.

(٣) ينظر: مجاز القرآن (١: ١٢)، والحيوان (٦: ٧)، والبيان والتبيين (١: ١٠٥)، وتأويل مشكل القرآن، ص١٨٠-١٨٢.

(٤) مفتاح العلوم، ص١٣٣، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٤).

١) الإيضاح بعد الإبهام:

ويؤتى به ليرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكَّن في النفس أكثر فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت النفس إلى معرفته مفصَّلاً[١]، وقد عرَّف رشيد الخطيب هذا النوع من الإطناب بقوله: «إيراد للمعنى في صورتين مختلفتين»[٢].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

قال رشيد الخطيب: «﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ ضمَّن (قضينا) معنى أوصينا أي: أوحينا إليه أن قضينا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ المفسر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: أوحينا إليه أنه لا يصبح الصباح إلا وقد استأصلهم العذاب... والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وتأخيره عن الجار والمجرور، وإبهامه أولاً، ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على هَوْل ذلك العذاب وفظاعته ما لا يخفى»[٣].

قال الرازي: «... ثم إنه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ وفي إبهامه أولاً، وتفسيره ثانياً تفخيم للأمر وتعظيم له»[٤]، وهذا ما ذكره الزمخشري وابن عاشور[٥].

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٨).

(٢) أولى ما قيل (١: ٦٧٠).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٤٣٩).

(٤) التفسير الكبير (١٩: ١٥٩).

(٥) ينظر: الكشاف (٢: ٥٤٥)، والتحرير والتنوير (١٣: ٥٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

قال رشيد الخطيب: «ذكر الفعل وأراد مقاربته أو إرادته أو الحكم به... أي: أردنا إهلاكها أو حكمنا به عليها لإعراضها عمَّا جاءها من رسول وكتاب.

ويجوز أن يراد بالفعل نفس الإهلاك: أجمله ثم فصّله بقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: وقت القيلولة»[١].

قال البقاعي: «سبب قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا بما لنا من القوة والعظمة، أو الإهلاك على حقيقته وهذا تفصيل له وتفسير»[٢]، وهذا ما قاله الرازي[٣].

٢) ذكر الخاص بعد العام:

ويؤتى به للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات[٤]، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩].

قال رشيد الخطيب: «ولإرادة الوصفية غلَّب غير العقلاء، بحكم الكثرة، وأتى بكلمة (ما)، ثم عطف الملائكة عليها عطف الخاص على العام، للاهتمام بالخاص»[٥].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٠٦).

(٢) نظم الدرر (٣: ٧).

(٣) ينظر: التفسير الكبير (١٤: ١٨).

(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٤٠).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٤٧٢).

٣) ذكر العام بعد الخاص:

وهو لإرادة العموم[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٥].

قال رشيد الخطيب: «فذكر العام بعد الخاص؛ لأن السماء اسم لما علا من هذا الكون الذي فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب، تجري في مجاريها وتتحرك في مداراتها، وكل كوكب بمنزلة لبنة من بناء سقف محكم متقن شدَّ بعضه إلى بعض برباط الجاذبيَّة العامَّة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به. وإنما أوثرت كلمة ما على من لإرادة معنى الوصفية»[٢].

لم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

٤) التكرار:

وهو من الأساليب الشائعة في اللغة العربية، وقد اهتم رشيد الخطيب بهذا الأسلوب، فقد تحدث عنه في مقدمة تفسيره، وعرض له في ثنايا التفسير، ضمن خصائص أساليب القرآن: التعاقب على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والتعابير، لأن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها وقع عظيم في النفوس، وهو يسمِّي هذا الأسلوب: التكرار مع تنوُّع الأساليب والتفنن في التراكيب[٣].

وأغراض التكرار كثيرة، وممَّا ورد في تفسير «أولى ما قيل» هي:

---

(١) البلاغة من منابعها، ص١٦٣.

(٢) أولى ما قيل (٨: ٢٥٢).

(٣) ينظر: أولى ما قيل، (١: ٦٧٥، ٥١٦-٥١٧، ٥٩٤-٥٩٥)، (٢: ١٣٨) وينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٢٤-٣٢٥).

التكرار للتأكيد:

نحو قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

قال رشيد الخطيب في بيان غرض التكرار: «أعاد الخبر للتأكيد فقال: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، وأتى بثم ليفيد أنه خبر جديد، جيء به بعد الخبر الأول»(١). وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء(٢).

قال أبو حيان: «والجمهور على إن التكرار توكيد، قال الزمخشري: والتكرير تأكيد للردع والإنذار؛ و﴿ ثُمَّ ﴾ دلالة على إن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل، والمعنى: سوف تعلمون الخطاب فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى»(٣).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

قال رشيد: «وهيهات بمعنى بعد، واللام للتقوية، وهذا التكرار لتأكيد البعد الذي قرَّروه بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٧]»(٤).

وهذا ما ذكره الشوكاني قائلاً: «أي: بعد ما توعدون أو بعيد ما توعدون والتكرير للتأكيد»(٥). ولم ينص الرازي على التكرار وذكر الغرض فقط بقوله: «ثم أكدوا الشبهة بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾»(٦).

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٤٠).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ١٩٥)، والمحرر الوجيز (٥: ٤٨٩)، وأنوار التنزيل (٥: ٥٢٤)، والجواهر الحسان (٤: ٤٣٩).

(٣) البحر المحيط (٨: ٥٠٦)، وينظر: الكشاف (٤: ٧٩٧).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٢٧٢-٢٧٣).

(٥) فتح القدير (٣: ٦٩٢)، وينظر: ياقوتة الصراط، محمد بن عبد الواحد البغدادي (١: ٣٧٣).

(٦) التفسير الكبير (٢٣: ٨٦).

التكرار للتقرير:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «التكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير النعم، وتأكيد التذكير بها، يعيدها عند بيان كل نوع من أنواعها إيجاباً وسلباً»[١].

وذهب كل من ابن عطية والرازي إلى أنَّ التكرير للتأكيد[٢].

التكرار للتهويل:

نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨].

قال رشيد الخطيب: «والتكرير للزيادة في التهويل»[٣].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري قائلاً: «والتكرير لزيادة التهويل»[٤]، وتبعه ابن عاشور[٥]. وذكر الرازي أن التكرير للتعظيم[٦].

التكرار للعناية:

ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

قال رشيد الخطيب: «فقد بين أنه كرر اسم الإشارة (أولئك) لإظهار مزيد العناية

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٢٣٤)، وينظر (٢: ٣٧٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٥: ٢٠٦)، والتفسير الكبير (٢٩: ٨٤).

(٣) أولى ما قيل (٨: ١٦٣)، وينظر: (١: ٦٤٥).

(٤) الكشاف (٤: ٧١٧).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٣: ١٦٣).

(٦) ينظر: التفسير الكبير (٣١: ٧٨).

بشأن المشار إليهم»[١]. ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الغرض.

التكرار للمبالغة:

ومثله قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

قال رشيد الخطيب: «ثم ختم المُحاجَّة بتكرير الجملة السابقة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، لأن ما قبلها مماثل لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زجرهم عما هم عليه من الافتخار بالآباء، والادعاء بأنهم على ملتهم وسالكون مسلكهم»[٢].

وهذا ما ذكره أبو السعود قائلاً: «تكرير للمبالغة في الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم»[٣]، وهذا ما ذكره البيضاوي والشربيني والألوسي[٤].

وذهب القرطبي والنسفي إلى معنى التأكيد[٥].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩-٢٠].

قال رشيد: «وقد كرَّر الجملة للمبالغة في ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المبالغة في الدعاء عليه في الكرَّة الثانية»[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٢٦).

(٢) أولى ما قيل (٢: ١٩١).

(٣) إرشاد العقل السليم (١: ١٧٠).

(٤) ينظر: أنوار التنزيل (١: ٤١٥)، والسراج المنير (١: ٨٨)، وروح المعاني (١: ٤٠١).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢: ١٤٧)، ومدارك التنزيل (١: ٧٤).

(٦) أولى ما قيل (٨: ٥٢).

وهذا ما ذهب إليه أبو حيَّان قائلاً: «وجاء التكرار بـ﴿ثُمَّ﴾ ليدل على إن الثانية أبلغ من الأولى للتراخي الذي بينهما»[١]. في حين ذكر ابن جُزي إلى معنى التأكيد قائلاً: «دعاء عليهم وكرره تأكيداً لذمه وتقبيح حاله»[٢]، وهذا ما ذكره ابن عطية[٣].

وكما يتكرر الاسم يتكرر الحرف، فيكون له غرضه البلاغي، ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧].

قال رشيد: «تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد»[٤].

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «وكرر الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة فهو أشد استنكاراً فهو أبلغ»[٥].

٥) التذييل:

التذييل في اللغة: الذيل: آخر كل شيء، وذيَّل ثوبه تذييلاً أي: طوَّله[٦].

وهي بلاغياً: أن يذيِّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق»[٧].

وقد تناول رشيد الخطيب التذييل في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

---

(١) البحر المحيط (٨: ٣٦٦).

(٢) التسهيل (٣: ٢٥١).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٥: ٣٦٥).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٦: ١٩٥).

(٥) أنوار التنزيل (٥: ٨).

(٦) اللسان، مادة (ذيل)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٢٢).

(٧) خزانة الأدب، ص١١٠، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٢٢).

لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

قال رشيد في بيان فائدة التذييل: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تذييل على وجه التعليل لما قبله، وبيان لمنَّة الله العظيمة وإعلان لبابه المفتوح لكل من يريد الوصول والدخول»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال رشيد: «ثم ذيَّل الكلام بما زاد في التَّمنُّن، بعبارة تشملهم وغيرهم على نهج القرآن في مثل ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾»[٢].

وقال ابن عاشور: «تذييل لبيان أن فضل الله يعطيه من يشاء»[٣].

ويذكر رشيد أيضاً أن من فائدة التذييل التهديد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥].

قال رشيد: «ثم قرر مضمون هذا التسجيل بتذييل متضمن للتهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥] أي: في أمورهم التي من جملتها ادِّعاء ما ليس لهم، ونفيه عن غيرهم»[٤].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٩٦).

(٢) أولى ما قيل (٢: ٣٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢: ٢٩٥).

(٤) أولى ما قيل (٢: ١٤١).

وقال أبو السعود: «والجملة تذييل لما قبلها مقرِّرة لمضمونه أي: عليم بهم»[١]. فهو يذكر غرض التقرير للتذييل. واكتفى الزمخشري والواحدي وأبو حيان[٢] بذكر معنى التهديد فقط. في حين ذكر ابن عطية والبيضاوي[٣] معنى الوعيد فقط دون التذييل.

ومن التذييل ما يأتي عنده للزيادة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٨].

قال رشيد: «لأن الأمر كله بيده، وليس فوقه أحد يحاسبه. أو المعنى أنه يرزق ويعطي من يشاء بغير تضييق ولا تقتير. وعلى كل فهو تذييل مقرر للزيادة والكرامة التي يعطيها سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم»[٤].

وذكر رشيد هذا النوع في مواضع متعدِّدة من تفسيره[٥].

٦) التتميم:

جاء في لسان العرب: تمَّ الشيء يتمُّ تـمًّا وتُـمًّا وتَمامةً وتَماماً وتِمامة وتُماماً وتِماماً وتُمَّة، وأتمَّه غيره وتممه واستتمه بمعنى، وتمَّمه الله تتميماً وتتمةً، وتمام الشيء وتِمامته وتتمته: ما تمَّ به[٦].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١: ١٣٢).

(٢) ينظر: الكشاف (١: ١٩٣)، والوجيز (١: ١١٩)، والبحر المحيط (٢: ٢٦٥).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (١: ١٦٤)، وأنوار التنزيل (١: ٥٤٣).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٣٢٨).

(٥) أولى ما قيل (٣: ٤٠٦)، و(٤: ٣٦٩).

(٦) لسان العرب، مادة (تمم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ٢٧).

وقد تكلم علمـاء البلاغة عنه، فقال القزويني: «هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة»[١].

وقد ذكر رشيد هذا النوع من الإطناب في تفسيره، فقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، «وفي قوله ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾، تتميم أفاد المبالغة في تقدير النعمة واستعظام المنة»[٢].

لم أجد مِن المفسرين ذكْرَ هذا المعنى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال رشيد: «فإنه تعالى استقصى أوصاف الجنَّة الممتازة، ليعظُم مصاب صاحبها: استقصاها بقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ثم تمم الوصف بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ثم أكمله بقوله: ﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فأتى بكل ما يكون في الجنان الفائقة الممتازة ليشتد الأسف على إفسادها...»[٣].

٧) الاعتراض:

الاعتراض لغةً: يقال: اعترض الشيء دون الشيء، أي: حال دونه، واعترض فلان الشيء: تكلفه، واعترض عرضه: نحا نحوه، واعترض له بسهم: أقبل قبله فرماه فقتله»[٤].

---

(١) الإيضاح، ص١٩٤، التلخيص، ص٢٣٠.

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٠٨).

(٣) أولى ما قيل (١: ٦٦٩).

(٤) اللسان: مادة (عرض)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٤٣).

واصطلاحاً: هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب لنكتة»[١].

وتحدث عنه ابن جنِّي قائلاً: «والاعتراض في كلام العرب كثير، قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام، وهو جارٍ عند العرب مجرى التأكيد فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره إلا شاذاً أو متأولاً»[٢].

ويأتي الاعتراض لأغراض متعددة.

وقد ذكر مفسرنا رشيد الخطيب هذا النوع في مواضع متعدِّدة من تفسيره، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٦].

قال رشيد: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ...﴾ اعتراض قصد به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القسمية، وقوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اعتراض في الاعتراض، قصد به الزيادة في التعظيم. أي: أنه ليس من الممكن أن تطلعوا عليه اطلاعاً تاماً تفصيلياً لعظم محتوياته»[٣].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

قال رشيد: «فهو من الجدل بالَّتي هي أحسن... وقد جاءت معترضة في قصة نوح

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٧).

(٢) الخصائص (١: ٣٣٥).

(٣) أولى ما قيل (٧: ٢٧١).

والاعتراض بالجمل أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهود في القرآن. ومن ذلك الاعتراض بالوصيَّة بالوالدين أثناء موعظة لقمان لابنه. وكذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]. فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون»(١).

وبعد ذلك يذكر رشيد فوائد الاعتراض ناقلاً من صاحب المنار ما قوله: «وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها: تنبيه الأذهان وتجديد النشاط في الانتقال من موضوع إلى آخر، والتشويق إلى سماع بقية الكلام الأول، بقطعه والانتقال إلى موضوع آخر، ثم العودة إلى إتمامه».

٨) وضع الظاهر موضع المضمر والعكس:

ومن سنن القرآن التي ذكرها رشيد ذكر المظهر في موضع المضمر والعكس قائلاً ما نصُّه: «ومن سننه، أي: القرآن الكريم ـ أن يذكر المظهر في موضع المضمر، إيذاناً بالتعليل بالوصف الذي يدل عليه المظهر، وبياناً لموجب الحكم وتقريراً لحكم عام يدخل فيه مدلول ذلك المضمر وغيره، وتسجيلاً بالوصف على أولئك الموصوفين به إلى أمثال ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولم يقل ولهم عذاب مهين»(٢).

ويذكر رشيد الغرض البلاغي لهذا الأسلوب قائلاً في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: «وقد يكون الإظهار لتربية المهابة في أذن السامع ويكون ذلك بذكر لفظ الجلالة

---

(١) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٢٣٠)، وينظر: تفسير المنار (١٢: ٦٠).

(٢) أولى ما قيل (١: ٥٣٤، ٦٢٤).

في موضع ضميره»[١]. فأظهر لفظ الجلالة في آخر الآية بدل الضمير الذي يعود عليه في لفظه الأول الذي تقدم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، قال رشيد: «وأقام المظهر مقام المضمر للإيماء إلىٰ العلّة»[٢].

وذكر رشيد هذا الأسلوب في مواضع متعدِّدة في تفسيره[٣].

ومن مقاصد وضع المضمر موضع المظهر ما قاله رشيد: «أن يعود الضمير على ما يدركه الذهن وإن لم يتقدم له معنى، أو على ما يفهم من السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي: على ظهر الأرض؛ إذ لا يجهل الذهن أنها المراد، وكقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة: ٦]، أي: في جهنم»[٤].

٩) استعمال الأفعال:

وللشيخ رشيد لفتات بلاغيَّة رائعة عند استعمال الأفعال، يوقفنا فيها على ما تحتويه من أسرار.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٤٢٧، ١: ٥٣٤).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٩٢).

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: (٣: ٤٧٨، ٤: ٧٥).

(٤) أولى ما قيل (١: ٥٣٢). وانظر في الصفحة نفسها أمثلة أخرى ذكرها رشيد في هذا الصدد.

قال رشيد: «ومن البلاغة العالية: حذفُ الفاعل في المُعادِل الأول، وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذِكرُه في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وذلك لتُنسَبَ إرادة الخير إلى الله دون الشر[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، حيث نسب المرض لنفسه، ونسب الشفاء لله؛ لأنَّ الشرَّ ـ سواءٌ كان مرضاً أو غيره ـ إنما يكون بصنع الإنسان وانحرافه عن قوانين الطبيعة، أو إعراضه عن أحكام الشريعة»[2].

ومنه أيضاً استعمال المضارع دون الماضي لإفادة الاستمرار في الحدث وتجدُّده آناً بعد آن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] فقال مُبيناً أن: «العدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدُّده كلما تجَّددت الذكريات»[3].

* * *

(١) أدباً معه تعالى، لا لكونه لم يُقدِّره ولم يُرِد وقوعه (مجد).

(٢) أولى ما قيل (٨: ٢٥). وينظر تعليقي على كلام المؤلف في تفسير هذه الآية من سورة الجن (مجد).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٣٦٨).

الفصل الثاني
علم البيان

البيان في اللغة: ما يبين به الشيء، من الدلالة وغيرها. وبانَ الشيء: اتَّضح فهو بيِّنٌ، واستَبان الشيء: ظَهَرَ. والبيانُ: الفصاحَةُ واللَّسَنُ، كَلامٌ بيِّنٌ فَصِيحٌ. والبَيانُ: الإفصَاح مَع ذَكَاء، والبَيِّنُ مِنَ الرِّجَالِ: الفصيحُ والسَّمحُ اللِّسان، وفلان أبينُ من فلان أي: أفصحُ مِنهُ وأوضَحُ كَلاماً، والبَيان: إظهار المقصود بأبلغِ لفظ، وهو من حُسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور»[١].

البيان في الاصطلاح: فقد عرفه السكاكي بقوله: «هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»[٢]، وبذلك أصبحت كلمة (البيان) عنوان علم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها إبراز المعنى بصورة مختلفة بعضها أوضح من بعض، مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وقد عرف القزويني البيان فقال: «هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطريقة مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[٣]. وهذا التعريف هو ما استقرَّ عليه البلاغيون.

---

(١) لسان العرب، مادة (بين).

(٢) مفتاح العلوم، ص٧٧.

(٣) الإيضاح، ص٢٠١.

وفائدة علم البيان: هي الاحتراز عن التعقيد المعنوي بصوره المختلفة أو فهم ما في الكلام العربي من المجاز والكناية والتشبيه والوقوف على أسرار بلاغته والإتيان بما تشبهها في الأسلوب.

ولعلم البيان مكانة مرموقة في علم البلاغة يدل على ذلك قول الجرجاني: «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأسبق فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذب ورداً، وأكرم إنتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، وهو يصوغ الحلي، ويلفظ الدّر»[1].

علم البيان عند رشيد الخطيب:

تناول رشيد الخطيب علم البيان بالتحليل والدراسة فذكر التشبيه والحقيقة والمجاز بأنواعه المختلفة والاستعارة والكناية وسنوضح كل واحدة منها:

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٤.

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه لغةً: الشَّبه والشَّبيه المثل، أشبه الشيءَ، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه علي، وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحِبه، والتشبيه: التمثيل[١].

التشبيه اصطلاحاً: هو عقد مشابهة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر. قال الرماني: «التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسدُّ مسدَّ الآخر في حسن أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس»[٢]. وقال السكاكي: «إنَّ التشبيه مستدعٍ طرفين مشبَّهاً ومشبَّهاً به، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر»[٣].

وتأتي أهمية التشبيه البلاغية أنه يخرج الخفيَّ إلى الواضح ويجعل البعيد قريباً، وقد تناول رشيد الخطيب التشبيه الذي استعان به في إيضاح المعنى القرآني الموجود في التشبيه، ومن أهم صور التشبيه التي ذكرها في تفسيره.

١) التشبيه البليغ:

هو التشبيه الذي يحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه، وسموا مثل هذا بليغاً لما فيه من اختصار من جهة وما فيه من تصور وتخيُّل من جهة أخرى؛ لأن وجه الشبه إذا

---

(١) لسان العرب، مادة (شبه).

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ص٧٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٥٧.

حذف ذهب الظن فيه كل مذهب وفتح باب التأويل، وفي ذلك ما يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيراً. قال المصري: «حد التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف»[١].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فالشيخ يذكر في هذه الآية التشبيه من دون بيان نوعه قائلاً: «عقد المشابهة بين الاستيلاد والاستنْبات»[٢]، وهذا التشبيه حذفت منه أداة الشبه ووجهه، فهو تشبيه بليغ؛ إذ يكون التقدير: نساؤكم كالحرث لكم، أي: كالزرع[٣].

٢) التشبيه التمثيلي:

نستطيع أن نلمح (التشبيه التمثيلي) في عدد من التشبيهات التي وقف عندها الشيخ، وإن لم يكن قد أشار إليها صراحةً، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

قال: «وخلاصة المثل: تشبيه سرعة تقضِّي متاع الحياة الدنيا، بسرعة تقضِّي رونق النبات الفتَّان الآخذ بمجامع قلب الإنسان، ولاسيما إذا أصابته آفة قبل الأوان»[٤]. وقد ذكر علماء البيان أنَّ هذا من التشبيه المركَّب، قال الزمخشري: «هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضِّيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال

(١) تحرير التحبير (٢: ١٠٤)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٨٠).
(٢) أولى ما قيل: (٢: ٣٢٤).
(٣) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن (٩: ٣٣٤).
(٤) أولى ما قيل (٤: ١٦٨).

نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثر»[١]، وهذا ما ذكره أغلب المفسرين[٢].

منه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال رشيد: «يمثل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويمثل الشرك والضلال بهذا السقوط والهلاك الرديء... ومحصل الكلام: تشبيه لحال المشرك، بحال من يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً، فإما أن يندق ويتفسخ، ويكون نصيبَ الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فضلاً عمَّا في ذلك من المهاوي والمهالك، أي: إنَّ الذي يستبدل التوحيد بالشرك يسقط مثل هذا السقوط ويبعد كل البعد عن الحق وعن السعادة في الدارين وأسبابها الصحيحة»[٣].

وقد ذكر الرازي كلام الزمخشري في تردُّد هذا التشبيه بين المفرق والمركب قائلاً: «قال صاحب (الكشاف): إن كان هذا تشبيهاً مركباً، فكأنه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه هلاك، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خَرَّ من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان تشبيهاً مفرقاً، فقد شبَّه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزَّع أفكاره بالطير المختطفة

---

(١) الكشاف (٢: ٣٢٥).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ١٣٧)، وأنوار التنزيل (٣: ١٩٣)، والبحر المحيط (٥: ١١٤)، ومدارك التنزيل (٢: ١٢٥)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣: ٥٧٤)، وفتح القدير (٢: ٦٣٣)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٢٩٨)، والتحرير والتنوير (١١: ٥٩).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٢٣٢). وانظر مثال آخر في: (٥: ٤٦٢-٤٦٣).

والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بها عصفت به في بعض المهاوي المختلفة»[١].

٣) التشبيه الضمني:

وقال الحلبي والنويري: «هو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدلَّ ظاهرُ لفظه أنَّ مقصوده غيره»[٢].

والتشبيه الضمني هو النوع الوحيد الذي سمّاهُ رشيد في تفسيره محلِّلاً إياه ومبيناً الغرض منه، فعند وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال: «ثم شبَّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميِّت، مبالغة في التنفير منها والتقبيح لأمرها، وصاغ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي؛ للتنبيه على مكان الغفلة عن قُبح هذه الخصلة وبشاعتها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. ثم أردف الإنكار بما لا نزاع فيه، وهو تقرير القبح، وقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أن كراهة مثل ذلك أمرٌ مقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً على طريقة قياس النظير. فقد نبَّه النفوس إلى ما لا تنكر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تنتبه له، لأنها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار»[٣].

ولم أجد من المفسِّرين من ذكر أن في الآية تشبيهاً ضمنياً.

---

(١) التفسير الكبير (٢٣: ٢٩)، وينظر: الكشاف (٣: ١٥٥).

(٢) حسن التوسل، ص١١٨، ونهاية الأرب (٧: ٤٤)، وينظر: شرح عقود الجمان، ص٩١، ومعجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٧٨).

(٣) أولى ما قيل (٧: ١٢٤).

المبحث الثاني
الحقيقة والمجاز

الحقيقة:

لغةً: حقّ الأمر يحق: صار حقاً وثبت، وحقَّ عليه القول وأحققته أنا، وحقّه وحقَّقه: صدَّقه. وحقق الرجل: إذا قال هذا الشيء هو الحق[١].

والحقيقة «فعيلة» بمعنى «مفعولة»، واشتقاقها من حقق الشيء: إذا أثبته، ولذلك فهي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة[٢].

وأما الحقيقة في الاصطلاح: فقد جاءت تعريفات علماء البلاغة متعددة، فقد جاءت بألفاظ مختلفة، ولكن لها وجه من المعنى، فالحقيقة: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب[٣].

وقد ذكر رشيد الخطيب الحقيقة في تفسيره «أولى ما قيل»، ونبَّه على احتمال الحقيقة والمجاز في تفسير طائفة من الآيات بقرينة عقلية، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ

---

(١) لسان العرب، مادة (حقق)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٥٣).

(٢) معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٥٣).

(٣) الإيضاح، ص٢٥٠، وينظر: مواهب الفتاح (٤: ٧)، وأسرار البلاغة، ص٣٥٥، ومفتاح العلوم، ص١٦٩-١٧٠، والطراز (١: ٤٧)، والمثل السائر (١: ٥٨).

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فقال: «وأما كلمة ﴿وَرَآءَ﴾ فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي. ويحتمل أن تكون مستعارة للقوة والتعقيب»[١].

ويتصل الحمل على المجاز والعدول عن الحقيقة في مواضع بوجهة الشيخ التأويلية وروحه النازعة إلى الإصلاح، وهو مع ذلك لا يرى مانعاً من الجمع بين الوجهين: الظاهر والحقيقي، والتأويلي والمجازي، وهي وجهة لغير واحد من البلاغيين كالرازي وغيره[٢]، على نحو ما نجده عند وقوفه في قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، فقال: «أغلال التقليد الأعمى والضلال، وبمعنى مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن»[٣].

المجاز:

لغةً: جُزْتُ الطريق وجَازَ الموضِعُ جَوازاً، وجَازَ بِهِ وجَاوزَهُ وأجازَهُ غَيرَهُ وجَازهُ وَجَاوَزَهُ وأجازَ غَيرَه، وجَازَهُ: سَارَ فيهِ وَسَلَكَهُ، وجَاوزتَ المُوضِعَ جَوَازاً بِمعنى جُزْتَهُ. والمَجازُ والمَجَازَةُ: المُوضِعُ[٤].

وقال الجرجاني: «مصدر ميمي على وزن (مفعل) معناه الجواز والتعدية من جاز الشيء إذا تعداه»[٥].

اصطلاحاً: عرَّفه الجرجاني بقوله: «وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٤٤).
(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن، (٩: ٣٣٦).
(٣) أولى ما قيل (٤: ٣٥١)، وينظر أمثلة أخرى في (٤: ٢٨٦-٢٨٧).
(٤) لسان العرب: مادة (جوز).
(٥) أسرار البلاغة، ص٣٠٠.

له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضع له في وضع واضعها، فهي مجاز»[١].

وعرفه السيوطي بقوله: «المجاز استعمال اللفظ فيما لم يوضع له»[٢].

وقد أولى الشيخ رشيد المجازات في القرآن أهمية كبيرة، ووضع لها مكاناً في مقدمته بعنوان (المجازات في القرآن)[٣] عدَّد فيها أنواع كثيرةً من المجازات.

ومن صور المجاز التي ذكرها رشيد في تفسيره:

أ) المجاز العقلي:

هو المجاز الذي يكون في الإسناد أو التركيب، وقد سمِّي كذلك؛ لأنه متلقى من جهة الإسناد[٤].

والحقيقة أنَّ هذا النوع من المجاز تستعمل فيه المفردات استعمالها الأساسي وفي موضوعها الأصلي ويكون عن طريق الإسناد.

وسمَّاه الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في «دلائل الإعجاز»[٥]، في حين سمَّاه (المجاز العقلي)[٦] في «أسرار البلاغة».

---

(١) أسرار البلاغة، ص٢٦٣.

(٢) الإتقان (٤: ١٠٧)، وشرح عقود الجمان، ص١٠٠.

(٣) ينظر: أولى ما قيل (١: ٦٨٦-٧٠٢).

(٤) التبيان، ص١٠٦، والإتقان: ٢: ٣٦، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ١٩٩).

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٧٥.

ويرجع الفضل في القول فيه، وفي فصله عن المجاز اللغوي إلى عبد القاهر الجرجاني، الذي عني به، وسماه مجازاً حكمياً، ومجازاً في الإثبات، وإسناداً مجازياً، ومجازاً عقلياً[١].

وقد عرّفه السكاكي قائلاً: «هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل»[٢].

المجاز العقلي عند رشيد الخطيب:

يصرح رشيد غالباً باسم المجاز العقلي محللاً ومعللاً، ومن المعروف أن هناك علاقات للمجاز العقلي، ومن هذه العلاقات الواردة في تفسير أولى ما قيل هي:

١ ـ الفاعلية:

وفيها يسند الوصف المبني للمفعول إلى الفاعل أي: يستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، ومن هذا النوع ما ذكره رشيد في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فقال: «ومن مباحث اللفظ: أن اسم المفعول هنا استعمل بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله. على طريق المجاز العقلي»[٣].

وقال البقاعي: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ مانعاً لجميع ما بينك وبينهم مع كونه ساتراً لك عن أنْ يدركوك حقَّ الإدراك... وذلك أبلغ في العظمة وأعجب في نفوذ الكلمة و﴿مَّسْتُورًا﴾ بمعنى «ساتراً»[٤]. وهذا التفسير قاله أكثر المفسرين[٥].

---

(١) التعريفات، ص١٤١.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٨٥.

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٤٢).

(٤) نظم الدرر (٤: ٣٨٧).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز (٣: ٥٠٩)، والكشاف (٢: ٤٥١-٥٤٢)، والجامع لأحكام القرآن: =

٢ـ المفعولية:

هو ما بني للفاعل وأُسنِـدَ إلى المفعول به الحقيقي، وقد ورد هذا الأسلوب في تفسير «أولى ما قيل» في مواضع متعدِّدة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، قال رشيد: «أي: مرضيَّـة، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي، وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف»[١].

وهذا ما ذكره القرطبي في تفسيره معتمداً رأي الفراء، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضيَّة[٢] وكذلك أبو حيَّان[٣].

وقد ذكر رشيد الخطيب فائدة هذا المجاز العقلي وهو للمبالغة في الوصف[٤]، وذكر البقاعي أن غرض المجاز العقلي البلاغي هو للمبالغة والتشويق[٥]، وهذا ما لم نجده عند أغلب المفسرين[٦] وهم لم يذكروا صراحة المجاز العقلي، بل صرَّحوا بلفظ المجاز، أو الإسناد.

= (١٠: ٢٧١)، وأنوار التنـزيل (١: ٥٧٢)، والتسهيل (٢: ١٠٦)، والبحر المحيط (٦: ٣٩)، والسراج المنير (٢: ٢٤٢).

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨: ٢٤٩)، وينظر: معاني القرآن (٣: ٣٨٥).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٨: ٣١٩)، والمحرر الوجيز (٥: ٣٣٣)، والكشف والبيان (١٠: ٣٠)، ولباب التأويل (٧: ١٤٥)، والنكت والعيون (٦: ٨٣)، وزاد المسير (٤: ٣٩٣)، وروح المعاني: (٢٢: ٩٥)، والمزهر (٢: ٩٣).

(٤) أولى ما قيل (٨: ٣٣٠).

(٥) ينظر: نظم الدرر (٢٠: ٣٦٣).

(٦) ينظر: الكشاف (٤: ١٥٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٨: ٢٤٩)، والتسهيل (٤: ١٤٣)، والبحر المحيط (٨: ٣٢٥)، وأنوار التنزيل (٢: ٥٢٢).

ومن هذه العلاقة أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]، قال رشيد: «وتسميتها حافرة مع أنها محفورة مجاز عقلي من ذكر اسم الفاعل مكان اسم المفعول، مثل: حجرة مضيئة. فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]»(١).

وقال الرازي: «يقال رجع فلان في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي: أثر فيها بمشيه فيها أي: جعل أثر قدميه حفراً فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة كما قيل في ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾»(٢).

وإلى هذا التفسير ذهب أكثر المفسرين(٣).

وذكر رشيد هذا النوع في مواضع متعدِّدة في تفسيره(٤).

٣ـ المكانية:

وفيها يسند الفعل إلى المكان وهو في الحقيقة مبني للفاعل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٦].

قال رشيد: «وفي كلمة ﴿مُّقِيمٍ﴾ مجاز عقلي؛ لأنها في الحقيقة صفة لأطلال تلك القرى، بمعنى أنها باقية إلى الآن، ولكن وصل بها السبيل أي: الطريق كما يقال: نهر

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٢٣).

(٢) التفسير الكبير (٣١: ٣٣).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ٩٧)، والمحرر الوجيز (٥: ٤٤)، والتسهيل (٣: ٢٨٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦: ٤٤٠)، وفتح القدير (٥: ٥٢٧)، والجواهر الحسان (٤: ٣٨٤)، والبحر المديد (٨: ٣٤٦).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٨: ١١١، ٨: ٣٣١).

جار، فيوصف بصفة الماء فيه...والمراد من قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أن أطلالها ظاهرة على هذا الطريق»[١].

٤ـ السببيَّة:

وفي هذه العلاقة المجازية يسند الفعل، أو ما في معناه إلى سببه، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، قال رشيد: «أي: ضلُّوا باتِّباعها وعبادتهم لها، بزَعْم أنها تُقَرِّبهم إلىٰ الله زُلْفىٰ. وفي إسناد الإضلال إليها تجوُّزٌ معروفٌ مِثلُه في خصائص اللغة، ويسمَّىٰ في عُرْف البلاغة: الإسناد إلىٰ السبب»[٢].

وقال البيضاوي: «فلذلك سألتُ منك العصمة، واستعذتُ بك من إضلالهنَّ. وإسنادُ الإضلال باعتبار السببيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾»[٣].

وذكر البقاعي هذه العلاقة بقوله: «إسناد مجازيٌّ علاقته السببيَّة»[٤].

٥ـ المصدريَّة:

وتذكر فيها بني للفاعل أو للمفعول وأسند إلى المصدر، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، فهنا مبنيٌّ للمفعول ولكنه أُسند إلى المصدر، قال رشيد: «والعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة في الوصف، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصوِّر للقارئ والسامع أنه موضوع وضعاً مصنَّعاً»[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٤٢).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٠٦).

(٣) أنوار التنزيل (٣: ٣٥١).

(٤) نظم الدرر (٤: ١٩٠)، وينظر: البحر المديد (٣: ٥٤٤).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢٨٤).

قال البقاعي: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب، أطلق عليه المصدر مبالغة؛ لأنه غير مطابق للواقع، لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخْلة ذبحوها ولطخوه بدمها...»[١].

وهذا ما نهج عليه أغلب المفسِّرين[٢].

ب) المجاز اللغوي:

١ـ الاستعارة:

وهي في اللغة: مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المُعار إليه. والعَارية والعارة: ما تداولوه بينهم، وقد أعَارَ الشيء وأعَارَهُ منه وعاورَهُ إياه. والمعاورة والتَّعاور شِبْه المَدَاوَلة والتَّداول يكون بين اثنين. وتعور واستعار: طلب العَارية[٣].

ويعدُّ الجاحظ أول من عرفها بقوله: «الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[٤].

واهتمَّ ابن قتيبة بالاستعارة اهتماماً كبيراً؛ إذ بدأ مباحث المجاز بها؛ لأنَّ أكثره

---

(١) نظم الدرر (٤: ١٧).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ٢٥٠)، والمحرر الوجيز (٣: ٢٣٩)، والتفسير الكبير (١٨: ٨٢)، ولباب التأويل (٣: ٢٦٩)، وأنوار التنزيل (٣: ٢٧٨)، وبحر العلوم (٢: ١٨٤)، والنكت والعيون (٣: ٢١٥)، والسراج المنير (٢: ٧٧)، واللباب في علوم الكتاب (١١: ٤٠)، والبحر المديد (٣: ٣٦١)، والتحرير والتنوير (١٢: ٣٦).

(٣) لسان العرب، مادة (عور).

(٤) البيان والتبيين (١: ١٥٣، ٢٨٤)، والحيوان (٢: ٢٨٠-٢٨٣).

يقع فيه، وقال فيها: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بها بسبب من الأسباب الأخرى ومجاوراً لها أو مشاكلاً»[١].

وعرَّفها الجرجاني بقوله: «الاستعارة أن تريد تشبيهَ الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبَّه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[٢].

واستقرَّ تعريف الاستعارة عند السكاكي حين قال: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مُدَّعياً دخول المشبّه في جنس المشبّه به دالاً على ذلك بإثبات للمشبّه بما يخص المشبّه به»[٣].

وهذا هو التعريف المشهور الذي سار عليه العلماء.

والاستعارة تتألف من ثلاثة أركان، وهذه الأركان هي: المستعار منه، وهو المشبَّه به، والمستعار له وهو المشبّه، والمستعار ويقصد به اللفظ المنقول.

وقد قسم الجرجاني الاستعارة على مفيدة وغير مفيدة[٤].

ثم جاء القزويني والسكاكي وقسّما الاستعارة على أنواع متعددة سنتعرف عليها من خلال تناول رشيد الخطيب لها في تفسيره.

١) الاستعارة الأصليَّة:

وهي الاستعارة التي يكون فيها اللفظ المستعار اسماً جامداً غير مشتق وقد عرَّفها

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص١٠٢.
(٢) دلائل الإعجاز، ص٥٣.
(٣) مفتاح العلوم، ص١٧٤.
(٤) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٢.

السكاكي فقال: «هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل وكقيام وقعود. ووجه كونها أصلية هو أن الاستعارة مبناها على تشبيه المستعار بالمستعار منه»(١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، قال رشيد الخطيب: «﴿لِنُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إيَّاهم إلىٰ ما تضمَّنه من البيان لسُبُل الرشاد، وتُنقِذَهم بذلك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والهُدىٰ، واستعارة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للضلال و﴿ٱلنُّورِ﴾ للهدىٰ من خصائص اللغة ومعروف في تعابير القرآن»(٢).

وقد فسر أغلب المفسرين الآية من دون ذكر لفظ الاستعارة، وقد ذكرها الشوكاني بقوله: «لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية ما جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة»(٣).

٢) الاستعارة بالكناية:

وتسمى المكني عنها أو المكنية، وهي تشبيه حُذف منه المشبَّه به وَكُنِّي عنه بشيء من لوازمه. وقد عرفها السكاكي فقال: «هي أن تذكر المشبّه وتريد المشبّه به دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها، وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئاً من لوازم المشبّه به المساوية»(٤)، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، قال رشيد: «وقد استعار صفة الغضب للإشارة إلى أنه هو الذي كان يغريه بالكلام»(٥).

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٩.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٣٨٥-٣٨٦).
(٣) فتح القدير (٣: ١٣٢).
(٤) مفتاح العلوم، ص١٧٩.
(٥) أولى ما قيل (٣: ٤٧٩).

قال الألوسي: «وفي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص ناهٍ آمر، وأثبت له السكوت على طريق التخييل»[١]. واقتصر الرازي على ذكر لفظ الاستعارة فقط[٢].

ويصرح رشيد الخطيب في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] بوجود استعارتين: مكنية وتمثيلية، فيقول: «ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكان القوي للتقوى استعارة مكنية، واستعار ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، للكفر والنفاق استعارة تمثيلية، وعقد المشابهة بينهما»[٣].

وتحليل الشيخ هنا ينبئ عن فهم دقيق للاستعارة، فالأولى حذف فيها المشبه به، وهو البناء الذي شبهت به التقوى، وترك شيء، من لوازمه وهو أسس البنيان، والثانية تشبيه صورة النفاق بما فيه من تناقل وتذبذب ـ وهي صورة معقولة ـ بحال بناء قائم على شفا جُرُفٍ هارٍ ـ وهي صورة مُحسّة ـ، لما بينهما من وشيجة عدم الاستقرار وتوقع الانهيار والسقوط، ثم حذف الصورة الأولى المشبه، وبقيت الثانية المشبه به[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا التفسير، وذهب ابن عاشور إلى أنها استعارة تصريحية[٥]، واقتصر ابن جزي بذكر الاستعارة فقط[٦].

---

(١) روح المعاني (٩: ٧١).
(٢) ينظر: التفسير الكبير (١٥: ١٣).
(٣) أولى ما قيل (٤: ١٣٢).
(٤) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم (٩: ٣٤٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٠: ٢٠٦).
(٦) التسهيل (١: ٤٧٣).

٣) الاستعارة التجريديَّة:

وهي الاستعارة التي يلتحق بها صفات تلائم المستعار له، وقال عنها السكاكي: «أي: أنها تكون تجريدية إذا عقبت بصفات ملائمة للمستعار له أو تفريع كلام ملائم له»[١].

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]، حيث قال: «أذاقها» ولم يقل «كساها» فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استعير له اللباس كأنه قال: فأصابها الله بلباس الجوع والخوف. وقال رشيد الخطيب: «وفي الكلام استعارة بديعة مزدوجة من صفات المطعوم والملبوس»[٢].

قال الشوكاني: «وقد أجاب العلماء أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما خشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له، وهو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة ولو قال: فكساها كانت مرشحة»[٣].

وذكر أبو السعود لفظ الاستعارة فقط[٤].

٤) الاستعارة التصريحية:

وهي الاستعارة التي يحذف فيها المشبَّه ويُصرّح بالمشبّه به، وعرفها السكاكي

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٨٢.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٥٠٤)، وينظر: الإيضاح، ٢٨١.
(٣) فتح القدير (٣: ٢٨٥).
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٤٥).

فقال: «أنْ يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به»[١].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، قال رشيد: «ويكون قد استعار الجبال في القرار والثبات لحجج القرآن القويَّة ودلائل النبوة الثابتة»[٢] وهي استعارة تصريحيَّة فقد شبه الحجج بالجبال، فحذف المشبه وأبقى المشبه به. وإن لم يُصرح رشيد بذلك واكتفى بذكر لفظ الاستعارة.

وفسر الزمخشري الآية من دون ذكر الاستعارة فقال: «وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدَّته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معداً لذلك»[٣].

وقال الرازي: «والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أي: وكان مكرهم أوهن من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ ودلائل شريعته»[٤].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لـمكر قوي، وعظمة الجبال لا تزول، وهذا من باب الإيغال والمبالغة في ذم مكرهم»[٥].

٥) الاستعارة التمثيلية:

عرفها السيوطي بقوله: «هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدد»[٦]، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٦.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٤١١).
(٣) الكشاف (٢: ٥٢٩).
(٤) التفسير الكبير (١٩: ١١٤).
(٥) البحر المحيط (٥: ٤٢٦).
(٦) معترك الأقران (١: ٢٨٣).

قال رشيد: «ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة من حالة الإبل النافرة من شدة الخوف. وتفرّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب[١].

ولم يذكر أحد من المفسرين أن في الآية استعارة تمثيلية، وقد انفرد رشيد في هذا التفسير للآية الكريمة.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن لم يقطع بذلك، فيقول: «يحتمل أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنة، وأهل النار، وتلمح إلى ما يكون بينهم من عزلة تامَّة، إلا من ناحية خاصَّة، وهي معرفة البعض بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنّى عنها بالباب... فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجه خاص وبين السُّور الذي له باب على طريقة الاستعارة التمثيلية، هذا ما أراه والله أعلم»[٢].

ولم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

٦) الاستعارة التهكمية:

وتسمَّى الاستعارة التلميحية، وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة[٣]. ومن الاستعارة التهكمية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، قال رشيد: «وهذه جملة تهكمية مستعارة من حال المخاطبين»[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

---

(١) أولى ما قيل (٦: ٣٢٤).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٢٩٤).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥٨).

(٤) أولى ما قيل (٨: ٢٥٧).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦]، قال رشيد: «صوَّر ذلك بصورةِ خسارة التجارة على طريقة الاستعارة التهكمية. وهي من البلاغة بمكان، والجملة ترشيح للشراء في الجملة التي قبلها، ثم مكَّن المعنى وجود الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]»[١].

وذهب السيوطي إلى أنَّ الاستعارة هي بالكناية قائلاً: «استعير الاشتراء للاستبدال، ثم فرَّع عليهما بما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة أو أضمر التشبيه في النفس فلم يصرِّح بشيء من أركانه سوى المشبه فبالكناية أي: فهو استعارة بالكناية»[٢].

وقال البيضاوي: «ترشيح للمجاز لما استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه بما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم»[٣] وهذا ما ذكره النسفي وابن جزي وابن عاشور[٤].

٧) الاستعارة التخييلية:

هي أن يستعار لفظ دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم، ثم تردف بذكر المستعار له إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها. وقد سمَّاها ابن الأثير الحلبي: «استعارة التخييل»[٥] وسمَّاها العلوي «الاستعارة الخيالية الوهمية»[٦].

ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد: ٥]. قال رشيد:

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٣٦-٣٧).

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية، ص١٢٧.

(٣) أنوار التنزيل (١: ١٨٣).

(٤) ينظر: مدارك التنزيل (١: ٢١)، والتسهيل (١: ٧٣)، والتحرير والتنوير (١: ٢٩٦).

(٥) جوهر الكنز، ص٥٨، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥١).

(٦) الطراز (١: ٢٣٢)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥١).

«... ثم رشح هذا المجاز باستعارة تخييلية تناسبها، لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع، فقال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: في عنقها حبل قويّ من ليف تجمع به حطباً كثيراً، لوقود نار الفساد، والفتنة والمشاغبات، يكنّى بذلك عن شدة سعيها بالمشاغبة ضدَّ رسول الله ﷺ، وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جمع الحطب لإيقاد النار، يبالغ في البيان عن شدّة سعيها في الفساد والمعارضة لنشر الدعوة وظهور الدين وكبْت المسلمين»[١].

قال البيضاوي: «أي: من مسد أي: فُتل، ومنه: رجل ممسود الخلق أي: مجدوله وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الحطّابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نار جهنم حين يكون على ظهرها حزمة من حطب»[٢].

ومن الاستعارة التخييليَّة ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩].

قال رشيد: «استعارة تخييليَّة مبنية على تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يسد آذانه من الصواعق حذر الموت حماقةً وبلهاً. فقد سيقت هذه الاستعارة لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تصور شدة بلههم وحماقتهم، وتقرر إعراضهم عن الحقِّ الجليِّ القوي وصمَمهم وتعاميهم عنه...»[٣].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٤٠٢).

(٢) أنوار التنزيل (٥: ٥٤٥).

(٣) أولى ما قيل (٢: ٤٠).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قال رشيد: «قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ استعارة تخيليَّة، رُشِّحَت بها الاستعارة الأصلية؛ ليتمكَّن في الذِّهن أنَّ الصورة كانت متقنةَ الصنع، فيرتاب الناظر إليها أنها عجل حقيقي من ذوات الخوار، لا صنعي»[١].

ويرى القزويني أنه من استعارة محسوس لمحسوس؛ إذ قال: «إنه استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي... فإن المستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حلي القبط التي سبكتها نار السامري»[٢].

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر مواطن الاستعارة في تفسيره وكان الغالب على ذلك أنه لا يُبين نوعها[٣].

٢. المجاز المرسل:

وهو أحد أنواع المجاز اللغوي، وعرفه القزويني قائلاً: «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه»[٤]. وسمِّي مرسلاً، لأن الإرسال في اللغة والإطلاق، والمجاز الاستعاري مقيَّد بادعاء أنَّ المشبه من جنس المشبه به، والمرسل مطلق ومحرر من هذا القيد. وقيل: «إنما سمي مرسلاً لإرساله على التقييد بعلاقة هي

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٧٦).

(٢) الإيضاح، ص٢٧٦، وينظر: مختصر المعاني، ص٢١٧، وبغية الإيضاح، ص٣٣٠.

(٣) ينظر: على سبيل التمثيل لا الحصر: أولى ما قيل (٣: ٤٣٦)، (٤: ٣٦)، (٤: ٥٣١)، (٤: ٥٤٣)، (٥: ٢٤ و٢٥)، (٥: ٤٢)، (٥: ٤٩)، (٨: ٥٠و٥١)، (٨: ١٢٩).

(٤) الإيضاح، ص٢٥٤، التلخيص، ص٢٩٥.

المشابهة»[١]. وأول من أطلق التسمية هو السكاكي؛ إذ قال: «وغير معناها ـ أي: الكلمة ـ إما أن يقدر قائماً مقام معناها بواسطة المبالغة في التشبيه أو لا يقدر والأول هو (الاستعارة) والثاني هو (المجاز المرسل)»[٢].

المجاز المرسل عند رشيد الخطيب:

ذكر رشيد الخطيب المجاز المرسل بالتحليل والدراسة وبيَّن فائدته، ومن أنواع المجاز المرسل التي ذكرها في تفسيره.

١) إطلاق اسم الكل على الجزء:

نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٦]، قال رشيد: «والمراد من السورة: آيات في موضوع خاصّ في السورة من ذكر الكلِّ وإرادة الجزء»[٣].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول، سوى الإمام الزمخشري الذي قال: «يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها»[٤].

٢) إطلاق اسم الجزء على الكل:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، قال رشيد ذاكراً قول الرازي: «قال الرازي: فإن قيل: كيف صحَّ مجيء ﴿خَٰضِعِينَ﴾ خبراً عن

---

(١) حاشية الدسوقي (٤: ٢٩).

(٢) مفتاح العلوم، ص١٩٥.

(٣) أولى ما قيل (٤: ١١٨).

(٤) الكشاف (٢: ٢٨٥).

الأعناق؟ قلنا: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع زيادةً في التقرير، ثم ترك الكلام على أصله، يريد أن في الكلام مجازاً مرسلاً من ذكر الجزء وإرادة الكل، كما في عتق الرقاب»[١].

قال أبو السعود: «وأصله: (فظلوا لها خاضعين) فاقتحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله»[٢]. وهذا قول الخازن والشوكاني[٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩]، قال رشيد في تفسيره للآية: «ومعنى الخشوع: الذلة والاستكانة من شدَّة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب، فأضاف إليها الأبصار، لما بينهما من ملابسة الاجتماع في جسم واحد. والإضافة تصح في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادة الضمير إليها، باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل من ذكر الجزء وإرادة الكل، فأضاف إليها الأبصار؛ لأنها جزء من الأصحاب»[٤].

وهذا من انفرادات رشيد في تفسير الآية.

٣) إطلاق المُسبَّب على السبب:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، قال رشيد الخطيب في تفسير الآية: «﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بتبديل الشكر بالكفر.

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٣٨٩- ٣٩٠)، وينظر: التفسير الكبير (٢٤: ١٠٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦: ٢٣٤).

(٣) ينظر: لباب التأويل (٥: ١١٣)، وفتح القدير (٤: ١٣٦).

(٤) أولى ما قيل (٨: ١٢٣).

وعثى بمعنى أفسد. فالآية تذكرهم بما أنعم الله عليهم من الحضارة والعمران والقوة والبأس والعلم والصناعة، ولاسيما في فن الهندسة والبناء، وتدعوهم إلى شكر الله على هذه النعم. ويجوز أن يراد من نحت الجبال تعبيد الطرق فيها ليتهيأ البناء والسكن عليها. أو المراد نحت الصخر منها لبناء البيوت. وفيه ذكر المسبَّب وإرادة السبب أو ذكر المحل وإرادة الحال»[١].

ولم يقل أحدٌ من المفسرين هذا الرأي.

٤) **إطلاق السبب على المسبَّب:**

نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ [التوبة: ١١٠].

قال رشيد الخطيب: «ذكرَ البنيانَ وأرادَ سببَه بطريقة المَجَاز المُرْسَل، أي: سبب بنيانهم وهو الكفر والنفاق ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلا بحيث لا يبقىٰ لها قابليَّة الإدراك؛ يُبيِّن بذلك أنَّ نفاقهم وكُفْرَهم راسخٌ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه، فسيموتون وهم كفار...»[٢].

ولم أجد من المفسرين من ذكر أن في الآية مجازاً مرسلاً. بل اكتفوا بقول أنَّ هذا البنيان سبباً لحصول الريبة في قلوبهم[٣].

ومنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٤٧).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٣٢).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٣: ٩٧)، والتفسير الكبير (١٦: ١٥٧)، والبحر المحيط (٥: ١٠٥)، ولباب التأويل (٣: ١٥٠)، والسراج المنير (١: ٥١٤)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٢١٣).

قال رشيد: «والقدم: مصدر بمعنى المسابقة استعمل هنا وصفاً مضافاً إليه موصوفه وذلك من خصائص اللغة. ويجوز أن يُراد بالقدم: قدم الرِّجْل، ذكر وأُريد به السبق في العمل أو القدوم على الله، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، كإطلاق اليد على النعمة»[١].

ونقل النحاس عن ابن عباس قوله: «أي: منزل صدق: وقيل القدم العمل الصالح وقيل السابقة...»[٢].

٥) إطلاق المحل على الحال:

ويقصد البلاغيون النسبة إلى المحل، أي: المكان. والمجاز في هذه العلاقة أنهم يستعملون اللفظ الدال على المكان، وهم يريدون غير المكان، فتتجاوز إرادتهم المكان إلى من فيه أو ما فيه[٣].

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، قال رشيد: «أي: وأُوحي إليّ أنَّ العبادة خاصَّة بالله تعالى، ففيه مجاز مرسل من ذكر المحل وإرادة الحال»[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

٦) تسمية الشيء باسم آلته:

والمقصود من هذه العلاقة كون الشيء واسطة في التأثير عليه يتوقف التأثير

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٥٠).

(٢) معاني القرآن (٣: ٢٧٦).

(٣) صناعة الكتاب، ص٣٣٤.

(٤) أولى ما قيل (٨: ٢٩).

والتأثر، إذ به يعالج المؤثر، ومثاله: أنْ يذكر اسم ويراد به الأثر الذي يتكون منه، وبذلك يستعمل اللفظ الدال على آلةِ الشيء مكان الشيء نفسه[١].

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، قال رشيد: «وخصَّ البنان بالذكر ـ مراداً بها الأصابع، ثم الأكف بطريقة المجاز المرسل ـ لأنها أداة التصرف في الضرب»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال: إن في الآية مجاز مرسل.

٧) إطلاق الملزوم على اللازم:

نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال رشيد: «وإنما قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، بَدَلَ: (إن يكن في قلوبكم خير)؛ لأنَّ الذي يكون يَعلَمُه الله، فهو تعبيرٌ عن الملزوم باللازم»[٣].

ولم أجد أحداً من المفسرين من قال بالمجاز المرسل في هذه الآية.

مجاز التضمين:

وقد عرفه ابن عبد السلام قائلاً: «هو أن تضمن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين فتعدِّيه تعديتَه في بعض المواطن»[٤]، وقد عرفها رشيد الخطيب بقوله: «مجاز التضمين وهو أن يضمن الكلمة معنى كلمة أخرى فيعديها تعديتها»[٥].

---

(١) ينظر: صناعة الكتاب، ص٢٠١.

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٥).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٣).

(٤) الإشارة إلى الإيجاز، ص٧٤، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢١٠).

(٥) أولى ما قيل (١: ٥٢٩).

ومن الأمثلة التي ذكرها رشيد لهذا النوع من المجاز قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، فقال: «فقد ضمن (تبينوا) معنى تحذروا، فتكون الكلمة محتملة للمعنيين: التبيين والتحذير»[١].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ [الإسراء: ٧٣]، قال رشيد: «فقد ضمَّن ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ معنى ليصرفوك فأفادت المعنيين معاً»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا القول.

مجاز التشبيه:

هو التشبيه المحذوف الأداة، وقد أوضح عز الدين بن عبد السلام ذلك بقوله: «العرب إذا شبهوا جرماً بجرم أو معنى بمعنى أو معنى بجرم فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً حقيقياً وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً مجازياً»[٣].

ومن قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨]، قال رشيد: «وعندي أن الآية من مجاز تشبيه الأجسام بالأجسام، كقولك لِـمَا نُحِتَ علىٰ صورة الفرس: إنه فرس صهَّال، تقول ذلك للمبالغة في إتقان صنعها، ولا يُراد به حقيقة المعنىٰ»[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

---

(١) أولى ما قيل.

(٢) المصدر السابق، وقد ذكر الشيخ في الصفحة نفسها أمثلة متعددة من هذا المجاز.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز، ص٨٥، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢١٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ١٢٦).

المبحث الثالث
الكناية والتعريض

أولاً: الكناية

جاء في اللسان: الكناية: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنَّى عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنَّى: تستر مِن كَنى عنه إذا ورّى، أو من الكنية»[١].

وفي اصطلاح البلاغيين: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد[٢].

ولعل أقدم من تكلم عن الكناية أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) في قوله: «ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره هو قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] حول الخبر إلى الكناية التي في آخِر الأعناق»[٣].

وقد كانت دراسة قدامة (٣٣٧هـ) لمصطلح الكناية من أهم الدراسات التي انتقلت بالكناية من المفهوم اللغوي إلى المصطلح البلاغي، فهو أول من عرفها باسم (الإرداف) وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، فيقول: «ومن أنواع ائتلاف

---

(١) لسان العرب، مادة (كنى).
(٢) ينظر: عروس الأفراح، للسبكي، ص٢٣٧.
(٣) مجاز القرآن (١: ١٢).

اللفظ والمعنى والإرداف، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان على المتبوع»[١]، وكان هذا أول تعريف اصطلاحي عرف به قدامة الإرداف.

وقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) عن الكناية: «وهو أن تكني عن الشيء وتعرض به ولا تصرح على حساب ما عملوا في اللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبري إذ بحث إلى قومه بِصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك»[٢].

ودرس ابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) أسلوب الكناية فهو يشير إليها في أبواب متفرقة؛ إذ تحدث عنها في باب (المجاز) بقوله: «وكذلك الكناية في مثل قوله تعالى إخباراً عن عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كناية عما يكون عنه في حاجة الإنسان»[٣]، ثم هو يذكرها في باب (الإشارة) أيضاً الذي يشمل على أنواع عدة منها (الإيماء، التفخيم، التعريض، الكناية والتلويح، التمثيل، الرمز، اللمحة، الحذف... إلخ).

أما عبد القاهر الجرجاني فقد نهج في تعريفه للكناية نهج قدامة وهو تعريفها بالإرداف؛ إذ يقول: «الكناية أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»[٤].

---

(١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٥٥.

(٢) كتاب الصناعتين، ص٣٦٠.

(٣) العمدة (١: ١٦٨).

(٤) دلائل الإعجاز، ص٥٢.

وقد تفرَّد رشيد بذكر الكناية في مجموعة من الآيات القرآنية، وهذا إن دل على شيء فهو للدلالة على مقدرته البلاغية واستقلال شخصيته العلمية.

وقد تميَّز تفسير «أولى ما قيل» بكثرة الكنايات الواردة فيه، فقد أفاد رشيد منها كثيراً في تفسير الآيات، وكان غالباً ما يبيِّن وجه التجوز فيها، وهو يرى أن الكناية لا يشترط فيها صحة إرادة المعنى الحقيقي على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨]، حيث قال: «وهذه العبارة تستعملها العرب كناية عن الدوام الدائم، فجرى القرآن في التعبير على حسب عرف التخاطب، على نهجه في مثل ذلك، ولا يشترط في الكناية صحَّة المعنى الحقيقي، ويجوز أن يراد سماء كلٍّ من أهل النار وأهل الجنة وأرضهم، وذلك ما فوقهم وما يستقرون عليه»[(١)].

وما ذكره رشيد هنا هو الفرق بين الكناية والمجاز الذي ليس كناية، لأن المجاز يمتنع فيه إرادة المعنى الحقيقي[(٢)] وبعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي، ومع ذلك فإن من الباحثين من لا يدخلها في المجاز، والشيخ رشيد منهم.

ويؤكد رشيد على ما ذكره من شروط الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، قال رشيد: «قيل هي كناية عن شدَّة الغضب، مثل حمي الوطيس، وقيل كناية عن قوة انبعاث الماء، لأن التنور يطلق على كوة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتفاق أقدار لأقدار والله أعلم. وعلى كل يكون المعنى فإذا اشتدّ طغيان الماء»[(٣)].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٦١).

(٢) ينظر: الإيضاح، ص٣٠١.

(٣) أولى ما قيل (٥: ٢٧٠).

ويستمر رشيد على تأكيده لشروط الكناية في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، فقال: «وهذا تصوير لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكناية عن ذلك، والكناية يراد بها لازم معناها، وهو هنا كثرة الخزائن ولا يجب فيها تحقق المعنى الأصلي، بل لا يتحقق إلا في القليل من الكنايات»(١).

وقد وردت الكناية في تفسير رشيد الخطيب في مواضع كثيرة ودلَّ عليها وكان غالباً ما يذكر **الأغراض البلاغية التي جاءت فيها**، ومنها:

الكناية لغرض الاستكبار:

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]، قال رشيد: «وهذا كناية عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن»(٢).

وذكر ابن عاشور معنى الكناية قائلاً: «وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه؛ لأن الإمساك يلازمه الإعراض»(٣).

واقتصر الزمخشري والثعلبي والقزويني على ذكر معنى الاستكبار فقط(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٥١١). قلت: بل الأقرب هو ما دلَّ عليه ظاهر اللفظ من أن المراد بالمفاتح: مفاتيح الخزائن التي تُحفَظُ فيها الكنوز التي كان يثقل حمْلُها على العصبة من الرجال، وهذا هو المعنى الحقيقي لألفاظ الآية، وهو غير ممتنع عقلاً ولا عادة، لا سيما أن المفاتيح في الأعصار الماضية كانت أكبر حجماً من مفاتيح هذا العصر، وما دامت الحقيقة غير ممتنعة فلا ينبغي العدول إلى المجاز.
ثم إن القول بأن المراد بالمفاتح: الخزائنُ نفسُها، فيه إضعاف لمدلول الآية في سياقها، فكثير من الأغنياء من يثقل حمل خزائن أموالهم وصناديق كنوزهم على العُصبة أولي القوة من الرجال (مجد).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٥٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٤: ٦٤).

(٤) ينظر: الكشاف (٢: ٦٤٤)، والكشف والبيان (٦: ٦٢٩)، والإيضاح، ص٨٩.

الكناية لغرض الاستيلاء والتدبير:

نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال رشيد الخطيب: «وفي هذا كناية عن الاستيلاء والتدبير لهذا الكون والسيطرة عليه، على عادة المخاطبين ونظامهم في أحوال سلطانهم. لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم...»[١].

وذهب الزركشي: «أنه كناية عن الملك؛ لأن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه كناية عنه»[٢] وتبعه السيوطي في ذلك[٣].

الكناية عن منتهى السخاء:

نحو قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال رشيد: «كناية عن منتهى السخاء مأخوذ من حال المخاطبين... لأن السخي يعطي بيده لكثرة السائلين»[٤].

وذكر الزركشي أنه «كناية عن سعة جوده وكرمه»[٥]، وقال السيوطي ذلك[٦].

الكناية عن العذاب:

نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، قال رشيد الخطيب: «فيعبر عن مصيرهم الأليم بعدم المحبَّة لهم، إيماء لمحبة الله تعالى للمؤمنين وكناية عمّا لهم من العذاب في مقابلة نعيم المؤمنين ومحبتهم»[٧].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٠٠ و١٠١).

(٢) البرهان: ٥٠٦.

(٣) ينظر: الإتقان (٤: ١٢٤).

(٤) أولى ما قيل (٣: ٢٣٤).

(٥) البرهان، ص٥٠٥.

(٦) ينظر: الإتقان (٣: ١٢٣).

(٧) أولى ما قيل (١: ٦٥٨).

ومنـه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذه الجملة كناية عن العذاب الذي لا نجاة لهم منه»[١].

الكناية عن مواصلة السير:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]، قال رشيد الخطيب: «كناية عن مواصلة السير السريع، وتهويل للعذاب الواقع أي: أسرعوا»[٢].

الكناية عن الجزاء:

نحو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، قال رشيد الخطيب: «وهذا كناية عن أنه تعالى يجازيهم عليه الجزاء الأوفى، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة»[٣].

الكناية عن الخير والسعادة:

ومنـه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١]، قال رشيد الخطيب: «وأخذه باليمن كناية عن أنه حاوٍ لأعمال الخير ومستوجب للسعادة والهناء»[٤].

الكناية عن قبح الحال:

نحو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذا دعاء على الإنسان بأشد عبارات النقد والتنديد، على ما هو معروف باللسان العربي. وهو كناية عن قبح حاله، وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حياً، ومنشأ

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٣٩).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٢٧).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٥٦٠).

الشناعة ومناطها: نسيانه لما يتقلب فيه من النعم، وذهوله عن مسديها. فإذا ذُكِّر به أعرض عن الذكرى. فما أشدَّ كفره بإحسان من غمره بنعمه مِن مبدأ إيجاده إلى ساعة معاده»[١].

الكناية عن الأناة والحلم والثبات:

نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، قال رشيد: «وشرح الصدر كناية عن الأناة والحلم والثبات تجاه ما سيلقاه من الأمور المزعجة»[٢].

الكناية عن عدم صدور اللغو:

نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢]، قال رشيد الخطيب: «أي: فضول الكلام. وهذه الكناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها»[٣].

الكناية عن الإرادة:

نحو قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]، قال رشيد الخطيب: «أي: معلمة بعلامة خاصة عند ربك، وهذه كناية عن أن كل حجر منها لا يصيب إلا من أراد الله أن تصيبه والله أعلم. والمراد: المبالغة في تمكين الإجراء وتحقيق الجزاء»[٤].

الكناية عن اللين والشفقة:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، قال رشيد الخطيب: «وخفض الجناح كناية عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعار من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحطَّ خفض جناحه»[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٣٦)، وينظر: (٨: ١٩٣).

(٢) أولى ما قيل (٥: ١٠٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٨٥).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٢٥٢).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٤٢٨).

الكناية عن الهجوم:

نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥]، قال رشيد الخطيب: «أي: أدخلنا الغبار وسط جمع العدو، وهو كناية عن هجومهنّ عليهم، واختلاطهنّ بهم عند غلبتهم»[١].

الكناية عن التيئيس:

نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كناية عن التيئيس من النجاة»[٢].

الكناية عن سَعَة العلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم: ٦٤]، قال رشيد: «وهذه الجملة كناية عن سعة علم الله وسلطانه، وتلميح إلى ما يصحب ذلك من دقة عدله في جزائه وإكرامه للمحسنين، وتنزيل كل واحد منزلته لعلمه بما يستحقه ويقتضيه»[٣].

ثانياً: التعريض[٤]:

وهو في اللغة: «عرَّض لفلان وبه: إذا قال فيه قولاً وهو يعيبه، يقال: عرَّض

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٢٣).

(٢) أولى ما قيل (٢: ١٣١).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٨٦).

(٤) ذكر الدكتور العزاوي قبل الكلام عن التعريض: المبحث الرابع: التصوير. وقطع الكلام المرتبط بين الكناية والتعريض بهذا المبحث، وهو من صفحتين ومأخوذ برمّته مما كتبه الدكتور الحمّاش، وقد تقدم، فاستغنيت عن إعادة هذا المبحث هنا (مجد).

تعريضاً: إذا لم يبيّن، والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء»[١].

وفي الاصطلاح: استخدم العرب في كلامهم كثيراً من التعريض، فهو من الأساليب العريقة، إذ عدّوه من محاسن الكلام، فقد عقد ابن قتيبة باباً خاصاً له مع الكناية سماه (باب الكناية والتعريض) وقال فيه: «ومن هذا الباب التعريض، والعرب تستعمله في كلامها كثيراً فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل شيء ويقولون: لا يحسن التعريض إلا ثلباً»[٢].

وقد ذكره السكاكي وهو يقسم الكناية بقوله: «ثم إن الكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة»[٣]، ثم قال: «متى كانت الكناية عرضية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسباً»[٤]، وعرفها ابن الأثير قائلاً: «هي اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»[٥].

وقد تناول رشيد الخطيب التعريض في عدد من الآيات كقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦]، قال رشيد: «ثم ختم الكلام بعبارة تدل بطريقة التعريض على التوعُّد لمن يكفر بها»[٦].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

---

(١) لسان العرب، مادة (عرض)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ٢٧٦).

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص٢٠٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٥) المثل السائر (٣: ٥٦).

(٦) أولى ما قيل (٥: ١٠٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، قال رشيد: «وفي ذلك تعريض بمن اتخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال رشيد: «وفي هذا تعريض وتحذير لهم ممَّا وقع لقوم نوح من العذاب وإيماء إليه»[٢].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد ذكر رشيد التعريض في مواضع متعددة من تفسيره[٣].

* * *

(١) أولى ما قيل (٣: ٢٩٣).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٤٥).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٣٢، ٥: ٢٧٩، ٥: ٣٤١، ٥: ٤٣٨).

الفصل الثالث
علم البديع

البديع لغةً: بَـدَعَ الشيءَ يَبْدَعه بَدعاً وابتَـدَعَهُ: أنشأهُ وَبدأهُ، وأبدعت الشَّيءَ اختـرَعتُهُ لا على مِثالٍ سابقٍ. والبَدِيعُ من أسماءِ الله تعالى، والبديعُ الجَديد[١].

البديع اصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[٢].

وقد أشار العلمـاء إلى أن أول من ذكر مصطلح البديع هو الشاعر مسلم بن الوليد[٣] وذكره الجاحظ في قوله: «والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة وأربت على كل لسان»[٤].

وقد شاع هذا اللون في الأدب مما حدا بالخليفة والشاعر العباسي ابن المعتز إلى تأليف كتـابه البديع الذي قال فيه: «البديع اسم موضوع لفنـون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو. وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»[٥].

---

(١) لسان العرب، مادة (بدع).
(٢) الإيضاح، ص٣١٧.
(٣) ينظر: الأغاني (١٩: ٣١)، العمدة (١: ١٣١).
(٤) البيان والتبيين (١: ٥١).
(٥) البديع، ص٥٨.

والناظر في كتاب «البديع» يرى أن فنونه تشمل علم البيان وبعض قضايا علم المعاني، وبذلك لم يكن مصطلح البديع يتطابق مع مفهومنا الحالي فقد كان يطلق البديع على البلاغة كلها، وهذا ما ذكره ابن قدامة بن جعفر[١] وعبد القاهر الجرجاني[٢] في نظريته المعروفة بـ(نظرية النظم) التي يكشف فيها عن الإعجاز القرآني بالإفادة من النظرة الشمولية لعلوم البلاغة.

ويُعدُّ القزويني أول من عرف علم البديع ـ ذكرنا التعريف مسبقاً ـ والسكاكي أول من قسم فنون البديع؛ إذ سمّاها (محسنات) وجعلها على ضربين:

ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[٣] وقد تناول رشيد الخطيب أنواعاً متعددة من هذا العلم في تفسيره منها:

١) المشاكلة:

المشاكلة لغةً: الشبه والمثل، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه[٤].

وقال ابن فارس عليها: «الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شِكْلُ هذا، أي: مثله. ومن ذلك يقال: أمر مُشكل، كما يقال أمر مشْتَبِهٌ، أي: هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا»[٥].

المشاكلة اصطلاحاً: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو

---

(١) ينظر: نقد الشعر، ص٢٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، ٤٠-٤٥، وأسرار البلاغة: ١-٤.

(٣) الإيضاح، ص٣١٧، وينظر: مفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٤) لسان العرب، مادة (شكل).

(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة (شكل) (٣: ٢٠٤).

تقديراً[١]. وسماه الرماني بالمزاوجة[٢]. ويبدو أن الدكتور أحمد مطلوب أرجع بدايات نشوء مصطلح المشاكلة إلى أبي علي الفارسي بقوله: «ولعل أبا علي الفارسي كان أول من أطلق عليه اسم المشاكلة»[٣].

ومن المُحْدَثين من يرى أنَّ المشاكلة كلمة تتردَّد في العبارة مرتين، مع إمكان استبدالها بغيرها في المرة الثانية، ولكن بقيت ليكتمل الإيقاع الموسيقي الناتج عن الترديد، فضلاً عن أن معناها ما زال قادراً على العطاء في العبارة التي وردت فيها[٤].

ولقد عني الشيخ رشيد الخطيب بها عناية واضحة لما فيها من دفع شبهة قد ترد في نسبة الألفاظ التي لا تليق بذات الله كالنسيان، والمكر، والخديعة، وما إليها فهو لون بديعي، وهو كذلك لدى الشيخ، إذ عد هذا اللون من الكلام من فنون البديع وقد نص على ذلك في بعض المواضع فقال: «هذا من البديع»[٥].

ومن الآيات القرآنية التي ذكر رشيد الخطيب أن فيها مشاكلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، قال رشيد: «وإنما سمِّي التحرُّش من الكفار بالمؤمنين عقاباً أيضاً، للازدواج والمشاكلة»[٦].

ونرى هنا أن رشيد الخطيب أطلق اسم الازدواج أيضاً على المشاكلة.

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «ولم يزد في الاقتصاص وإنما سمِّي الابتداء

---

(١) مفتاح العلوم، ص٤٢٤، والتلخيص، ص٣٥٦.

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، ص٩٩.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢٨٥)، وينظر: الحجة (١: ٢٣٦).

(٤) ينظر: البلاغة (تأصيل وتجديد)، ص١٠١.

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢٥) و(٤: ١٦٧).

(٦) أولى ما قيل (٥: ٢٤٦).

بالعقاب الذي هو للازدواج أو لأنه سببه»[١]، فهو لم يصرح بلفظ المشاكلة بل الازدواج.

وسماه الزمخشري الملابسة قائلاً: «﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ تسميته الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير، والنقيض على النقيض للملابسة»[٢]. وتبعه النسفي والنحاس[٣].

وأطلق الشوكاني والألوسي لفظ المشاكلة[٤].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، قال رشيد: «أي: أعجلُ عقوبة وأسرع عقاباً من سرعتكم في انقلابكم عن الحق. وفي تسمية العقوبة مكراً، مشاكلة لمكرهم وهذا من البديع»[٥].

وهذا ما ذهب إليه الشوكاني بقوله: «... وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة»[٦] وذكر الرازي أنه من المقابلة[٧].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، قال رشيد: «أي: حرمهم من فوائد ذكره وشكره وحسن عبادته. فيه مشاكلة في اللفظ»[٨].

---

(١) أنوار التنزيل (٤: ١٣٧).

(٢) الكشاف (٣: ١٦٨).

(٣) ينظر: مدارك التنزيل (٣: ١١٠)، ومعاني القرآن (٤: ٤٢٩).

(٤) ينظر: فتح القدير (٣: ٦٦٥)، وروح المعاني (١٧: ١٨٩).

(٥) أولى ما قيل (٤: ١٦٧)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ١٣٣).

(٦) فتح القدير (٢: ٦٢٨).

(٧) التفسير الكبير (١٧: ٥٤).

(٨) أولى ما قيل (٤: ١٠٦).

وقال الزركشي: «وهو مجاز حسن، فالعرب تسمِّي الجزاء على الفعل باسم الفعل»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، قال رشيد في تفسير الآية: ﴿... أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: ضريبة على الرؤوس فيتهموك بأن تطلب بهذه الدعوى والدعوة نيل ثروة أو رياسة، كلا. وإنما تطلب الأجر من ربك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وهو رزقه لك في الدنيا، وثوابه في الآخرة. وعبر عن هذا بالخراج، للمشاكلة»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

وقد أكثر رشيد من ذكر هذا النوع في تفسيره[٣].

٢) اللف والنشر:

جاء في اللسان: «اللَّف: الصّنفُ من النَّاس من خير أو شر، والتفَّ الشيء: تجمّع وتكاثف، والنشرُ، أنشر الله الرِّيح: أحياها بعد موت وأرسلها نشراً ونشراً»[٤].

وفي الاصطلاح: فقد عرفه السكاكي قائلاً: «هو أن تلفَّ بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مستقلاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كلاً منهما إلى ما هو له»[٥]. وقولهم من غير تعيين أي: من غير أن يعين لشيء ممَّا ذكر أولاً ما هو له مما ذكر ثانياً، وهذا قيد في التعريف يخرج ما كان معيناً، فهو من باب التقسيم،

---

(١) البرهان، ص٨٦٢.

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٨٣).

(٣) أولى ما قيل (٢: ١٨٩)، (٤: ٢٥، ٢٣١، ٥١٠)، (٦: ٣٥).

(٤) لسان العرب: مادة (لف) و(نشر).

(٥) مفتاح العلوم، ص٦٦٢.

وليس من هذا الباب. وترك التعيين يكون من أجل الوثوق بأن السامع يرد إلى كل ما هو له بناءً على القرينة[١]. وقد عرفه كثير من البلاغيين منهم الحموي بقوله: «وهو أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد إلى العقل ردَّ كل واحد إلى ما يليق به»[٢].

وقسمه القزويني على نوعين: الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف، والثاني: أن يكون النشر على غير ترتيب اللف[٣].

وذكر الشيخ هذا اللون البديعي في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]، قال رشيد: «وكلتاهما تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٌ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقد جاء هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المفرّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه من المهتدين[٤].

لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يلمح الشيخ لفاً من دون تفريق فيجد فيه صورة من صور الإيجاز القرآني، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣]، قال رشيد: «وفيه لف واحتباك على نهج إيجاز القرآن»[٥].

---

(١) خزانة الأدب (١: ١٤٩).

(٢) دراسات منهجية في علم البديع، للشحات محمد أبو شيبة، ص٢٢٣.

(٣) التلخيص، ص٣٦١، والإيضاح، ٣٣٣.

(٤) أولى ما قيل (٣: ٥٠٥).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٥٦٤)، وينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٢١).

٣) المقابلة:

المقابلة لغةً: جاء في اللسان: قابل الشيء مقابلة وقبالاً: عارضه، والمقابلة: المواجهة والتقابل مثله[١].

وفي الاصطلاح: فقد اختلف البلاغيون في المقابلة فمنهم من أدخلها في باب المطابقة[٢]، ومنهم من عدها باباً بذاتها[٣]، وعرفها الكثير من البلاغيين[٤]، إذ قال فيها أبو الأصبع المصري إنها عبارة عن: «توخِّي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني لا يخل من ذلك شيء في المخالف والموافق، ومتى أخل الترتيب كان الكلام فاسد وقد تكون المقابلة بغير الأضداد»[٥].

وعرفها أبو هلال العسكري بقوله: «إيراد الكلام في مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة»[٦]. وجميع التعريفات تكاد تكون متفقة في المعنى العام.

وقد أشار رشيد الخطيب إلى المقابلة في عدد من الآيات ولم يفرق بين الطباق والمقابلة، على حين فرق أكثر البلاغيين، فقد عرف السكاكي الطباق بأن تجمع بين متضادين، أما المقابلة فهي بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضدَّيهما[٧].

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (قبل).

(٢) ينظر: مختصر المعاني، ص٢٦٧.

(٣) ينظر: نهاية الإيجاز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٤) ينظر: كتاب الصناعتين، ص٣٣٧، وجوهر الكنز، ص٨٥، والإيضاح، ص٣٥٣، وخزانة الأدب (١: ١٢٩).

(٥) تحرير التحبير، ص١٧٩.

(٦) كتاب الصناعتين، ص٣٣٧.

(٧) مفتاح العلوم، ص٦٦٠، وينظر: منهج الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٢).

واختيار الشيخ لمصطلح (المقابلة) مبني على واقع الدلالة، إذ إنَّ أحد اللفظين يقابل الآخر في معناه. أما الطباق فمصطلح تعارف عليه البلاغيون[١].

فقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣]: «ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٍ﴾ بـ﴿دَانِيَةٌ﴾ من الإبداع البليغ»[٢].

وهذا في اصطلاح عموم البلاغيين طباق، قال الزركشي: قابل بين العلو والدنو»[٣].

ومن المقابلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «ثم ذكر حال المؤمنين ومصيرهم في مقابلة حال المنافقين ومصيرهم على نهج القرآن في المقابلة فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [التوبة: ٨٨]، التي هي ثمرات الإيمان ...»[٤]. فهذا من مقابلة جملة بجملة.

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يقابل الشيخ بين جمل متعددة لتشمل مشهداً متكاملاً بإزاء مشهد آخر، وهذا من خصائص القرآن، إذ يقابل مثلاً مشاهد العذاب بمشاهد النعيم في كثير من نصوصه، جرياً على نهجه وأسلوبه في الترغيب والترهيب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ

---

(١) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٣).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٨٤).

(٣) البرهان، ص٩٠٧.

(٤) أولى ما قيل (٤: ١١٨)، وينظر (٣: ٥٠٤).

﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]، قال رشيد: «وهذه الجمل مقابلة لنظيرها السابق في حقِّ الكافرين»(١). وهذا ما ذهب إليه الرازي(٢).

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر المقابلة في تفسيره(٣).

٤) الالتفات(٤):

لغةً: لَفَتَ وَجْهَهُ عَن القَومِ: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التفاتاً... والتَفَتَ إليه صَرفَ وجههُ إليه، ويقال: لَفَتُّ فُلاناً عن رأيه، أي: صَرَفْتُه، ومنه الالتفات(٥).

---

(١) أولى ما قيل(٥: ٢٦).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٢١: ١٠٤).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٤٦، ٣١٨)، (٣: ١٩٦)، (٣: ٤٢٨، ٥٠٤).

(٤) قال أستاذنا محمد الحسناوي في تقديمه لتفسيري «المعين»: مما نوصي به المعنيين: الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن الذي هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: (التكلم والخطاب والغيبة) مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها. وهو فنّ من فنون القول يلقب بشجاعة العربية، وأحد نواحي الإعجاز في حيويته وروعة تنقله وفي تأثيره في الإعراض والإقبال أو المفاجأة أو الاستحضار، كما هو أحد الأساليب التي تندرج تحت مسمَّى الخروج عن الظاهر، لغرض فنيّ أو ديني أو للأمرين معا، وما أكثر ذلك وما أروعه!! (مجد).

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة (لفت).

وفي الاصطلاح: عرَّف البلاغيون الالتفات واختلفوا في تسميته[١]، فمنهم من سمَّاه الاعتراض والرجوع والصرف والانصراف والالتفات، وكذلك أطلقوا عليه شجاعة العربية.

ولعل أول من أطلق عليه تسمية الالتفات هو الأصمعي[٢]، وقد أوضحه ابن الأثير بقوله: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام؛ لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»[٣]، وهو عنده ثلاثة أقسام:

الأول: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة.

الثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر.

الثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي.

ووضع السكاكي الالتفات ضمن علم المعاني، فقال فيه: «واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختصُّ المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منهما على الآخر، ويسمَّى هذا النقل التفاتاً

---

(١) ينظر: البديع، ص٥٨، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة (٢: ٤٦)، والمثل السائر (٢: ٤)، وتحرير التحبير: ١٢٣، وجوهر الكنز، ص١١٩، وخزانة الأدب (١: ١٣٤).

(٢) ينظر: حلية المحاضرة (١: ١٥٧)، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة (٢: ٤٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٩٥).

(٣) المثل السائر (٢: ٤).

عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب، أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك»[١].

والشيخ رشيد الخطيب قد اهتم بهذا الأسلوب في تفسيره، وكان حريصاً على ذكر الأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب.

وقد أورد الشيخ أربعة أنواع من الالتفات في القرآن الكريم في تفسيره «أولى ما قيل»، وهذا خلافٌ لما ذكره الباحث خالد محمد حماش من أن الشيخ أورد ثلاثة أنواع للالتفات[٢].

أ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، قال رشيد الخطيب: «ثم غيَّر الأسلوب من التكلم إلى الغيبة مبالغة في التعظيم»[٣].

ولم أجد من المفسرين من قال هذا الرأي.

ب ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

ويأتي هذا النوع لأغراض متعدِّدة ذكرها المفسر، فقد يكون لغرض تربية المهابة نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّىَٰ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٩٩.

(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ١٦٨).

قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة»(١).

وذهب البيضاوي إلى غرض الترهيب في الالتفات قائلاً: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإيَّاي فارهبون لا غير»(٢). وهذا رأي الزمخشري والرازي والخازن والنسفي والشوكاني(٣).

ولم يذكر ابن جزي غرض الالتفات فقال: «﴿فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ خرج من الغيبة إلى التكلم؛ لأن الغائب هو المتكلم»(٤).

وقد يكون لغرض إظهار الاعتناء، نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]، قال رشيد: «ثم التفت إلى التكلم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه»(٥).

وقد يكون الالتفات عنده لأكثر من غرض بلاغي، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»(٦).

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١١٩).

(٢) أنوار التنزيل (٣: ٤٠٣).

(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٥٧٠)، والتفسير الكبير (٢٠: ٤٠)، ولباب التأويل (٤: ٩٥)، ومدارك التنزيل (٢: ٢٥٩)، وفتح القدير (٣: ٢٤٠).

(٤) التسهيل (٢: ٧٤)، وينظر: روح المعاني (١٤: ١٦٣)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤: ٢٦٩).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٥٠٨).

(٦) أولى ما قيل (٦: ١٤٩). وينظر: إرشاد العقل السليم (٧: ١٥٠).

وقال السمين الحلبي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلم، وإنما كان ذلك؛ لأن المنَّة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء»[١]. ولم يذكر البيضاوي وأبو حيان غرض الالتفات[٢].

جـ- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ويأتي عنده أيضاً لأغراض بلاغية متعدِّدة منها ما يأتي لغرض المبالغة في الترهيب نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]، قال رشيد: «وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، للمبالغة في الترهيب»[٣].

وذكر الزمخشري الالتفات في الآية لكنه لم يُبيِّن غرضَهُ[٤].

وقد يكون الالتفات لغرض التعجيب، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، قال رشيد: «... ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم حيث إنهم لا يدركون الحق ولا يعتبرون بالحكم، ولا يراعون النعم فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو الإشراك بالله»[٥].

ويأتي الالتفات عنده لغرض الإبعاد والتحقير مع التجهيل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]، قال رشيد:

---

(١) الدر المصون (٩: ٢٢٦).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (٢٦: ١٨)، والبحر المحيط (٧: ٢٩٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٣٤٩).

(٤) ينظر: الكشاف (٣: ٢٢٢).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٤٨٢)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٢٨).

«وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل، فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»[١].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

وقد يكون لأكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٧-٦٨].

قال رشيد: «ثم لفت الكلام إلىٰ التوبيخ والإنكار لعددٍ من مظانِّ التُّهَم مضطربة في مسالك البطلان، وعَدَلَ عن الخطاب إلىٰ الغيبة مبالغةً في ذلك، كأنه أبعدهم عن ساحةِ الخطاب لقلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

د ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وقد يكون لغرض التهديد نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣]، قال رشيد: «ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد...»[٣].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

ويأتي عنده لغرض المبالغة في الترهيب كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، قال رشيد: «والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»[٤].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٨٢).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٦١).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٤٧٥).

ولم يذهب أحد من المفسرين إلى هذا القول.

وقد يذكر له أكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]، قال رشيد: «... ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب زيادةً في التقرير ومبالغةً في التهديد فقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾»[١].

وذهب الألوسي إلى أن غرض الالتفات هو الإباحة قائلاً: «... وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والمقصود الإباحة والإعلام بحصول الأمان من القتل والقتال...»[٢].

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الفاء للتقريع على معنى البراءة، لأنها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاماً للمشركين الذين هم المقصود من نقص العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات. فالتقدير: فليسيحوا في الأرض ونكتة هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة»[٣].

ولم يذكر القرطبي غرض الالتفات[٤].

٥) تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو من الأساليب الخادعة، إذ يوهم صدر الكلام أن عجزه من قبيل الذمّ فإذا

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٦١).

(٢) روح المعاني (١٠: ٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠: ١٤).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٨: ٩٤)، وينظر: زاد المسير (٣: ٣٩٣).

به من قبيل المدح، فحين نقول: لا عيب في محمد إلا أنه أمين، فبدلية كلامك توهم أنك لا ترى فيه عيباً ستذكره بعد الاستثناء، فإذا قلت: إنه أمين، زال الوهم، وتبين القصد في مدحك له على نهج بديع من الكلام، وقد وقف بعض علماء البلاغة عنده، وفصَّلوا الحديث فيه وفي أمثلته تحت عنوان الاستثناء[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، قال رشيد: «وفي صيغة هذا التعبير: ما يشبه النوع البديعي الذي يسمونه طريقة تعقيب المدح بما يشبه الذم، والغرض منه هنا المبالغة في التشنيع. أي: لم يكن من وجوده ﷺ بينهم إلا أنهم نالوا كل خير وسعادة من الغنى وحسن الحال، فماذا ينقمون عليه...»[٢].

وصرَّح السيوطي بذلك إلا أنه لم يذكر الغرض قائلاً: «فإن ظاهر الاستثناء أن ما بعده حق يقتضي الإخراج فلما كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم»[٣]. وهذا ما ذكره الألوسي وابن عاشور[٤].

ولم يصرح الرازي وغيره على لفظ المدح بما يشبه الذم، ولكنه فسر الآية بما يدل على ذلك المعنى قائلاً: «إن قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تنبيه على أنه ليس هناك شيء ينقمون وهذا كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب»[٥]

---

(١) ينظر: البديع، ص٦٢، وكتاب الصناعتين، ٣٢٤، والعمدة (٢: ٤٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١١٢).

(٣) الإتقان (٣: ٢٢٥).

(٤) ينظر: روح المعاني (١٠: ١٣٩)، والتحرير والتنوير (١٠: ١٥٨).

(٥) التفسير الكبير (١٦: ١٠٩)، والبيت في ديوان النابغة، ص٤٤.

وتبعه في ذلك بعض المفسرين[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، قال رشيد: «وهذا البيان أكبر مسوغ للقتال وحافز إليه، نجدةً لهم ودفاعاً عن الدين. وهذا الاستثناء من أبلغ الكلام. فقد استثنى من الحكم ما يؤيده ويقرره، ومن الوصف المحسس المفزز ما يزيده تهييجاً في الشعور على الطريقة البلاغية المسمَّاة في فنِّ البلاغة: ـ تعقيب المدح بما يشبه الذمّ ـ أو العكس»[٢].

ولم يجزم الشوكاني بهذا اللون البديعي في الآية الكريمة قائلاً: «﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يجوز أن تكون بدلاً من (الذين يقاتلون)، أو في محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ»[٣].

٦) التورية:

لغةً: مصدر ورّيت الخبر تورية، إذا سترته وأظهرت غيره[٤].

وفي الاصطلاح: فقد اتفق البلاغيون على تعريفها، على الرغم من اختلافهم في تسميتها، فقد سُمِّيت بـ(الإيهام، والتوجيه، والتخيل، والمغالطة)[٥].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٨: ٢٠٧)، والبحر المحيط (٥: ٧٤)، ولباب التأويل (٣: ١٢٤)، والسراج المنير (١: ٥٠٠)، وفتح القدير (٢: ٥٥٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣: ٢٣٣).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٣٧).

(٣) فتح القدير (٣: ٦٥٣). وينظر: الإتقان (٣: ٢٢٥).

(٤) لسان العرب، مادة (ورى).

(٥) ينظر: تحرير التحبير، ص٢٦٨، وجوهر الكنز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٢، والإيضاح، ص٣٦٤، وخزانة الأدب (٢: ٣٩).

أما تعريفها فهو: «أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل ذلك سمي هذا النوع إيهاماً»(١).

وإن التورية من الفنون البديعية المهمة التي عُنيَ بها البلاغيون وأكّد ذلك ابن حجَّة؛ إذ قال: «فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة...»(٢).

وقد أشار رشيد الخطيب إلى هذا اللون البديعي في تفسيره، موضحاً سر التورية وجمالها في موقعها من الكلام في كل موضع، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٤]، قال رشيد الخطيب: «يريد السيِّد العزيز ويوري بالله سبحانه، ويجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. على أن المعنى الأول أيضاً لا يصدر إلا عن متَّقٍ لله حقَّ تقاته. فهو مستلزم للمعنى الثاني، يدل عليه بالدلالة الالتزامية. وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مضمرة في نفس يوسف عليه السلام ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لها بأنها داست كرامة زوجها وحقوقه وحقوق الإحسان إليه وحقوق الثقة بين الزوجين»(٣).

ولم أجد أحداً من المفسرين من قال بهذا الرأي فهو من انفرادات رشيد الخطيب.

وقد يتردَّد احتمال الشيخ للوجه البلاغي في النص القرآني بين التورية وفن بلاغي

---

(١) خزانة الأدب (٢: ٣٩).

(٢) المصدر نفسه (٢: ٤٠).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٢٩٠).

آخر ليس من البديع على نحو ما نجد عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فقد قال رشيد الخطيب: «في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارة أو تورية بديعة عقد بها المشابهة بين الميت والجمل البارك»[١]. ويريد الشيخ هنا أن الاستعارة على وجه المجال بتشبيه الكفار بالموتى؛ إذ الكفر ضرب من الموات في الفكر والعقيدة، لانحرافه عن الحق، أو يريد التورية على وجه الخفاء، والتورية هنا عن بلادة التفكير والإحساس لدى الكفار[٢].

وذكر أبو السعود معنى الاستعارة[٣]، وتبعه ابن عاشور بقوله: «﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ «الموتى» استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهم الأشياء»[٤].

وذهب الألوسي إلى معنى التشبيه، فقال: «شبَّههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق...»[٥].

ولم أجد من المفسرين من قال بمعنى التورية عنده.

٧) حسن التعليل:

هو أن يدعي لوصف علَّة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي أي: بأن ينظر نظراً مشتملاً على لطف ودقة ولا تكون علَّة له في الواقع[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٣٠٣).

(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٨).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم (٣: ١٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٦: ٨٠).

(٥) روح المعاني (٢: ١٦٣).

(٦) إتمام الدراية لقراء النقاية (١: ١٣٢)، وبغية الإيضاح، ص٢٣٧، ومختصر المعاني، ص٢٦٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

قال رشيد: «وقد أردف تحقيق البعث بوجه من حسن التعليل يتضمن الزجر لهم والتبكيت على أحسن الوجوه وأجملها، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾» [النحل: ٣٩][(١)].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

٨) أسلوب الحكيم

«هو كل كلام محكم»[(٢)].

وقد عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن ذكر الأهم تعريضاً بالمتكلم على تركه الأهم، كما قال الخضر حين سلم عليه موسى عليه السلام إنكاراً لسلامه، لأن السلام لم يكن معهوداً في تلك الأرض: فأنَّى بأرضك السلام؟ وقال موسى عليه السلام في جوابه: أنا موسى، كأنه قال: أجبت عن اللائق بك، وهو أن تستفهم عني لإسلامي بأرضك»[(٣)].

وعُرف أيضاً: «بأنه تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه إلى خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، أو المهم له»[(٤)].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٨).

(٢) كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي (١: ١٥٣).

(٣) التعريفات، ص٢١.

(٤) خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، ص٢٣٦، وبلاغة التراكيب في علم المعاني، ٢٩٩.

وقد تناول رشيد هذا اللون البديعي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. قال رشيد: «أي: غرير سريع الانخداع، وذلك من أكبر عيوب الرؤساء لما يترتب عليه من قبول الغش. والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذن لهم بمعاذيرهم الكاذبة. وقد ردَّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يسمِّيها البلغاء أسلوب الحكيم أو القول بالموجب فقال: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]»[(١)].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

٩) الإبهام:

لغةً: جاء في اللسان: «الإبهام بالباء الموحدة وهو الكلام الموهم؛ لأنَّ له أكثر من وجه، وإبهام الأمر أن يشتبه فلا يعرف وجهه، وقد أبهمه، واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون له، واستبهم عليه الأمر أي: استغلق»[(٢)].

وهو عند البلاغيين: «إيراد الكلام محتملاً لوجهيْن مختلفين»[(٣)]، وسمَّاه السكاكي التوجيه، وسماه السيوطي كذلك[(٤)].

ومن أمثلته ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٠٢).

(٢) اللسان، مادة (بهم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

(٣) مفتاح العلوم، ص٢٠٢، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

قال رشيد الخطيب: «وهذا الإبهام الصوري التهكمي، بعد أن بيَّن من هو على الهُدى ومن هو على الضلال أبلغ من التصريح»[١].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

١٠) الفاصلة القرآنية:

الفصل لغةً: الفصل من الجسد موضع المفصل، وبين كل فصلين وصلٌ، ومثال ذلك: الحاجز بين الشيئين.

والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فصل النّظم، وعقد مفصَّل، أي: جعل بين كل لؤلؤتين خرزة. وقوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيَّنَّاهُ، وقوله: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ بين كل آيتين فصل، تمضي هذه وتأتي هذه، بين كل آيين مهلة، وقيل ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات، وسمي (المُفصَّلُ) لقصر أعداد سوره من الآيات[٢].

الفاصلة اصطلاحاً: ويشيع إطلاقها عند أرباب الدراسات القرآنيَّة على آخر كلمة تختتم بها الآية، ـ مع فارق التنظير ـ كقافية الشعر وقرينة السجع[٣].

على أنَّ الإجماع منعقد على عدم تسمية الفاصلة قافية كما حكاهُ السيوطي؛ إذ قال: «ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأنَّ الله تعالى لمّا سلب عنه اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منهُ وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية يمتنع

---

(١) أولى ما قيل (٦: ١١٨).

(٢) ينظر: لسان العرب، وأساس البلاغة والقاموس المحيط، مادة (فصل).

(٣) ينظر: النكت في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٨٩، وإعجاز القرآن للباقلاني، ص٨٣، والبرهان، ص٥٠، والإتقان (٣: ٢٩٠)، ومن بلاغة القرآن، ص٧١.

استعمال الفاصلة في الشعر، لأنها صفة لكتاب الله فلا تتعداهُ»[١]. وأما تسمية الفواصل القرآنية أسجاعاً وإطلاق لفظ السجع عليها فإنَّ جمهور العلماء قد منعه، وهو المتعين، وذلك لأن أصل إطلاق السجع في اللغة كان على صوت الحمام إذا سجع أي: هدل على جهة واحدة[٢].

فتنزّه القرآن الكريم عن أنْ يستعار لشيء منهُ لفظ هو صوت الطائر، قال الرماني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[٣]. ثم إنَّ من السجع ما يطلق على مذموم الكلام كسجع الكهان، وأصل المنع في ذلك راجع إلى أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة من صفاته، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن الشرعي بها؛ لأنَّ ألفاظ أسماء الله تعالى وصفاته وما يتعلق بها توقيفي وليس للاجتهاد البشري فيها مكنة ولا مجال[٤].

ومصطلح الفاصلة معروف في العربية، فقد عرفه أعلام العربية كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) فأطلقه هو وتلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ) على مقاطع القرآن، ثم استقرت دلالته على أواخر الآيات في طبقة الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إلى أنْ استوى هذا المصطلح على يد أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) وتلميذه أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)[٥]. وأصبح الناظر في إعجاز القرآن الكريم والواقف على مظاهر بلاغته

---

(١) معترك الأقران (١: ٢٥).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (سجع).

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص٩٧.

(٤) ينظر: ثلاث رسائل، ص٩٠، ومعترك الأقران (١: ٢٥).

(٥) ينظر: الفاصلة في القرآن الكريم، الحسناوي، ص٣٣-٨٧.

يتناول هذا المصطلح ويبرز لطائف البلاغة فيه، وذلك في أغلب البحوث التي تطرَّقت إلى بيان القرآن الكريم[١].

والمتأمِّل في كتاب الله تعالى يلحظ اطِّراد الفاصلة فيه، حتى أصبحت جزءاً من اطِّراد النظام في القرآن كله. فغدت من مظاهر الأحكام في القرآن وهي ركن وطيد من أركان الآية لفظاً ومعنى، بقدر ما هي ركن في المقطع والسورة ومجموع القرآن، وهي من أمارات تيسير الله تعالى كتابه للذكر والحفظ والدرس[٢].

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم؛ يقول الزركشي: «اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله... وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك؛ ولكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل للّبيب»[٣].

وللفاصلة قيمة في تمكين معنى الآية، مستقرة في قرارها ومطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة ومتعلقاً معناها بالكلام كلّه تعلقاً تاماً؛ إذ لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم وهذا فيه سرٌّ عظيم[٤]. ويشهد لذلك ما حكي عن الأصمعي أنه قال: «كنت أقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] قرأتُ: (والله غفور رحيم) وبجنبي أعرابي؛ فقال: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال: أعد؛ فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله؛ فانتبهت، فقرأت:

---

(١) ينظر: على سبيل التمثيل: الإتقان، إعجاز القرآن للرافعي، والتصوير الفني، ومشاهد القيامة، والإعجاز البياني...

(٢) ينظر: الفاصلة في القرآن، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) البرهان، ص٦٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله؛ فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. فقلت: من أين علمت؟ فقال: يا هذا؛ عَزَّ؛ فحكم، فقطع؛ ولو غفر فرحم لما قطع[١].

من هذا يتبين في شأن الإعجاز البلاغي أنه ما من فاصلة قرآنية إلا وسياق الآية يقتضي لفظها ومعناها، إذ لا يسهل في النظم الكريم أن يقع في مكانها سواها، وليس عدم اهتدائنا إلى سرِّها البياني قدحاً في موقعها وإنما قصور الإدراك فينا[٢].

أما مفسرنا رشيد الخطيب فقد وجدناه يذكر في مقدمة تفسيره عدداً من فوائد الفواصل وهي[٣]:

ـ قد يختم ـ القرآن الكريم ـ الآية بفاصلة تؤيد مضمون ما قبلها، على مثل هذه الطريقة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأمثال ذلك فتكون كالبرهان والتقرير لمضمون ما يسبقها من المقاصد والأغراض بطريقة التذكير بأسماء الله الحسنى وآثارها الملائمة للسياق.

ـ وقد تأتي الفواصل للحمل على المقررات السابقة والحث على التمسك بها إيجاباً أو سلباً أمراً أو نهياً كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤]، وكقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ـ وقد يطوي معاني ومقاصد يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتفكير بأسمائه الحسنى وآثارها.

---

(١) ينظر: الكشكول (٢: ١٤٢).

(٢) ينظر: الإعجاز البياني، ص٢٣٥-٢٥٨.

(٣) (١: ٥١٤-٥١٥).

(٤) تعليق للشيخ رشيد: إذا نظرنا إلى جميع الأوامر والنواهي في القرآن المبين، وإلى جميع النداءات الإلهية للمؤمنين، رأيناها كلها تضع كلمة التقوى أو إحدى مشتقاتها تمهيداً أو تذييلاً، لأنها الغاية من كل ذلك والباعث عليه. حاشية ص٢٥ من مقدمة «أولى ما قيل».

ـ وقد يأتي بالجملة ينهي بها السياق السابق ويمهد بها للسياق اللاحق معاً، أو يؤيد بها حكماً سابقاً ويمهد بها لحكم لاحق، على طريقة التأييد أيضاً.

وهذا يدل لنا على فهم رشيد للفاصلة القرآنية واهتمامه بذكرها في تفسيره فكان يُبيِّن الفاصلة في أيِّ موضع ترد فيه مُحللاً إيَّاها ذاكراً الغرض البلاغي الذي ترد فيه وعلاقتها بالآية التي سبقتها.

ففي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، قال رشيد مُبيناً العلاقة بين ما ورد في الآية ونهايتها ما نصه: «أي: فاصبر كما صبر نوح على قومه فإنَّ سنَّة الله في رسله مع أقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين.

وفي هذه الخاتمة وهذه الفاصلة أشار إلى أن المراد من هذه القصة التأسي بنوح عليه السلام والتثبيت تجاه مشركي قريش، وكذلك القصص التابعة»[(١)].

وتتكرر في القرآن عند رؤوس الآيات عبارات: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، و﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيعلق الشيخ في تفسيره عليها منبهاً على العلاقة الوثيقة بينها وبين المعنى المراد في الآية كما في عبارة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، فقال: «وفي هذه الفاصلة من لذعة التعنيف والتخجيل، بقدر ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل»[(٢)].

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٦٢).

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فأجاز رشيد: «أن تكون هذه الفاصلةُ احتراساً عمَّا يَرِدُ من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم تكن عن عَجْز في قُدرة الله لنصرهم، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، ولكنّها جاريةٌ حَسَب سنن الله الكونيَّة، ولا تبديل في سنن الله ولا مُحاباة»[(١)].

وذكر رشيد الفاصلة القرآنية في مواضع متعددة من تفسيره[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) أولى ما قيل (٢: ٥٧١).

(٢) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٢٠١)، (٤: ١٢٠، ٢٢٩، ٣٩٩، ٥٤٩).

الخاتـمة

خلص البحث من خلال الدراسة لحياة عالم ومفسر كبير من علماء العالم الإسلامي إلى جملة من النتائج نذكر أهمها:

ـ كشف الشيخ رشيد في تفسيره أثر بلاغة القرآن الكريم في بيان سر إعجاز القرآن الكريم لاشتماله على النواحي الفكرية والاجتماعية والتربوية، وأخبار الماضي والمستقبل.

ـ عني الشيخ بعلم المعاني من نظم وخبر وإنشاء وغيرها، موضحاً في ذلك دقائق المعاني القرآنية، التي بها يبلغ النظم أعلى درجات الإعجاز وسر جمالية المفردة والجملة القرآنية.

ـ اعتنى الشيخ رشيد بفواصل الآي وتناسبها مع المعنى، رافضاً النظرة التقليدية إلى ما يسمَّى برعاية الفاصلة القرآنية.

ـ اعتنى الشيخ رشيد بعلم البيان ذاكراً أغلب تقسيماته، من غير اهتمام زائد بتسمياته الاصطلاحية.

ـ أشار الشيخ رشيد إلى الصورة الفنية ورجَّح إفادته من كتاب (التصوير الفني في القرآن الكريم) كما أكّد على أثر المثل القرآني وفائدته في توضيح المعنى الجمالي للنصِّ الحكيم.

ـ كانت للشيخ رشيد وقفات مع علم البديع وتقسيماته، ونبّه على الالتفات وأنواعه وأثره البلاغي في كشف مواطن الجمال القرآني.

ـ انفرد الشيخ رشيد بكثير من التحليلات البلاغية التي لم يتنبه إليها كثير من المفسرين وكان بحق رائداً في مجال اختصاصه.

ـ يُعدُّ تفسير «أولى ما قيل في آيات التنزيل» من التفاسير البلاغيّة والدلاليّة التي سارت على خطى الزمخشري ولكن بشيء من التجديد في الطرح والتناول.

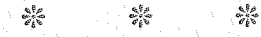

ثبت المصادر والمراجع

١ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢ـ إتمام الدراية لقراء النقاية، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٣ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبي السعود، (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٤ـ أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، ت ٤٧١هـ، صححها السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

٥ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، (ت٧٩٨هـ)، دمشق.

٦ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٧هـ)، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جَدة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٧ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن (ت١٩٩٨م)، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

٨ـ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.

٩ـ الأعلام، خير الدين الزركلي (ت١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

١٠ـ الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، (د.ت).

١١ـ أنوار التنزيل في أسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد البيضاوي الشيرازي، (ت٧٩١هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٢ـ الإمداد شرح منظومة الإسناد، د. أكرم عبد الوهاب، مطبعة الزهراء، الموصل، (د.ت).

١٣ـ أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي (ت١٩٧٩م)، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٧٣م، ١٩٧٤م.

١٤ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٥ـ الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م.

١٦ـ البحر المحيط، محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي، (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وشارك في التحقيق، د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٧ـ البحر المديد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي (ت١١١٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٨ـ بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، (ت٧٢١هـ)، تحقيق: د. محمد مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

١٩ـ البديع، عبد الله ابن المعتز، (ت٤٩٦هـ)، نشر وتعليق أفناطيوس كراتشكوفسكي، مطابع دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.

٢٠ـ البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، بغداد، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٢١ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٢ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٣ـ البلاغة (تأصيل وتجديد) أمين الخولي (ت١٩٦٦م)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٦٧م.
٢٤ـ بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، أ.د. توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت).
٢٥ـ البلاغة من منابعها (علم المعاني)، د. محمد هيثم غرّة، دار الرؤية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط٢، ١٩٩٩م.
٢٦ـ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، مطبعة المدني، ط٥، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٢٧ـ تاريخ علماء الموصل، أحمد محمد مختار، مطبعة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٨ـ تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ.
٢٩ـ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة، بغداد، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.
٣٠ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
٣١ـ التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (ت١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٣٢ـ التسهيل في علوم التنزيل، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، (ت٧٤١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٥هـ.
٣٣ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (د.ط)، (د.ت).
٣٤ـ تفسير المنار، الشيخ محمد عبدة (ت١٩٠٥م) مطبعة مصر الجديد، ط٢، ١٩٥٦م.
٣٥ـ تفسير الجلالين، محمد بن أحمد جلال الدين الحلبي، (ت٨٦٤هـ)، وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط١، (د.ت).
٣٦ـ تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، (ت٩٧٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧ـ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٣٨ـ التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٣٩ـ التعريفات، للشريف الجرجاني، (ت٨٢٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٥-١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٠ـ التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، شرح عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، ١٩٣٤م.

٤١ـ تهذيب السعد ترتيب لكتاب (مختصر المعاني)، مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني، (ت٧٩١هـ)، تحقيق: محمد مجيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط٣، ١٩٥٠م.

٤٢ـ تنوير الأذهان في تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي،اختصار: الشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤٣ـ جامع البيان في وجوه تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٤٤ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت٦٧١هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، ١٩٥٦م.

٤٥ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن المسمى بتفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، (ت٨٧٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د.ت).

٤٦ـ جوهر الكنز، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الإسكندرية، مصر، (د.ت).

٤٧ـ حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لتلخيص المفتاح ضمن كتاب شروح التلخيص، محمد ابن أحمد ابن عرفة الدسوقي المالكي، القاهرة، ١٩٣٧م.

٤٨ـ الحجة، أبو علي الفارسي، القاهرة، (د.ت).

٤٩ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق: د. أكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٥٠ـ حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتاني، بغداد، ١٩٧٩م.

٥١ـ الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م.

٥٢ـ الخصائص، أبي الفتح عثمان ابن جني، (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العام، بغداد، ط٤، ١٩٩٠م.

٥٣ـ خزانة الأدب وغاية الإرب، **لابن حجة الحموي**، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (ت٨٣٧هـ)، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

٥٤ـ خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة، ط٢، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٥٥ـ دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو سيت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٥٦ـ الدُّرُ المَصُون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت).

٥٧ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ)، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، (د.ت).

٥٨ـ ديوان النابغة الذبياني، صنعه ابن السكّيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨م.

٥٩ـ رسالة في مواضيع مهمة، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٧٩م.

٦٠ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود البغدادي الألوسي، (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦١ـ زاد المسير في علم التفسير، أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي البغدادي، (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٦٢ـ زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (ت١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م)، دار الفكر، (د.ت).

٦٣ـ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٦٤ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.

٦٥ـ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين السيوطي، القاهرة، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

٦٦ـ الصاحبي في فقه اللغة، أبي الحسن أحمد بن زكريا أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: د. أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٧م.

٦٧ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، القاهرة، ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

٦٨ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، (شروح التلخيص)، القاهرة، ١٩٣٧م.

٦٩ـ علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط٣، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٧٠ـ علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.

٧١ـ العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ابن رشيق القيرواني، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط١، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.

٧٢ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٧٣ـ قواعد الشعر، أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، (ت٢٩١هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

٧٤ـ الفاصلة في القرآن، د. محمدى محمود الحسناوي (ت١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٧٥ـ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت١٢٥٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٧٦ـ الفروق في اللغة، أبي هلال العسكري، (ت٣٩٥هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٧٧ـ فنون بلاغية، د. أحمد مطلوب، نشر دار البحوث العلمية في الكويت، ط١، ١٩٧٥م.

٧٨ـ كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (د.ط)، (د.ت).

٧٩ـ كتاب الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٠ـ الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، (ت١٨٠هـ)، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

٨١ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٨٢ـ الكشف والبيان، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت٥٩١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٨٣ـ لباب التأويل في معاني التنزيل المعروف بتفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، (ت٧٤١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٨٤ـ اللّباب في علوم الكتاب، أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٥ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، (د.ت).

٨٦ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.

٨٧ـ مجاز القرآن، أبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢١٠هـ)، علق عليه: د. فؤاد سزكين، ط٢، مطبعة الخانجي، مصر، ١٩٨١.

٨٨ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبي محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطي، (ت٥٤١هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٨٩ـ مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٩٠ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، (ت٧٠١هـ)، دار مصر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧١م.

٩١ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٩٢ـ معالم التنزيل، محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت٥١٦هـ)، حققه وخرَّج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٩٣ـ معاني الحروف، أبي الحسن علي بن عيسى الرماني، (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٩٨٤م.

٩٤ـ معاني القرآن، أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت والدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د.ت).

٩٥ـ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج، (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

٩٦ـ معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٩٧ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٩٨ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ج١، ١٩٨٣م، وج٢، ١٩٨٦، وج٣، ١٩٨٧م.

٩٩ـ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

١٠٠ـ مفتاح العلوم، أبي يعقوب محمد بن علي السكاكي، (ت٦٢٦هـ)، مطبعة المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، (د.ت).

١٠١ـ المقتضب، أبو العباس المبرد، (ت٢٨٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

١٠٢ـ من بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين، مطبعة علي التونسي، مصر، ط٢، ١٩٨٥م.

١٠٣ـ الميسر في البلاغة العربية، أبي عبد الله ابن شعيب الجزائري، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط١، ١٩٩٢م.

١٠٤ـ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٤، (د.ت).

١٠٥ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٠٦ـ نقد الشعر، أبي الفرج قدامة بن جعفر، (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م.

١٠٧ـ النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م.

١٠٨ـ النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

١٠٩ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية، مصر، ط١، ١٩٣٨م.

١١٠ـ الوجيز، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، (ت٤٦٨هـ)، مطابع مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٣١٥هـ.

١١١ـ ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، أبو عمرو محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، (ت٣٤٥هـ)، تحقيق: محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

الرسائل الجامعية:

١ـ أسلوب القصر في القرآن الكريم، (أطروحة)، أحلام موسى حيدر الزهاوي، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م.

٢ـ الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل لرشيد الخطيب الموصلي، (ت١٤٠٠هـ)، دراسة وتحقيق، (رسالة)، هفال أحمد رحيم، كلية الإمام الأعظم، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣ـ منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (رسالة)، خالد محمد حماش، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

❊ ❊ ❊

فهرس محتويات المجلد التاسع

الموضوع **الصفحة**

منهج رشيد الخطيب
في تفسير القرآن الكريم

الاهداء ٥

مقدمة ٧

تمهيد: حياة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي ١٣

١ـ اسمه ونسبه وأسرته ١٣

٢ـ ولادته ونشأته ١٧

٣ـ ثقافته وشيوخه وطائفة من تلاميذه ٢٠

أ- ثقافته وشيوخه ٢٠

ب- أشهر تلاميذه ٢٥

٤- عقيدته ومذهبه ٣٠

٥- آثاره ٣٥

أ- في التفسير ٣٦

ب- في الحديث ٣٨

ج- في العقائد والكلام ٣٩

د- في الفقه وأصوله ٤٠

هـ- في اللغة ٤١

و- في البلاغة ٤٢

ز- في الأدب ٤٢

الموضوع الصفحة

ح- في التربية والتعليم ٤٥
ط- في القصص والأخبار والمواعظ ٤٥
ي- متفرقات ٤٦
٦- خلقه ووفاته ٤٧

الفصل الأول
مصادر تفسيره وكتب أشار إليها

مدخل ٥١
١- كتب التفسير ٥٢
٢- كتب المعاني ٩٤
٣- كتب أحكام القرآن ٩٩
٤- كتب الحديث ١٠٢
٥- كتب النحو واللغة ١٠٩
٦- كتب البلاغة والنقد ١١٢
٧- كتب منوَّعة في الدراسات القرآنية ١١٦
٨- مصادر أخرى متفرقة ١١٨
٩- النقل عن المستشرقين والفلاسفة وعلماء النفس ١٢١

الفصل الثاني
التفسير النقلي

المبحث الأول: تفسير القرآن بالقرآن ١٢٥
المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة ١٣٠
أسباب النزول ١٣٨
الناسخ والمنسوخ ١٤٢

الموضوع الصفحة

المبحث الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين ١٤٥
الإسرائيليات ١٥١

الفصل الثالث
التفسير العقلي

مدخل ١٦١
المبحث الأول: مظاهر التفسير العقلي لدى الشيخ ١٦٤
١- تسويغ التفسير العقلي في ضوء قلة المأثور ١٦٤
٢- مَيْله إلى المصادر العقلية ١٦٥
٣- عرض آراء عقلية ١٦٦
٤- تأويل الآيات المتشابهات بردها إلى المحكمات ١٦٦
٥- موقفه من المعجزات ١٧٣
٦- التفسير العلمي ١٧٦
المبحث الثاني: تأثره بمدرسة محمد عبده ١٨٣
تعريف بمدرسة محمد عبده ١٨٤
أهم خصائص مدرسة محمد عبده وأثرها فيه ١٨٥
١- بيان سنن الله في الخلق ١٨٥
٢- الوحدة الموضوعيَّة بين الآي ١٨٧
٣- التوجّه العقلي في التفسير ١٩٣
٤- التفسير العلمي ٢٠٠
٥- رفض التعصب المذهبي ٢٠٠
٦- موقفه من الإسرائيليات ٢٠٢
المبحث الثالث: ما انفرد به أو أغرب من آراء ٢٠٤
١- الفرق بين الروح والحياة ٢٠٤

الموضوع الصفحة

٢- ماهيَّة دابَّة الأرض ٢٠٥
٣- قوله في (يأجوج ومأجوج) ٢٠٦
٤- تأويل ما قد يشعر ظاهره بالاستبعاد ٢٠٧
٥- تأويل آية متشابهة على أساس التعبير التركيبي ٢٠٨
٦- الانفراد بتلمُّس وحدة موضوعية ٢١٠

الفصل الرابع
القراءات

المبحث الأول: مقدمته في القراءات ٢١٥
١- القراءات واللغة التي نزل بها ٢١٥
٢- الأحرف السبعة والقراءات السبع ٢١٨
٣- مصادر القراءات ٢٢١
٤- المصاحف العثمانية والأحرف السبعة ٢٢٥
المبحث الثاني: القراءات وتوجيهها ٢٢٧
١- أنواع القراءات ٢٢٨
أ- القراءات المشهورة ٢٢٨
ب- القراءات غير المشهورة ٢٣٠
٢- توجيه القراءات ٢٣٣
أ- التوجيه المعنوي ٢٣٣
ب- التوجيه النحوي ٢٣٥
ج- التوجيه الصرفي ٢٣٨

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس
اللغة والنحو والصرف

تمهيد ٢٤٣
المبحث الأول: اللغة ٢٤٤
١- التفسير اللغوي للألفاظ ٢٤٤
٢- تمييز المعنى الحقيقي من المَجَازي ٢٤٨
٣- في الدلالة اللفظيّة ٢٤٩
٤- أصل الاشتقاق ٢٥٧
٥- لمح دقة القرآن في اختيار اللفظة ٢٥٩
٦- أصول اللغة ٢٦٠
المبحث الثاني: النحو ٢٦٤
١- إعراب الآي ٢٦٥
٢- النحو والمعنى ٢٦٨
٣- القواعد النحوية ٢٧٠
٤- التعليل ٢٧٣
٥- حروف المعاني ٢٧٥
٦- الحروف الزائدة ٢٨١
٧- المصطلح النحوي ٢٨٤
٨- موقفه من الآيات التي جاءت خلاف قواعد النحاة ٢٨٦
٩- مزج النحو بالبلاغة ٢٨٩
١٠- الخلاف النحوي ٢٩٠

الموضوع	الصفحة

المبحث الثالث: الصرف ٢٩٢
١- المصدر واسم المصدر ٢٩٢
٢- اختلاف المعنى باختلاف البنية ٢٩٥
٣- خروج الصِّيغ عن أصلها ٢٩٦
٤- إيراد النظير ٢٩٨

الفصل السادس
البلاغة

مدخل: موقفه من إعجاز القرآن ٣٠٤
وجوه البلاغة ٣٠٦
المبحث الأول: علم المعاني ٣٠٨
١- النظم ٣٠٨
٢- الخبر ٣٠٩
٣ـ النفي ٣١٠
٤- الإنشاء ٣١٠
٥ـ الاستفهام ٣١١
٦- التعريف والتنكير ٣١٢
٧- التقديم والتأخير ٣١٣
٨- الفصل والوصل ٣١٥
٩- في فواصل الآي ٣١٦
١٠- الإيجاز والإطناب ٣١٨
١١- وضع الظاهر موضع المضمر والعكس ٣٢٧
١٢- استعمال الأفعال ٣٢٨

الموضوع الصفحة

١٣- التغليب ٣٢٩

المبحث الثاني: علم البيان ٣٣١

١- التشبيه ٣٣١

٢- الحقيقة والمجاز ٣٣٤

أ- المجاز العقلي ٣٣٦

ب- المجاز اللغوي (المرسل ـ التضمين ـ الاستعارة) ٣٣٨

٣- الكناية ٣٤٥

٤- الصورة ٣٤٧

المبحث الثالث: علم البديع ٣٥٢

١- المقابلة ٣٥٢

٢- المشاكلة ٣٥٤

٣- الالتفات ٣٥٦

٤- التورية ٣٥٧

٥- حسن التعليل ٣٥٨

٦- اللف والنشر ٣٥٩

٧- الإبهام ٣٦٠

٨- الاعتراض ٣٦٠

٩- التذييل ٣٦١

١٠- أسلوب الحكيم أو القول الموجب ٣٦٢

خاتمة ٣٦٤

المصادر والمراجع ٣٧٣

الموضوع الصفحة

البيان القرآني في تفسير «أولى ما قِيلَ»

المُقدمة ٣٨٩

الفصل الأول

علم المعاني في تفسير (أولى ما قيل)

المبحث الأول: الخبر والإنشاء ٣٩٧
الخبر ٣٩٧
ـ الخبر في تفسير «أولى ما قيل» ٤٠٠
الخبر للدعاء ٤٠٠
الخبر للبشارة ٤٠٠
الخبر للتقرير ٤٠١
الخبر بمعنى الأمر ٤٠٢
المبحث الثاني: الإنشاء ٤٠٣
١ـ الأمر ـ حقيقته ـ ٤٠٤
خروج الأمر إلى المعاني المجازية ٤٠٥
الأمر للتهديد والوعيد ٤٠٥
الأمر للتكوين ٤٠٥
الأمر بمعنى الخبر ٤٠٦
الأمر للتهكم ٤٠٧
الأمر للدعاء ٤٠٨
الأمر للإهانة ٤٠٨
الأمر للامتنان ٤٠٩
٢ـ النهي ـ في حقيقته ـ ٤١٠

الموضوع الصفحة

النهي في مجازه ٤١٠
النهي للتأكيد والتقرير ٤١٠
النهي للاحتقار ٤١١
النهي للكراهية ٤١٢
٣ـ الاستفهام ـ في حقيقته ـ ٤١٣
الاستفهام في مجازه ٤١٤
الاستفهام للتنبيه ٤١٤
الاستفهام للاستبطاء ٤١٥
الاستفهام الإنكاري ٤١٦
أ ـ الاستفهام الإنكاري الهازئ ٤١٦
ب ـ الاستفهام الإنكاري التهويلي ٤١٨
جـ ـ الاستفهام الإنكاري التبصيري ٤١٨
د ـ الاستفهام الإنكاري التعجيبي ٤١٩
هـ ـ الاستفهام الإنكاري التهديدي ٤١٩
الاستفهام التقريري ٤٢٠
الاستفهام للتقريع والتبكيت ٤٢١
الاستفهام للاستغراب والاستعظام ٤٢٣
الاستفهام للاستبعاد والاستعظام ٤٢٤
الاستفهام للتهويل ٤٢٥
الاستفهام للتثبيت ٤٢٦
الاستفهام للاسترحام ٤٢٧
٤ ـ النداء ـ في حقيقته ـ ٤٢٧

الموضوع الصفحة

النداء في مجازه ٤٢٨
النداء للتبريك ٤٢٨
النداء للتعجب ٤٢٨
النداء للتنبيه ٤٢٩
٥ ـ التمني ـ في حقيقته ـ ٤٣٠
التمني في مجازه ٤٣٠
التمني للنجدة والخلاص ٤٣٠
التمني لرفعة المُتمنىٰ وعزَّتِهِ ٤٣١
المبحث الثالث: التقديم والتأخير ٤٣٣
التقديم والتأخير عند رشيد الخطيب ٤٣٤
التقديم للتخصيص ٤٣٤
التقديم لإظهار شدة الشناعة ٤٣٤
التقديم لزيادة مدلول الجملة ٤٣٥
المبحث الرابع: الفصل والوصل ٤٣٦
مواضع الفصل ٤٣٧
مواضع الوصل ٤٤٠
المبحث الخامس: القصر والحصر ٤٤٢
أنواع القصر ٤٤٢
أ ـ القصر من حيث الطرفان ٤٤٣
١ ـ قصر الموصوف على الصفة ٤٤٣
٢ ـ قصر الصفة على الموصوف ٤٤٣
ب ـ القصر من حيث الحقيقة والواقع ٤٤٣

الموضوع الصفحة

١ ـ قصر حقيقي ٤٤٣
٢ ـ قصر غير حقيقي (إضافي) ٤٤٤
جـ ـ القصر باعتبار حال المخاطب ٤٤٤
١ ـ قصر إفراد ٤٤٥
٢ ـ قصر قلب ٤٤٥
٣ ـ قصر تعيين ٤٤٥
طرق القصر ٤٤٦
١ ـ القصر بالنفي والاستثناء ٤٤٦
٢ ـ القصر بـ(إنَّما) ٤٤٧
٣ ـ القصر بالعطف ٤٤٨
٤ ـ القصر بتقديم ما حقُّه التأخير ٤٤٩
المبحث السادس: الإيجاز والإطناب ٤٥٠
أولاً: الإيجاز ٤٥٠
١ ـ إيجاز القصر ٤٥١
٢ ـ إيجاز الحذف ٤٥٢
حذف الفاعل ٤٥٢
حذف المفعول ٤٥٣
حذف جواب الشرط ٤٥٤
حذف المقسم عليه ٤٥٦
ثانياً: الإطناب ٤٥٧
أنواع الإطناب ٤٥٧
١ ـ الإيضاح بعد الإبهام ٤٥٨
٢ ـ ذكر الخاص بعد العام ٤٥٩

الموضوع الصفحة

٣ ـ ذكر العام بعد الخاص ٤٦٠
٤ ـ التكرار ـ في حقيقته ـ ٤٦٠
التكرار في مجازه ٤٦٠
التكرار للتأكيد ٤٦١
التكرار للتقرير ٤٦٢
التكرار للتهويل ٤٦٢
التكرار للعناية ٤٦٢
التكرار للمبالغة ٤٦٣
٥ ـ التذييل ٤٦٤
٦ ـ التتميم ٤٦٦
٧ ـ الاعتراض ٤٦٧
٨ ـ وضع الظاهر موضع المضمر والعكس ٤٦٩
٩ ـ استعمال الأفعال ٤٧٠

الفصل الثاني

علم البيان في تفسير (أولى ما قيل)

المبحث الأول: التشبيه ٤٧٥
صور التشبيه ٤٧٥
١ ـ التشبيه البليغ ٤٧٥
٢ ـ التشبيه التمثيلي ٤٧٦
٣ ـ التشبيه الضمني ٤٧٨
المبحث الثاني: الحقيقة والمجاز ٤٧٩
الحقيقة ٤٧٩

الموضوع	الصفحة
المجاز	٤٨٠
صور المجاز	٤٨١
أ ـ المجاز العقلي عند رشيد الخطيب	٤٨٢
١ ـ الفاعليّة	٤٨٢
٢ ـ المفعوليّة	٤٨٣
٣ ـ المكانيّة	٤٨٤
٤ ـ السببيّة	٤٨٥
٥ ـ المصدريّة	٤٨٥
ب ـ المجاز اللغوي	٤٨٦
الاستعارة وأنواعها	٤٨٧
١ ـ الاستعارة الأصلية	٤٨٧
٢ ـ الاستعارة بالكناية	٤٨٨
٣ ـ الاستعارة التجريديّة	٤٩٠
٤ ـ الاستعارة التصريحيّة	٤٩٠
٥ ـ الاستعارة التمثيليّة	٤٩١
٦ ـ الاستعارة التهكميّة	٤٩٢
٧ ـ الاستعارة التخييليّة	٤٩٣
٢ ـ المجاز المرسل	٤٩٥
المجاز المرسل عند رشيد الخطيب	٤٩٦
١ ـ إطلاق اسم الكل على الجزء	٤٩٦
٢ ـ إطلاق اسم الجزء على الكل	٤٩٦
٣ ـ إطلاق المسبب على السبب	٤٩٧
٤ ـ إطلاق السبب على المسبب	٤٩٨

الموضوع الصفحة

٥ ـ إطلاق المحل على الحال ٤٩٩
٦ ـ تسمية الشيء باسم آلته ٤٩٩
٧ ـ إطلاق الملزوم على اللازم..... ٥٠٠
مجاز التضمين..... ٥٠٠
مجاز التشبيه..... ٥٠١
المبحث الثالث: الكناية والتعريض..... ٥٠٢
أولاً: الكناية..... ٥٠٢
الكناية عند رشيد الخطيب..... ٥٠٤
الكناية لغرض الاستكبار ٥٠٥
الكناية لغرض الاستيلاء والتدبير ٥٠٦
الكناية عن منتهى السخاء..... ٥٠٦
الكناية عن العذاب ٥٠٦
الكناية عن مواصلة السير ٥٠٧
الكناية عن الجزاء ٥٠٧
الكناية عن الخير والسعادة ٥٠٧
الكناية عن قبح الحال ٥٠٧
الكناية عن الأناة والحلم والثبات..... ٥٠٨
الكناية عن عدم صدور اللغو..... ٥٠٨
الكناية عن الإرادة ٥٠٨
الكناية عن اللين والشفقة ٥٠٨
الكناية عن الهجوم ٥٠٩
الكناية عن التيئيس..... ٥٠٩

الموضوع **الصفحة**

الكناية عن سعة العلم ٥٠٩
ثانياً: التعريض ٥٠٩

الفصل الثالث

علم البديع في تفسير (أولى ما قيل)

علم البديع عند رشيد الخطيب ٥١٤
١ ـ المشاكلة ٥١٤
٢ ـ اللف والنشر ٥١٧
٣ ـ المقابلة ٥١٩
٤ ـ الالتفات ٥٢١
أ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة ٥٢٣
ب ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ٥٢٣
جـ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ٥٢٥
د ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ٥٢٦
٥ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ٥٢٧
٦ ـ التورية ٥٢٩
٧ ـ حسن التعليل ٥٣١
٨ ـ أسلوب الحكيم ٥٣٢
٩ ـ الإبهام ٥٣٣
١٠ ـ الفاصلة القرآنية ٥٣٤
الخاتمة وأهم النتائج ٥٤١
ثبت المصادر ٥٤٣
فهرس المحتويات ٥٥٣

الفهرس العام للكتاب

الموضوع	الجزء والصفحة

المجلد الأول

تصدير بقلم الدكتور محمد عبد العزيز النجيفي	أ - و
كلمة الشيخ إبراهيم النعمة	ز - ك
مقدمات المعتني بالتفسير مجد مكي	٥-٤٨٢
بين يدي الكتاب	٥-١٢
المدخل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير	١٣ - ٣٧
المدخل الثاني: تأثر الشيخ رشيد الخطيب بمدرسة محمد عبده ورشيد رضا، ونظرات في تفسيره	٣٩- ٢٩٩
المدخل الثالث: أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان	٣٠١-٤٨٢
مقدِّمة المفسر الشيخ رشيد الخطيب	٤٨٥-٧٩٨

المجلد الثاني

المقدمة	٥-٨
أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه	٩-١٠
تفسير سورة الفاتحة	١١-١٨
تفسير سورة البقرة	١٩-٤٣٧
تفسير سورة آل عمران	٤٣٩-٥٩٧

الموضوع — الجزء والصفحة

المجلد الثالث

تفسير سورة النساء ٥-١٦٩
تفسير سورة المائدة ١٧١-٢٨٢
تفسير سورة الأنعام ٢٨٣-٤٠٢
تفسير سورة الأعراف ٤٠٣-٥١٧

المجلد الرابع

تفسير سورة الأنفال ٥-٥٦
تفسير سورة التوبة ٥٧-١٤٥
تفسير سورة يونس ١٤٧-٢٠٦
تفسير سورة هود ٢٠٧-٢٦٩
تفسير سورة يوسف ٢٧١-٣٤٤
تفسير سورة الرعد ٣٤٥-٣٨١
تفسير سورة إبراهيم ٣٨٣-٤١٣
تفسير سورة الحجر ٤١٥-٤٥٠
تفسير سورة النحل ٤٥١-٥١١
تفسير سورة الإسراء ٥١٣-٥٨١

المجلد الخامس

تفسير سورة الكهف ٥-٦١
تفسير سورة مريم ٦٣-٩٦

الموضوع — الجزء والصفحة

تفسير سورة طه ٩٧-١٥١
تفسير سورة الأنبياء ١٥٣-٢٠٤
تفسير سورة الحج ٢٠٥-٢٥٧
تفسير سورة المؤمنون ٢٥٩-٢٩٦
تفسير سورة النور ٢٩٧-٣٤٩
تفسير سورة الفرقان ٣٥١-٣٨٥
تفسير سورة الشعراء ٣٨٧-٤٣٠
تفسير سورة النمل ٤٣١-٤٧٤
تفسير سورة القصص ٤٧٥-٥١٨
تفسير سورة العنكبوت ٥١٩-٥٥١
تفسير سورة الروم ٥٥٣-٥٨١

المجلد السادس

تفسير سورة لقمان ٥-٢٦
تفسير سورة السجدة ٢٧-٤١
تفسير سورة الأحزاب ٤٣-٩٥
تفسير سورة سبأ ٩٧-١٣٢
تفسير سورة فاطر ١٣٣-١٦٠
تفسير سورة يس ١٦١-١٨٨
تفسير سورة الصافات ١٨٩-٢٢٣
تفسير سورة ص ٢٢٥-٢٦٤
تفسير سورة الزمر ٢٦٥-٣٠٧

الموضوع	الجزء والصفحة

تفسير سورة المؤمن ٣٠٩-٣٤٧

تفسير سورة فصلت ٣٤٩-٣٨١

تفسير سورة الشورى ٣٨٣-٤٢١

تفسير سورة الزخرف ٤٢٣-٤٦١

المجلد السابع

تفسير سورة الدخان ٥-٢١

تفسير سورة الجاثية ٢٣-٣٧

تفسير سورة الأحقاف ٣٩-٥٧

تفسير سورة محمد ﷺ ٥٩-٧٨

تفسير سورة الفتح ٧٩-١٠٥

تفسير سورة الحجرات ١٠٧-١٣١

تفسير سورة ق ١٣٣-١٥١

تفسير سورة الذاريات ١٥٣-١٧١

تفسير سورة الطور ١٧٣-١٨٦

تفسير سورة النجم ١٨٧-٢٠٥

تفسير سورة القمر ٢٠٧-٢٢٥

تفسير سورة الرحمن ٢٢٧-٢٥١

تفسير سورة الواقعة ٢٥٣-٢٨٠

تفسير سورة الحديد ٢٨١-٣١٣

تفسير سورة المجادلة ٣١٥-٣٣١

تفسير سورة الحشر ٣٣٣-٣٥٠

الموضوع	الجزء والصفحة

تفسير سورة الممتحنة ٣٥١-٣٦٤
تفسير سورة الصف ٣٦٥-٣٧٥
تفسير سورة الجمعة ٣٧٧-٣٨٨
تفسير سورة المنافقون ٣٨٩-٣٩٨
تفسير سورة التغابن ٣٩٩-٤١٢
تفسير سورة الطلاق ٤١٣-٤٢٥
تفسير سورة التحريم ٤٢٧-٤٤٠
تفسير سورة الملك ٤٤١-٤٥٥
تفسير سورة القلم ٤٥٧-٤٧٣
تفسير سورة الحاقة ٤٧٥-٤٨٩
تفسير سورة المعارج ٤٩١-٥٠٢

المجلد الثامن

تفسير سورة نوح ٥-١٨
تفسير سورة الجن ١٩-٣٣
تفسير سورة المزمل ٣٥-٤٤
تفسير سورة المدثر ٤٥-٦٠
تفسير سورة القيامة ٦١-٧٦
تفسير سورة الإنسان ٧٧-٩٣
تفسير سورة المرسلات ٩٥-١٠٦
تفسير سورة النبأ ١٠٧-١١٨
تفسير سورة النازعات ١١٩-١٣٠

الموضوع	الجزء والصفحة

تفسير سورة عبس ١٣١-١٤١
تفسير سورة التكوير ١٤٣-١٥٦
تفسير سورة الانفطار ١٥٧-١٦٤
تفسير سورة المطففين ١٦٥-١٧٤
تفسير سورة الانشقاق ١٧٥-١٨٧
تفسير سورة البروج ١٨٩-١٩٨
تفسير سورة الطارق ١٩٩-٢٠٥
تفسير سورة الأعلى ٢٠٧-٢١٥
تفسير سورة الغاشية ٢١٧-٢٢٤
تفسير سورة الفجر ٢٢٥-٢٣٨
تفسير سورة البلد ٢٣٩-٢٤٧
تفسير سورة الشمس ٢٤٩-٢٥٨
تفسير سورة الليل ٢٥٩-٢٦٦
تفسير سورة الضحى ٢٦٧-٢٧٦
تفسير سورة الشرح ٢٧٧-٢٨١
تفسير سورة التين ٢٨٣-٢٩١
تفسير سورة العلق ٢٩٣-٣٠٠
تفسير سورة القدر ٣٠١-٣٠٦
تفسير سورة البينة ٣٠٧-٣١٣
تفسير سورة الزلزلة ٣١٥-٣٢٠
تفسير سورة العاديات ٣٢١-٣٢٦
تفسير سورة القارعة ٣٢٧-٣٣٥

الموضوع — الجزء والصفحة

تفسير سورة التكاثر ٣٣٧-٣٤٢
تفسير سورة العصر ٣٤٣-٣٤٨
تفسير سورة الهمزة ٣٤٩-٣٥٤
تفسير سورة الفيل ٣٥٥- ٣٦٢
تفسير سورة قريش ٣٦٣-٣٦٧
تفسير سورة الماعون ٣٦٩-٣٧٥
تفسير سورة الكوثر ٣٧٧-٣٨١
تفسير سورة الكافرون ٣٨٣-٣٨٧
تفسير سورة النصر ٣٨٩-٣٩٦
تفسير سورة المسد ٣٩٧-٤٠٢
تفسير سورة الإخلاص ٤٠٣-٤٠٧
تفسير سورة الفلق ٤٠٩-٤١٨
تفسير سورة الناس ٤١٩-٤٢٦
خاتمة المؤلف والمحقق ٤٢٧-٤٣١
الفهارس العامة لكامل التفسير ٤٣٣- ٤٩٨

المجلد التاسع

منهج العلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، للدكتور خالد محمد حماش ١-٣٨٦
البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل في آيات التنزيل للعلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، للدكتور خالد حمودي العزاوي ٣٨٧-٥٥٢
فهرس محتويات المجلد التاسع ٥٥٣-٥٦٧
فهرس المحتويات الإجمالي لكامل الكتاب ٥٦٩-٥٧٥